الطبيعة في شعر مصر والشام

من

القرن الخامس إلى نهاية الدولة الأيوبية

إعداد

أحمد عطية محمود أبو صعيليك

بإشراف الأستاذ الدكتور

رشـــدي الحســـن

١٩٩٧

الطبيعة في شعر مصر والشام

من

القرن الخامس إلى نهاية الدولة الأيوبية

<u>إعداد</u>

احمد عطية محمود أبو صعيليك

بكالوريس لغة عربية - ١٩٨٩

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة مؤتة تخصص اللغة العربية وآدابها

أعضاء لجنة المناقشة:

	التوقيع
١. الأستاذ الدكتور رشدي الحسن	....
٢. الدكتور علي إرشيد محاسنة	....
٣. الدكتور شفيق محمد الرّقب	....

تاريخ تقديم الرســـالة: ١٩٩٥/٧/٢٢م

تاريخ مناقشة الرسالة: ١٩٩٧/٥/١٧م.

إهداء

إلى روح المرحوم الدكتور حلمي الكيلاني أسكنَهُ الله فسيح جنانه

وإلى . . .

الذين كانوا عوناً لي في تحمل أعباء الدرس والبحث

والديَّ وإخوتي

وإلى . . . .

رفيقة الدّرب . . . . زوجتي

وإلى . . .

شمعتي

شروق وضحى

أقدم هذه الرسالة عرفاناً لما تحملوا وصبروا في سبيل إخراجها

شكر وتقدير

لا يسعني وأنا أخط هذه الكلمات إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور رشدي الحسن على صبره وتوجيهاته التي لولاها لما رأى هذا البحث النور، ولم أستفد منه علماً فقط، بل خلقاً، ومحبة وكرماً، فقد كان نِعمَ الأب الحاني، والأستاذ الموجه.

كما وأتقدم بالشكر من معلمي في جميع مراحل دراستي فلولاهم لما وصلتُ إلى هذه الدرجة.

وأتقدم بالشكر والعرفان إلى كلِّ من وقف إلى جانبي في إخراج هذا البحث، وأخصُّ بالذكر الأخ العزيز إسماعيل مرضي، ونصر أبو سرحان والإخوة القائمين على مكتبة جامعة مؤتة والجامعة الأردنية، والأخ مؤيد الذي طبع هذه الرِّسالة، والقائمين على مطبعة كحلون.

فهرس المحتويات

ملخص البحث

يعرض هذا البحث موضوع الطبيعة في شعر مصر والشام من القرن الخامس إلى نهاية الدولة الأيوبية.

وتكمن أهمية البحث في أنّه يتناول جوانب الطبيعة المختلفة في هذه الفترة، ويكشف بعض جوانب المجتمع وما يدور فيه.

ويقع البحث في تمهيد وخمسة فصول، يتناول التمهيد أثر الإطار المكاني في بعث أشكال الطبيعة المتنوعة في شعر الشعراء، لتكون مدخلاً مناسباً لفصول البحث.

ويعتني الفصل الأول، بمشاهد الطبيعة الحية، ويقع في ثلاثة أقسام، يعرض القسم الأول الحيوانات بأنواعها المختلفة الأليفة منها وغير الأليفة، ويعرض القسم الثاني الطيور الداجنة وغير الداجنة، والقسم الثالث، يعرض الزواحف والحشرات.

ويتناول الفصل الثاني مشاهد الطبيعة غير الحية، ومظاهرها الأرضية والسّماوية، ويعرض الفصل الثالث مشاهد الطبيعة الصناعية التي أوجدها الإنسان لسعادته وراحته.

ويتطرق الفصل الرابع إلى الطبيعة وموضوعات الشعر،وصورة الطبيعة المختلفة في الغزل، والمديح والرّثاء والهجاء والخمرة والمعركة. ويقدم الفصل الخامس الدراسة الفنية لشعر الطبيعة، من خلال اللغة والأسلوب، والصّورة والخيال، والموسيقى، الموروث في شعر الطبيعة.

Summary

This search presents the nautre subject in the poetry of Egypt and Bilad-Assham since the fifth century until the end of the Ayyoubian state.

Its importance is in handing out all the nature sides in this period, and discovers same sides of the community and what is going around.

This search is an introduction and five sections. The introduction talks about the effect of the place in creating the different shapes of the nature in the poetry of poets to be a suitable entry to the sections of the search.

The first section cares about the living sights of nature and it lies in three parts. The first part includes the pet and wild animals. The second part talks about the domestic birds and the none ones. The third part indicates to the insects and reptiles.

The second section hands out the scenes of the nature (unliving ones), and the universe (Earth and sky).

The third section tells us about the nature industrial scenes which man created them for his happiness and comfort.

The fourth section concentrates on nature and poetry - subjects, then the nature-pcitures in words of love, praise, bewailing, dispraise, wine and battle.

Finally, the fifth section presents the technical study to the poetry of nature, through language and method (procedure), the picture and fiction, music and what is inherited in the poetry of the nature.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمنذ اطلاعي على الأدب وتخصصي فيه، وفترة الحروب الصليبية لها وقع خاص في نفسي، لما لها من وحي يبعث المجد والعزة في النفس، فتسمع فيها صليل السّيوف، وصهيل الخيول، وصيحات الفرسان، وهم يذودون عن حياض المسلمين، يسترجعون كلَّ شبر قد اغتصب، وتقرأ في قصائدها النَّفَسَ الذي يبعث في المتلقي عبق الماضي الذي ذهب، وحاضراً تكررت فيه الأسطورة نفسها، وعدواً يتسلح بما تسلحَ به أسلافه من رؤى دينيه، ينشر من خلالها أكاذيبه فأخذتُ على نفسي -إن قيض الله لي أن اكتب في عصر من العصور- أن اكتب في هذا العصر، فأخذت أبحث عن موضوع أكتب فيه رسالتي، وأتصلُ بمن لهم اهتمام بهذا العصر، وأبحثُ عن الذين كتبوا حول هذا الموضوع ممن عنوا بهذا العصر، فوجدتهم قد تناولوا أغلب الموضوعات إلا هذا الموضوع ووصفوه في الغالب بالنزوير القليل، الذي لا يعطي صورة شاملة، فانطلقتُ أُقلب صفحات دواوين العصر، وظهر شعر الطبيعة جلياً في دواوينهم، ولم وبلاد الشام ومصر من واحات البلاد العربية التي أنعم الله عليها بالكثير من الجمال، فلا غرو أن يصور الشعراء بيئتهم وما فيها من مباهج تبعث في النفس الراحة والسُّرور.

ومن خلال هذا البحث يمكن معرفة كيفية تناول شعراء هذا العصر لشعر الطبيعة، وإضافاتهم، ورؤاهم المختلفة عن شعراء العصور السابقة، والمنهج الذي ساروا عليه، وظهور روح العصر الحضارية، والنفس المصرية الشامية ذات الدعابة والفكاهة التي يتحلون بها.

وشعر الطبيعة، لا يختصُ بجانب من الأدب دون غيره، فدارسه يُلمُ بغالبية موضوعات الأدب، لأن شعر الطبيعة غالباً ما يلازمها ويتوزع بين ثناياها، ويتخذ الشعراء منه نبراساً لتشبيهاتهم، يزينون به قصائدهم، فلا قوة تظهر إلا من خلال قوى الطبيعة، ولا جمال لمحبوبة يظهر إلا من خلال جمال الطبيعة حولها، ولا ألم نفسي ينتاب الشاعر إلا نفس بالطبيعة عما في نفسه.

وقد أختططفتُ لهذا البحث منهجاً أستطيع من خلاله أن أستقصي مفردات الطبيعة المختلفة، الطبيعة الحيَّة، والطبيعة غير الحية، والطبيعة الصناعية فتمثل في مقدمة وتمهيد، وُسِمَ بالإطار

المكاني وبواعث شعر الطبيعة، تناول انعكاسات الإطار المكاني على شعر الطبيعة الحية وغير الحية والصناعية وخمسة فصول، اعتنى الفصل الأول بمشاهد الطبيعة الحية، حيوانها الأليف وغير الأليف، وطيورها داجنها وغيره، وزواحفها وحشراتها، وتناول الفصل الثاني الطبيعة غير الحية، بما فيها من ظواهر على سطح الأرض أو أجرام سماوية، وتطرق الفصل الثالث إلى الطبيعة الصناعية وما أبدعه الإنسان من مجالسَ وبركَ ونواعيرَ ومساكن جديدُها وقديمُها، وعرض الفصل الرابع إلى الطبيعة موضوعات الشعر والعلاقة الحميمة بين الإنسان والطبيعة.

وعرضت الدراسة الفنية لشعر الطبيعة في الفصل الخامس، تناولت اللغة والأسلوب، والصورة والخيال، والموسيقى، والتراث في شعر الطبيعة، وأُتبِعَتْ هذه الفصول بتراجم لأهم شعراء الطبيعة الذي ورد ذكرهم في هذا البحث، وخُتِم بخاتمة وقائمة المصادر المراجع.

وقد كان لدواوين شعراء هذا العصر النصيب الأكبر في هذه الدراسة، وخير من مثل شعر الطبيعة في هذا العصر، ظافر الحداد، وابن قلاقس، والحكيم والشريف العقيلي، وطلائع بن رزيك، وفتيان الشاغوري، وابن عنين، وابن الخياط، وابن أبي خصينة، وابن حيوس، وشعراء الخريدة للعماد الأصفهاني ونثار الأزهار لابن منظور، وبدائع البدائه لابن ظافر الازدي، أما الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع الطبيعة، فلم تخص شعر الطبيعة في هذا العصر بدراسة وافية، وإنّما هي إشارات يجدها الدراس مبثوثة في الكتب التي تحدثت عن شعر الطبيعة بشكل عام من مثل كتاب شعر الطبيعة في الأدب العربي لسيد نوفل، وكتاب وصف الطبيعة وتطوره في الأدب العربي للسباعي بيومي، وكتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام لأحمد بدوي.

وهناك دراسات تناولت شعر الطبيعة في عصوره المختلفة من مثل وصف الطبيعة في الشعر الأموي لاسماعيل العالِم، والطبيعة في شعر العصر العباسي الأول لأنور أبو سويلم وشعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني لرشدي الحسن والطبيعة في شعر ابن المعتز لعلي المصطفى، والطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين لحمدي منصور.

وإن شاء الله أن تكون هذه الرسالة الحلقة المكملة لشعر الطبيعة لهذا العصر.

التمهيد

الإطار المكاني وبواعث شعر الطبيعة:

تشكل الشام ومصر إطاراً مكانياً لهذه الدراسة، فهذه الأمصار تحوي الكثير من المتباينات المتناقضة، ففيها الجبال الشاهقة الارتفاع، والأغوار السَّحيقة الانخفاض وفيها الصحاري اللافحة بحرارتها وقسوتها، والسُّهول الغناء بخضرتها واعتدالها، وفيها ما يطيب للعين أن تراهُ، فأينما تجول ترى المتنزهات والحدائق والأنهار تجري بها المراكب، والجبال تكسوها الأشجار وتتراكم فوق قممها الثلوج على مدار العام. وباختلاف تضاريسها اختلفت طبيعة نباتاتها، فمن نباتات لاتنبت إلا في رؤوس الجبال، ومنها ما لاينبت إلا في السهول والأغوار، لذلك جاء وصف الشعراء متنوعاً كلّ حسب بيئته، وجاء الاختلاف انعكاساً واضحاً لطبيعة الناس في الخلق والمزاج ورؤية الأشياء وصدى صورها في نفوسهم.

فمن خلال الإطار المكاني المميز التي تتربع عليه هذه المنطقة نستخلص أهم البواعث التي أدت إلى انتشار شعر الطبيعة في هذا الإقليم، تنتشر في صفحات شعر الشعراء ونلخصها في الآتي:

أولاً: الموقع المميز لمصر والشام والذي يقع في منطقة تحتوي العديد من التضاريس المتنوعة من جبال، وسهول، وصحاري، وأغوار، كلٌّ ذلك أدى إلى تنوع أرجائها وفصولها، فظهرت شجيرات الصحراء إلى جانب الحدائق الغناء، والأشجار دائمة الخضرة، فأدى ذلك إلى تنوع الطبيعة الحيَّة وغير الحية، وظهرت سمات كلّ منهما بوضوح.

ثانياً: كثرةُ البحار والبحيرات والأنهار بين ربوع هذه المنطقة، أدت إلى انتشار واسع للطبيعة، سواء كانت الحية منها كالأسماك أو غير الحيَّة كالأشجار والرّياض والأزهار أو الصناعية كالمجالس والقصور على ضفافها، والمراكب والسُّفن تمخرُ عبابها.

ثالثاً: تنوع تضاريسها من جبال شاهقة إلى أغوار سحيقة، ومن سهول غناء إلى صحراء جرداء، ومن مناطق تكسوها الثلوج وتنهمر عليها كميات كبيرة من الأمطار إلى مناطق لاتكاد تظفر بقطرات من الماء، ولذلك ظهر التنوع في أشعار الشعراء كلٌّ حسب المنطقة التي ينتمي إليها.

رابعاً: الموقع المميز لمدن هذا الإقليم، والاختيار الأمثل لمكانها، فغالباً ماتقع إما على ضفة نهر أو يخترقها نهر، أو تتربع في بطونها البحيرات، أو تقع بالقرب من البحار، فبدت في غاية الحسن، سواء بطبيعتها الحية أوغير الحية أو الصناعية، وكَثُرَتْ أشعارُ الطبيعة التي تتغنى بها.

خامساً: تنوع حيوانها وطيرها، من حيوانات أليفةٍ كالإبلِ والخيلِ والحميرِ والبغالِ إلى حيواناتٍ غيرَ أليفةٍ كالأسود، والذئاب، والنعام، والغزلان والثعالب... إلخ([1]) وبحكم موارد المياه الكثيرة تعددت أنواع الأسماك من اللاش، والإبرميس، والبني، والبلطي، واللوطيس، والسَّمك الرّعادة"([2]) وكذلك تنوعت طيوها من داجنة مثل الدجاج والإوز والحمام والبرية منها مثل الصقر، والعقاب والنسر والكركي، واللغلغ، والإوز التركي، والبجع، والبلشون، والخبزُج، والحَجَل، والكروان، والسُّماني، والبُلبُل، وسائر أنواع الطيور([3]).

سادساً: تنوع أشجارها وأزهارها، وهذا التنوع جاء مرآةً صادقة لتنوع بيئتها وتضاريسها، فكثرت الأشجار بمختلف أنواعها وبيئتها، مثل الرُّطب والعنب والتين، والرمان، والخوخ، والمشمش، والبرقوق، والتفاح، والكمثرى، والسّفرجل واللوز الأخضر، والتوت والفرصاء، والموز، والجوز، والفسدق، والبندق، والإجاص، والزيتون، والأترج، والحمّاض، والكُبّار، والنارنج، والليمون([4]). وتنوعت الأزهار والرّياحين من الآس، والورود، والنرجس، والياسمين والنسرين([5]).

سابعاً: ومن بواعث شعر الطبيعة ايضاً انتشار القصور في مصر والشام وخاصة قصور الخلفاء والأمراء وانتشار المجالس والمتنزهات في مختلف أرجاء هذا الإقليم، وتفنن أصحابها في زخرفتها وتصاميمها.

ثامناً: وللحياة الحربية أيضاً دور في بعض شعر الطبيعة، والتركيز عليه، فكانت الخيول والإبل من الحيوانات التي اعتنى الناس بتربيتها، للرد على الصلبيين، وخوض المعارك، وحمل المؤن والعتاد،

([1]) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٦، ج٤، ص٩١.

([2]) انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٣٤.

([3]) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٧.

([4]) النظر المصدر السابق: ج٣، ص٣٤٤، ج٤، ٩٠.

([5]) انظر المصدر السابق: ج٤، ٩١.

فتبارى الشعراء في وصفها، وبيان صفاتها التي تميزها، وكذلك كان للحياة الحربية الدور الرئيس في إظهار الطبيعة الصناعية من مراكب، وسفن، وقلاع وحصون، ووصفها قائمة على سوقها، أو ساجدة على أعقابها.

تاسعاً: ومن بواعث شعر الطبيعة أيضاً، شعر المديح، واتخاذ الشعراء المقدمات الطبيعية المناسبة للدخول إلى مدح الممدوح، وتكون مدخلاً مناسباً للوصف الذي يريد الشاعر أن يمدح به، ومقارنة الممدوح بالعديد من الأوصاف والصفات التي ينتزعها الشاعر من الطبيعة لتوافق صفاته.

عاشراً: ومن البواعث أيضاً غربة الشعراء عن أوطانهم، ومدنهم التي درجوا على بساطها، فعندما يتحدث الشاعر عن وطنه يحاول أن يصبغ عليها آيات الجمال، فيذكر ما تمتاز به من طبيعة شذية جميلة ومنهم من يتخذ من الطيور مناجياً يتحدث من خلاله عن الوَجْد والألم الذي يعصر قلبه، ومن خلال هذا اللون من الشعر ظهرت صورة الليل وما يحوي من نجوم وكواكب.

حادي عشر: الاتباعية للعصور السابقة، ومحاولة مجاراتهم في نظمهم وأسلوبهم وطريقتهم إذ وصف شعراء هذا القرن الأطلال، والرِّحلة، والظعن والصحراء، والراحلة، حتى ولو لم يعيشوا تلك اللحظات التي عاشها من سبقهم من شعراء العصور المختلفة.

ثاني عشر: ومن البواعث أيضاً: مباراة الشعراء فيما بينهم في وصف منظر معين، فيقدم كلُّ منهم صورته وعواطفه، وقد كثر هذا النوع من الشعر في هذا العصر، من يتصفح كتاب بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي يجد الكثير من هذا النوع من الشعر.

الفصل الأول

مشاهد الطبيعة الحية

الفصل الأول

مشاهد الطبيعة الحية

حبا الله الطبيعة في مصر والشام بالتنوع في حيوانهـا، وطيرهـا، فـالمراعي خصبـة، والمـاء وفير، والجو معتدل، والأنهار تنتشر على مساحاتها الشاسـعة، فـالنيل فـي مصـر، وبـردى والعاصي والأردن وثورا[١] في الشام، فلذلك وجدت الطبيعة التي تصلح أن تكون مأوى للحيوانات والطيور.

واعتمد الإنسان في هذه المنطقة على حرفـة الزراعـة فـي كسـب قوتـه، ولـم يـأنف مـن هـذه المهنة، أو ينظر إليها نظرة دونية، فبدت المنطقة واحة خضراء، يعيش في كنفها كثير من الحيوانات والطيور[٢] فجميع الحيوانات في هذه البيئة يستفاد منها، إما لحمل المتـاع فـي الحـل والترحـال، وإما للاستفادة من لحومها وألبانها: أو الحراسة والصيد، أو للترفيه عن النفس.

ولحروب التحرير التي شنَّها المسلمون على الصليبيين، الأثر الأكبر في الالتفات إلى الاعتناء بتربية الخيول، لخوض المعـارك، وصـد هجمـات الأعـداء، فنجدهـم يحرصـون علـى تربيـة الأنـواع الجيدة، ذات الأصول الكريمة، ولذا التفت الشعراء إلى التفنن في وصفها، والتغني بجمالها وأصواتها، وقوة تحملها، ونشاطها، باعتبارها من الأشياء المهمة في المعركة. أما الناقة فهي الصديق الوفـي فـي الحلّ والترحال، تحزن لحزن صـاحبها، وترجزُ إذا غنَّـى، وتكظـم غيظَـهـا وألَمَـهـا وعطشَـهـا، وتصـبر لتزيده صبراً، يقطع بها الفيافي الشاسعة، فلاتملُّ ولاتكلُّ، لذلك كـان يـرى الشـاعر فيهـا بعـض آلامـه وأحزانه، لعلها تحمل جزءاً من تعب نفسه، وتوصله إلى مراده في بلوغ أبواب العطاء.

وبلاد الشام ومصر وما فيها من الأنهار والبحيرات، واعتدال طقسها، وتنـوع مناخهـا، تدخل طبيعتها المباهج والمسرات والملذات في نفوس سكانها ومن يؤمها، فيحس الشاعر بجمـال مـا حولـه، ويوظف الكلمة الشجية فـي رسـم ألحـان الطيـور وألوانهـا وحركاتهـا، بيـن حفيـف الأوراق وقطـرات الندى.

---

[١] ثورا: اسم نهر عظيم في دمشق.

[٢] أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشـام، ط٢، دار نهضـة مصـر للطباعـة والنشـر، القاهرة ١٩٧٩، ص٢٠.

أولاً: الحيوان:

الحيوانات في إقليمي مصر والشام. متنوعة وكثيرة، لتنوع مناخها، من جاف إلى معتدل إلى بارد، وتنوع تضاريسها من صحراء إلى جبال إلى هضاب إلى سهول، من مناطق يكثر فيها الماء والكلأ، إلى أرض قاحلة لا ماء فيها ولاشجر، فكثرت حيواناتها وتنوعت بين الأليفة كالخيل والجمال والكلاب والحمير والبغال، وغير الأليفة كالأسود، والفهود، والذئاب، والأسماك وغيرها.

أ. الحيوانات الأليفة:

١. الخيل:

ازداد الاهتمام بالخيل في هذا العصر، وأكثر الناس من الاعتناء بها، لكثرة الحروب الدائرة بين العرب والصليبيين، فالخيل عنصر مهم في ساحة المعركة، فمطاردة الأعداء، وشن الغارات، وبعث العيون، لمعرفة أحوال العدو، وغير ذلك يحتاج إلى هذا الحيوان السريع؛ لذا فقد اهتم الشعراء بوصف الخيل، وأكثروا من تعداد صفاتها، وبيان مواطن الحُسْن والجمال، والرشاقة والقوة والنشاط، ومازجوا بينها وبين البشر، واضفوا عليها من صفات البشر الشيء الكثير، حتى ليشعر المرء أنَّ الشاعر يغازل فتاة فاتنة القدّ رشيقة القوام. واستقصى الشعراء كثيراً من مظاهر الخيل وصفاتها المادية والمعنوية، فأكثروا من وصف ألوانها على نحو ما نرى في قول أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت مصوراً لون حصانه الأشهب مازجاً بينه وبين لون الشهاب عندما يلمع في دجى اللّيل،يقول:

وأشهبُ كالشهاب أضحى ... يلوحُ في مذهبِ الجلالِ
قال حسودي وقد رآهُ ... يخبُّ خلفي على التقالِ
من ألجم الصبح بالثريا ... واسرجَ البرق بالهلالِ[٣]

وقول الشاعر الحكيم مشيراً إلى اللون الأحمر، وواصفاً فرساً أحمر غرتُها بيضاء مازجاً بين غُرتها ولون الصّباح، وحمرة الورد وجسم الحصان يقول:

---

[٣] الحكيم (أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت ت ٥٢٩هـ): ديوان الحكيم، ط١، دار بوسلامة، تونس، ١٩٧٩، ص١٣٣.

كأنّ الصّباح الطلقَ قبَّلَ وجْهَهُ ... وسالَ على باقيهِ صافيةَ الخمرِ
لما رآه الوردُ يحكيهِ صبغةً ... تعاظمَ واستعلى على سائرِ الزهرِ[٤]

وقول الشريف العقيلي في إظهار اللون الأدهم المحجل في حصانه:

وسابق مِنَ الجياد أدهمِ ... محجّلٍ أغرَّ نَهْدٍ مُفْعَمِ [٥]

ويقدم الشاعر يحي بن سلامة حصانه في صورة فنية جميلة، وقد ارتدى عباءة من الظلام، وخاض في ضوء الصّباح، ليبين لون السَّواد الذي يخالطه شيء من البياض يقول:

ومحجّلٍ لبسَ الظلا ... مَ وخاضَ في جسمِ الصَّباحِ
يحوي بحسنِ سوادِهِ ... فضلاً على البيضِ الملاحِ[٦]

واستعار الشعراء لون الغراب لإبراز لون خيولهم الأسود، ومازجوا بين ألوانها ولون الغراب للتدليل على لون السّواد، يقول ابن قلاقس:

وأدهَمُ كالغراب سوادَ لون ... يطيرُ مع الرّياح به جناحُ
كساه الليلُ شملَتَهُ وولى ... فأقبلَ بين عينيه الصبّاحُ[٧]

ومن الأبواب التي طرقها الشعراء عند ذكر ألوان الخيول، الأثر الذي تتركه هذه الألوان في النفس، فجعل منها باباً يذهب الهمّ، ويبعد الملل، فاختار منها ابن قلاقس اللون الأدهم، والأشقر، والأحمر القاني، ليسري بها عن نفسه ويذهب همها، يقول:

أو بجواد أدهم مُحَجَّلِ ... يسيرُ كالبرق إذا البرقُ بدا
أدهمُ كالليلِ وفي غرتِهِ ... لناظر ينظرُهُ بدرُ دجى

---

(٤) المصدر السابق: ص٩٥. تعاظم: كَبُرَ.

(٥) العقيلي (علي بن الحسين ت ٤٥٠هـ): ديوان الشريف العقيلي، تحقيق، زكي محاسني، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ج٢، ص٢٦٣، محجل: في قوائمه بياض.

(٦) العماد الأصفهاني (عماد الدين أبو عبدالله محمد بن صفي الدين ت٥٧٥هـ): خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شكري فيصل، ط١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩، شعراء الشام، ج٢، ص٥١٠.

(٧) ابن قلاقس (أبو الفتوح نصر الدين بن عبدالله بن مخلوف ت ٥٦٧هـ): ديوان ابن قلاقس، تحقيق، سهام الفريح، ط١، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٨، ج٣، ص٦٠٧، شمله: كساه، غطاه، ولى: هرب.

أو فعلـــى نهـــد ســـريع أشقَـــرَ يَنْقَـــضُّ كـــالنجم إذا النَّجـــمُ هـــوى
أو أحمـــرَ قـــانٍ كـــأنَّ جلـــدَهُ بـــالدَّمِ مصبـــوغٌ إذا أقـــبُّ الكُلـــى[٨]

ولعلَّ من الأمور الطَّريفة التي التفتَ إليها الشعراء، واعتنوا بتحويلها إلى صورة شعرية، صوت الخيل، فقد أثار هذا الصوت شاعريتهم، فرأوا فيه نغماً موسيقياً تمثلوا به، فهذا ابن قلاقس يجمع بين الصوت والصورة في قوله:

فلأتركـــنَّ اللهـــو عنـــي جانبـــاً ولأرحلَـــنَّ علـــى جـــواد أدهـــم
هـــزج الصّهيـــلِ كـــأنَّ فـــي حُلقومِـــهِ جرســـاً واســـود كـــالغراب الأسـحَمِ[٩]

وصهيل الخيل عند يحيى بن سلامة من دلائل النَّشْوَةِ عندها، على نحو ما نرى في قوله:
غنَّى وَطرَّب بالصَّهيلِ وَظَلَّ يرقُصُ للمراحِ[١٠]

ونسب الخيول من الأمور التي اعتنى بها الشعراء وسجلوها في أشعارهم، ليدللوا بذلك على أصالة هذه الخيول، على نحو ما نرى في قول ابن حيوس:

إلى الرِّيحِ تعزى حين تجري فإن مَشَتْ رويـــداً فجداهـــا الوجيـــه ومذهـــبِ[١١]

ولبلائها في المعركة وصبرها صبر الجنود، وتقدمها عند الطعن، جعلت ابن الساعاتي يري فيها صورة الخيول العربية التي اشتهرت عند العرب، يقول:

---

[٨] المصدر السابق: ج١، ص٢٩٠. الأقب: ضامر البطن، النهد: المرتفع.

[٩] المصدر السابق: ج١، ص٢٩٤، الصهيل: صوت الخيل.

[١٠] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٥١٠.

[١١] ابن حيوس (ابو الفتيان محمد بن سلطان الغنوي الدمشقي ت٤٧٣هـ): ديوان ابن حيوس، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤، ج١، ٣٨، الوجيه ومذهب: خيل لغني بن أعصر بن سعد، انظر أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها لابن الكلبي، تحقيق، أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٦، ص٢٢.

وجيهيـــة الأنســـــاب تدمـــي نحورهـــا   مـــن الطَّعـنِ عــن أكفائِهــا الأيــاطلِ[١٢]

وكما صور الشعراء الخيل بصورها المادية المختلفة، التفتوا إلـى الصفـات المعنويـة فربطـوا بين الخيل والنصر، متفائلين بها، وبحسن طالعها، وفـي هـذا يقـول الرسـول ﷺ "الخيـل معقـود فـي نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة"[١٣] والقاضي الفاضل عنـد رؤيتهـا تحـت ركـائب فرسـانها فـي سـاحة المعركة، يتفاءل بالنصر، ويُهيِّئُ إليه أنها تبشّره بالنّصر وهزيمة الأعداء، يقول:

لهــا غُــرَرٌ يسـتضحكُ النَّصــرُ وجههــا   وتُفْهَـمُ منهــا العيـنُ معنــى البشــائرِ[١٤]

ويرى يحيى بن سلامة فـي حصانـه، مَجْلَبَـةً للنصـر، والتفـاؤل عنـد رؤيتـه بالنجـاح وَحُسْنِ الطالع، يقول:

وتــــــرى بغرتِــــــهِ إذا   قابلْتَـــــهُ علـــــم النجـــــاحِ[١٥]

ومـن الصفـات التـي اهتمَّ الشـعراء بإبرازهـا فـي خيلهـم، ودارت علـى ألسنتهم وَسْمُ خيلهـم بالأخلاق الحسنة والتهذيب، فالشاعر يحاول أن يبعد عن خيله صفة العناد والمشاكسة، مضفياً عليها صفة الانقياد والمطاوعة لصاحبها، يقول ابن أبي حصينة:

ســلسُ القيــادةِ كــأنَّ فَضْـلَ عنانِــه   ممــا يليــنُ مُركَّـــبٌ فـــي لولـــبِ[١٦]

وينفي ابن أبي حصينة عن فرسه صفة ضيق الخلق والضعف، يقول:

---

(١٢) ابن الساعاتي (بهاء الدين علي بن رستم بن هرودوز ت٦٠٤هـ): ديوان ابن الساعاتي، تحقيق، محمد عبدالحق، ط١، مطبعة دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥، ج١، ص١٦٣.

(١٣) النووي (محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النـووي الشافعي ت٦٧٦هـ): ريـاض الصـالحين فـي كـلام سيد المرسلين، تحقيق، عبدالله أحمد أبو زينة، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ١٩٧٠، ص٣٨٤.

(١٤) القاضي الفاضل (عبدالرحمن بن علي البيساني ت ٥٩٦هـ): ديوان القاضي الفاضل، تحقيق، أحمد بدوي، ط١، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦١، ج١، ص٢٣٧.

(١٥) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٥١٠.

(١٦) ابن أبي حصينة (الأمير أبـي الفتـح الحسن بـن عبداللـه ابـن أبـي حصينـة السلمي ت ٤٥٧هـ): ديوان ابن أبي حصينة، تحقيق محمد أسعد طلس، ط١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٦، ج٢، ص١٠.

مُـــــوَدَّبُ الأعضـــــاءِ مُستحَســـــنٌ ماشــــينَ بــــالبهر ولا بالجمـــاحِ[١٧]

أما حصان ابن قلاقس، فتتوافر فيه الصّفات المادية والمعنوية الحسية، يقول:

وافـــي الضُّلـــوع مهـــذبٌ فـــي جنســـهِ جـــذلانُ كالنشـــوان حُـــسرٌ أدنَـــمِ[١٨]

ولعلَّ السُّرعة في الخيل صفة محببة فيها، فقد طلبها الشعراء، وأفردوا لها حيزاً كبيراً في شعرهم، واستعاروا لها صفات كثيرة من الطبيعة ومن أغرب الأوصاف التي وصف بها الشعراء سرعة خيولهم، وصف المضيف لسرعة جواده، بأنّه يسبق الوهم أو الخيال، يقول في ذلك:

كـــم جـــوادٍ يســـق الوهْـــمَ فمـــا يقتفيـــــه الوهـــــمُ إلا تَبَعـــــا
راهنَـــــتْ أوظافَـــــهُ الحاظـــــهُ ثـــم جـــاءا غايـــةَ السَّـــبْقِ[١٩]

وتفنن الشعراء في اختيار الصورة المثلى لسرعة خيلهم، فالشريف العقيلي يرى سرعة حصانه كسرعة المحب هجر محبوبته يقول:

أســـرع مـــن هجـــر إلـــى متيـــم ترقـــى العـــلا منـــه بـــأقوى سُـــلَّمِ[٢٠]

أما علي بن ظافر فيصور سرعة حصانه وهو يقطع الأرض بلمح البصر يقول:

وأشـــــهب يقطـــــع عُـــــرْ ضَ الأرض فـــي لمـــح البَصَـــر[٢١] .

واستعار الشعراء من الطيور سرعتها لبيان سرعة خيولهم، ومن ذلك وصف ابن قلاقس لسرعة الخيل بسرعة الشواهين التي ركّبت الرّيح في ريشها لحظة قنصها فريستها:

---

[١٧] المصدر السابق: ج٢، ص٢٥٨، البهر: ضيق الخلق والقهر والغلبة. الجماح: الكبو.

[١٨] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٩٤، جذلان، فرح، النشوان: السكران.

[١٩] الأصفهاني: خريدة القصر، تحقيق شوقي ضيف، أحمد أمين، إحسان عباس، قسم مصر، ج١، ص٢٩٢.

[٢٠] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٦٣.

[٢١] ابن ظافر الأزدي (علي بن ظافر الأزدي ت٦١٣هـ): بدائع البدائه تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص٣١٩.

وخيـــول مثـــل الشـــواهين يقتصنـــــ ـــنَ فَقُـــلْ بـــاطلاً وقـــل أبطـــلا
كلّمـــا حَوَّقَـــتْ أدارتْ جناحـــاً عـــدٌ فـــي ريشـــه الصَّبـــا والشَّـــمالا[٢٢]

أما العماد الأصفهاني فيجعل قوائم خيله كقوادم أجنحة النسور، ليصور مدى سرعتها وسبقها يقول:

والمقربـــــاتُ بأنْسُـــــرٍ وقوائـــــمٍ تحكـــي قوادمُهـــا قـــوادمَ أنسُـــرِ[٢٣]

وسرعة الخيل وسرعة الرِّيح عند ابن حيوس لافرقَ بينهما، بل تربطهما وشائج قوية يقول:

إلى الرِّيح تعزى حين تجري فإن مشت رويـــداً فجداهـــا الوجيـــه ومذهـــب[٢٤]

أما ابن سناء الملك، فيرى البرق وقد لحقته غُصَّةٌ لما رأى سرعة حصانه يقول:

كـــم غصّـــةٍ للـــبرق مـــن أجلـــه فليـتَ شـعري كيـف حـال السَّـحابِ[٢٥]

أما صفات القوة والنشاط والحيوية، فقد وقف عندها شعراء هذا العصر، وتغنوا بها في أشعارهم، فرأى ابن أبي حصينة خيله تحفر الصفا بحوافرها، وتجعل الصَّلدَ من الصُّخور جندلاً، وتُحوِّل الصُّخور تحت حوافرها إلى تراب، ويتطاير من حوافرها الشرر فيضيء عتمة اللّيل يقول:

---

[٢٢] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٧٢، الشواهين: نوع من العقبان، الصبا والشمالا: نوعان من الرياح.

[٢٣] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٣٤، وانظر خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٩٢.

[٢٤] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٣٨.

[٢٥] ابن سناء الملك (القاضي السعيد عز الدين أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن محمد ت٦٠٨هـ): ديوان ابن سناء الملك، تحقيق، محمد عبدالحق، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥، ج١، ص٢٣.

وخيـــل يحفـــرْنَ الصّفـــا بحوافـــر　　　يلقيــن منهــا جنـــدلَ القـــاعِ جنـــدلا
إذا مـــا قدحْـــنَ النـــارَ مِـــنْ كـــلِّ جَـــرْوَلٍ　　　يضئْنَ بهـا فـي ظلمـة الليـل مشـعلا[٢٦]

والخيول القوية النشيطة في نظر ابن حيوس تتساوى عندها الجبال والسّهول فلا تتأثر ولاتضعف، وكلُّ ذلك لإبراز مدى ما تتمتع به هذه الخيول من قوة وحيوية يقول:

خيـــلٌ إذا ركضـــتْ تســـاوى عندهـــا　　　بيـن كـلِّ أرض وَهْدُهـا وهضابُهـا[٢٧]

ولأهمية الخيل في ذلك العصر، أقدم الناس المُوْسِرُوْنَ يبعثون بها هدايا للشعراء، على نحو ما نرى في قول ابن أبي حصينة، وقد أُهديَ إليه خيول قوية وسريعة شديدة المراس، قد حُمِّلتْ إليه بالمعادن الثمينة يقول:

يــا ســاكِنَ القَصْــر المجَــدّدِ للعُــلا　　　يهنيـــك أنعـــامُ الإمـــامِ مُجَـــددًا
قـــبٌ مـــن الخيـــل العتـــاقِ ضوامـــرٌ　　　قِيْـــدَنَ مُحَمَّلـــةً إليـــك العســـجدا
أوهـــى مناكبهـــا الحُلِـــيُّ كأنّمـــا　　　يمشّـى الجـواد بمـا عليـه مُقيَّـدا[٢٨]

ومن الشعراء من اتخذَ مـن صـورة الخيـل الهزيلـة. وسـيلة للتكسُّبِ والعطـاء، وشـرح حالـة البؤس والفقر والعوز التي يحياها، ومن ذلك قول البهاء زهير موضحاً ذلك:

ولـــي فـــرسٌ أتـــتَ العليـــم بحالهـــا　　　وبـــالرغم منـــي رَبْطُهـــا ومُقامُهـــا
ولـــم يُبْـــقِ منهـــا الجهـــدُ إلا بقيـــةً　　　فيغـــدو عليهـــا أو يـــروحُ حِمامُهـــا
شـــكتني لكـــلِّ النـــاس وهـــي بهيمـــةٌ　　　ولكـــن لهـــا حـــالٌ فصيـــحٌ كلامهـــا
إذا خرجَـــتْ تحـــت الظـــلامِ فلاتُـــرى　　　مـــن الضّعـــف إلا أن يُصَـــكَّ لجامُهـــا
وليســـت تراهـــا العيـــن إلا عبـــاءةً　　　يُشَـــدُّ عليهـــا ســـرجُها ولجامُهـــا
لها شربةٌ تراها في كلِّ يوم من الطَّوى　　　ولـــو تركتُهـــا صَـــحَّ منهـــا صيامهـــا

---

[٢٦] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٥٣، الصّفا: العريض من الحجارة الأملس، الجندل: الحجارة: صخرة مثل رأس الأنسان، جرول: الحجارة مع الشّجر.

[٢٧] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٣٨، وهدها: ما استوى من الأرض.

[٢٨] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٩٨، العسجد: الذهب.

وعهـدي بهـا تبكـي علـى التبـن وَحْـدَهُ فكيـفَ علـى فقـد الشـعير مقامُهـا[٢٩]

فالشاعر أضفى صفات الفقر والهزال والجوع التي يحياها على فرسه، لينال العطاء من السلطان، ويُنْعِمَ عليه بالمال الذي يَسدُّ به رَمَقَهُ.

فمن خلال هذه الشواهد الشعرية، نجد أنَّ شعراء هذا العصر قد أحاطوا بأوصاف الخيل الرئيسة، فوضعت في قوالب تمس حالتهم الاجتماعية، ووقتهم، وحروبهم، وترحالهم فوصفوا اللون والصوت، والحركة، والنشاط والقوة، والهيئة، وكرم الأصل، والأخلاق، والسرعة، وغيرها من الأوصاف.

٢. الإبل:

اهتم العرب بالإبل اهتماماً خاصاً، وقدّموها على غيرها من الحيوانات، وأكرموها، وحافظوا عليها، وأضفوا عليها ما في نفوسهم من حزن وأسى، واتخذوها رمزاً لهم في التحَمُّلِ والصَّبر، كلُّ ذلك وهم يرقبونها ويتمعنون فيها، فوجدوها "تظمأ فلاتشكو الصدى، وتجوع فلاتظهر الأسى، وتقطع الصحاري في الصبر الجميل والوفاء الكريم"[٣٠] تحن له في وحدته ووحشته، يغني لها فتشاركه في آلامه وأحزانه، ينشدُ لها القصيد فتراها تتراقص على بساط الرِّمال المترامية الأطراف، يشرب حليبها إذا عطش، ويأكُلُ لحمها إذا جاع، يقدمها لضيوفه إذا ضاقت به سُبُل العيش ولم يجدْ ما يَسُدُّ به رمقهم، يدفع بها ديَّة قتيلة، وتحمله إذا حمي وطيس المعركة، ودقَّ القومُ عطر مَنْشَمِ، فتشاركه آلام النبال والسيوف والرماح، كلُّ ذلك وهي صابرة صبر الجبال، منقادة انقياد الرَّفيق للرفيق.

ولهذا لم يكن وصف العربي لإبله وصفاً عابراً، بل فصَّلَ في صفاتها، فلم يترك صغيرة ولاكبيرة في جسمها دون وصف، ولم يفته الوصف الرُّوحي لها، فَصَبَّ عليها حزنه وغربة نفسه ووحدته، وأخذ يناجيها مناجاة الأمِّ لوليدها، ويحنو عليها حنوَّ الأبِّ على ولده، لأنَّهُ نظر إليها فوجدها لاتعصى له أمراً، ولاتُكدِّرُ له خاطراً، إذا أناخها أناخت، وإذا سيَّرها سارت، لاتُظْهِرُ له ألم الشدة

---

[٢٩] البهاء زهير (ابي الفضل زهير بن علي بن يحيى ت٦٥٦هـ): ديوان البهاء زهير، تحقيق، محمد طاهر الجيلاوي، محمد أبو الفضل، ط٢، دار المعارف، ١٩٨٢، ٢٢٩، الطوى: الجوع.

[٣٠] عبدالعظيم علي القناوي : الوصف في الشعر العربي، ط١، مطبعة مصطفى الباني الحلبي، مصر، ١٩٤٩، ج١، ص٥٩.

والمشقة والإرهاق، فأخذ بوصف العين حينما تدمع، والأذن حينما تسمع، ووصف سيرها في وخدها وإرقالها، ووصف صبره من خلال صبرها، وألمه من خلال ألمها، وجوعه من خلال جوعها، وحنينه من خلال حنينها، وغربته من خلال غربتها.

ولم تكن هذه الفترة بالمنقطعة عن العصور السابقة، بل حلقة مكملة لحلقات هذه الأمة، فنجد الإبل لها الدور الكبير في نقل الجنود والعتاد(٣١) إلى ساحة المعركة وتقطع الفيافي والقفار حاملة المسافرين بين حاضرتي الأمة مصر والشام فأصبحت من أكثر الحيوانات التصاقاً بالناس، ولذا نجد الشعراء يتسابقون في وصفها فوصفوا سرعتها، وصبرها، وقوة تحملها، ونجابتها وأجزاء جسمها، وكبر حجمها.

وقد وصف الشعراء سرعتها، فشبهوها بالفحول العربية الأصيلة، والرّياح القوية المثيرة للتراب، والسّهام التي تطلقها القسي إلى الأهداف يقول ابن حيوس:

أنكرتْ شدقماً وألغتْ جديلاً ... معرباتٌ عن الرياح السّواقي
فانبرت كالقسيّ بل كسهامٍ ... وصلتها القسيُّ بالأهدافِ
حيث لاتدركُ السّنابكُ ركضاً ... بعض ما أدركته بالأخفافِ(٣٢)

وركزوا على صورة البرق بياناً لسرعتها، فابن أبي حصينة يشبه سرعة إبله إذا جدّتْ في السّير بالبرق، أما إذا تمهلت فهي براق يقول:

أما إذا جدَّ النجاء فإنّها ... برقٌ وأما إن ونَتْ فبراقُ(٣٣)

أما صبر الإبل، وقوة تحملها للمشاق، فلم يغفل عنه الشعراء، بل أظهروا هذه الصفة في إبلهم، لتكون الجانب الآخر لوصف نفوسهم، فيبدو صبرهم وتحملهم من خلال صبرها وتحملها، وعطشهم وجوعهم من خلال عطشها وجوعها، فهذا ابن أبي حصينة يصف ناقته كمتن السيف عطشى، يلفها السّراب من كلّ جانب، وهي صابرة محتملة كل ذلك:

---

(٣١) انظر ابن شداد (القاضي بهاء الدين ابن شداد ت ٦٣٢هـ): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص٢١١.

(٣٢) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٨٨.

(٣٣) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٨٨.

وظامئـة مثـل متـنِ الحسـامِ كـأنّ عليهـا الآلَ بَـسْمْ
طوينـا بهـا سـرورَ الناجيـات طـيَّ الأسـاودِ تحـت الرَّجـمْ[٣٤]

وتبدو ناقته من طول السرى كأنّها القسيّ أو الجريد، محتملة في ذلك التعب والجوع والمعاناة، يقول ابن أبي حصينة:

كأنّهـا مـن الوجيـف والسُّـرى قسـيُّ رامٍ أو جريـدٌ جُـرْدا[٣٥]

ومن الصفات التي تطرق إليها الشعراء لإبراز الصورة المثلى لإبلهم، عظم حجمها، فشبهوها بالهضاب، والجبال، والنخيل، والسّفين، ومن ذلك وصف ظافر الحداد لإبله بالسفين التي تلفها الأمواج من كل جانب، فتبدو متأرجحة بينهما، يقول:

تطفـو وترسُـبُ فـي السَّـراب كأنّهـا سُـفُنٌ مشـرَّعةٌ علـى أمـواج[٣٦]

ويشبهها ابن أبي حصينة بالنخيل علواً، وبالسّفين حجماً وتموجاً، وكلّ ذلك ليدلّل على عظم حجم الناقة وعلوّ هودجها، يقول:

مثـل النخيـل المشـمخرّ زَهـتْ بـه عنـد الصَّبـاح أواعـسٌ وبُـراق
أو كالسُّـفين فلايكـون عُبابُـهُ إلا الضحـى وَسَـرابُهُ الخفّـاق[٣٧]

واتخذوا من صورة البحر واضطراب السّفن على سطحه، صورة للصحراء وسرابها المتماوج أمام ناظريهم، ومشية الإبل على سطحها، والسراب يلفها من كلّ جانب.

ويتخذ الملك الأمجد من هضاب رضوى، صورة للتدليل على عظم حجم إبله، وهو يختارها على هذا الحجم حتى لاتخذله في مسيره إلى المنازل والدّيار يقول:

---

[٣٤] المصدر السابق: ج٢، ص٦٣، الأساود: الثعابين.

[٣٥] المصدر السابق: ج٢، ص١٨١، وانظر ابن حيوس، جيوانه، ج٢، ص٣٨٥، السُّرى: السير في الليل.

[٣٦] ظافر الحداد (ظافر بن القاسم بن منصور ت٥٢٨هـ): ديوان ظافر الحداد، تحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٦٩، ج٢، ص٧٦.

[٣٧] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج١، ص٨٥، مشمخر: عالي. الأواعس: الرمل اللين.

أثرهـــا كالهضـــاب رضـــوى   تـــؤمُّ بكـــم المنـــازلَ والمرابـــعْ[٣٨]

والشعراء في وصفهم للإبل، طلبوا لها الأصول الكريمة المعروفة عند العرب بالنجابة، والتي تتمتع بصفات تميزها عن غيرها من الإبل، فابن أبي حصينة عندما أراد قطع الصحراء اختار لذلك إبلاً ذات أصول معروفة عند العرب بالسرعة يقول:

لـو شـئتَ نجَّتْـكَ منهـا كـلُّ ناجيـةٍ   مرقالـة بنـتُ سـامي الطـرف مرقـالِ[٣٩]

أما ابن حيوس، فيفضلها على الخيول العربية، حتى الإبل العربية ذات الأصول المعروفة بدت تطلبها لنجابتها وحسن صفاتها فيقول:

صـالَتْ علـى الجـردِ السـلاهب بسـطةً   حتـى ادَّعاهـا شـدقَمٌ وجديـلُ[٤٠]

وصور الشعراء الناقة بالرّفيق المخلص إذا جنَّ عليه الليل، وتعاورته المحنُ ولفتهُ الصحراء من كلِّ جانب، فلم يجد من يطلبه النجاة سوى ناقته، يقول ابن أبي حصينة:

نعـم الرّفيـقُ إذا المفـاوز لـم يكـن   فيهـن لـلرَّجُلِ الوحيـد رفـاقُ[٤١]

ويربط الشاعر بين الناقة ونفسه، إذ يسقط عليها همومه وما في نفسه من آلام وأحزان، فأسامة بن منقذ التي كَوَتْ الغربة قلْبهُ، واعتلجَتْ الأشواقُ فؤادَه، لايجد إلا ناقته ليُحمّلها جزءاً من تبعه، ويعقد مقارنةً بين مصابه على أهله ومصابها في إلفها يقول:

يانـاقُ، شَـطَّت دارُهُـمْ فحنـي   واعلنـي الوجْـدَ الـذي تَجِنِّـي
مـا أرزمـت وهنـاً لفقـد إلفهـا   إلا رَمَـتْ جوارحـي بوهَـنْ
تَذكَّـرَت إلافهـا فهيَّجَـتْ   لاعـج شـوقي وذكَّـرتُ خدنّـي
حَسْـبُكِ قـد طـال الحنيـن والأسـى   ومـا أرى طـول الحنيـن يغنـي

---

(٣٨) الملك الأمجد (بهرام شاه بن فرخ شاه بن أيوب ت ٦٢٧هـ): ديوان الملك الأمجد، تحقيق، ناظم رشيد مطبعة وزارة الأوقاف، العراق، ط١، ١٩٨٣، ص١٢٥، هضاب رضوى: مجموعة من الهضاب في الحجاز.

(٣٩) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٨٠، المرقالة: الإبل السريعة.

(٤٠) ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ص٣٩٨، الجرد والسلاهب: الطويلة على وجه الأرض، شدقم وجديل: فحلان من الأبل كانا للنعمان بن المنذر، وقيل نسبة إلى جديلة طي، وقيل جديل فحل لمهرة بن حيدان.

(٤١) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣١٨.

ولاتَمَلَّــي مــن مَسِـيرٍ وسُــرىً ... فــي مهمــة ســهْلٍ ووعــرٍ وَحَــزْنِ
حتــى تُنــاخي تحْـت بانــات الحمــى ... سـقى الحمــى وألبـانُ صـوبُ المُــزْنِ
أهــوى الحمــى وأهْلَــهُ وبانَــهُ ... وإن نــأيتُ وتنــاءوا عنـــي(٤٢)

واتّخِذَت كذلكِ وسيلة من الوسائل التي يستطيع الشعراء من خلالها بيان كرم ممدوحيهم، وقد صرح ابن حيوس بذلك عندما أعاد الفكرة الجاهلية من أن العرب كانت تعقر الإبل في سنين القحط والجوع، دلالة على أعلى مراتب الكرم التي كانت العرب توصف الكرام بها، يقول:

والجاهليــةُ كلُّهــا كــانت تــرى ... عقر القلوصِ ندىً إذا المَحْلُ اعترى(٤٣)

وفي لوحة أخرى يصور لنا فتيان الشاغوري عِظَمَ كرمِ ممدوحه، وهو ينقل لنا حالة الذعر والخوف التي تعيشها إبل الممدوح في مرابطها لعلمها بنهايتها المحتومة يقول:

كــلُّ امــرئٍ مُنْصُلُــه ... مُنْصَلــتٌ ليعقــرا
وللعشـــار ضَجَّـــةٌ ... مخافــة أن تنحــرا(٤٤)

ويعقد فتيان الشاغوري مقارنة للتدليل على عظم كرم ممدوحه وشجاعته في أحوال السلم والحرب، فنراه يجزُّ رقابَ الأعداء في ساحات الوغى، وفي السلم يقدم غاية ما لديه لضيوفه من الإبل النجيبات، يقول:

ففــي ســلْمِهم يعقــرون العشــار ... وفــي حربهــم يضربــون الرِّقابــا(٤٥)

والعرب لشدة تعلقها بإبلها جعلوها تدور على ألسنتهم في أمثالهم ومن ذلك قول البهاء زهير:

---

(٤٢)ابن منقذ (الأمير أسامة بن منقذ بن مرشد ت٥٨٤هـ): ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد بدوي، ط١، عالم الكتب، ص١٠١. الحزن: الغليظ من الأرض. شطت: بعدت. رزم: لاتقوم هزالاً، مهمة: المفازة البعيدة.

(٤٣) ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ص٦٣، الندى: الكرم.

(٤٤) فتيان الشاغوي (أبو محمد فتيان بن علي ت٦١٥هـ): ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، ط١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٧٦، ٣٤، منصله: سكينة، منصلت: مجرد من الغمد.

(٤٥) المصدر السابق: ديوانه: ص٤٠، يعقرون: يذبحون.

مـــالي فيهـــا ناقـــة ولاجمـــل   مثلــك فيهـــا مَـــنْ كَفّـــى وكَفَـــلْ(٤٦)

٣. الكـــــلاب:

من الحيوانات الأليفة التي اعتمد عليها الإنسان، واتخذها رفيقاً له في حله وترحاله، يحميه في غيبته، ويهش الذئاب عن غنمه، ويدلُّ عليه طُرّاقَ الليل من ضيوفه، ويعدو وراء صيده، فيأتيه به قبل أن يرتدَّ إليه بصره، يسهر عندما ينام صاحبه، ويفي بالجوار عندما يخون الناس، فهو الصديق المخلص الوفيّ للإنسان.

والكلاب التي استعملها العرب على نوعين: نوع اعتمد عليه في حراسة بيته ومتاعه وشياهه، ونوع اعتمد عليه في صيده وملاحقة فريسته.

وللعرب نظرة اجتماعية عند وصفهم للكلاب تصبُّ في اتجاهين متعاكسين، أولهما وصفهم له بالوفاء لصاحبه واتخاذه دليل يهدي الضيوف إلى مضارب القوم والآخر وصفهم له بالجبن، والذلّ، والخنوع.

وانبرى الشعراء في شعرهم إلى تعداد الأوصاف الخلقية للكلاب من سرعة، ولون، وآذان، وأرجل وذيل، وصدر، ومضاء أسنان، ووصفوا المعركة التي تدور رحاها بين الفريسة من جهة والصيادِ وكلابهِ من جهة أخرى. فالشاعر ابن أبي حصينة في لوحة متكاملة من لوحاته يرسم صورة لإحدى طردياته، مستخدماً الكلاب كسلاح فتاك في الوصول إلى فريسته، فيبدأ الشاعر بوصف يومه من بدايته، فهو نهار سعيد، خرج فيه وصحبه قبل أن يبزغ الفجر، حتى يلحق بالحيوانات في مرابضها، والطيورِ في أعشاشها، ثم وصف الخيل التي يركبونها، ثم انتقل إلى الصورة الرئيسة في القصيدة وهي صورة المعركةِ بين الكلابِ والفريسة، فيأخذ الشاعر بوصف قوة كلابه من خلال بيان هيئتها، فهي ذات أنياب قوية، وجسم صحيح، طويلة الأرجل قصيرة الظهر، ذات آذان غضفاء، وذيل يبلغ الأرض طولاً، رحبة الصّدر ذات مقل نجلاء، سريعة كأنما ركبت لها أجنحة، ويشير الشاعر دون إسهاب إلى خروج القطيع، ثم إرخاء العنان إلى للكلاب، ووصف أرجلها وهي تعدو على الأرض باليد التي تكتب في السجل، ويصف غبار المعركة الذي ينجلي عن صيد ثمين، يقول:

ثـــم قمنـــا إلـــى اللّـــذاذةِ والصَّيـــ   ـــدِ وماللنهـــار بَعْـــدُ اعتـــلاءُ
حشـــو سرجي إذا تبـــارت بنـــا الخيــ   ـــلُ كُمَيْـــتٌ رَفْلـــةٌ شـــوهاءُ

---

(٤٦) الهباء زهير: ديوانه، ص٢١١.

ذات لـونٍ حـيٌّ كمـا امـتزج الصـر ... فُ بـه والمدامـةُ الصهبـاءُ
جانبـاً للقنيـص أشـدق غربيـ ... ـبـاً بفيـهِ منـاصلٌ أسـواءُ
قَصُرَ الظَّهرُ منـه مـا انحـطَّ واستعـ ... ـلـى عليـه قُدّامُـهُ والـوراءُ
وتعـالت بـه الشـوامت لـولا السـ ... ـسَاق فيهـا تجنُّـبٌ وانحنـاءُ
طـالت هاديـهِ كالقنـاة ومـالت ... أُذنٌ فـوق رأسـهِ غضفـاءُ
فـاضلُ الذَّيـلِ يَلْحَـقَ الأرضَ لـولا ... عُقُـفٌ فـي كحالـه والتـواءُ
ويمنـى تُقِـلُ أشنـغى لـه صَنـدْ ... رٌ رحيـبٌ ومقلـةٌ نجـلاءُ
ينظـرُ الكـامِنُ الخفـيُّ ومـا طـا ... رَ إلـى الجـوِّ فاحتسـاه الهـواءُ
ذو جنـاحين طـائحين مـن النيـ ... ـق كمـا طـاح فـي القليـب الرشـاء
بينمـا نحـن بالمِنَّـان وقـرن الـ ... ـشمس فيـه عـن اليميـن إبـاءُ
عـن سـرب لنـا يفيـضُ بـه ... الفجُّ ويرمـي بنـا إليـه الفضـاءُ
فَشَنَنَّا المضريـاتِ كمـا شُنَّـ ... ـتْ علـى الحـي غـارةٌ شـعواءُ
فـانبرَتْ تكتُـبُ الدُّهَـاس بأيديـ ... ـهـا كمـا تكتـب السـجل الإبـاءُ
فـي قتـامٍ أتونـة يحجـب السـ ... ـربَ كمـا يحتجـب الفتـاة الخبـاء
وتلاحمـن فـاعتركن كمـا تفـ ... ـعل يـوم الكريهـة الأعـداء
سـاعةً أو جَعَلْـنَ رَضْراضَـة الحـز ... ن عقيقـاً ممـا علَّـتهُ الدمـاءُ
كـلُّ ضـارٍ علـى نـوازٍ مـن السـ ... ـرب نجـت لـو يكـون أغنـى النجـاءُ(٤٧)

ومع أن القصيدة لم تعط صورة واضحة للوحة المعركة التي دارت بين الكلاب وطرائدها، ولم يستكمل الشاعر جزئيات اللوحة، إلا أنها أعطت صورة واضحة عن الصفات التي تمتع بها كلاب الصيد من حيث قوتها وسرعتها، وهيئتها، وهذا الذي يكفينا من هذه اللوحة(٤٨).

واقتبس الشعراء من الكلاب بعض صفاتها التي تتسم بالدونية والخساسة ومن ذلك اقتباس الشاعر على سبيل الرمز صورة مهارشة الكلاب، ومحاولة كل منها الانفراد بما معه من طعام، واستخدموها للتدليل على البخل عند الناس، وفي ذلك يقول ابن سنان:

---

(٤٧) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢٥، رفلة: جرّ ذيله وتبختر. الغربيب: الأسود. غضفاء: مرتخية. الرشاء: ولد الظبية. إياء: النّور.

(٤٨) انظر الحكيم: ديوانه، ص٨٦.

تجـاوزْتَ فـي البخـل حـدَّ الكـلاب ففـي أيِّ طائفـةٍ تنتمـي(٤٩)

وصور الشعراء المقبل على الدنيا، المتمسك بها، المتصارع عليها، بالكلاب التي تتصارع على الجيفة، يقول ظافر الحداد:

هـي الدُّنيـا فـلا يحزنْـكَ منهـا ولا مـن أهلهـا سَـفَةٌ وَعَـابُ
أتطلـب جيفـةً وتنـالُ منهـا وتنكـرُ أن تهارشـك الكـلابُ(٥٠)

ولبيان الفوارق الاجتماعية بين الناس، وإظهار الصورة الجلية لصورة الكلاب الدونية، أخذ الشعراء يقارنون بين الأسد من جهة والكلب من جهة أخرى، ومن ذلك قول الشريف العقيلي، معاتباً من فضَّل غيره عليه يقول:

لأنـك بعْـتَ ضرغامـاً بكلـبٍ وآثـرْتَ الحضيـضَ علـى السّـماءِ(٥١)

وصور الشعراء كذلك تطاول صغار الشأن، وضعاف الهمم على أصحاب المكارم والرِّفعة، وعلو المنزلة، بالكلاب التي تنبح القمر المنير، دلالة على عدم الفائدة من مثل هذا العمل، ولن يُكْسِبَ صاحبه في النهاية إلا المذلة والتعب، يقول فتيان:

والكلْـبُ إنْ ينبـحَ البـدرَ المنـير فلـن يُضِيـرَهُ ويعـاني الـذُّلَّ والتَّعبـا(٥٢)

واستعار الشعراء صورة الكلاب لتصوير الفوراق الطبقية بين الناس، وتصوير الحياة التي يحياها الناس من فقر وعوز، في حين أنَّ ولاة الأمر من ولاةٍ وأمراء يعيشون حياة دعة ورغد وبذخ، ومن ذلك المحاورة التي دارت بين الشريف العقيلي وابن صاعد يقول الشريف:

مـن كـان يكسـو الكلْـبَ وشـ ـيـاً ثـم يقنـع لـي بجلـدي

---

(٤٩) ابن سنان (عبدالله بن محمد بن سعيد الخفاجي ت٤٦٦هـ): ديوان ابن سنان الخفاجي، تحقيق عبدالرزاق حسين، ط١، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص٢٠١.

(٥٠) ظافر الحداد: ديوانه، ص٣٣٢، المهارشة: تصارع الكلاب ونهشها الجيفة.

(٥١) الشريف العقليل: ديوانه، ج١، ص٣٤، الضرغام: اسم من أسماء الأسد.

(٥٢) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٠.

فأوجز ابن صاعد:

الكلْـــــبُ خـــــيرٌ عنـــــدَهُ　　　منـــي وخـــيرٌ منـــه عنـــدي(٥٣)

فالأبيات تنقل لنا صورةً حيةً عن حياة الناس، والوضع المتردي الذي يعيشون فيه؛ بينما الطبقات المتنفذة تُلبِسُ كلابها الموشى والمزركش لزيادة جمالها، وهذا احتجاج صارخ على الوضع المتردي الذي وصل إليه الناس، والحالة الذي وصل إليها أولوا الأمرِ في أعين الناس.

ومن الصفات الحسَنَة التي تمتع بها الكلب في الأعراف الاجتماعية، صفة الوفاء لصابحه يقول أسامة بن منقذ:

وياليتــهُ لــو كــان فيــه مــن الوفــاء　　　لمالكه بعضَ الـذي هـو فـي الكلـب(٥٤)

وهكذا نرى أن صورة الكلاب تناغمت بين الصورة الحسنة التي أحبها الناس والصورة السيئة التي نفروا منها، في حين اتخذها آخرون مرآة للحياة الاجتماعية لذلك العصر، والوضع المزري الذي وَصَلَ إليه الناس.

٤. البغـــال:

البغال من الأنعام التي لازمتْ الإنسان وخدمتْهُ في مجالي النقل والزراعة وقد كثر استعمالها في هذا العصر الذي تعتني الدراسة به في نقل السلاح إلى ساحات المعارك، لأن البغال تستطيع أن تتنقل في المناطق الجبلية أكثر من غيرها من الحيوانات(٥٥) فأكثر الشعراء من وصفها، ومازجوا بينها وبين حالتهم الاجتماعية، واستخدموها في أساليب التهكم والسُّخرية، ومن ذلك استعارة العماد الأصفهاني لصورة بغلته للتدليل على الحالة الاجتماعية التي يحياها، فهو يشكو من الفقر والجوع، وحالة بغلته الشديدة الهزال يصور ذلك، على نحو ما نرى في قوله:

أصحبتْ بغلتــي تشــتكي مــن العُــر　　　ى وأســـراجها بلاكنبـــوشِ
قُلْـتُ كُفّـي، فخـيرُ يومـكِ عنـدي　　　أن تفـوزي بـالتبن أو بالحشـيشِ
وافرحـي ليلــةَ الشَّـعير كمــا يفــ　　　ـرحُ قـومٌ بليلــةِ الماشــوشِ

---

(٥٣) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص١٠١، الوشي: الزينة.

(٥٤) أسامة بن منقذ: ديوانه، ١١٣.

(٥٥) انظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠٩.

لـــو تبصَــرتِ حـــالتي لتَصَـــبَّرْ ت، فإيـــاك عندهـــا أن تطيشـــي
أوَ مـــا مـــات الشّــتاء مـــن الـــبر دِ ومـــن فـــرط جوعـــه إكديشـــي[٥٦]

وقول البهاء زهير في وصف بغلة صديقه، وكأنّهُ من خلال التعريض ببغلته يُعَرِّضُ بصاحبها يقول:

لـــــك يـــــاصديقي بغلـــــةٌ ليســـــت تســـــاوي خردَلَـــــهْ
مقـــــدارُ خطوتهـــــا الطويـــــ لــــة حيـــنَ تُسْـــرِعُ أنملـــةْ
وتخـــــالُ مدبـــــرةً إذا مـــــا أقبلـــــتْ مســـــتعجِلَةْ
تمشـــــي تحســـــبها العيـــــو ن علـــى الطريـــق مُشـــكِلَةْ[٥٧]

والبغال من وسائل التنقل السَّريعة المعروفة آنذاك، وقد أشاد الشعراء بذلك على نحو ما نرى في قول ابن الساعاتي في وصف بغلة مهذب الدين كاتب المعز:

قيـل مـادَتْ مـن تحـت ذا السـيد الأرْ ضُ ولـــم تأتنـــا لـــه بمثـــالِ
هـوى طـور النهـى ومـن أعجـب الأشـ يـاء أرضٌ تميـد تحـت الجبـالِ[٥٨]

وتطرق الشعراء إلى إبراز بعض صفاتها المعنوية إلى جانب ما أشادوا فيها من صفات حسّية، فهذا ابن التاج ينوه بفراسه تلك البغلة في قوله:

جَلَســـتْ بَغْلـــةُ الأميـــن ترينـــا صـــدق حســـنٌ كأنّـــهُ إلهـــامُ
أظهـــرتْ مِـــيزَةً علـــى النّـــوع إذا أصبـــح فـــي الحسْـــنِ ذا عُـــلاً لايـــرامُ
نحـــن فـــي خِدْمَـــةِ قيـــامٌ لديـــهِ ثـــم بغلاتنـــا لديـــه قيـــامُ[٥٩]

---

[٥٦] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٤٥، الكنبوش: ما يوضع على ظهر الحمار أو البغل، الماشوش: عيد من أعياد النصارى.

[٥٧] النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري ت ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون العرب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ج١، ص١٢، وانظر ديوان البهاء زهير: ص٢٢٧.

[٥٨] ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص٢٦٣.

[٥٩] المصدر السابق: ص٢٦٣.

أما الواسطي، فينفي عنها صفة الخَوَرِ والعجز، ويبرز ما تُكسى به البغلة من وسائل الزينة، على نحو ما نرى في قوله في بغلة مهذب الدين:

لم تكْبُ بغلتُكَ الخضراء من خورٍ ... يا من هو اليوم للإسلام مُسْعِدُهُ
لكنما الأرض مادتْ تحتهاطرباً ... إذ شُرِّفتْ بك يامن طاب مُحْتَدُهُ(٦٠)

أما ابن الخيمي، فيصفها بأنّها خَرَّتْ ساجدة حينما عَلِمَتْ أنَّ الذي يركبها بحر الجود، والطور الشامخ، يقول:

أقسمتْ بغلة الرئيس المفدى ... حين حطّتْ لعجزها عنه صدرا
إنّما رَفَعَتْ يدَيها قُنوتاً ... بعد أن قبّلتْ ثرى الأرض عشرا
إذا غدَتْ من حجاه حاملةً طو ... داً ومن جود كَفِّهِ العذبُ بحرا(٦١)

أما راجح الحلي فينفي الضعف والوهن عن قوائمها، ويشير إلى أنها كَبَتْ توقيراً ومهابة يقول:

لم تكْبُ بَغْلتهُ لخون قوائم ... تطأ الصفا فترُضُّ صفحة صلدِهِ
لكنها حَمَلتْ مشروع سُؤدَدٍ ... بَذَّ الأكارمَ في إمامة مجدِهِ(٦٢)

٥. الحمير:

تنقسم الحمير في شعر الشعراء إلى قسمين: أليفة ووحشية، وظهرت صورة الحُمُرُ الوحشية في شعرهم عبر العصور بشكل واضح جلي أكثر من صورة الحمر الأليفة، وفي وصفهم للحمر الأليفة تطرق الشعراء إلى هيئتها، وصبرها في تحمل المشاق، وأخلاقها، وصوتها.

ويتوقف ابن قلاقس عند مشيتها، فيصفها عندما تجري بالصقر إذا ما انقضَّ على فريسته فيقول:

(٦٠) المصدر السابق: ص٢٦٣.
(٦١) المصدر السابق: ص٢٦٣.
(٦٢) المصدر السابق: ص٢٦٣، خون: ضعف.

ولا الأجـــدلُ الوخـــوخُ الكمـــيُّ إذا مــا انقـضَّ مــن لِهْيــهِ علــى خَــرَبِ
يشــــبهها إن جَــــرَتْ وإن رَقَلَــــتْ فــي صَعْـدٍ تـــارةً وفـــي صَبَـــبِ(٦٣)

ويشبه ابن عنين سرعتها بالرّيح، والهيف، والوعل، وهي الصفات عينها التي أسقطوها على سرعة خيلهم وإبلهم، يقول:

قَــد كــان إنْ ســابقتْهُ الرِّيــحُ غادرهــا كـــأنَّ أخمَصَهـــا بالشـــوكِ ينتعِـــلُ
ففـــي الأبـــاطحِ هيـــق راعَـــهُ قَنَـــصٌ وفـي الجبــال المنيفـات الـذرى وعـلُ(٦٤)

والتفتوا إلى صبرها وجلدها ومقدرتها الفائقة على تحمل المشاق، وهذا واضح من قول ابن عنين:

يطـــوي علـــى ظمـــأٍ خمســـاً أضالِعَـــهُ فـي بيضـة الصَّيف والرّمضـاءُ تشـتعلُ
ويقطـــع المقفـــراتُ الموحشـــاتُ إذا عـن قطعهـا كَـدَّتْ المَهْرِيَّـةُ الـبزلُ(٦٥)

وقد يستعيرون لها صفات الإنسان الكريم، على نحو ما نرى في قول ابن عنين:

مكمَّلُ الخُلْق رَحْبُ الصَّدْرِ منتفخُ الجبينِ لاطاوٍ وسَغِلُ(٦٦)

فهو حسن الهيئـة، ليس بـالضعيف ولا السـيء المشـاكس. أمـا صوتـه، فعلـى عكـس مـا هـو متعارف من إنكاره،فهو في أذن الشاعر عند نهيقه قطعة من الموسيقى، تثير الشجون، وتطرب الأسماع، كما يبدو في قول ابن عنين:

يُرْجِـــعُ النهيـــق مقرونـــاً ويطربنـــي لحنـاً كمـا يطـرب المزمـوم والرَمَـلُ(٦٧)

واستعيدت صورة الحمار للسخرية والتهكم، لما تتصفُ به من قباحة، على نحو ما نرى في قول ابن قلاقس:

---

(٦٣) ابن قلاقس: ديوانه، ص١٨٢، صعده: المكان المرتفع، صبب: الانحدار، الخرب: ذكر الحبارى.

(٦٤) ابن عنين (أبو المحاسن محمد بن نصر الله ت٦٣٠هـ): ديوان ابن عنين، تحقيق، خليل مردم بك، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٤٦، ص١٤٠، الهيف: الظليم.

(٦٥) المصدر السابق: ص١٤٠، الرمضاء: شدة الحر، البزل: البعير إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة.

(٦٦) المصدر السابق: ص١٤٠، سَغِلُ: سيء الخلق.

(٦٧) المصدر السابق: ص١٤٠.

لــك وجــه الحمـــار لكــن عليـــه لحيــة عُلِّقــتْ كبعــض المخـــالي(٦٨)

أما الحمر الوحشيَّة، فقد جاء وصف الشعراء لها تقليداً ومحاكاةً لمن سبقهم من شعراء العصور السابقة، وقد ظفرنا بمقطوعة تصور الصِّراع بين الصيّاد والحمر الوحشية، صوَّرَ ابن قلاقس من خلالها حالة الترقب والحذر من قبل الصياد وفريسته فالصياد كامنٌ لصيده بجوار عين الماء التي جفّ ماؤها وتطحلب، والحُمُر الوحشية عطشى سرت إلى مورد الماء لتشرب قبل أن يستيقظ الناس، ولكن الصيّاد يكون بالمرصاد، فيرميها، وتطيش سهامه، وتركض الحُمُر الوحشية بأقصى سرعة مبتعدة عن الموت، ويرسم الشاعر لوحته لصراع المخلوقات مع الحياة، في سبيل المحافظة على نفسها، يقول ابن قلاقس:

ومَهْمَــــةً تصبيــــحُ المطـــيُّ بــــه ــــا بيــن إرقالهــــا إلـــى الخَبَـــبِ
باكرتُـــــهُ والنجـــــومُ آفلـــــةٌ والصّبْــحُ قـــد لاحَ أبيــضَ العــذبِ
بناقـــةٍ لاتكـــلُّ مـــن إضَـــمِ السَّـــير ولاتشـــــتكي مـــــن الــــدأبِ
مـــا غــير عانـــات جلهـــى انتصبــت والصُبْـــحُ بـــالليل غــيرُ محتجـــبِ
ينظـــر نَـــشٌ الميـــاه منثغبـــاً وكـــان مِـــنْ قبـــلُ غـــيرُ منثغـــبِ
عيـــن ميـــاه غـــدت مطحلبـــةً جفَّـــتْ لفيـــضِ الميــــاه بالعشــــبِ
أُتيـــحَ للعيـــنِ شَـــخْصٌ مُقْتَبِـــصٌ لهـــا حفـــيٌّ بالعشـــب مُـــتَّربِ
ســـعى بملـــسِ المتـــون طـــائرةٌ بـــالريشِ طـــولَ الزّمـــانِ والعقـــبِ
وشُـــــقَّةٍ لايخـــــافُ مالكُهـــــا منهـــا فطـــوراً كســـائر الخشَـــبِ
حتـــى إذا مـــاأتت لموردهـــا رَمَـــى أتانـــاً منهـــا فلـــم يُصِـــبِ
فـانصعْنَ عنـه إلـى التـلال إلـى السَّـ ـفـح فـــأرض القيصـــوم فـــالعربِ
لا الأجـــدل الوَخْـــوَحُ الكمـــيُّ إذا مـــا انقـــضَّ مـــن لِهْبِـــهِ علـــى خـــربِ
يُشْـــبهُها إنْ جَـــرَتْ وإن رَقَلَـــتْ فـــي صعـــدةٍ وفـــي صبـــبِ
أقـــولُ ياناقُ وهـــي قـــد طَفِقَـــتْ فـــي النّســـع كالنَّســـعِ صُلبـــة العَصَـــبِ

---

(٦٨) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٨٢.

مِثْلُــــك لايشـــــتكي الكَــــلالَ ولا　　　يئـــنُ أنَّ المتيَّــــمِ الوَصِـــــبِ[٦٩]

والشاعر في هذه القصيدة شبه الحُمر الوحشية بناقته في نشاطها، وصبرها وسرعتها في جوب الصحراء.

٦. الخراف والقطط والثيران والأرانب:

ولم يذكر شعراء هذه الفترة هذه الحيوانات في أشعارهم كثيراً، بل ورد ذكرها للتهكم والسخرية والرمز، فالخراف مثلاً لم تذكر إلا في مقطوعة لابن عنين، يرمز فيها إلى بخل من أهداه خروفاً يقول:

أتــاني خــروفٌ مــا شَــكَكْتُ بأنّــهُ　　　حليفُ هوىً قد شفّه الهجرُ والعذلُ
إذا قــام فــي شــمس الظهــيرة خِلْتَــهُ　　　خيالاً سرى في ظلمةٍ ما له ظِلُّ
فناشــدتهُ مــا تشــتهي قــال قَتَّــةً　　　وقاسَمتُهُ ما شفَّهُ قال لي الأكلُ
فأحضرتهــا خضــراءَ مجَّاجــةَ الــثرى　　　مُسلَّمةً ما خصَّ أوراقها الفتلُ
فظــلَّ يُرَاعِيهــا بعيــنٍ ضعيفــةٍ　　　وينشِدُها والدَّمعُ في الخدِّ مُنهملُ
وأتَــتْ وحيــاضُ المــوت بينــي وبينهــا.　　　وجادت بوصل حين لاينفع الوصلُ[٧٠]

وظهرت صورة القطط في التهكم والسُّخرية في مقطوعة واحدة لابن منير الطرابلسي يسخر من خلالها بملك النحاة عندما جرحَتْ يده قطتُهُ، يقول:

عتبــت علــى قــط ابــن منــير　　　وقلْــتُ: أتيــت بغــير الصــوابِ
جرحْــتِ يــداً خُلِقــتْ للنــدى　　　وبــذل الهبــاتِ وضــرب الرِّقــاب
فقــال لــي القــطُّ: ويلــك انتبــه　　　أليــسَ القطــاطُ عــداة الكــلاب[٧١]

---

[٦٩] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٨٢، منثغب: ما بقي من الماء في بطن الوادي، الكَمِيُّ: اللابس السلاح، آفلة: غائرة. الإرقال والخبب: نوعان من السير. مترب: ملامس الأرض. المتن: الظهر. الأتان: الحُمُر، السّفح: أسفل الجبل. الخرب: ذكر الحباري. النسع: ريح الشمال، والمفصل.

[٧٠] ابن عنين: ديوانه، ص٣٢، قتة: الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب.

[٧١] ابن منير الطرابلسي (أبو الحسن أحمد بن مفلح الطرابلسي ت٥٤٨هـ): ديوان ابن منير الطرابلسي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦، ص١٢٤.

أما البقر والثيران فقد استخدمها الشُعراء كذلك للتّهكم والسُخرية، على نحو ما نرى في قول عبدالمنعم بن صالح يسخرُ من رجل يَلْحنُ في قراءته:

يا أيهـا الثـور البهيـم الـذي يقـرأ المقامـات علـى الثّـور(٧٢)

أما صورة الأرانب، فقد جاءت في معرض وصف الشاعر لمهارة ممدوحه في الصيد، يقول ابن أبي حصينة:

إنَّ الأرانـبَ لـم تفُتْـكَ لأنّهـا علِمَـتْ بـأنّكَ مـالِكُ آجالهـا
ولعلّهـا اشـتهت الحيـاة وعـادّت فـرأتْ بصيـدك موتَهَـا اشـهى لهـا(٧٣)

وشبه الشعراء بيوت الفسطاط البيضاء الممتدة على النّيل ببياض الأرانب، يقول ابن أبي حصينة:

أقـول وقـد أشـرفْتُ ذاتَ عشـيَّةٍ على النّيل من إحدى الهضاب الشواهقِ
ومـن دونهـا فسـطاط مِصْـرَ زاخِـرٌ كـأنَّ بشـطيه مُسُـواك الخرانـقِ(٧٤)

ب. الحيوانات غير الأليفة:

كثرت الحيوانات المتوحشة في مصر والشام، لكثرة ما فيها من غابات، ومياه، ومساحات واسعة لايصل إليها الإنسان، ومن أشهر هذه الحيوانات الأسود، والذئاب والفهود.

---

(٧٢) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص١٠٢.

(٧٣) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٠.

(٧٤) المصدر السابق: ج٢، ص٢٣٧، المسوك: الجلود، الخرانق: أبناء الأرانب.

أما الأسود فقد وَجَدَتْ اهتماماً من الشعراء، لقوتها وبطشها "حيث ربطوا بينها وبين صفاتهم أنفسهم حين كانوا يريدون التحدثَ عن أمجادهم وأحسابهم أو يتغنون بقوتهم وشجاعتهم وشدة مِراسهم وثباتهم أزاء الأعداء"(٧٥).

وقد ظهرت صورة الأسد بوضوح وجلاء في قصائد المديح، يقول ظافر الحداد:

فبادرَ عدْوي من بني الغاب أهرَتٌ — عظيم القَرَا عبْلُ الذراع عنودُ
أخو خنقٍ غضٌ الفلا بزئيره — له وثبةٌ في سيره ووئيده
فألجمتُهُ غَضْبَ الغرارين كاسراً — هو الموتُ لولا أن يقال حديدُ
إذا مجَّهُ الغِمْدُ استنار كأنَّهُ — شهابٌ له بعد الهدوء وقودُ
فَشَتَتُّ من شطريه شمالاً بضربةٍ — يسوق اعتزامي تارةً ويقودُ(٧٦)

ولعلَّ إظهار قوة الأسد، وبسالته، وقوة أعضائه، ليبيِّنَ الشاعر ما تعرَّضَ له من أهوالٍ صَمَدَ أمامها، وتحداها إلى أن ظَفِر بلقاء الممدوح.

واستخدم الأسد في تصوير قوة الممدوح، للإشادة بقوته في ساحة المعركة على نحو ما نرى في قول فتيان الشاغوري:

وما هزبرٌ هريتُ الشدقِ ذو لَبَد — وردُ السبال قويُّ الرَّمي بالشجُبِ
له إهاب كتجفاف الكميُّ حصا — نهُ حريصٌ على المسلوبِ لاالسَّلَبِ
جَهْمٌ محياهُ رئبالٌ قضاقِضُهُ — غضنفرٌ لم يخفْ موتاً ولم يهبِ
له أظافرٌ حُجْنٌ قد برزنَ كأنصـ — ـافِ الأهلةِ من جلبابٍ مختضبِ
تظلُ خاضعةً غُلْبُ الأسود له — خوفاً ضواربُ بالأذقانِ من رعبِ
يوماً بأعظم من موسى المظفَّرِ إنْ — دارت رحى الحرب ذات الجحفل اللجبِ(٧٧)

والقوة والبطش والرّهبة، صفات الأسد الحقيقية، وصورته التي يعرف بها، فهو دائم الدِّفاع عن أشباله، ولعلَّ فتيان الشاغوري يهدف في رسم هذه الصورة إلى أنَّ قائده الممدوح يتسم بهذه الصفات في ذوده عن حياض الأمة يقول:

---

(٧٥) حازم عبدالله خضر: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص٣١.

(٧٦) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٠٧، القرا: الظهر.

(٧٧) فتيان الشاغوري: ديوانه، ١٥، اللِّبد: الشعر المجتمع على زبرة الأسد، هزبر: الأسد، رئبال: اسم الأسد، قضاقضه: لم يبق من فريسته شيئاً، حجن: معوجة.

وما أسدٌ دامي الأظافر باسلٌ غضوبٌ جريءٌ في الكماة جريحُ
يماصع عن شبليه في الغيل عابساً ففي وجهه عند اللِّقا كلوحُ(٧٨)

والرَّبط بين الأسد والممدوح صورةٌ شعرية تراثية، حافظ عليها شعراء هذا العصر لبث الرُّوح القتالية في نفوس ممدوحيهم، ونشر الرُّعب في قلوب أعدائهم. ولعلَّ الطريف الإشارة إلى أنَّ الغالبية العظمى من الحيوانات، تظهر لها صورتان، صورة مشرقة وأخرى منفردة يستخدمها الشعراء في موضوع الهجاء إلا الأسد، فقد أبرز الشعراء فيه الصورة المشرقة الرَّفيعة، فارتبط بموضوع المديح دون غيره من الموضوعات.

أما الذنب، فقد ظهَرتْ صورته في قصائد الفخر والمديح، إذْ اتخذه الشعراء رمزاً للعداوة والغدر، على نحو ما نرى في مدحية ابن أبي حصينة وهو يصور ممدوحه في صراعه مع الذئب، فيبدأ الشاعر بذكر صفات الذئب، فهو يتضو جوعاً ويسعى في طلب الرزق، أسَنٌ لم يزدْهُ عمره إلا طيشاً وسَفَهاً، يوقعه حظُّه السَّيء في طريق أحد الفرسان، فتدور بينه وبين الذئب معركة تنتهي بموته:

وأطلس مدلاج إلى الرِّزق سا غب يُراوحُ إلى ضَنكِ المعيشةِ أو يُغْذي
أسنٌ وما يزاودُ إلا جهالة وخرقاً ولا ينفكُّ مُسْتَرِقاً وغدا
فلما رأى خيلَ المنايا مُغِذَّةً إليه تمطَّى كالشَّراكين وامتدا
فحينَ تحرى للنَّجاةِ وأيقنَتْ له نَفْسُهُ بالخير واستأنستْ رشدا
سما نحْوَه طرقٌ امرئ لوسمابه إلى جبل لانهدَّ من خوفه هدَّا
على ظهر مدلوجِ المرافق سابح على أربعٍ مُلْدٍ تطولُ القنا الملدا
تعَوَّدَ أن يرمي به كلَّ مطلبٍ قصيٍّ وَيكْتَدُّ النجاح به كَدَّا
فأوجرَهُ سمراء لومدَّ باعهُ بها طاعناً للسُّدِّ أنفذَتِ السُّدَّا
فخرَّ مُكبَّاً للجرانِ ونَفسُهُ تُسرُّ لمرديهِ الضغينة والحقدا
فقلْتُ له ياذئبُ لاتخشى سُبَّةً فمرديكَ أردى قبلك الأسد الوردا

---

(٧٨) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٨٣، وانظر ديوانه، ص٢٧، ص٢٨٤، وانظر ديوان ابن عنين، ص٢٧ وديوان ظافر الحداد، ص١٠٧.

وما هي إلا ميتةٌ قلَّ عارُها إذا أرْغمَ السِّيدان من أرغم الأسدا(٧٩)

فالشاعر في هذه القصيدة يبدي إعجابه الشديد بقوة ممدوحه، ويتغنى بشجاعته، وانتصاره على الذئب، مؤكداً له أنّه قد مات موتةً شريفة، فقاتِلُهُ قد قتلَ ما هو أقوى وأشجع، وكأن الشاعر يرسمُ لوحةً لصراع الإنسان مع الطبيعة وقدرته على التغلب عليها في سبيل البقاء.

وكان لرحلة الشعراء إلى ممدوحيهم، ووصف ما يعترضهم في الطريق، وما يكتنفهم من مصاعب، دورٌ في إبراز صورة الذئب وهو يتضور جوعاً، يجوبُ الصّحراء باحثاً عن الطعام، وكلُّ ذلك يأتي به الشاعر ليصور معاناته في الوصول إلى الممدوح، يقول ابن أبي حصينة:

وجبنا إليه كلَّ تيماءَ لاترى بها غيرَ سيدان الظهيرة عُسَّلا
إذا جُعْنَ أدمَنَّ العواء كأنّما ثَمِلْنَ فأكثرن الغناء المرتلا
خماصٌ إذا رُحْنَ كلَّ عشيةٍ إلى الوجرِ أشبَهْنَ الدَّيمقس المبُقَّلا(٨٠)

وكأنَّ الشعراء متفقون على مجموعة من الأحداث والمناظر، لقاء الذئب بالصّدفةِ، والمكان قفر، والجوع الشديد يطوي بطونها، والحرُّ الشّديد يلفُّ المكان، والخوفُ والترقب من المجهول، وغربة في المكان وغربة في النفس، وكأنَّهُ يهيءُ القارئ إلى مثل هذه الأجواء وإلى الخوف الذي يسيطر عليها، والمعاناة التي يتصورها الشاعر ما هي إلا الطّريقة التي يستطيع من خلالها إبراز ما تعرض له من مخاطر في طريقه، حتى تكون المِنَح والعطايا على قدر المخاطر.

وذكر الشعراء الذئب في مدائحهم في صورة طريفة، إذ أوردوه لبيان ما يتمتع به ممدوحوهم من عدل، على نحو ما نرى في قول العماد الأصفهاني:

بعدلِكَ الذِّئبُ والطَّلا رَتَعا ببأسك البيضُ والظُّلى اصطحبتْ(٨١)

واتخذ الذئب أيضاً رمزاً للأعداء، على نحو ما نرى في قول الملك الصالح:

---

(٧٩) ابن أبي حصينة: ديوان، ج٢، ص٢٦٧، أطلس: أسود، مدلاج: السائر في آخر الليل، الجران: باطن العنق، السِّيد: الذئب.

(٨٠) المصدر السابق: ج٢، ص٢٦٧، الوجر: جحر الأسد والذئب والثّعلب والضبع، الدمقس: نوع من الثياب.

(٨١) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٨٦، الطلا: ولد الظبي ساعة يولد.

سَدَدْتُ عن الذئاب الطُّلْسِ سمعي عشيةَ إذ تهادَت في العواء[٨٢]

ونظر الشعراء إلى الذئب نظرة مريبة، إذ صوروا تطاول الوضيع الحقير على صاحب الشأن الجليل بالذئب الذي يتخذ وكر الأسد عندما يخلو منه، يقول ابن سنان:

وإذا ما خلا العرينُ من اللَّيثِ أغارَ السَّرحانُ فيه وكرا[٨٣]

أما الفهود، فلم تردْ إلا في مقطوعة لفتيان الشاغوري يصف فيها فهداً للملك المظفر، اتخذه وسيلة للصيد، ومطاردة الفرائس، لقوته وسرعته، فاستغنى به الملك المظفر عن القوس والنشاب، يقول:

وذي كحلٍ شثْنِ البراثن وثابِ يصول على الآرام بالظفر والناب
مُظَفَّرِ أظفارٍ إذا سدَّ باعَهُ سطا بنيوبٍ حدُّها ليس بالنابي
فكمْ عينُ ظبيٍ حدَّقتْ بإهابه إلى صيد ظبيٍ فهو من بأسِهِ كابي
وقد سُمِّيَتْ شمسُ النهارِ غزالةً تمنَّتْ مغيباً خيفةً منه بالغابِ
به الأشرف الملكُ المظفَّر مُكْتَفٍ وإن كانَ أرمى الناس عن قوس نشابِ[٨٤]

أما النَّعام، فقد أكثر الشعراء من ذكرها، وإبراز صفاتها، ولعلّ أهمَّ هذه الصّفات الجبن والحذر، على نحو ما نرى في قول ابن أبي حصينة:

كأنّ قسوساً بالأداحيّ أصبحتْ مُكوَّسةً تتلو الكتابَ المنزلا[٨٥]

وقول ابن منير الطرابلسي:

زبنْتَهُمُ أمس عن صرخدٍ ففضوا كأنَّ نعاماً شَرَدْ[٨٦]

---

[٨٢] طلائع بن رُزيك (أبو الغارات الملك الصالح طلائع بن رزيك ت ٥٥٦هـ): ديوان طلائع بن رزيك، تحقيق، محمد هادي، مطبعة النعمان، النجف، ط١، ١٩٦٤، ص٥١.

[٨٣] ابن سنان الخفاجي، ديوانه، ص١٠٣.

[٨٤] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٦، شثن: خشن.

[٨٥] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٥٣.

[٨٦] ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص١٨٨، زبنتهم: صدمتهم أو دفعتهم. صرخد: قرية من قرى دمشق.

وقولُ ابن أبي حصينة وهو يصف خوف الناقة بالنعامة التي أضاعت أبناءها، فتتخبّط في جوف اللّيل على غير هدى:

مذعـورةٌ ذُعْـرُ النعامـةِ أُلهيَـتْ ... لمـا أضلَّـت بالعشـيِّ رئالَهَـا[٨٧]

ومن الهيئات التي أكثر الشعراء من وصف النعام بها، صورته والسّراب يلفه في الصحراء من كلّ جهة بالسفينة، يقول ابن أبي حصينة:

وتنوفـة سـرب النعـامِ كأنَّـهُ ... فيهـا سـفين فـي بحـور سـراب[٨٨]

أما الأسماك، فقد كثر وصفها في أشعار الشعراء في الجانب المصري أكثر من شعراء الجانب الشامي، ولعلَّ مردّ ذلك أن سواحل الشام في هذه الفترة كانت في يد الصليبيين، إضافة إلى أنَّ الشعراء انشغلوا بالحروب معهم، أما الجانب المصري، فقد اعتمد على النيل لصيد الأسماك، ولم تتعرض شواطئه لما تعرضتْ له الشواطئ الشامية من غزو الصليبيين.

وقد وصف الشعراء الأسماك وصوروها تصويراً بارعاً ودقيقاً، فالشريف العقيلي يرى في تخبط سمك الأبرميس في الماء، وتقلبه في اضطراب، بقلب عاشق مضطرب خائف، يقول:

أما تـرى سَـمَكَ الإبرميْـسَ مضطربـاً ... كأنّـهُ قلْـبُ عاشـق رَجِـفِ
لمـا رأتْـهُ الميـاه مرتعـداً ... منهـا كسـتْهُ جواشـن الصَّـدف
فَظَـلَّ مـن لـذة السُّـرور بهـا ... يفتتـحُ منـه مواضـع الشّـنف[٨٩]

وظافر الحداد يرتد إلى صورة المعركة. ويلتقط منها صورة الأسنة والدُّروع، ليطلقها على صورة الأسماك وهي تضطرب داخل الشباك تتصارع من أجل البقاء يقول:

فيـا حُسْـنُهُ وهـو بيـن الشـباك ... وقـد ظَـلَّ مشـتبكاً يضطـربْ
كـزرق الأسـنة بيـن الـدُّروع ... تميْـلُ بهـن العوالـي السَّـلُبْ[٩٠]

---

(٨٧) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٥٣، الرئال: أولاد النعامة.

(٨٨) المصدر السابق: ج٢، ص٢٢٥.

(٨٩) الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٠٤.

(٩٠) ظافر الحداد: ديوانه، ص٥.

ثانياً: الطيور:

كثرت الطيور في هذا الإقليم بصورة واضحة، وقد ساعده على ذلك الموقع المتوسط، واعتدال الجو، وكثرة المياه، وانتشار الأشجار في ربوعها، وكثرة الحدائق والمتنزهات، أضف إلى ذلك أن كثيراً من هجرات الطيور في مختلف الفصول تمر من هذه المنطقة لتوسطها، وعرف هذا الإقليم أنواعاً متعددة من الطيور، فمنها الداجن كالدجاج والإوز والحمام، ومنها البريّ كالصقر، والعقاب، والكركي، اللّغلغ، والإوز التركي، والبجع، والبلشون، والجروخ، والحجل والكروان، والسُّماني، والبلبل، والقمري، والحبارى، والغربان، والطواويس، والباز، والبوم[٩١]. وقد اعتنى الشعراء بوصف هذه الطيور. فمنهم من أعجبه الصّوت، فأثار مكامن النفس، فوصفه وتأمل فيه، ومنهم من أعجبته الألوان الزاهية، فازدادت حسناً في عينه، فأطلق لخياله رسم صورة زاهية الألوان، بديعة الحسن، ومنهم من أثارته الحركة والصوت والمنظر، فاضطربت أشجانه ولواعجه، فتذكر الأهل والأحبة، ومرابع الديار، وقسوة برد الغربة، ومنه من أعجبته وهي تحيط به في مجالس لهوه وشرابه فانطلق يصفها ويذكر محاسنها.

١. الطيور الداجنة:

أ. الحمـــام:

يرتبط ذكر الحمام عند الشعراء في الغالب بتصوير الحالةالنفسية، فهي تواسيهم في غربتهم، وتثير بهديلها أحزانهم، فيبكون أيام الشباب وعنفوانه، وذكريات الماضي الدائرة وتهيأتْ لشعراء هذا العصر ظروفٌ جعلتهم يقبلون على وصف الحمام، فالاستقرار معدوم، وفقد الأحبة سنة من سننه، والتنقل في طلب الرّزق من مكان إلى آخر، فوجدوه القريب إلى نفوسهم العطشى إلى السّعادة.

ولعلَّ الأمير الشاعر أسامةِ بن منقذ، قد وجد في الحمام ضالته، إذ كانت حياة هذا الشاعر بحراً من الحزن والحرمان، فأبعد منفياً في بادئ الأمر عن مربع صباه وبلدته "شيزر" وفقد أهله وعشيرته في زلزالها الذي أودى بحياتهم جميعاً، فاتخذ من الحمام رفيقاً له يناجيه كلّما خطرتْ على البال الذكريات، واتخذ من صوتها صدى لآلامه يقول:

---

[٩١] انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٧.

أنا بعدكم كالورق في　　　أغصانها أبداً تنوحُ
لكنّها غاصتْ مدا　　　معُها ولي دمعٌ سفوحُ
مَزَجتُهُ بالدّمع مُقْلةٌ　　　إنسانُها أرِقٌ جريحُ
يا لائميَّ فيهم سهرْ　　　تُ، ونامَ عن ليلي النّصيحُ[٩٢]

ويربط الشاعر بين حال الحمام وحال الشاعرة الخنساء وحاله بعد أن فقد أهله وعشيرته يقول:

وجدّدَ وجدي بعدما كانَ قدْ عفَى　　　وراجَعَني حُلْمي، ووازرني صبري
هتوفُ الضُّحى مفجوعةٌ بأليفها　　　تُهيجُ أشجانَ الفؤاد ما تدري
ولو أنّها إذا أعولَتْ فاضَ دَمْعُها　　　لقلتُ: هي الخنساءُ تبكي على صخر
ولكنّها لم تَذْرُ دمعاً، وأدمعي　　　إذا قُرِنَتْ بالقطر زاد على القطر[٩٣]

والحمام عند الشعراء يثير الأشجان والأحزان على بعد الدّيار والأوطان، فعرقلة الكلبي يثيره سحراً صوتُ نادبةٍ من الحمائم على الأغصان، فيذكر مرابع الصِّبا في وادي الغوطتين، فيقول مصوراً ذلك:

ونادبةٍ ناحت سحيراً بأيكةٍ　　　فهيَّجَتْ الواسواس في قلب نادبِ
تنوح على غُصنٍ، أنوحُ لمثلهِ　　　وهل حاضرٌ يبكي أسى مثل غائبِ
بوادٍ، بوادي الغوطتين ربوعكم　　　ربيعي، ومن ذاك التراب ترابي[٩٤]

وكما كان صوت الحمام يثير الشوق على فراق الأهل والأوطان، كان مثاراً للشوق على فراق الحبيبة، فصوت الحمام يثير الآلام، ويهيج الذكريات، ففتيان الشاغوري يقول مبدياً آلامه وأحزانه:

إنْ تَغَنَّتْ الورقاءُ في الأوراق　　　صدَّ عني أسى الأسى والرّاقي
إنْ شَدَتْ نسيبُ نُصَيبٍ　　　أو تغنَّتْ غنيتُ عن إسحاق

---

(٩٢) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٥٩.

(٩٣) المصدر السابق: ص٧٦، وانظر نفسه، ص٩٩.

(٩٤) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٥، وانظر نفسه ص٦، وانظر ديوان ظافر الحداد، ص٢٣١.

ربـةَ الطـوقِ طوّقينـا يـداً تبقـى بقـاء الأطـواق فـي الأعنـاق
أذكريْنـا العهـدَ القديـم بنجـدٍ إنّ نجـداً مظنّـةٌ للأشـواق
نحْـنُ نوحـي إليـك سـراً فنوحـي واصدحـي واصدعـي حشـا المشـتاق
وسـاجعي تفجعـي المحـبَّ بصـبرٍ غـير بـاقٍ بـل مولـعٍ بالإبـاق
مـا غنـاء الحمـامِ فـي عذبـات البـا ن إلا الحمـام للعشـاق[٩٥]

وكما ارتبط الحمام بالألم والحزن والفراق، اتخذ كذلك رمزاً للبهجة والفرحة والسعادة، فسجعُها غناء صبيَّة ألذ على الأسماع من الغناء، يقول ظافر الحداد:

وفـي خلـل الأوراق ورقٌ غناؤهـا ألـذُّ وأحلـى فـي القلـوب مـن الغنـى
شـدتْ فهـيَ مثـل الصـَّبِّ أودى غرامـهُ بكتمانـهِ حتـى تلاشـتْ فأعلنـا
إذا راسـَلها شـمالٌ خِلْـتَ صبيـةً يُغنّيْـنَ شـيخاً أعجـم اللفـظ ألكَنـا[٩٦]

ويقول ابن الساعاتي الذي يعيش في أجواء من السعادة والدعة والراحة بين فيافي الحدائق، والمغنون يصدحون بألحانهم وأناشيدهم، فتختلف رؤية الشاعر لصوت الحمائم عن رؤية أسامة بن منقذ ثَكِلُ الأهل والأحبة، فينظر إلى صوتها على أنَّهُ ألحان كألحان مزامير داوود عليه السلام يقول:

والـورقُ فـي أوراقهـن كأنّمـا عَبِثَـتْ بمزمـارٍ يـدا داوود
مـن كـلِّ شـادٍ يسـتبي الباب[ـ]ـاً سـحراً بطيـب بسـيطه ونشـيده[٩٧]

ب. الديـوك والدّجـاج:

ظهرت صورة الدُّيوك غالباً في شعر هذه الفترة للدلالة على الوقت، وإيذاناً بطلوع الفجر، كلُّ ذلك إما بانقضـاء وقت المنادمة والسمَر، أو موعداً لمعاقرة الخمْر، والاستمتاع بوقت طلوع الفجر، وقد ارتبط كلّ من صياح الديك وطلوع الفجر برباط تعارف عليه الناس "فيعتبر كلُّ واحدٍ من

---

(٩٥) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢٩١، ابق: استتر.

(٩٦)ظافر الحداد: ديوانه، ص٣٤٧، ألكن: عيٌّ وثقل في اللسان

(٩٧)ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٩٦.

طلوع الفجر وتغريد الدّيك وقتاً للآخر"[٩٨] فهذا الشريف العقيلي يجعل من صياح الدِّيك موعداً للبدء بالشراب، ويجعله موعداً كوعد الأذكار قبل طلوع الفجر، يقول:

فــلا عــدمَ الشَّــرْبُ أذكــارَه ... ولــو بَكَّــرَ الشَّــرْبُ إذ بكَّــرا

جميــلٌ يَمُــنُّ عليهــم بــه ... يحــقُّ لمــولاهُ أن يُشــكرا

واحســنَ عاداتــهِ أنَّــهُ ... يُصفــقُ مــن قبــل أن ينعــرا[٩٩]

والبيت الأخير يبين مدى الدّقة في ملاحظة حركات الديك وسكناته تمتع بها العقيلي في وصفه.

وكما اتخذ الشعراء صوت الدِّيك إيذاناً ببدء الشُّرب، فقد جعله آخرون منهم وقتاً لانقضاء وقت اللهو والشراب، وبزوغ الفجر، يقول شرف الدين التيفاشي:

نبــه نديمــكَ إنَّ الدَيــك قــد صخبــا ... واللّيــلُ قَــوّضَ مــن تخييمــه الطُّنُبــا

والفجْــر فــي كبد اللّيــل السَّــقيم حكــى ... سِــرَّ المتيَّــمِ عــن أجفانــه غلبــا[١٠٠]

أما الشّريف العقيلي فتبدو دقة الملاحظة عنده، وحُسنِ اختيار الصّورة التي تناسب وصفه، فيبدأ بوصف اللّون والصّوت، فيبدو ديكه قد اكتسى حله مزركشة الألوان، لم تنسجها يد البشر، بلْ أحسنت يدُ الزمان نسجها، وصوته أنيس في وحشة اللّيل لكل مستوحش، يقول:

وذي حلــةٍ مــن نســيج الزَّمــانِ ... يضــاحكُ أحمرُهــا الأصفــرا

ويؤانــس مــنْ ظــلَّ مستوحشــاً ... إذا اختلــس الصّحْــوَ منــه الكــرى

ويدعــو إلــى القَصْــف أربابَــهُ ... باحســنَ صــوتٍ إذا كــررا[١٠١]

ويرسم الشّريف العقيلي صوراً متعددة لبيان صورة الدّيك وهيئته، فهو الملك ذو التاج، وهو العروس التي زُيِّنتْ بأنواع كثيرة من الحلي والجواهر، وهو كذلك حديقة من الورود مختلفة الألوان، يقول:

---

[٩٨] المرزوقي (أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ت ٤٢١هـ): الأزمنة والأمكنة، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند، ١٣٣٢هـ، ج١، الباب الثاني، ص١٣٩.

[٩٩] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص١٦٥.

[١٠٠] ابن منظور: نثار الأزهار في الليل والنهار، ص٧٧.

[١٠١] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص١٦٥.

ويجلــو علــى أهلــه نفسَــهُ | بتــاجِ عقيــقٍ عليــه يــرى
فأمــا الشُّــنوفُ لــدى أذنيــهِ | إذا اهــتزَّ فــي مشــيه أوجــرى
فتنظــرُ منهــا لــه صنعــةً | تبهــرجُ صنعــة كــلِّ الــورى
وهــل هــو إلا العــروسُ التــي | تقلَّــدْتِ الحلــى والجوهــرى
أو الــرَّوضُ بــاكرهُ وابــلٌ | فألبســه الــورد والعبهــرى
كــأنَّ الصَّبــاحَ حبيــبٌ لــه | إذا غــاب أســهرهُ مفكــرى[١٠٢]

واستعار الشعراء وصف الدِّيك للتدليل على الحالة الاجتماعية السيئة التي يحياها الناس، وحالة الفقر والعوز التي يعيش فيها الشاعر، وبأسلوب قصصي، قريب من الذوق العام للناس، ففي قصيدة لابن معمعة الحمصي تربو على العشرين بيتاً يصف فيها حالة العشق والحب لديكه الوحيد الذي رباه منذ أن كان فرخاً في البيضةكأحد أبنائه، ولبيان صورته أسبغ الشاعر عليه عدة صفات لاتتوافر إلا في ملك، حتى يبين لنا مدى ما تفعله الحاجة والعوز الشديد بالإنسان، فبعد أن يصف هيئته وصوته، ودجاجاته التي تحوم حولهُ، ومدى تعلق الشاعر وبناته به، يبدأ بتصوير بناته وهن يتباكين من حوله ساعة العيد، يَرَيْنَ أباهنَّ قد أزمع على ذبحه، وفي النهاية يطلب من الأمير أن يفديه بكبش كما فدى الله سيدنا إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم، فيقول مخاطباً الأمير:

ولــه أيُّهــا الأمــيرُ علــيَّ العهْــدَ فــي | ســالف الأزْمــان القديــمِ
أنّــه آمــنٌ مــن الشّــر عنــدي | غــيرَ يــومِ المشــيئةِ المحتــومِ
وقــد احتجْــتُ أن أضَحــ | ــي فــي العيــد حاجــة الأديــب العديمِ
وبنــاتي يقلــن يــا أبتاتــا | أنــت فــي ذلــك بيــن عُــذْرٍ ولــوم
وتراهــنَّ حولــي يتبــاكين بدمــع | لفقــده مســجوم
وعزيــزٌ ســواك مــن يفديــه | فــافدِهِ ســيدي بذبــح عظيــم
تبــقَ فــي ذلــك سُــنَّةٌ لــك تبقــى | ذكرهــا ذكــر كبــش إبراهيــم[١٠٣]

ونرى الصورة في الأبيات الأخيرة صورة حزينة، قاتمة اللون حتى يستعطف الأمير، ويثير حزنه وعواطفه، فيجزي له العطاء والهبات، ويرحم حاله الذي وصل إلى التضحية بأغلى ما عنده،

---

[١٠٢] المصدر السابق، ج١، ص١٦٥، العبهر: النرجس، الياسمين، وابل: المطر.

[١٠٣] ابن منظور: نثار الأزهار، ص٩٨، مسجوم: سائل.

بعد أن قطع علىنفسه العهد والمواثيق، ونرى الشاعر قد اتكأ على التراث في بيان صورة الفقر والعوز، فاستمد صورته من صورة الفداء العظيم لسيِّدنا إبراهيم، مع الفارق بينهما فالذبح هناك لرؤيا أما في صورة الشاعر فللفقر والعوز الشديد الذي يمرُّ بهما الشاعر. أما صورة الدجاج فلم تظهر في شعر هذا العصر إلا في مقطوعة لابن قلاقس يصوِّر فيها دجاجة عند قليها يقول:

يا أيها السَّيفُ العليم وعنْدَهمْ   في السَّيف إنَّ السَّيف غير عليم
هذه الدجاجة في العذاب مقيمةٌ   وكأنَّها في نضرةٍ ونعيم
لو كنتُ أحكمُ بالتناسخ صَحَّ لي   إدخالها في نسل إبراهيم[١٠٤]

وهذا الأسلوب الساخر الذي صور الشاعر فيه دجاجته، مال إليه شعراء هذا العصر في كثير من المواضيع الهزلية.

٢. الطيور غير الداجنة:

وصف الشعراء الطيور غير الداجنة بأنواعها المختلفة، وأكثروا من ذلك، فجاء وصفهم لها معبراً عن جمال النفس وجمال المكان الذي يتمتعون به، معبراً عن حالتهم، فتارة يعبِّرون من خلالها عن السعادة التي يحيونها وأخرى يعبِّرون عن الحزن والألم الذي حلَّ بهم.

١. طيور الحدائق والمتنزهات:

لكثرة الحدائق والمتنزهات في هذه البلاد، اتخذها الناس للترويح عن الأنفس وتعب الأيام، ويستطيع الناظر إلى طبيعة مصر والشام أن يعرف بكلِّ سهولة، أنها بلاد الحدائق والبساتين والمتنزهات التي تنتشرُ على مساحات واسعة منها، وطبيعيٌّ أن ينتشر بين هذه الأشجار أنواع مختلفة من الطيور التي تتصف بصفات متقاربة، لذا جاء وصف الشعراء لها متقارباً.

وقد اتخذ الشعراء من وصف طيور الحدائق والمتنزهات مجالاً واسعاً للترويح عن النفس، وتخفيفاً من الآلام والأحزان، وكان لصوتها الشجي الحظ الأكبر من وصفهم، وكأنَّ صوتها يعكس صدى نفوسهم، فظافر الحداد وهو بين الحدائق الغناء ينظر إلى صوت طيورها على أنَّه قد فاق حنين صوت مشاهير المغنين العرب أمثال معبد والغريض، يقول:

---

[١٠٤] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٥٢٦. التناسخ: انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر ويعرف "بالتقمص" وللذين يعتقدون ذلك يسمون التناسخية.

والطّـــيرُ مُطْرِبَـــةٌ كـــأنّ حنينهـــا سـلبَ الغريـضَ ومعبـد الألحانـا[١٠٥]

أما ابن أبي حصينة، فيؤثر صوت القمري في نفسه تأثيراً بالغاً، فعندما يسمع صوت القمـري وحنينه بين الأفنان، تثار فيه حرقة الألم والذكريات التي مضت يقول:

إذا هتفـــتْ قمريـــة هيجـــت لنـــا جوىً ورسيساً من هوىً هو قاتلـه[١٠٦]

ويبدو أنّ الشعراء كانوا يعقدون مجالس لهوهم وأنسهم في أحضـان الطبيعـة، حيث تغرد الطيور، وتزقزق العصافير، ومن ذلك وصف ظافر لمجلس أنس ولهو عقدهُ مع أقرانـه مـن الشـعراء والأدباء، يصف الطيور وهي تتجاوب بين أغصانها يقول:

للطـــير فيهـــا بـــالغصون تصـــادحٌ وتصـــايُحٌ، وتفـــاصح، ورمـــوزُ
وكأنّمـــا القمــريُ يُنشِــدها مصرعـــاً مــن كــلِّ بيــت والحمــام يُجــيزُ[١٠٧]

وقد استعاد ظافر الحداد كما نرى منظر إنشاد الشعراء، وتساجلهم بالشعر فيما بينهم، ليظهر تجاوب الطيور في أغصانها.

وقد جمع الشعراء بين صوت ترتيل الكتب السماوية، الذي يثير في النفس السَّكينة والطمأنينة، وصوت الطيور وما تثير من طمأنينة وسكينة وسعادة، ومن ذلك وصف العماد الأصفهاني لقمريٍّ بمقرئ القرآن الذي صفا صوته وهدأ ضميره، يقول العماد موضحاً ذلك:

وكـــأنّ القمـــريَّ مقـــرئُ آيٍ قـــد صفـــا صوتـــه والضمـــير[١٠٨]

أما صوت البلابل والشحارير التي تأتي بأنواع مختلفة من الألحان، تثير في النفس بلابلها، فهي رهبان تتلو آيات من الزبور يقول فتيان الشاغوري:

تتلو الشحارير فيها البلابلُ آياتِ الزَّبورِ بأفواهِ الرّهابين[١٠٩]

---

[١٠٥] ظافر الحداد: ديوانه، ص٣٢٤، الغريض ومعبد: من مغني العرب المشهورين.

[١٠٦] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٨٠، وانظر ديوان ابن قلاقس، ج١، ص١٤٧. الرسيس: السّقم في الجسد.

[١٠٧] ظافر الحداد: ديوانه، ص١٤، القمري: نوع من الحمام حسن الصوت.

[١٠٨] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص١٧٩.

[١٠٩] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٥١٨.

واتخذ الشعراء من الولوج إلى الأديرة أمكنة للتنزه واللهو، ففتيان الشاغوري يصف مكان لهوه ولعبه في الدير معرجاً بذلك على وصف طيورها، ويثيره فيها السكون والهدوء الذي ملأ عليه قلبه، فشبه صوت الشحرور، والصُفريُّ، والهزار، والعندليب والبلابل، والورق، برهبان يتلون الزّبور أو شيخ يتلو المحكمات من ياسين يقول:

ولقـــد هـــاجتْ النواقيـــسُ بـــالدير جنـــاتي فكنـــت كـــالمجنونِ
والشـــحارير كالرهابيـــن يتلـــونَ الزَّبـــورَ البديعـــة التلحيـــنِ
وصفـــير الصُّفـــريُّ يشـــدو بشـــدو مُغـــربٍ عـــن صبابـــةٍ وحنيـــنِ
والهـــزارات والبلابـــلُ والـــورقُ علـــى الـــدُّوح باديـــاتُ الشُّـــجونِ
وإذا العندليـــبُ صـــاحَ ظننَّـــاه تـــلا المحكمـــاتِ مـــن ياســـينِ[110]

وتراءى للشعراء أنّ الطيور آلات موسيقية؛ فشبهوا أصواتها، بأصوات النايات، والعيدان لبيان جمال صوتها، يقول فتيان واصفاً صوت الهزارات:

وللهـــزارات ألحـــان مناقيرُهـــا تعيدُهـــا فهـــي نايـــاتٌ وتبديهـــا
كـــأنَّ عيدانهـــا العيـــدانُ تُطْرِبُنـــا منهـــا المثـــالثُ إذ قتلـــو مثانيهـــا[111]

واستعار الشعراء من الطيور بعضَ صفاتها، لتوضيح جانبٍ من جوانب حياتهم، ومن ذلك استعارة الشاعر أسامة بن منقذ لصفة من صفات العصافير، وهي الانتفاض من الماء، لبيان صورته عندما يعتريه الشوق إلى أهله وأحبته في غربته يقول:

وروعـــة شـــوق تعـــتريني إليكـــم كمـــا انتفـــضَ العصفـــور بلَلَـــهُ القَطْـــرُ
فيـــاروعتي، لاتســـكني بعـــد بعدهـــم ويا ســـلوة الأيـــام موعـــدك الحشـــرُ[112]

وشبه كذلك ساعة مسير القائد إلى ساحة المعركة، ونشاطه قبل أنْ يستيقظ العصفور من وكره، دلالة على نشاطه الذي وضح لنا عن طريق هذه المقارنة، يقول طلائع بن رزيك في ذلك:

---

(١١٠) المصدر السابق: ص٣٢١، الناقوس: قطعة طويلة من جريد أو خشب يضربونها لأوقات الصلاة.

(١١١) المصدر السابق: ص٥٢٣، وانظر ديوانه، ص١٨٠.

(١١٢) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٧٤.

يهجُرُ والعصفورُ في قَعْرِ وكره ويسري إلى الأعداء والنّجم نائِمُ[١١٣]

واتخذ كذلك من شكلها وهي تطير في الهواء على شكل أسراب، صورة للسهام وهي تطير في الهواء متجهة إلى أهدافها، يقول فتيان:

هذا ونشابةُ يطير من الأكباد في الحرب كالعصافير[١١٤]

أما الطواويس، فقد انتشرت في مصر والشام، واهتم الناس بتربيتها لحسنها وجمالها، وقد تطرق إلى وصفها كلّ من زار هذه المنطقة، أو كتب عنها[١١٥]. أما الشعراء، فقد رسموا صوراً دقيقة للطواويس قائمة على إبراز مواطن الحسن والجمال عنده، وفيها برزت مقدرة الشعراء من خلال دقة ملاحظتهم، وحسن تصويرهم. ومن الصُور التي صوّرها الشعراء لإبراز حسنه وهويختال مزهواً بألوانه صورة الرّوضة التي تعج بألوان شتى من الزهور، وصورة قوس قزح لبيان حُسْن الذيل يقول الحكيم موضحاً ذلك:

أهلاً به لما بدى في مشيته يختالُ في حلل من الخُيلاء
كالرّوضة الغنّاء أشرف فوقهُ ذنبٌ له كالدّوحةِ الغنّاء
ناديتهُ لو كان يفهم منطقي أو يستطيعُ إجابةً لندائي
يارافعاً قوس السّماء ولابساً للحُسن روض الحزن عبَّ سماء
أيقنتُ أنكَ في الطيور مُمَلَّكٌ لما رأيتُك منه تحت لواء[١١٦]

واتخذ الشعراء صورة الملوك وعظمتهم لبيان مكانته بين الطيور، فهو ملك متَوَّج يزهو بألوان الحسن والجمال من ذهب وسندس، ككسرى بن ساسان وقيصر، يقول الحكيم:

أبدى لنا الطاووسُ عن منظرٍ لم تَرَ عيني مثْلَه منظرا
متوج المفرق إلا يكُنْ كسرى بن ساسان، يكن قيصرا
في كلِّ عضوٍ ذهبٌ مفرغٌ في سندسٍ من ريشهِ أخضرا[١١٧]

---

(١١٣) طلائع بن رزيك: ديوانه، ص١٣٦، وانظر ديوان ابن منير: ص١٥٠.

(١١٤) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٨٨.

(١١٥) انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج٣، ص٣٤٧.

(١١٦) الحكيم:ديوانه، ص٤٨.

(١١٧) المصدر السابق: ص٩٣، السندس: ضرب من نسيج الدّيباج أو الحرير.

وهذا الحسنُ والجمال يحتاج إلى وقفة فكر وتأمل في حُسن إبداع الخالق، فالحكيم من خلال وصفه للطاووس، يدعو إلى التبصُّر والتأمُّل في مخلوقات الله، يقول:

نُزْهَــةَ مَــنْ أبصــرَ فــي طيِّهــا عــبرةٌ مَــنْ فكَّــر واســتبصرا

تبــارك الخــالق فــي كــلِّ مــا أبدعــهُ منــه ومــا صــورا[118]

واتخذه الشعراء كذلك لإبراز الجمال في الطبيعة المحيطة بهم، فالبهاءزهير يتذكَّرُ أيامه في رياض الجزيرة والجيزة الغناء بمناظرها الجميلة، فيشبهها بجمال ريش الطواويس، يقول:

وليــاليَّ فــي الجزيــرة والجيــ ــزة فيمــا اشــتهيت مــن لذاتــي

بيــن روضٍ حكــى ظهــور الطواويــ ــس وجــو حكمــى بطــون البزاة[119]

وشبه التلعفري جمال سقاة الشراب في أحد أديرة النصارى بجمال الطواويس، يقول:

يسعى بها من نصارى الدُّير بدرُ دجى يميسُ في فتية مثل الطواويس[120]

أما دوائر الرِّيش التي تنتشر في جسمه، فيشبهها ابن أبي حصينة بالشموس الطالعة في ريشه، يقول:

واختــال فــي دوحتــهِ الطــاووسُ طالعــةٌ فــي ريشــه الشــموس[121]

ومن خلال هذه المقطوعات نجد أنَّ الشعراء في وصفهم لطيور الحدائق والمتنزهات قد ركزّوا في صورهم على إبراز صورة الجمال، سواء جمال الصوت، أو جمال الصورة متخذين من ذلك طريقاً لوصف بيئتهم، والطبيعة الغناء المحيطة بهم.

---

(118) المصدر السابق: ص٩٣.

(119) البهاء زهير: ديوانه، ص٤٨.

(120) التلعفري (محمد بن يوسف بن مسعود ت ٦٧٥هـ): ديوان التلعفري، تحقيق، محمد سليم الأنسي، ط١، المطبعة الأدبية، بيروت، ص٢٠.

(121) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٨٠.

٣. الطيور الجارحة:

استقى الشعراء منذ القدم الكثير من معانيهم وصورهم من الطيور الجارحة وخاصة الغراب والبوم والنّسر، والعقاب والصقر، واستعاروا صفاتها للتدليل على ما أرادوا تصويره من البيئة المحيطة بهم.

وقد برزت صورة الغراب والبوم في هذا العصر بصورة جلية، واستعار الشعراء صفاتها، ووردت على ألسنتهم مقطوعات تصورها إلا أن الغريب في هذا العصر، أننا لم نظفر بمقطوعات تَصِفُ لنا النّسر، والعقاب والصقر، وصفاً مباشراً إنما استعار الشعراء صورتها وصفاتها عند الحديث عن ما يشابهها في الصفات، كالتدليل على السرعة مثلاً عند الخيل والجمال كما مرَّ معنا في صورتها.

أما صورة الغراب فظهرت جلية في شعر هذه الفترة، وارتسمت في عقول الشعراء بالخراب والدمار والفراق، وظهرت صورة الشؤم الذي يدل عليها في أشعارهم، فالذي يريد أن يدلل على خراب الديار ورحيل أهلها عنها يصورُ عليها الغراب يحجل بين آثارها ومن ذلك قول الحصكفي يندُبُ أطلاله وبقايا الطلول التي تركها أهلها، والغراب يصيح ويحجل على بقايا دورهم يقول:

صاح الغرابُ فكما تحمّلوا ... مشى بها كأنّهُ مقيَّدُ
يحجلُ في آثارهم بعدهُمُ ... بادي السِّماتِ أبقع أسودُ
لبئس ما اعتاضت وكانت قبل ذا ... ترتعُ فيها ظبياتٌ مُرُدُ[١٢٢]

واتخذت صورة الغراب كذلك للتدليل على فراق الأحبة، ورحيلهم، ونظروا إليه كأنّه فَرِحٌ بهذا الفراق، يطربُ عندما تهلُّ ساعاته، فكان صوته مدعاة شؤم وخراب، يقول ابن أبي حصينة في رسم صورة ذلك:

ومما شجاني يوم بانت لُبيْنَةٌ ... غرابٌ ببينِ المالكية يشحجُ
وَيَطْرَبُ في إثر الحُمُولِ كأنَّهُ ... عدوٌ بتفريقِ الأحبَّةِ مُلهجُ
رَمَتْكَ عقابُ الجوّ بالحين إنّما ... نَعيبُك داءٌ في الحيازيم مُولَجُ
أمنتقعٌ بالبين أم أنْتَ شامتٌ ... إذا زُمَّتْ الأحمالُ أوسُدَّ هودَجُ

---

[١٢٢] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٤٩٢.

فمـا أنـت إلا بئـس مـا اعتيـض منهـمُ   غـداة اسـتلقوا والتوخيـذُ المسـجَّعُ[١٢٣]

واتخذ كذلك صوت الغراب دليلاً على إثارة الذكريات والأشواق، وتذكُّر الأحبة، والأيام التي أدبرت، يقول ابن حيوس واصفاً ما جَرَّهُ عليه تنعاب الغراب في إثارة أشواقه وذكرياته:

حمـى النّـوم أجفـانَ صَـبٍّ وَ صِـبْ   غـرابٌ غُصُـنٍ مِـنْ غَـرَبْ
وأغـرى الفـؤاد بأشـواقِهِ   وقـد كـانَ أعْتِـبَ كمـا عتَـبْ
فلـو كـان يـدري غُـرابُ النـوى   بمـا جـرَّ تنعابُـهُ مـا نعـبْ[١٢٤]

ومن الشعراء من اتخذ صوته إيذاناً ببدء وقوع المصائب، وحلول الموت في الدِّيار، فابن حيوس يرى أنَّ صَمْتَ الغراب ما هو إلا مقدمة لحلول البلاء والموت، فما أن يَحِلَ الموت على أحد حتى تراه ينعبُ فَرَحاً وسعادة على ذلك، يقول:

غـرابُ بيـن صمـوتٌ قبـلَ مقتلِـهِ   حتـى إذا مـا أتـاه حينُـهُ نَعَبَـا[١٢٥]

وشبه ابن حيوس كذلك الخلف السِّيء للسَّلف الصالح، بالغراب الذي يخلفُ الطائر الغرد، يقول:

خَلَفْـتَ أجوادهـم كمـا خَلَـفَ النـا   عِـقَ بـالبين مُطـربٌ غَـرِدُ[١٢٦]

أما صورة البومة، فلم تختلف كثيراً في مجملها عن صورة الغراب، بل أنّ صورتها أشد شؤماً وأكثر تطيراً، فهي تدلُ على الخراب والفراق، وخلو الدِّيار من أهلها، فأتت مُرَوِّعَةً للنفس، تبعث فيها الخوف. ومن المواطن التي ظهرت فيها صورةالبومة عند الشعراء، مواطن الأطلال الخربة التي هجرها أهلها، فأضحت خراباً بدون أنيس إلا صوت البوم تنعق بين أطلالها، دلالة على الهجران والخراب الذي حلَّ بها ومن ذلك الصورة التي صورها ابن جيوس لأطلاله ورسومها التي عفتْ، يقول:

هـاجتكَ رسـومٌ عَفَـتْ لزينـبَ بالقـاع   أمسَـتْ دُرُسـاً بعدهـا معطلـةً قـاع

---

[١٢٣] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٢٨، الحيازيم: وسط الصّدر، مُولّج: داخل، السجع: وسط الطريق.

[١٢٤] ابن حيوس: ديوانه: ج١، ص٦٥.

[١٢٥] المصدر السابق: ج١، ص٥٣.

[١٢٦] المصدر السابق: ج١، ص٣٧.

أبعـد بـدارٍ مـن الأنيـس خـلاءِ ... للبـومِ نئيـبٌ بهـا يـروعُ وإيقـاعُ[١٢٧]

فالشاعر أثارته رسوم حبيبته التي كانت بالأمس تعج بالحركة والنشاط، واليوم لايرى فيها إلا أطلال دوارس وبوم تنعق.

وفي صورة أخرى ينقلنا فتيان الشاغوري عبر أجواء صورة الشيب والشباب، فيرى أن البومة في نعيبها إنّما تنعى لنا أيام الشباب التي ذهبت، وبقي مكانها الهرم والأطلال، يقول:

مـذ بومـة آذنَـتْ إذ لـم تَـزَلْ ... تـأوي الخـرابَ بـأنّ عقلـي خُرِّبـا

لـم تحـزن العـربُ الكـرامُ كحزنهـا ... إذ فـارقَتْ زَمَـنَ الشـباب الأطيبـا[١٢٨]

ومن ذلك نخلص أن الشعراء في هذا العصر، قد وظفوا صورة الغراب والبوم في شعرهم لتدلّ على الخراب، والفراق، والمصائب، فظهرت من خلال الأطلال الخربة الدارسة التي هجرها أهلها، أو من خلال الرَّحيل والفراق، فتظهر البومة والغراب يحجلا وينعقا إيذاناً بساعة الرحيل، أو تظهر مقترنة بصورة الموت، أو الشيب، وهي جميعاً مواضع الدروس والخراب.

ثالثاً الزواحف والحشرات:

تطرق الشعراء إلى ذكر هذا النوع من الحيوانات في شعرهم، ولكن في الغالب اعتمدوا عند ذكرها على صفاتها وما تمتاز به، لبيان صفة معينة، كقوة التحمل، وذكر مشاق الرحلة التي تعرض لها في سفره، أو عند تشبيه أدوات القتال بها. وفي الغالب جاء وصفها تقليداً ومحاكاة لمن سبقهم من الشعراء، وبيان مقدرتهم على رسم صورتها في بيئتها.

ونقسم هذا الموضوع إلى قسمين: قسم الزواحف، وقسم الحشرات لتسهيل بيان صورة كلّ منهما:

١. الزواحف:

وهي الهوام الصغيرة من الأفاعي، والثعابين، والضفادع، والعقارب، والضباب، والنّمل، والخُلْدُ، والحرباء.

---

(١٢٧) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٨٩.

(١٢٨) المصدر السابق: ديوانه، ص٢٦٣.

١. الأفاعي والعقارب:

لقد نظر العرب إلى هذا النوع من الزواحف بالرّيب، والشك، والخوف، واتخذ الشعراء صفاتها للتدليل على ذلك، واتخذوها رمزاً للظلم والعدوان حتى قالوا فيها "أظْلَمْ من أفعى"[١٢٩].

ومن الصور التي استعارها الشعراء في تشبيهاتهم، صور الأفعى وهي تتماوج على رمال الصحراء، فشبهوا بها أمواج البحر وهي تتماوج على صفحته، أما السَّفينة فقد شبهوها بالعقرب، وهو تشبيه ارتدت به ذاكرة العربي إلى بيئته الصحراوية القديمة المرسومة في مخيلته، يقول القاضي الفاضل:

إليك ركبْتُ الفلك تجري عقارباً على صلٍّ أمواج لأطرافها الوثب[١٣٠]

ونظروا إلى طول سوط الفارس في يده عندما يلقي به على جسم حصانه، بطول الأفاعي عندما تمتد على الرِّمال، وبرزت لنا من خلال ذلك صورة الخوف والذعر التي تسببها الأفاعي، يقول الملك الأمجد واصفاً ذلك:

تتصارعُ من خوف السِّياطِ كأنّما خالتْ على أعجازهن أفاعيا[١٣١]

وقد استعار الشعراء صورة الأفاعي والثعابين لبيان صورة أسلحتهم، ومدى التوافق في القتل بينها وبين الأفاعي، فشبهوا سيوفهم ورماحهم بها، ومن ذلك وصف موسى السخاوي لاهتزاز سيفه بالحيّة النشيطة كثيرة الحركة، يقول:

يقري بريقَهُ المنايا والمنى أبراً ويُرضي إذ يُهزُّ ويغضبُ
كالحية النضناض إلا أنّه يسعى فَيُرجَى حيثُ كان ويرْهبُ[١٣٢]

ولبيان قوة الجنود في ساحة المعركة شبههم بالأسود وشبه رماحهم بالصلال، ليجمع بين القوتين، ويصور النَّصْر أكيداً، يقولُ ظافر الحداد:

---

[١٢٩] الدميري (كمال الدين محمد بن مسوى ت ٨٠٨هـ): حياة الحيوان الكبرى، ط١، المطبعةالعامرية، مصر، ١٣٠٦هـ، ج١، ص٢٦.

[١٣٠] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص١٦٠.

[١٣١] الملك الأمجد: ديوانه، ص٩٠.

[١٣٢] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٧٢، الحية النضناض: النشيطة.

اســـود فـــي أكفهـــم صـــلالٌ لهـــا نهـــشٌ تميتُ بـــه وعـــضُ[١٣٣]

ومنه قوله:

مِـــنْ كـــلِّ مُعْتَقِـــلِ القنـــاة تخالُـــهُ أســـداً يلـــوذ بكفـــه ثعبـــانُ[١٣٤]

ومن الصور التي استعان الشعراء لبيانها، صورة الأفعوان، صورة البرق، عندما ينبلج من داخل الغيم، فاستعادوا لها صورة الأفعوان عندما يبتدِرُ من جحره يقول ابن أبي حصينة:

إذا مـــا ســـرى منجـــداً فـــي الرَّبـــاب ربـــابَ الأعـــاصير تَثَنَّـــى فعـــادا
تَظُـــنُّ ســـنَاهُ إذا مـــا اســـتطارَ علـــى كـــلِّ صمَـــدٍ مـــن الأرضِ نـــارا
تبـــوَّجَ مستشـــرياً فـــي الظـــلام إذا ابتـــدرَ الإفعـــوان الوجـــارا[١٣٥]

أما الرحلة، وما تمتاز به من وصف الطريق، والتقاط ما تقع عليه عين الشاعر فتأتي في المرتبة الثانية عند وصف الأفاعي والثعابين وبيان صفاتها، فابن أبي حصينة يشبِّهُ الخطوط التي يتركها زمام الناقة، بصورة مراغة الثعبان على التراب يقول:

وكـــأنَّ موضـــع مـــا يَخُـــطُّ زِمامهـــا فـــوقَ الـــترابِ مراغَـــةُ الثعبـــانِ[١٣٦]

أما أعظم ما واجه الشاعر في رحلته، ووحدته في الصحراء اللاهبة، والخوف من المجهول فيها، وبيان انفارده ووحدته فيها، صورها بأنها خالية من أيِّ شيء سوى قمص الأفاعي التي خلفها الثعبان بعدما ملّ من لبسها، وهذه الصورة جاء بها ابن أبي حصينة ليزيد من رهبة المكان والخوف الشديد المسيطر عليه يقول:

وتلقـــى بهـــا قُمْـــصُ الأفـــاعي كأنهـــا حُبَـــابُ الحُمَيَّـــا أزبَـــدَتْ حيـــن تُمـــزَجُ
ويُخلِفُهـــا الصَّـــلُّ الـــذي مـــلَّ لِبْسَـــها كمـــا خُلِّـــفَ الـــدِّرْعُ الكمـــيُّ المدجَّـــجُ[١٣٧]

---

(١٣٣) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٨٠. الصّلال: الثعابين.

(١٣٤) ظافر الحداد: ديوانه، ص٣١٨، وانظر ابن سنان: ديوانه، ص١٢٧.

(١٣٥) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٣١، الوجار: الحُجْر. الرباب: السّحاب.

(١٣٦) المصدر السابق: ج٢، ص٢٥١.

(١٣٧) المصدر السابق: ج٢، ص٣٢٩.

أما أرق العماد الأصفهاني وطول شكواه من الألم، فاستعار لها صورة الملدوغ من الثعبان لبيان شدة الألم الذي يتعرض له، يقول:

وليلي من طول ما أشتكي　　　كليلِ اللّديغِ من الخِرْبش(١٣٨)

ومن الأمور التي صورها الشعراء في هذا المجال، اتخاذ الرُّقي لاتقاء شر الأفاعي والثعابين، ومن ذلك قول ابن المقدم الحلي في وصفه الكُتّاب:

وكُتّابٌ لهم أبداً حُمَاتٌ　　　تُعَدُّ لها الرُّقيُّ مثل الصِّلالِ(١٣٩)

ومن الافاعي التي لاتنفع في الرّواقي، الأفاعي التي تنسب إلى منطقة حقف، يقول:

ينازعُ من أعقابها الجذبُ بالبرى　　　أفاعي حقف لاتجيب الرّواقيا(١٤٠)

أما العقرب فلم نظفر بمقطوعات خاصة بها، تصفها وصفاً مباشراً، وإنما وصفها الشعراء على شكل ألغاز كما في قول ابن عنين:

وما حيوان يتقي الناس شرَّهُ　　　على أنّهُ واهيُّ القوى واهن البطشِ
وإذا صَغَّفوا نصف اسمه صار طائراً　　　وإنْ صّعفوا باقيه صار من الوحش(١٤١)

وعلى شكل استعادة لوصف سريان الخمرة في أوصال شاربها كما في قول عرقلة الكلبي:

كم دبَّ كالعقرب سكراً وكم　　　قتلوهُ قِتْلَةَ العقرب(١٤٢)

أو يستعيرونها لبيان منظر شعر المرأة التي ترفعه كذيل العقرب، يقول القاضي الفاضل:

---

(١٣٨) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٦٤. الخربش: الثعبان.

(١٣٩) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٤٤.

(١٤٠) المصدر السابق: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٣، ص٤٧.

(١٤١) ابن عنين: ديوانه، ص١٥٠.

(١٤٢) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص١٤.

وعقــــرب فـــــي ورد خــــدٍ وفـــــي مســـــتأنس اللّثـــــم بهـــــا نَـــــدّة
مــــا عقـــربٌ إلا ولهــــا شـــــوكة وعقــــربُ الخَـــــدّ لهـــــا وَرْدَة(١٤٣)

ومن ذلك نرى أنّ الشعراء في هذه الفترة لم يتنــاولوا الأفـاعي والعقـارب بـالوصف مباشـرةً، وإنّما اتخذوا من صفاتها وصورها المختلفةِ نماذج في تشبيهاتهم وإبراز صورهم.

٢. الضفادع:

المتتبع لصورة الضفادع في هذه الفترة يجد أنها لم تظهر بشكل واضح، نستطيع من خلالها تكوين صورة شمولية له، والتركيز كان منصباً على صوته، من خلال المقارنات التي عقدها الشعراء بينه وبين أصوات مشابهة له، وخيرُ من مثل هذه الظاهرة ظافر الحداد، فلعقد المجالس بجانب النيـل، والاستمتاع بمناظر الدواليب على البرك والاستماع لأصواتهـا، أثـر كبير فـي الالتفـات إلـى أصـوات الضفادع ومن ذلك وصف ظافر الحداد لإحدى الترع الذي استمتع فيهـا بصخـب دواليهـا وأصـوات ضفادعها يقول:

وإيقـــاع الضفـــادع فيـــه عـــالٍ وللــــدولاب زَمـــرٌ واصطخــــابُ(١٤٤)

ويرسم ظافر الحداد للأصوات المتداخلة في إحدى الحدائق من خلال تجاوب أصوات الطيور من كلِّ فجٍّ تناغمها أصوات الضفادع والدواليب، يقول:

وكأنّمـــا الـــدولابُ يَزْمِــرُ كلّمـــا غَنّـتْ وأصـوات الضفـادع شِـيْرُ(١٤٥)

واستعار الشعراء صوت الضفادع للحطّ من خصومهم، وعدم سماع أصوات الأعداء، ورمـز إلى ذلك بنقيق الضفادع يقول ابن حيوس:

وغَــيرُ قريـــبٍ مـــن فـــؤاد وَمسْـمَعٍ زئـيرُ الأسـود مـن نقيـق الضفـادع(١٤٦)

---

(١٤٣) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٣٢.

(١٤٤) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٧، الدولاب: ما يُحْمَلُ فيه الماء من النّهر.

(١٤٥) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٦٣. الشير: الجميل الحسن.

(١٤٦) ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٣٢٨.

ويتخذ ابن الساعاتي من الضّفدع صورة للتّهكم والسُّخرية، من خلال وصف أحد الصيادين وصيده بصيد الضفادع، للتدليل على عدم مقدرته على ذلك يقول:

وفـي عَجَـبِ البحـر قـولٌ يطـولُ واعجبـه ضفـدعٌ صـائد[١٤٧]

ومع أن الشعراء قد اقتربوا في سكناهم من الماء، إلا أن الصورة المرسومة للضّفدع لم تَتضّح، ولم يصور الشعراءُ الضفدع في مقطوعات تدلُّ على هيئته وصفاته التي افتقر إليها شعر هذه الفترة.

٣. الضّب والحرباء والخلد:

لقد ظهرتْ صورة هذه الحيوانات في شعر هذه الفترة من خلال وصف الرحلة إلى الممدوح، وما تعرضوا له أثناء مسيرهم من أخطار، واتخاذهم هذه الحيوانات للتدليل على الصّبر والثبات على المصاعب التي واجهتهم، ومن هذه الصّور، صورة الشاعر وهو صابر على حرِّ الصّحراء الذي تتقلبُ فيها الحرباء من اللّظى، ويغلي فيها دماغ الضّب، يقول فتيان الشاغوري واصفاً هولَ ما تعرضَ له:

وقـد أغمَـلَ السَّـيْرَ باليعملات نواشـر نافجـةٌ فـي بُراهـا
بهـاجرةٍ مثـل نـار الجحيـمِ إذا مـا انتصـافُ النهـار اصطلاهـا
يُقلِّـبُ حِرْباءَهـا فـي لظـىً إذا مـا تنسَّـمَ تلـك العضاهـا
دمـاغُ الضبـابِ بهـا ذوائـبٌ لـه غليـانٌ لـدى ذا معاهـا[١٤٨]

واتخذ الشعراء من الضّب وتحملُهِ للعطش رمزاً للصبر وتحمّل المشاق، على الذلّ والخنوع في مقابل رَغَدِ العيش ودعته يقول ابن حيوس:

سـأصبر صـبرَ الضَّـبِّ والمـاء ذو قَـذَىً وأمسـى علـى السَّعدان والـذُلُّ مَرْكَـبُ[١٤٩] .

ومنه قول ابن أبي حصينة:

---

[١٤٧] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١١٥.

[١٤٨] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٥٦٥. نوافج: ثار وعدا. نواشر: عروق باطن الذراع.

[١٤٩] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٣٥، السّعدان: نبات له شوك.

سـلو عـن وُرُود المـاء كـلّ مُصبِّـحٍ   فَقَدْ يئسوا منـه كمـا ييأسُ الضَّـبُّ[١٥٠]

واتخذ الشعراء كذلك للتدليل على الإنسان المتلون الذي لايثبُتُ على حال، صورة الحرباء التي تتلون بلونِ المنطقة التي تَحِلُّ فيها يقول البهاء زهير واصفاً أخلاقه التي لاتتغير في مقابل غيره:

مقيـمٌ علىالخُلُـقِ الجَميْـلِ وبعضهـم   كثـير اسـتحالاتٍ كحربـاء تنضُـبُ[١٥١]

واستعار الشُّعراء من الخلد قوة سمعه في توضيح صورهم وبيانها، فقد استعار ابن حيوس هذه الصفة للتدليل على رجل بخيل، لايَسْمَعُ عندما يسألُ يقول:

بـه صمـمٌ عنـد السـؤال، فـإن لحـى   على الجود لاحٍ، كان أسمع من خُلْد[١٥٢]

النَّمـلُ والـذَّرُّ:

لقد استعان الشعراء بصورة هذه الدويبات، للحديث عن صفات متعددة مثل: الضّعف، والحالة الاجتماعية، والمصير المحتوم للناس، وشدة الوَجْد والحُبّ. ومن ذلك نصح ظافر الحداد، بعدم الاستهانة بالأعداء، مهما كانوا ضعافاً، وضرب لذلك مثلاً من النّمل الذي يستطيع على ما يعرف به من ضعف أن يقضي على الأسد على ما يعرف به من قوة وبطش، يقول:

كمـا يفتِـكُ النَّمـلُ وهـو ضعيـفٌ   بشـبل الهِزَبْـرِ البعيـد المـرام[١٥٣]

ويتخذه ظافر الحداد كذلك لتصوير حالته الاجتماعيـة، وما يعيشه من فقر وعوز، وصغر حجم بيته يقول:

فلـو دخلـتْ بيتَنـا ذَرَّةٌ   تَشُـقّ حائطـه عنـد ذاكـا[١٥٤]

---

[١٥٠] ابن أبي حصنينة: ديوانه، ج٢، ص١٣.

[١٥١] البهاء زهير: ديوانه، ص٢٦.

[١٥٢] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص١٩٢.

[١٥٣] ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٩٧.

[١٥٤] المصدر السابق: ديوانه، ص٢٤٢.

وقد أثار جانب الضعف والرقة في هذه الدويبات العواطف الكامنةالتي يُحسُّ بها الشعراء، فهذا ابن قلاقس يعبر عن قلة حيلته وضعفه وهزاله بما يتميز به الذَر من احتمالات الضعف والهزال، على نحو ما نرى في قوله:

يـا ذرويـاً كـان فـي حُبِّـه جسـمي فـي الرِّقّـةِ كـالذَّر(١٥٥)

ومن الصور الطريفة التي تدل على براعة فتيان الشاغوري، دقته في ربط بروز الأجنحة في جسم النمل، بظهور الشيب في شعر الإنسان ودنوِّ أجله يقول:

أجنحـة النّمـل إذا مـا بَـدَتْ بجسـمه دلَّـتْ علـى فقـده(١٥٦)

٢. الحشـرات:

تفاوتَ وصف الحشرات عند الشعراء في هذا العصر، فمنها ما وجد حظاً أوفى ونصيباً أكبر مثل البق والبعوض والبراغيث، ومنها ما جاءت شزراً بين ثنايا الموضوعات المختلفة مثل الذباب والعنكبوت والنحل، وجاء وصف الشعراء لها في معرض حديثهم عن حالتهم الاجتماعية وما يتعرضون له من مصاعب.

البق والبراغيث والبعوض:

من الحشرات التي تعرض الشعراء إلى وصفها، وتصوير ما يتعرض له الإنسان من الألم من جراء لسعها، ووقفوا عند ذكر شهوتها للدماء، وأرقهم في ليلهم، وعدم مقدرتهم على النوم وهي تسلعهم وتصوت فوق رؤوسهم، ويمثل هذا الموضوع ما ذكره الحكيم في شعره بصور تعرضه لهجمة من البراغيث تصويراً طريفاً، يشبهها بالطبيب الحاذق الذي يستطيع أن يفصِدَ العروق بمبضعه، يقول:

وليلـة دائمـة الغسـوق بعيـدة الممسـى مـن الشـروق
كليلـة المتيـم المشـوق أطـال فـي ظلمائهـا تـأريقي
أخبـثُ خلـق لـلأذى مخلـوق يـرى دمـي أشـهى مـن الرحيـق
تَغِـبُ فيـه غـير مسـتفيق لايـترك الصبـوح للغبـوق

---

(١٥٥) ابن قلاقس: ديوانه، ص١٢٤.

(١٥٦) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٢٤.

لـــو بـــتَّ فـــوق قمـــة العيـــوق   مـــا عاقـــه ذلـــك عـــن طـــروق
كعاشـــق أســـرى إلـــى معشـــوق   أعلـــم مـــن بقـــراط بـــالعروق
مـــن أكحـــل منهـــا وباســـليق   يفصدهـــا بمِبضَـــع رقيـــق
مـــن خطمِـــهِ المـــدرّب الذليـــق   فَصْـدَ الطبيـبِ الحـاذقِ الرَّفيـق[١٥٧]

وما ذكره ظافر الحداد في تصويره لهذه الحشرات بالبزاة والصقور والرماح في هجومها وفي تشبيه صوتها بصوت النواعيريقول:

وحجـــرة مـــن عـــدد القبـــور   بـــتُّ بهـــا للقَـــدَر الضـــروري
فـــي ليلـــة مُسْـــرِفة الحُـــرور   كـــأرؤسِ الخرفـــان فـــي التنـــور
مُطبَّـــقٍ مُطيـــنٍ مســـجور   بعوضهـــا يكســـر كالنســـور
أو كـــالبزاة الشُّـــهْب والصقـــور   تفعـــل بالأوجـــه والظهـــور
فعـــل رمـــاح الخـــطِّ فـــي النحـــور   أصواتهـــا فـــي الحـــالك الدَّيجـــور
تشـــبه مـــا صـــاح مـــن النـــاعور   فلـــم تَـــزَلْ فـــي الويـــل والثبـــور
وكـــلُّ أمـــرٍ خطـــير محـــذور   حتـــى أتانـــا صُبْحُهـــا بـــالنّور

فَذُقْت طعْمَ الموتِ والنشور[١٥٨]

وقوله يشبِّه هذه الحشرات وهي تهجم عليه ولايجد حولاً ولاقوة، ببزر القطن اختلط بحب السماق، يقول:

ألا أعـــادَ اللـــهُ ليلـــى بحجـــرَةٍ   وقفْـــتُ بهـــا حتـــى الصَّبـــاح بســـاق
وللبـــقِّ فيهـــا والـــبراغيثُ خُلْطَـــةٌ   كـــبزر قطونـــاً ذُرَّ فـــي حـــبِّ ســـماق
إذا مـــا أرانيـــن البعـــوض تجـــاوبَتْ   لنـــا وقعـــوا بـــالرّقص إيقـــاع حـــذاق
وقـــد انضَجَـــتْ جســـمي نـــارُ حَرِّهـــا   ولكنَّـــهُ نضـــجٌ تنـــاهى لاحـــتراق
فبِـــتُّ كـــأني مـــن حـــرارة نهشِـــها   ســـليم الأفـــاعي دون راقٍ وتريـــاق
ومـــا عجبـــي أن كـــدْتُ أفنـــى بأكلهـــا   بلـــى، عجبـــي أن كيـــف سَـــلِمَ البـــاقي

---

(١٥٧) الحكيم: ديوانه، ص١٢٩.

(١٥٨) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٣٦.

إلـى أن تبَـدّى الصُبْـح بعـد تبـاعد	فداركْـتُ مـن نفسـي بقيـة أرمـاقي
فبـادرْتُ نحـو البـاب ملجـأ	فسبحان الله من أحيا وَمَنَّ بإطلاقِ(١٥٩)

العنكبـوت:

واستعاد الشعراء في وصفهم لهذه الحشرة الصورة التي وصفها الله سبحانه بها في قولـه "إنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت"(١٦٠) وداروا في فلكها واستمدوا صورهم منها، واتخذوها آية للضعف والوهَنْ، ومنها قول ابن قلاقس ساخراً ممَّن ينظر إلى أن العيش في القصور كالعيش في البيوت الواهنة، ناقداً ذلك بأسلوب تهكمي، ينم عن رفض ذلك يقول:

سـيان مـن أصبـح فـي جوسـق	أو كـان فـي بيـت مـن العنكبـوت(١٦١)

واتخذوا من الصورة التي نسجتها العنكبوت على باب غار ثور، صورة لتقادم العهد وطول العمر الذي مضى، يقول البهاء زهير:

أمذكـري عهـد الصِّبـا	بعـد الإنابـةِ والرُّجـوع
أذكرتنـي أشـياء مِـنْ	زمـن تركْـتُ بهـا ولوعـي
أشـياء ذقـتُ لفقدهـا	ألـم الفطـامِ علـى الرَّضيـع
نَسَـجَتْ عليهـا العنكبـو	تُ وغـودرت بيـن الضلـوع(١٦٢)

الذبـاب:

لم تظهر صورة الذباب بشكلٍ واضح في شعر الشعراء بل ظهر صوتها، فابن أبي حصينة يصف صوت أعدائه من الواشين بطنين الذباب يقول:

فلاتسـمع بطنطنـةِ الأعـادي	فـإنَّهم إذا طنّـوا ذبـابُ(١٦٣)

---

(١٥٩) المصدر السابق: ص٢٣٧.

(١٦٠) سورة العنكبوت: آية ٤٠.

(١٦١) ابن قلاقس: ديوانه، ج٣، ٥٩٥.

(١٦٢) البهاء زهير: ديوانه، ص١٥٨.

(١٦٣) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٤٩.

أما العماد الأصفهاني، فيلفِتُ نظر الامير تقي الدين عمر الأيوبي إلى تحركات أعدائه المريبة، والأخبار التي تتوارد عنهم، بطنين الذباب المسموع يقول:

عــدوك كالذُّبـاب لــه طنيــنٌ وفيــه ذبــابُ ســيفك ذو طنيــن(١٦٤)

ويعرِّض القاضي الفاضل بمروجي الإشاعات بين لناس، ويُظْهِرُ صوتهم كأنَّه طنين الذباب، يقول:

حديــث كمــا طــنَّ خــافيُّ الذبــابِ وقــذرٌ، كمــا طــار عــافي الذبــال(١٦٥)

النَّحــل:

لم تظهر صورة النَّحل في شعر الشعراء بشكل واضح، وإنما وردت بعض جوانب هذه الصُّورة وبخاصة ما يتصف به من لسع، وحلاوة عسل، ودقة خصر، ومن هذه الصور وصف ابن سناء الملك للذي يطلب الشيء الغالي لابد أن يتعرض من دونه للتعب، كالذي يريد أن يجني العَسَل ولابد للسعات النَّحل أن تطاله، يقول في تصوير ديار محبوبته وحُماتها، ومخاطرته للوصول إليها:

بشــوك القنــا يحمــون رضابهــا ولابد دون الشَّهدِ من إبر النَّحْلِ(١٦٦)

أما رضاب المحبوبة فطعمه من جنى النَّحل، يقول:

كــم لنــا مــن خلــس فــي الغَلَــس خلــس تمَّــتْ برغــم الحــرس
ذقــت منهــا عســلاً مــن لعــس آه وأشــواقي لذلــك اللعــس(١٦٧)

أما اللفظ البليغ، والبيان في القول، فيشبهه القاضي الفاضل بطعم العَسَل، لحلاوة وقعه على الأسماع، يقول:

---

(١٦٤) العماد الأصفهاني: ديوانه، ٤٢٩.

(١٦٥) القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ٣٤١.

(١٦٦) ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص٥٦٠.

(١٦٧) المصدر السابق: ج٢، ص٤٤٨.

لفـظ يصيـخُ لـه سـمعُ البليـغِ، فمـا يـذوقُ ذائقـهُ ضربـاً مـن الضَـرَب(١٦٨)

وقد أعجب الشعراء برقة خصر المرأة وفتنوا به، ومن ذلك تشبيه ابن سناء الملك لخصر محبوبته بخصر الزنانير، ليظهر مدى دقته، يقول:

ونشــر للبســاتين وخصــر للزنــابير(١٦٩)

ومن خلال تتبعنا لصور الشعراء التي استعرضوا من خلالها صور الزواحف والحشرات نرى أنهم لم يأتوا بالصّورة الواضحة من خلال مقطوعات تصفها مباشرة، وإنّما استعاضوا عنها بتوظيف الصُّور في أشعارهم لبيان ما يريدون وصفه، فارتبطت صفاتها بصفات مجتمعهم، وعاداته.

(١٦٨) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٧.

(١٦٩) ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص ٤٠٨.

الفصل الثاني

مشاهد الطبيعة غير الحيَّة

الفصل الثاني

مشاهد الطبيعة غير الحية

بيئة إقليمي مصر والشام من البيئات الغنية بمشاهد الطبيعة غير الحية، ففيها الجبال العالية، والأغوار السّحيقة، والمروج الغناء، والصحاري القاحلة، والشطوط، والخلجان، والبحار والأنهار، وهذه المشاهد الطبيعة المتنوعة تلهم الشعراء، وتجعلهم يتغنون بها، وينشدون الأنغام فيها، فالذي يقطع الصحارى يصلف الصّحراء المترامية الأطراف، برمالها وسرابها وحيواناتها وأشجارها، وناقته التي تحملّت معه وعناء السّفر، واللّيلَ وما تهيم به نفس من خوف وهلع، ونجومَه، وقمره، وشُهَبَهُ المتطايرة، وهو في كلِّ ذلك ينتظر انبلاج الصَّباح عليه.

أما الذي يتفيأ ظلالَ الدّوحِ، فيصف مَجْلِسَهُ وشرابهَ، والرّياضَ المحيطةِ به، من أزهار والآس، والنرجس، والشقائق، والياسمين، وأشجار التفاحِ والمشمش، والموزِ، والرّمانِ، وجداولَ الماءِ، وهدوءِ اللّيلِ وسكينتهِ، وأنوارِ نجومه، وبدرَه، وفَجَره، وهو يصف الجمال الذي يشعر به، بنفسَ راضية مرضية، لا بنفس قاطع الصحراء والقفار.

والمشاهد غير الحيّة للطبيعة، متنوعة حَسَبَ نظرة الشعراء لها، فرسموا كثيراً من الصّور التي تزخر بالصّوت، والصّورة، والحركة، وسجلوا إعجابهم الشديد بها.

أولاً: اللّيل والنجوم:

اهتم الشعراء منذ القديم بوصف اللّيل، فلايكاد يخلو ديوان شعر من الشعراء من وصفه، وبدتْ مواطنُ وصفِهِ من خلال صورةِ الرِّحلةِ التي قطعها الشاعرُ للوصول إلى ممدوحهِ، أو من خلال الآلام التي سببتها له المرأة. وقد تطرق الشعراء عند وصفهم للّيل إلى ظلامه الدامس، المتلاطمِ الأمواج، وإلى طولهِ الذي أتعب أجسادهم وأرهق نفوسهم. فالخطير بن مماتي يشبه ظلام اللّيل وقد لاح بين الدجى بدره، بشعر فتاة فاحم السّواد، يقول:

كـــأنّ ظـــلام الليـــل إذ لاحَ بـــدرُهُ دجوجـــي شـــعرٍ لاحَ منـــه جبيـــن[١]

وهبة الله العلوي يتّخذ من لباس حداد النساء الأسود صورة لوصـف سـواد ليلـهِ الـذي قطعـه وصحبه يقول:

وليـــلٍ كأطمـــار الثكـــالى ذَرَعْتُـــهُ بصحـبٍ يضـاهون النجـوم الدراريـا[٢]

ويستعير ابن الساعاتي سواد عين الظبي وشعر النساء في بيان صورته التي وصف بها اللَّيل يقول:

كَـــمْ ذُدْنَـــا الكـــرى عنـــا بليـــلٍ كعيـــن الظَّبـــي أو فـــرع الغوانـــي[٣]

ويجسدُ شرف الدين الأنصاري صورة ليلة على هيئة زنجي سيذبح بسيف صقيل، يقول:

يـــا أيُّهـــا الزنجـــيُّ الهفـــي علـــى ســـيف مـــن الفَجْـــرِ بـــه يذبـــح[٤]

وقد استعار الشعراء صورة الغراب التراثية لربطها بسواد الليـل، ومـن ذلـك قـول يحيـى بـن سلامة:

ليلـــــي غـــــرابٌ واقـــــعٌ فـــي الشَّـــرق ليـــس لـــه جنـــاحُ[٥]

وربط الشعراء الليل بآلام نفوسهم، وما تحويه من أحزان ومتاعب، حتى غدا اللّيل همّاً يرزحُ تحت وطأتِهِ الشاعر، فأخذ يصرخُ في جوف اللّيل لعَلّ الصّباح يسمع شكواه فينبلج عن نوره المبين، ولكن هيأتْ لهم نفوسهم التعبة، أن ليلهم سرمد لاينقضي، ومن ذلك قـول ظـافر الحـداد واصفـاً طـول ليله حتى أحسّ من جراء ذلك بالشيب ينبت برأسه، يقول:

---

[١] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١١٥.

[٢] المصدر السابق، ج١، ص١١٥، أطمار: ثياب.

[٣] المصدر السابق ج١، ص١٤١، وانظر ديوان ابن الساعاتي: ص٦٥.

[٤] شرف الدين الأنصاري: ديوانه، ص١٤١، وانظر الخريدة، قسم شعراء مصر، ج١، ص٢٥٠.

[٥] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٢، ص٤٩٩.

قد شبْتُ في طول هذا الليل من أسَفٍ   أما يلوحُ لـه صبحٌ يُشَيِّبُهُ؟
كأنّما اللّيلُ يُغْشِي الصُّبحَ مُغْرٍ بـه   فكلّما همَّ أن يَنْشَقَّ يُشَيِّعُهُ
أو النجومُ عطاشٌ وهو موردُهم   فَكلّما فاضَ نورٌ منْهُ تشرَبُهُ[٦]

وعندما يبحر الشاعر عبر الصحراء في رحلته قاصداً بابَ الممدوح، يخوضُ غمارها وحيداً في ليلها المدلهم، لا البدرُ مشرق فيها، ولا النجم غارب، يصف هَمَّهُ وتعَبَهُ من خلال سواده يقول:

فكم ليلةٍ قد بتُّ لا البدرُ مشرقٌ   يضيءُ لرائيه ولا النجم غاربُ
شَقَقْتُ دُجاها لا أرى غير همتي   أنيساً ولا لي غير عزمي صاحبُ
بمحطوطة الأنساع قَوْدٍ كأنّها   على الرّملِ من أثر الأفاعي مساحِبُ[٧]

ومن شدة الخوف الذي يتعرض له في جوف اللّيل، واضطرابِ نفسهِ، يرى الليل كأنّه موجُ بحرٍ يضطرب، وما تلاطم اللّيل أمام ناظريه، إلا جزءاً من تلاطم الهموم داخل نفسه، يقول ابن عنين:

وليلةٍ مثل موج البَحْرِ بتُّ بها   أكابدُ المزعجينَ الخوف والخطرا[٨]

ويصوِّر الشعراء عندَ وصفهم الليل، الأرق الشديد الذي يسيطر على نفوسهم وكأنّ اللّيل أصبح بالنسبة لهم صفحات يقلبوها كلّما عزفت الهموم في داخلهم، فابن عنين تطولُ عليه ليلتهُ، ولايطرقُ النّوم جفونه، فيأخذ في مراقبة النجوم، لعلَّ ليله ينقضي، يقول:

أبيتُ وأسرابُ النجومِ كأنّها   قفولٌ تهادى إثرهنَّ قفولُ
أراقبها في الليل من كلِّ مطلعٍ   كأني براعي السائرات كفيلُ
فيالك من ليل نأى عنه صُبْحُهُ   فليسَ له فَجْرٌ إليه يؤولُ
أما لعقود النُجْمِ فيه تصرُّمٌ   أما لخِضاب اللّيل فيه نصولُ
كأنَّ الثريا غرةٌ وهو أدهمٌ   له من وميض الشِعْرَيَيْن حجولُ[٩]

---

[٦] ظافر الحداد: ديوانه، ص٦٤: آسف: الحزن، يلوح: يبدي، المورد: حوض الماء.
[٧] ابن عنين: ديوانه، ص٥، قود: طويلة الظهر والعنق.
[٨] المصدر السابق: ص٥٦.
[٩] المصدر السابق: ص٦٨: السائرات: النجوم، نأى: ابتعد، تصرّم: انقطع

أما ليلُ المحبِ فيختلفُ عن ليل المهموم، فإن كان ليل المهموم طويلاً، ونفسه تُعتَصَرُ بآلام الغربة، فإن ليل المحب قصير، لايلبث أن ينبلج صُبْحُهُ، فالوقت ليس في حسابه، فتراه ما إن يبدأ حتى ينتهي، لأن ساعات السعادة تمر مسرعة، ومن ذلك وصف ابن سناء الملك لليلةٍ وصل مع حبيبته يتمنى فيها على اللّيل أن يطول، يقول:

ياليلة الوصل بل ياليلة العُمُر ... أحسنت، إلا إلى المشتاق في القصر
ياليت زِيْدَ بحكم الوَصْل فيك لنا ... ماطَوَّلَ الهَجْرُ من أيامكِ الأُخرِ
أو ليتَ نَجْمَكِ لم تُقْفَلْ ركائبُهُ ... أو ليتَ صُبْحَكِ لم يقدمْ من السَّفرِ
أو ليتَ لم يَصْفُ فيك الشرقُ من غَبَشٍ ... فذلك الصَّفوُ عندي غاية الكَدَرِ
أو ليتَ كُلاً من الشَرقَينْ ما ابتسَما ... أو ليتَ كُلاً من النسْرَيْن لم يطرِ
أو ليتَ كُنْتِ كما قد قال بعضهم ... "ليلُ الضرير فصبحي غَيْرَ منتظَرِ"
أو ليت فَجْرُكِ لم ينفر به رشئي ... أو ليتَ شمسُك ماجادَتْ على قمري
لامرحباً بِصَبَاحِ جاءني بدلاً ... من غرة النّجم أو من طلعة القَمَرِ(١٠)

ويتخذ المحبُ من اللّيل غطاءً له، وساتراً من عيون الرّقباء والوشاة عند لقاء الحبيبة، فلذلك نجد ابن المضيف يرى في نهارِه طولاً، كيوم الحساب الذي أخبر الله عنه في القرآن، ويرى في ليله قصراً عجيباً، وكأن بدايته قد عقدت مع نهايته دلالة على قصره، وإن دلَّ هذا على شيء فإنّما يدلُ على السّعادة الغامرة التي يحياها الشاعر، يقول:

طالَ النّهارُ على المحبِّ كأنَّهُ ... يوم الحساب بآخر الدّهرِ
وكأنَّ ليلَتَه وقد طلَعَتْ ... عُقِدَ العشاءُ بها مع الفجرِ(١١)

أما ابن قلاقس، فمن شدة سعادته، وراحة نفسه، وأجواء السعادة التي يحياها عند لقاء حبيبته، يخيّلُ إليه أنَّ اللّيلَ قد تحول إلى نهار من جميل حديثها وعذوبة ألفاظها يقول:

ومسامرٍ تُسْليكَ عن سنةِ الكرى ... ألفاظُهُ فاللّيلُ منه نهارُ(١٢)

---

(١٠) النويري: نهاية الأرب، ج١، ص١٤٠.

(١١) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٢٩١.

(١٢) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٤٣٨.

وكما نرى فإنَّ ليلَ الشاعر يتلَوَّنُ معه بتلّون نفسيَّتهِ وغربته في وقته الذي يعيش فيه، فإنّ كان مهوماً حزيناً يتألم من مشاق الحياة، بدى ليله طويلاً يضطربُ كموج البحر، وإن كان سعيداً يرفُلُ في أجواء السعادة تحت أنظار محبوبته بدا ليله قصيراً ينتظره بفارغ الصبر، ويشكو من طول نهاره.

أما النجوم؛ فهي "الأجرام السَّماوية المحيطة بنا: شمساً وقمراً وكواكب سيارة، نجوماً ثوابت منفردة ومجتمعة"(١٣) وقدتناولها الشعراء في وصفهم إما لبيان جمالها الذي فتنوا به، أو مَزَجَ عواطفهم بها لبيان الحالة النفسية التي تكتنفُهمْ.

وقد استعار الشعراء في وصفهم للنجوم والسماء المحيطة بها، صورة الرّوضَةِ التي تنتشر فيها أنواع مختلفة من الأزهار، يقول عرقله الكلبي في وصف سماء صافية وقد بدت لناظريه نجومها:

كأنَّ السَّماء وقدأُزهرتْ ... كواكبُها في دُجَى الحندسِ
رياضُ بنفسج محميَّةٌ ... يَفَتَّحُ فيها جَنَى النرجسِ(١٤)

وللمنظر الجميل التي تتمتع به السّماء وهي تزخر بملايين النجوم، انعكاساً على وصف الشاعر، فالمتعة النفسية التي يشعر بها من جراء هذا المنظر، تدفعه إلى الإبداع في الوصف، ومن ذلك قول فتيان الشاغوري في وصف سماء صافية، نلحظ من خلالها دقته في الملاحظة وبراعته في التصوير يقول:

ليلةٌ حُلِّيَتْ بمنْطَقَةِ الجو ... زاء والشعريين والجَوّ زَهْرًا
وهلالُ السَّماء يشرقُ والشُّـ ... ـهبُ تروق العيونَ نظماً ونثرا
وتبارى النّسْران سبقاً وقد ... قَدَّمَ سبقٌ نسراً وآخَرُ نسرا
وترينا بنات نعش نساءً ... في حداد سفرن شفعاً ووترا
والثريا كأنها كَفُّ خَوْدٍ ... ختَمَتْ ياقوتاً وتبراً ودرا(١٥)

---

(١٣) يحيى عبدالأمير شامي: النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢، ص٢٦.

(١٤) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٥٣، الحندس: الظلام الشديد السواد.

(١٥) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٩٦، سفرن: بدين، ظهرن. بنات نعش: مجموعة من النجوم.

ولجمال السّماء الذي سَحَر الألباب، نجد عدداً من شعراء العصر قد اهتموا ببيان مواطن الجمال فيها، وبيان حُسْنِ نجومها وتنقلها وضيائها في ظلام اللّيل منهم ظافر الحداد[١٦] وابن سنان[١٧] وابن عنين[١٨].

وقد تناول الشعراء في وصفهم قضية التنجيم، والتشاؤم من بعض النجوم والتفاؤل ببعضها، وهذا ليس بالجديد في هذا العصر، بل نرى النبي ﷺ في بعض خطبه يحذر من هذا الاعتقاد فيقول "ما بالُ أقوام يقولون أن كسوف هذه الشمس، وخسوف هذا القمر، وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال قد كذبوا"[١٩]. وقوله كذلك عليه السلام "من تعلَّمَ باباً من النجوم تَعلَّمَ باباً من السِّحر ومن زاد استزاد"[٢٠]. ومن العرب من آمَن بالأنواء، وأنّ نجوما بعينا عند رؤيتها تَصْحَبُ معها المطر ومن هذا "مجدح وهو نجم من النجوم كانت العرب تقولُ أنَّهُ يمطر به لقولهم في الأنواء"[٢١] ومن النجوم من كانت العرب تتفاءَل بها نجم المشتري، وبهرام وعطارد وافردتْ لكلٍّ منها صفات خاصة به كما في قول ابن هبة الله العلوي عندما أراد إبراز صفات الممدوح من خلال صفات النجوم يقول:

جَمَعْتَ سعود المشتري ووقاره إلى بأس بهرام وحذق عطارد[٢٢]

فهو يقول إن ممدوحه قد جمع بين كبر الملوك، وبطش السلطان، وذرف الأدباء، ونرى الشعراء قد آمنوا بمثل هذه الأقوال، وكثرت في الدوران على ألسنتهم، فنراهم يتفاءلون بنجم البرجيس في سلمهم والمريخ للمساعدة في حربهم، أما عطارد فينظر إليه على أنَّهُ الناقل لبشائر النّصر إلى كلِّ البلاد ومن ذلك قول ابن سناء الملك:

ويُسْعِدُهُ البرجيس في السِّلم مثل ما يساعده المريخ في حومة الحربِ

---

[١٦] ظافر الحداد: ديوانه، ص٩١.

[١٧] ابن سنان الخفاجي: ديوانه، ص١٤٩.

[١٨] ابن عنين: ديوانه، ص٧٢، ص١١٨.

[١٩] المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ج١، ص٩٥.

[٢٠] المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ج١، ص٩٥.

[٢١] المصدر السابق: ج١، ص١٧٩.

[٢٢] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٢٩، معروف عند الملكيين من أن المشتري هو كوكب الملوك والعظماء، وبهرام وهو كوكب المريخ كوكب السلطان والسّيادة وعطارد كوكب الشعراء والأدباء.

ويفتَــحُ ديــوان السَّــماء عطــارد لإنشــاد أخبــار البشــائر والكتــبِ[٢٣]

أما البهاء زهير فيصور لنا غياب ممدوحه عن البلاد مجلبة للنَّحس، وعودته إليها عودة للسعود والبشائر، فنجوم النحوس تذهبُ عن البلاد بعيداً، وتحلُّ مكانَها النجوم التي تجلب الخير والسَّعد، يقول:

بــلادُ بلقيــاكَ اســتقامتْ نجومُهــا فصِرْنَ سعوداً بعدما كُنَّ نُحسا[٢٤]

ومنه قول فتيان الشاغوري:

بسعدك سارتْ في السَّماء الكواكبُ فمَجْدُكَ مشهودٌ وجَدُّكَ غالبُ[٢٥]

وكما نظروا إلى بعض النجوم من باب التفاؤل، نظروا إلى بعضها الآخر من باب التشاؤم وجلب الشّر، ومن هذه النجوم، نجمُ كيوان، يقول ابن سناء الملك:

وينحَسُ كيوانُ بلادَ عدوه ويجعله بالسَّهْلِ فيها وبالسَّلْبِ[٢٦]

وقد ظهر فريق آخر في مقابل من يؤمن بقضية التنجيم، نظر إلى هذه القضية من منظور إسلامي، يدعو إلى الابتعاد عنها، وعدم الاتكال عليها في تسيير الأمور، وكأنّها أصبحت قضية لها من يؤيدها ولها من يعارضها، يقول ابن منير الطرابلسي راداً على من يدعي فعل النجوم:

قُلْتُ تقول اللهُ لاخائفاً مع حكم القرآن حكم القِران
لاراقبَ النّجْمَ ولاسائلاً ما فَعَلَ السّعدان والنيران[٢٧]

---

[٢٣] ابن سناء الملك: ديوانه، ج١، ص٢٣.

[٢٤] البهاء زهير: ديوانه، ص١٣٩.

[٢٥] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٧، وانظر ديوان فتيان، ص١٩.

[٢٦] ابن سناء الملك: ديوانه، ج١، ص٢٣، وانظر ديوان البهاء زهير، ص٢، ص٣٩، ديوان الحكيم، ص١٣٦.

[٢٧] ابن شامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق، محمد حلمي ومحمد أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ج١، ق١، ص٥٠.

ومن الناس مَنْ أصبح يؤمن إيماناً مطلقاً بحكم قضاء النجوم حتى أصبح يدعوها في الخير والشّر، فلذا نجد الحكيم يدعو الناس عند الحاجة إلى رجاء الله لا رجاء النجوم لأن الله مصرف أمرها يقول:

لاترجُ في أمرِكَ سَعْدَ المشتري ولاتَخَفْ في فوتِه نَحْسَ زحلْ
وارجُ وَخَفْ رَبَّهُما فهو الذي ما شاء من خير ومن شر فعلْ[٢٨]

واستعار الشعراء من علو مكانة النجوم صورة لعلو منزلتهم ومنزلة ممدوحيهم، فابن منير الطرابلسي يفتخر بنفسه على طريقة عنترة في بيان علو منزلته وقدره في وجه من يريد أن يضع منها، يقول:

أنا مَنْ إذا الدَّهرُ هَمَّ بخفضِهِ سامَتْهُ هِمَّتُهُ السِّماكَ الأعزلا[٢٩]

ومن ذلك أيضاً قول ابن أبي حصينة يفتخر بشرفه ومكانته العالية حتى جاوز مكانة النجوم يقول:

شرفاً يَحِفُّ النَّيِّران به ويحوطه الشَّرطانِ والنَّسْرُ[٣٠]

واتخذتْ العربُ من النجوم هادياً لهم في ليلهم وهم يقطعون الفيافي المتشابهة المعالم، يقول ابن أبي حصينة:

خَبَطْنَ إليكَ اللّيل حتى كلَلْنَ لهنَّ هوادٍ بالنجوم وأكفالُ[٣١]

أما المجرة فقد أكثر الشعراء من وصفها وبيان صورتها، ومن ذلك وصف ظافر الحداد لها بأنّها غدير ماء تطفو فوقه القواقع يقول:

---

[٢٨] الحكيم: ديوانه، ص١٣٦، وانظر ديوان القاضي الفاضل، ج١، ص١٤٧.

[٢٩] ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص١٠٤، همَّ: أراد.

[٣٠] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج١، ص٣٢٢، ص٢٢٩، وانظر ديوان حيوس: ج٢، ص٤٥٤، ص٤٨٧.

[٣١] المصدر السابق: ج٢، ص٢٨، خَبَطْنَ: جُبْنَا.

حكى فوق مُمْتدَّة المجرَّةِ شكلها ... قواقعَ تطفو فوق لُجَّةَ واد[٣٢]

ومنهم من اتخذ من الرّوضة المتفتحة الأنوار صورة لبيان منظر المجرة المتعددة النجوم، يقول ابن سنان الخفاجي في ذلك:

كأنّ عليه للمجرّة روضةً ... مفتحة الأنوار أو نثرة زعَفَا[٣٣]

ومنهم من استعاد صورة الناس وهم يعومون في النّهر، ليصوّر بها النجوم التي تسبح داخل المجرة، يقول:

وترى المجرّةُ والنجوم كأنّها ... تسقي الرِّياضَ بجدول ملآن

لو لم يكن نهراً لما عامَتْ بهِ ... أبداً نجومُ الحوت والسَّرطان[٣٤]

واتخذ الشعراء من وصف المجرة صورة للتدليل على طول اللّيل، والحالة النفسية التي يحيونها، وهم ينتظرون انبلاج الصُبح بفارغ الصبر، يقول ابن الساعاتي:

ويطلعُ الصُّبحُ في ديجور طُرَّتِهِ ... واللّيلُ ما عنده من صبحه خَبَرُ

حيثُ المجرَّةُ وِردٌ عزَّ مطلبه ... والأنجُمُ الزُّهرُ في حافاته زَهَرُ[٣٥]

أما الثُّريَّا، فقد هام الشعراء بوصفها، وافتُتِنُوا بجمالها، فجاءوا بأوصاف متعددة لبيان صورتها، فالشريف العقيلي يدعو أصحابه للشراب على حُسْنِ منظرها، ويشبهها، والدُّجى يلفها من كلّ جانب، بصورة الشمامَة التي يلفها الياسمين الأبيض من كل جانب يقول:

اشرب على حُسْنِ الثُّريَّا قهوةً ... أحلى وأطيب من تلطُّفِ معرض

فكأنّما لما تبدَّتْ في الدُّجى ... شمامةٌ من ياسمين أبيض[٣٦]

---

(٣٢) ظافر الحداد: ديوانه، ص٩١: القواقع: ما يطفو على سطح الماء من حيواناته الصغيرة.

(٣٣) ابن سنان الخفاجي: ديوانه، ص١٤٩، الزّعف: دِقاق الحطب.

(٣٤) النويري: نهاية الأرب، ج١، ص٦٦.

(٣٥) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٦٢، الدّيجور: الظلام.

(٣٦) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص٩٢، القهوة: الخمرة.

وينتقل الشريف العقيلي ليجمع حُسْن منظر الثريا، ويبين مواطن جمالها مستعيراً لها عدة تشبيهات ما بين صورة خريطة الفضة وبنادق العاج يقول:

بَدَتْ الثُّريا والنجوم تَحفُّها والجو بين غياهب وديَاجي
فكأنّما هذي خريطةُ فضةٍ وكأنّما هذي بنادق عاجِ[٣٧]

ويشبّهها ابن أبي حصينة بثمر الصنوبر في شكلها، وبالدُّر في لمعان ضوئها يقول:

ونجمَ الثُّريَّا في السّماء كأنّهُ صنوبرة من ناصع الدُّرِّ أو قُراطُ[٣٨]

أما صورة الثُّريا حين أفولها، فيلتقط لها فتيان الشاغوري صورة الرّجل المريض الذي أنهكه المرض يقول:

ألسْتَ ترى الثُّريَّا وهي دون الصُّباح تنوء كالمعيِّ الطَّليحِ[٣٩]

والصوري يشبهها وهي تغربُ برأس فهد يركض باتجاه الغرب يرتفع تارةً وينخفضُ تارة أخرى، يقول:

والثُّريا خفاقة بجناح الـ ـغربِ تهوي كأنها رأس فَهْدِ[٤٠]

واستعار الشعراء صورة الجيوش لبيان صورة الثُّريا التي تتقدّمُ الفجر والدُّجى في المغيب، يقول ظافر الحداد:

كأنَّ الثُّريا تقدُم الفجرَ والدُّجى سوادُه فوقَ مُخمَرٌ من اللَّهَبِ
مُقَدَّمُ جيشِ الرّومِ أومى بكفِهِ لتهديد جيشٍ من بني الزّنجِ هاربِ[٤١]

---

[٣٧] المصدر السابق، ج١، ص٩٢، العاج: أنياب الفيل.

[٣٨] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢.

[٣٩] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٨٨، المعيّ: الشق في شفة البعير، الطليح: اشتكت بطونها من أكل الطَّلح.

[٤٠] الصوري (عبدالمحسن بن محمد بن أحمد بن علبون ت ٤١٩هـ): ديوان الصوري، تحقيق مكي السيد وشاكر هادي، ط١، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠، ص١٢٩.

[٤١] ظافر الحداد: ديوانه، ص٦، أومي: اشار

والناظرُ لصفحة السّماء لايفوته أن يذكر السَّاريا مع كلِّ ساري، والأنيس لكلِّ مستوحش، والمنافس لكلِّ حبيب، ينظر بعين واحدة إلى الناس، وينظرون إليه بعيون كثيرة، يرقبهم وحده، ويرقبونَهُ جميعاً.

والقمر سمير العشاق، وأنيس المسافر، ومؤانس المهموم، أما صورته من خلال صورة الحبيب فنرجئها للحديث عنها عند الحديث عن المرأة والطبيعة.

والمتتبع لدواوين هذه الفترة يرى أنَّ أشعارهم قد تناولت في غالبها صورة الهلال فنجد أكثر من عشرين مقطوعة تناولته بالوصف والتصوير في مواطن مختلفة، وقد أكثر الشعراء من التركيز على شكله، من خلال التشابيه الكثيرة التي تبارى الشعراء في إبرازها له، ومن ذلك وصف ظافر الحداد للهلال بنصف حلقةٍ عاجٍ أو معوجٍ صدع في زجاج صافٍ، يقول:

هلال يحاكي نِصْفَ حلقةِ عاج ومعوجَّ صَدْعٍ في صفاء زجاج
لقد دقَّ حتى أوْهَمَ العينَ أنّها تراقِبُ عَوْجَى شيبةٍ وحجاج[٤٢]

والهلالُ ابن ليلتين يستعير له ظافر الحداد صورة إنسان يمسك في فترةٍ تفاحة، يقول:

وبدا الهلالُ لليلتين كأنّهُ فِتْرٌ حوى تفاحةً من عنبرِ[٤٣]

وابن النبيه يُستعير له منظراً من صور الحصاد، فيصورهُ منجلاً يحصد النجوم يقول:

انظر إلى حسن هلال بدا يذهبُ من أنواره الحِنْدِسا
كمنجَلٍ قد صيغ من عَسْجَدٍ يحصدُ من شهب الدُّجا نرجسا[٤٤]

والشريف العقيلي، يستعير له صورة آلات الحرب، فيصوره بمقبض ترس من ذهب يقول:

وذي دلالٍ زارني من غير وَعْدٍ يرتقب
في ليلةٍ خلتها من بين أنياب النَّوبِ
كأنّما هلالُها مقبض ترس من ذهب[٤٥]

---

[٤٢] ظافر الحداد: ديوانه، ص٣٦٦.

[٤٣] المصدر السابق: ص١٣٢، وانظر نثار الأزهار، ص٥١.

[٤٤] ابن منظور: نثار الأزهار، ص٥٠، وانظر بدائع البدائه، ص١٨٧.

[٤٥] المصدر السابق: ص٥٠.

وابن الخياط يصوره بعاشق شَفَّهُ الهوى، أو كالحجل المفتوح من طرفه، أو الفتر أو القوس، يقول:

لاحَ الهــلالُ فمــا يكــاد يــرى ــــ ســقماً لصــبٌ شَــفَّهُ الخبَــلُ
كــالفتر أو كــالحجل قــد فتحــت ــــ منــه الكعــابُ لتدخُــلَ الرِّجْــلُ
والزهــرة الزهــراء تقدُمُــهُ ــــ فــي الجــوِّ وَهــوَ وارءهَــا يتلــو
كــالقوس فُــوِّقَ سَــهْمُها فبــدا ــــ متألِّقــاً فــي رأســه النَّصْــلُ[٤٦]

وللحياة الدينية جانباً في وصف الهلال، وإظهار صورته، فقد وصف الشعراء هلالَ العيد وراقبوه، وَهَلَّلوا لظهوره، يقول ظافر الحداد واصفاً هلال العيد الذي بدا من خلف الشفق:

هَلِّــلْ فهــذا هــلالُ العيــد عــاد بمــا ــــ قــد كُنْــتَ تُعَنِّدُ مــن لهــو ومــن طَــرَبِ
يلــوحُ فــي الأفــق الغربــي فــي شــفق ــــ كــالنون خطَّــتْ علــى لــوح مــن ذهــبِ
أو مــا يُحَــدِّدُ أصــل الظفــر حيــن بــدا ــــ نصــولُ حِنَّائِــهِ مــن كــف مُخْتَضِــبِ
أو حَلْقَــةٍ مــن لجيــنٍ ذابَ أكثرهــا ــــ لمــا تغــافَلَ ولقيهــا علــى اللَّهــبِ[٤٧]

ويقول يحيى بن سلامة:

تباشــروا بهــلال الفطــر حيــن بــدا ــــ ومــا قــام ســوى أن راحَ ثــم غــدا
كــالحُبِ واعــداً وصــلاً وهــو محتجــب ــــ فحيــن بــان تقــاضوه فقــال: غــدا[٤٨]

وصورة الهلال وقْتَ غياب الشّمس، تشبه زورقاً من ورق أخذ يتبع الشمس يقول ابن قلاقس:

وللهــلالِ فهــل وافــى لينقذهــا ــــ فــي إثرهــا زورق صيــغ مــن ورق[٤٩]

ويخاطب البهاء زير القمر بأسلوب فلسفيٍّ، لايخلو من الحكمة والموعظة يقول:

يــا أيهــا القمَــرُ الــذي ــــ قــد عــمَّ بــالنّور المبيــن
اللــه أكــبر ليــس يحــ ــــ صــى مــا أبَــدْتَ مــن القــرون

---

[٤٦] ابن الخياط: ديوانه، ص٢٨٢.

[٤٧] ظافر الحداد: ديوانه، ص٧، ص١٣٦.

[٤٨] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٤٨٧.

[٤٩] ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص٢٥٨.

كـــم قـــد رأيـــت مـــن الوجـــو ه وكـــم رآك مـــن العيـــون(٥٠)

وكأنَّ البهاء زهير يشهده على فناء البشر، وهو رغْمَ الزمان لايتغير ولايتبدَّل. أما منازل النجوم فقد ظفرنا بمقطوعتين، نظمهما أبو محمد المقدسي، ذكر منازلها وأسماءها يقول:

فَنَطـــحٌ وَبَطْـــنٌ والثريـــا ومِجْـــدَحٌ وَهَقْـــعٌ وهَنْـــعٌ والـــذِّراعُ ونـــثْرَهُ

وَطـــرفٌ محيـــطٌ والحـــرَانِ وَصَرْفَـــهُ وعَـــوَّاءُ يتلوهـــا السِـــماك وَغُفْـــرُهُ

زبـــاني وإكليـــلٌ وقَلْـــبٌ وشـــولَهُ نعـــائِمُ بلـــدانٍ وَسَـــعْدٌ ونحـــرهُ

وســـعدٌ وسَـــعْدٌ ثُـــمَّ سَـــعْدٌ وَفُرْغُـــهُ وَفُـــرْغٌ وحـــوتٌ نـــاصبٌ عَنْـــهُ بَحْـــرُهُ(٥١)

أما الشمس، فالتفت الشعراء إلى وصفها، ووصف شروقها، وغروبها، فهي مرتبطة بذاكرتهم إما بميلاد يوم جديد، أو أفوله، أو بمنظر جميل راح يتسلسل من خلف أغصان الشجر، فالقاضي الفاضل الذي ينعم بحياة رغدة، يرى نور الشمس يتسَلَّلُ إليه من بين الأشجار، فيستعير لها صورة السَّيف في يد إنسان خائف، يقول:

والشّـــمْسُ مـــن بيـــن الآراكِ قـــد حَكَـــتْ ســـيفاً صقيـــلاً فـــي يَـــدِ رعـــشٍ(٥٢)

وظافر الحداد وهو بين مُخْضَرِّ الأشجار، يصور طلوع الشمس، بنار قد شبَّت من وراء ثوب خلق بالي، يقول:

والشّـــمْسُ فـــي مِشْـــرِقها تجتلـــي فـــي حُلَـــل الأشـــجار فـــي الأحمـــرِ

كأنَّهـــا نـــارٌ وقـــد أُضرِمَـــتْ مـــن خَلْـــفِ ســـترِ خَلَـــقٍ أخضـــرِ(٥٣)

وتظهر براعة ظافر الحداد في التصوير ودقة الملاحظة عندما يصف الشمس ترتفع رويداً رويداً، عند شروقها، بسبيكة الزجاج الحمراء الذي ينفخ عليها الصانع كي تتسع يقول:

انظـــرْ لقـــرنِ الشـــمسِ بازِغـــةً فـــي الشَّـــرق تبـــدو ثـــم ترتفـــعُ

---

(٥٠) المصدر السابق: ص٢٥٨.

(٥١) ابن الشعار الموصلي: قلائد الجمان، ج٣، ص١٦٧.

(٥٢) القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص٤٤٠، رَعش: الذي يرتجف خوفاً.

(٥٣) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٦٠.

كســـــبيكةِ الزُّجـــــاجِ ذائبـــــةً حمــــراءَ ينفخهـــــا فتتَّســــعُ[٥٤]

وارتبط شروق الشمس عند الشعراء بطلوع الفجر، فطلوع الفجر إيذاناً ببزوغ الشمس أو قرب موعدها، فابن أبي حصينة يجعل من الصُّباح إنسان عليه ثوب مفتوق، يقول:

أرِقْـتُ لــه حتـى بـدا الصُّبـحُ طالعــاً عليـه مـن الظَّلْمـاء ثـوبٌ مفـرجُ[٥٥]

ويصور ابن هاني الفَجْرَ بالحسام الذي يتلألأ أو بالماء إذا تفجرا، يقول:

إلــى أن أطــلَّ الفجْــرَ فيــه كأنَّـــهُ حســامٌ تـــلألأ أو خليـــجٌ تفجـــرا[٥٦]

ويستعير البهاء زهير صورة النهر الجاري في بيان صورة بزوغ الفجر يقول:

وضــوء الفجْــرِ مثـــل النَّهــرِ جـــارٍ تـــرى بـــدر الدُّجــى فيــه غريقـــاً[٥٧]

ويشبهه ابن قلاقس بالفتاة التي أسفرت عن وجهها النقاب يقول:

زار وقـــد حـــطَّ نقـــاب الدُجـــى عـن وجـــهِ صُبـــحٍ مُسْـــفِرٍ ســـافرِ[٥٨]

ومنهم من استعار صورة ابتسامة الغادة السَّمراء وأصبغها على الفجر الذي يبدو من خلال الليل يقول الشاعر:

كأنَّـــه بظـــلام اللّيـــل ممتزجـــاً سـمراء تفـتر أبـدت مبسـماً شـنبا[٥٩]

وجعل الشعراء من الصُّباح، أحد الأوقات التي يطيبُ فيها الشراب، فابن الساعاتي يرى في الصّباح جيشاً جاء من جهة الشرق ليطرد جيوش اللّيل يقول:

نَضَــتْ يــدُ الشـــرق ســـوف الصُّبـــاح فمـــا علـــى الجنـــح المولّـــى جُنـــاحِ

---

[٥٤] االمصدر السابق: ص٣٧٢.

[٥٥] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٢٧، مفرج: مفتوق، أرق: ذهب عنه النوم في الليل.

[٥٦] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص٢٦٤.

[٥٧] البهاء زهير: ديوانه، ص١٨٣.

[٥٨] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٤٣٠.

[٥٩] ابن منظور: نثار الأزهار، ص٧١، الشنب: الأسنان البيضاء، رائحة الفم الطيبة.

وانتشـــرتْ أهـــدافُ أعلامِـــهِ مُصبغـــاتٍ بدمـــاءِ الجـــراحِ
كأنّمـــا الأُفـــقُ طَفَـــتْ زُهـــرهُ غديـــرُ مـــاءٍ باســـمٌ عَـــنْ أقـــاحِ
فـــاخلعْ عذاريـــكَ فقـــد فركَـــتْ غلائـــلَ المـــاء، أكـــفُّ الرِّيـــاحِ

وقـــد سَـــرَتْ بيـــن نجـــومِ الدُّجـــى نجـــومُ راحٍ فـــوق أفـــلاك راحِ[٦٠]

وكما جعلوا الصَّباح موعداً للشراب، جعلوه أيضاً موعداً لصيدهم، قبل أن تُبَكِّـرَ الطيورُ من أعشاشها، والحيوانات من أوكارها، يقول ابن قلاقس:

وقـد اغتـدى والصُبْـحُ خفـاق العَـذَبْ وعسـكر اللّيـل مُجِـدٌ فـي الهـربْ
وللـــدراري دُررٌ بـــلا ثُقَـــبْ براحـــة الأنـــوار راحـــة تنتهَـــبْ
كأنّهـــا فـــي لجـــة البَحْـــرِ حَبَـــبْ والـــورقُ فـــي أوراقهـــا ذاتُ صَخَـــبْ
حيـن رأتْ جيـش الدُّجـى قـد انقلـبْ إذا ضـــربَ السِّـــرحان فيـــه بذَنَـــبْ
والصُّبْـــحُ قـــد صـــالَ عليـــه وَغَلَـــبْ ففـــرَّ عنـــه وهـــو لايثنـــي الطَّلَـــبْ
كمـا تفـرُّ الزنـجُ مـن جـور العـربْ بِمُخْطَـفِ الكَشْـحَيْنِ مـن غيرِ سـغَبْ[٦١]

وكما أنَّ شروق الشمس ينتجُ عنه الفجر والصَّباح، فإن غروبها ينتج عنه ظلام وليـل مدلهم، فابن قلاقس يصورُ هذا المنظرالذي أعقبه طلوع الهلال، برجل أقرض مدينـه دينـاراً وأخذ رهنـاً لـه خلخالاً، يقول:

لاتظُـــنَّ الظـــلامَ قـــد أخـــذ الشّـــ ـمسَ وأعطـى النهـار هـذا الهـلالا
وإنّمـا الشـروقُ أقـرضَ الغـرب دينـا راً فأعطـــاهُ رَهْنَـــهُ خلخـــالا[٦٢]

ويصف نشوء الملك عل بـن المفرج الأفق ساعة الغروب؛ والشمس تميل إلى مستقرها، والهلال يبدو شيئاً فشيئاً، بالحلي المتلألئة، يقول:

وعشـــي كأنّمـــا الأفـــقُ فيـــه لازوردُ مُرَصَّـــعٌ بنضـــارِ!

---

[٦٠] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٠٨، اخلع عذارك: أي اتبع هواه وانهمك في الغي.

[٦١] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٧٨، جور: ظلم، السَّغب: الجوع.

[٦٢] العمري (ابن فضل الله العمري ت٧٤٩هـ): مسالك الأبصار، تحقيق، أحمد زكي باشا، ط١، مطبعة الكتب المصرية، ١٩٢٤، ج١، ص٢١١.

قُلْــتُ لمــا دَنَــتْ لمغربهــا الشَّــمسُ ولاح الهــــــلالُ للنُّظّـــــار
أقْــرضَ الشَّــرقُ صنــوه الغــرب دينــا رأ فأعطــاهُ الرَّهيــنُ نصــف ســوار(٦٣)

أما صفرة الشَّمس عند الغروب فيستعيرُ لها ظافر الحداد صورة عاشق هجره محبوبه، يقول:

والشَّــمسُ فــي المغــربِ مصفــرةً كعاشــقٍ مــن بُعــد محبــوبِ(٦٤)

ويصورها كذلك ظافر الحداد بوجه رجُلٍ رَحَلَ عن أوطانه، فظهرت عليه علامات الأسى والأسف، يقول:

والشَّــمْسُ فــي أفــق الغــروب كرجــلٍ مُتَأسِــفٍ بــالبين عــن أوطانــه(٦٥)

ومع أن الشُّعراء قد نظروا إلى صورة الشَّمس بالجمال والحُسْن، في شروقها وفي غروبها إلا أنَّنا نجد من الشعراء مَنْ نَظَرَ إليها نَظْرَةَ شؤم، وأخذ يذمها، ويعدد أوصافها السَّيئة، يقول ابن سناء الملك:

لاكــانت الشَّــمسُ فكــم أصــدأتْ صفحــة خــدٍّ كالحســام الصّقيــلِ
وكــم وكــم صَــدَّتْ بــوادي الكَــرَى طيــفُ خيــالٍ جــائني فــي خليــلِ
وأعدمتنــي مــن نجــوم الدُّجــى ومنــه روضــاً بيــن ظِــلٍّ ظَليــلِ
تكــذبُ فــي العهــد وبرهاتِــهِ أن ســربَ القفــرِ منهــا ســليل
وتَحْسَــبُ النَّهْــرَ حســاماً فــتَرْ تــاعُ وتحكــي فيــه قَلْــبَ الذليــلِ
إن صــدى الطــرفُ فمــا صقلُــهُ إلا التحلــي بمحيــا جميــل
وهــي إذا أبصرهــا مُبصــرٌ حديــد طــرف راح عنهــا كليــل
يــا غلــة الهمــوم يــا جلــدةَ الــ محمــوم يــازفرةَ صــبٍّ فحيــل
يــا فرحــةَ المشــرق وقــت الضُّحــى وســلجة المغــرب وقــت الأصيــل
أنــت عجــوز لــم تــبَرَّجَتْ لــي وقــد بــدا منــك لعــابٌ يســيل

---

(٦٣) المصدر السابق، ج١، ص٢١١، وانظر بدائع البدائه: ص٢٤٤.

(٦٤) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٢، وانظر ديوان ابن قلاقس: ج٣، ص٦١٥.

(٦٥) المصدر السابق، ص١٢.

وأنــــــتِ بالشـــــيطان قرنانـــــةٌ فكيــف تهدينـــا ســـواء السَّـــبيل[٦٦]

ومن ذلك نجدُ الشعراء قد تناولوا موضوع النجوم من عدة جوانب، ظهرتْ فيها الجوانب الإيجابية والجوانب السّلبية، ومن خلال الشعر النجومي استطعنا أن نتعرف على المعركة الدائرة بين أصحاب التنجيم ومن يؤمنون به من جهة، ومن خالفهم في الرأي من الذين يرون في هذه الأداء خروجاً على الاعتقاد الجازم بحرمتها والاتكال على الله في ذلك.

ثانياً: الجبال:

وصف الشعراء الجبال وصفاً دقيقاً نابعاً من خلجات أنفسهم؛ إذ أنّ الحديث عن الجبال يعبر عن حبّ الوطن، فمِنْ خلال هذا الحديث تَرِدُ الغربة النفسية والمكانية التي يعيش فيها الشاعر.

ولعل مصر تكاد تكون خالية من الجبال التي وصفها الشعراء، باستثناء جبل المقطم الذي دار شعرهم حوله، أما شعراء الجانب الشامي فقد أكثروا من وصف جبال بلادهم في أشعارهم مثل سنير، وقاسيون، والشراه، وجبال الثلج، وجبال لبنان"[٦٧] وأكثر مواطن ذكرها جاء من خلال الحنين الجارف لمدنهم التي عاشوا فيها فترة طفولتهم، ودرجوا بين ربوعها في شبابهم.

ومن الذين وصفوا جبل المقطم[٦٨] وبكوا على سفوحه بدموع سجام، أبو القاسم الحسين بن علي المغربي وزير الكامل، يرثي أهله الذين قتلوا بسفح المقطّم متخذاً من كربلاء والطَّفّ الذي قتل فيها آل البيت من أبناء الإمام علي رضي الله عنهم صورة للقتل الشديد الذي حلّ بآل المغربي بسفح هذا الجبل، فأخذ يبكيه علىطريقة شعراء الشيعة، يقول:

إذا كُنْــتَ مشـــتاقاً إلـــى الطَّــفِّ تائقــاً إلــى كربــلاء فــانظرْ عِــراضَ المقطَّــمِ
تــرى مــن رجـــال المغرّبـــي عصابـــةً مضرجــةَ الأوســـاطِ والصَّــدرِ والـــدَّمِ[٦٩]

وقال أيضاً يرثي أباهُ وعمه وأخاه ويذكر مكان قتلهم:

---

(٦٦) ابن سناء الملك: ديوانه: ج٢، ص٥٧٧.

(٦٧) انظر معجم البلدان للحموي، ج٥، ص١٧.

(٦٨) الاصطخري: المسالك والممالك، ص٤٠.

(٦٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ١٧٧. كربلاء: مدينة في جنوب العراق قتل فيها أبناء الإمام علي.

تركْــتُ علــى رغمــي كرامـــاً أعـــزَّةً   بقلبــي وإن كـــانوا بســـفح المقطَّــمِ[٧٠]

أما ظافر الحداد فلم ينظر إلى جبل المقطم نظرة المغربيّ، وإنّما نظــر إليـه مـن خـلال نزهـةٍ شَعَرَ من خلالها بالسّعادة تغمُرُ قلبهُ، فرأى عندها المقطَّمَ كأنَّهُ يميد مـن السَّعادة التـي يحياهـا، لـولا الوقار الذي حلَّ عليه إجلالاً للسلطان، يقول:

وكـــاد المقطّـــمُ أن يميـــد مَسَـــرَّةً   لـو لـم يُصِبْـهُ مـن لَدنُــكَ وقــارُ[٧١]

أما جبل جوشَنَ، فهو من جبـال حلَـبَ، وذكـره الشـعراء تعبيراً عـن اشـتياقهم لمدينتهـم التـي تغربوا عنها، وذكر حنينهم للمرأة التي تركوها في ربوعهم، يقول ابن سنان الخفاجي:

يـــا بـــرقُ طـــالع ثنيـــة جوشـــن   حلبـــاً وحـــيٍّ كريمـــةً مـــن أهلهـــا
واسـأله هَــلْ حمـل النَّسـيمُ تحيــةً   منهـا، فــإنَّ هبوبَــه مــن رُسُــلِها
ولقــد رأيـــتَ، فهــل رأيـــتَ كوقفــة   للبيـن يشــفَعُ هجرهــا فــي وصلهــا[٧٢]

ومنصور بن المسلم الحلبي، يذكُرُ عيون المـاء بسفح جوشن، ويتمنـى فـي غربـةِ الدِّيـار أن تعود تلك الأيام، يقول:

عســى مــوردٌ مـن سـفح جوشَــنَ نــاقعٌ   فــإني إلــى تلــك المــوارد ظمـــآن[٧٣]

والأمير أسامة بن منقذ، يذكِّرهُ أحد جبال الشام بوطنه الذي حرم منه، فيذكر شوقه إلـى أهلـه من خلال ذكر موطنهم، فمن خلال المقارنة بينه وبين جبل الأغر الذي لايشعر بأيِّ إحسـاس تجاهَـهُ، إنّما جبله فمكان للذكريات، وموطن للأهل، وبسفحه هام في صباه وشبابه، يقـول فـي مقطوعـة يذكـر من خلالها الآلام النفسية المحيطة به، حتى جعلته يصرخ في غربته بهذه الأبيات:

مـــالي، وللجبـــل الأغـــرُ، وإنَّمـــا   كـــلُّ الهـــوى جبـــلٌ أشَـــمٌّ بهيـــمُ
مـــوفٍ علـــى أرض الشَّـــامِ، كأنَّمـــا   جـــونُ السَّـــحائب فـــي ذُراه جُثـــومُ
مـــازال مَطْـــرَحَ نـــاظري حتـــى إذا   لاحـــت بفـــودي للمشـــيب نجـــومُ

---

[٧٠] المصدر السابق: ج٥، ص١٧٧.

[٧١] ظافر الحداد: ديوانه، ص١٥٢.

[٧٢] ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٨٦، وانظر ببغية الطلب في تاريخ حلب، ج١، ص٤١١.

[٧٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١١، جوشن: جبل يطل على حلب من غربها.

فارقْتُـهُ، ونـأيتُ عنـه، ومـا نـأى وجـدي بـه، وهـوى الكريـمُ كريـمُ
فـإذا ذكـرتُ النـازلين بسـهله وبهـم، وإن شَـطَّتْ لَسَـوَايَ أهيـمُ
دارت بـي الأرضُ الفضـاء، كأنّمـا بـي المـومُ أو لعِبَـتْ بـي الخرطـومُ(٧٤)

والعماد الأصفهاني يتخذ من جبل قاسيون رمزاً لحبيبته التي هجرته وقست عليه يقول:

إلامَ القسـاوة يـا قاسـيونَ وبيـن السَّـنا يتجلـى سـنير
لديـك حبيـب ومنْـك الحُبَـا وعنـدك حبـي وفيـك الحبـورُ(٧٥)

وأكثر الشعراء من ذكر بقية جبال الشام عن طريق ذكرها وهو راحل عنها، أو مقبلٌ عليها، وكأنّها آخر شيء يراه قبل أن يمتطي طريق السّفر، وأول شيء يراه عندما يحطُّ عنه وعثاء السّفر، وخيرُ من مَثَّلَ هذه الظاهرة ابن عنين، الذي قضى عمره بالتنقل بين الحواضر الإسلامية، ما إن يحط رحاله حتى يمتطي راحلته من جديد، معلناً ثورته على كلّ من حوله(٧٦) يقول:

وقـد خَلَفَـتْ رعـنَ المداخـل خَلْفَهـا وَنَكّـبَ عنهـا مـن عيـن سـنيرها(٧٧)

ويقول:

إذا جبـل الرَّيـانِ لاحـتْ قبابُـهُ لعينـي ولاحَـتْ مـن سـنير هضابـه(٧٨)

ويقول ابن أبي حصينة:

سـرينا وَهَضْـبٌ مـن سـنير أمامنـا ومـن خَلْفِنـا غُـبْرُ القنـان التنـائم(٧٩)

ومن الصفات التي امتازت بها جبال الشام ظاهرة الثلج المتراكم عليها، ومن ذلك جبال الثَّلج التي صورها ابن عنين ببقية الشيب الذي ذهب خضابه، يقول ابن عنين:

---

(٧٤) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٩٩: الأغر: جبل في بلاد طي به ماء يسقي نخيلاً يقال له المنتهب.

(٧٥) العماد الأصفهاني: ديوانه: ص١٩٠: قاسيون: الجبل المشرف على مدينة دمشق. الحبور: الجروح.

(٧٦) انظر الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: أحمد بدوي: ص٢٢٢.

(٧٧) ابن عنين: ديوانه، ص١٧: سنير: جبل بين حمص وبعلبك علىالطريق على رأسه قلعة سنير.

(٧٨) المصدر السابق: ص١٩.

(٧٩) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢٩، القُنُّ: الجبل الصغير جمعه أقناه، وقُنَن. التنائم: المتماثلة.

وقـــامت جبـــالُ لبنـــان زُهْــراً كأنَّهـــا   بقيَّــة شــيبٍ قـــد تلاشـــى خضابـــه[٨٠]

ويشبهها ابن أبي حصينة والثلج متراكم على ذراها بالعمائم البيض يقول:

فَلَّمـــا توسَّـــطْنَا اليفـــاعَ وأشـــرقَتْ   مذائِـــبُ مـــن لبنـــانَ بيـــضُ العمـــائم[٨١]

واتخذها الشعراء علامات وأدلة للتدليل على بعد مكان سكنى الحبيبة، يقول بن أبي حصينة:

وجبـــالُ الشـــراة مـــن دون مـــأ   تاهـــا فَرَيـــا فَـــرَدَّةٌ فـــالجواء[٨٢]

وربط الشعراء بين صفة الثبات في الجبال وثبات وحلم ممدوحيهم، ومن ذلك مَدْحُ ابن قلاقس للقاضي أبي المكارم في ثباته ووقاره في مجلس قضائه بثبات تخف عنه الجبال، يقول:

ومهـــا جلسْـــتَ لفصـــل قضـــاء   شـــفيْتَ السَّـــقيم وصنـــتَ الـــبَرى

وقـــارٌ تَخِـــفُ لـــه الراســـياتُ   وتســـكُنُ خافقـــة الصَّرْصَـــرِ[٨٣]

والعماد الأصفهاني يصف ثبات الحب في قلبه بأعظم من ثبات الجبال الراسيات يقول:

تـــزولُ الجبـــال الراســـياتُ وثـــابتٌ   رسييسُ غرام في فؤادي لكم أرسى[٨٤]

أما ابن الدَّهان، فيصور قدرته على تحمل الخطوبِ وصبره عليها بأعظم ما تَحَمُّلِ جبل رضوى، يقول:

صَبرْتُ علـى نُحْـتِ الخطـوبِ وبريقهـا   وإنْ كـان ثقـلاً ليـسَ يَحْمِلُـه رضـوى[٨٥]

أما عزيمة ابن قلاقس في مواجهة الخطوب، فهي أشدُّ ثباتاً من الجبال، يقول:

---

[٨٠] ابن عنين: ديوانه، ص١٩، جبال لبنان: جبال مطلة على حمص.

[٨١] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢٩، اليفاع: التلُّ المشرف، أو كلّ ما ارتفع من الأرض.

[٨٢] المصدر السابق: ج٢، ص١٢٣، جبال الشراه: جبال بين الشام والحجاز. ريا، فردّة، الجواء: أسماء أماكن.

[٨٣] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٤٣٦، الصرصر: الرّيح الباردة الشديدة.

[٨٤] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٣٠.

[٨٥] ابن الدهان: ديوانه، ص٨١.

ونقـــري الهُمـــومَ الطارقـــاتِ عزائمـــاً   تَهُـــدُّ الجبـــال الرّاســـيات بهـــا هـــدّا[٨٦]

ويسخر ابن حيوس من أعدائه بأسلوب تهكمي ساخر، وبيـان مـا يتصفـون بـه مـن خـور فـي قواهم، بعكس ما يدّعون من أنّهم جبالاً ثابتة عند الصعاب، يقول:

كـــانوا جبـــالاً مُثَّـــلاً وكـــأنّهُمْ   فـــي ذي الزّعـــازع إذا عَصَفْـــنَ رمـــادُ[٨٧]

وهكذا فإن صورة الجبال قد بدت من خلال حنيـن الشـاعر إلـى الوطـن والمرأة ومـن خـلال مناظرها وهي مكسوة بالثلوج، ومن خلال صفة الثبات التي وصفوا بها ممدوحيهم وقوة حُبِّهم.

ثالثاً: الهضابُ والأودية:

تطرق الشعراء إلى وصف الهضاب والأودية فـي هـذا العصـر من خـلال وصـف مضـارب الحبيبة التي اتخذت من هذه الهضاب والأودية أمكنة للسكنى، ومـن ذلـك وصـف التلعفـري لهضـاب رامة التي تتخذها معشوقته مكاناً لسكناها، يقول:

وَبِهُضْـــبِ رامـــةَ مـــن مضـــاربِ طيِّهـــا   يـــا ســـعدُ رِيـــمٌ منـــه لـــي بَخْـــتٌ شـــقيٌّ[٨٨]

وطلائع بن رزيك يدعو لهضاب الغوير بالسُّقيا، لأنها المكان الذي اتخذته محبوبته سكناً لها قبل الرّحيل، فتثير فيه الذكريات وأشجان الماضي، فيدعو لها بسحاب ماطر، يقول:

أجيراننـــــا بهضـــــاب الغُوَيْـــــر   ســـــقاكم حَيَـــا ديمـــــةٍ تهطِـــــلُ
منـــــازلكم بصميـــــمِ الفـــــؤادِ   إذا مـــــا نبـــــا بكـــــم مـــــنزلُ
وفـــي الجفـــن أمواهكـــم لاتغـــورُ   وفـــي الصَّـــدر نـــيرانكم تشـــتعِلُ[٨٩]

---

[٨٦] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٢٢٩.

[٨٧] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ١٢٨، الزعازع: الرّياح القوية.

[٨٨] التلعفري: ديوانه، ص٢٨، بخت: حَظّ أو نصيبٌ.

[٨٩] طلائع بن رزيك: ديوانه، ص١١٩. الغوير: ماء لكلب بارض السماوة بين العراق والشام.

والملك الأمجد يتخذ من حجم الهضاب تشبيهاً لعظم حجم ناقته، فيشبهها بهضاب رضوى يقول:

اثرها كالهضابِ هضاب رضوى   تَـؤمُّ بك المنازل والمرابع [٩٠]

ونظر ابن الخياط إلى الديمومة التي تتمتع بها الطبيعة الصامتة ومنها الهضاب، فجعل حَمْدَهُ لممدوحه مشابهاً لها في الدَّيمومة، يقول:

وجاعِلٌ حمدي ما بقَيْتُ مُخَلَّداً   عليكَ وما أرسَتْ هضاب أبان[٩١]

أما منظر الهضاب المتشابكة فيصورها العقيلي بالأمواج، فهي أخفَتْ خلفها أحبَّتَهُ كما الأمواج تخفي خلفها السُّفُنُ، يقول:

جرى نظري وراءَهمُ إلى أنْ   تكسَّرَ بين أمواج الهضابُ[٩٢]

أما الأودية، فتناول الشعراء لها جاء قريباً من تناول الهضاب والجبال، فقد وصفها الشعراء من خلال وصف ديار الحبيبة، فابن الساعاتي يصورُ وادي حبيبته بأبهى صورةٍ، وقد دبَّ النبات في ربوعه، وفتحت عليه السحاب عيونها، يقول:

أقولُ لواديها ودبَّ نباتُهُ   فحضرتُهُ مثل العذار على الخدِّ
وَظَلَّتْ ثغور الأقحوان بواسماً   لِحُسْنِ بكاء السُّحبِ من صَخَبِ الرَّعدِ
ولاح وميضُ البرقِ بين فروجها   كما سُلَّ سيفٌ تحت جانحتَيْ بندِ
وقد أرسَلَتْ قوس الغمامِ سهامها   فَكُلُّ غديرٍ جائل الطَّرفِ في سرْدِ[٩٣]

فالشاعر حتى يبعد الوحشة والغربة عن واديه، حَشَدَ فيه كثيراً من مواطن الحركة والصوت واللون.

ويدعو ابن قلاقس لوادي الغضا بالسُّقيا؛ لأنه الوادي الذي ارتبطت به ذكريات حبه الذي مَضَتْ أيامه، يقول:

---

(٩٠) الملك الأمجد: ديوانه، ص١٢٥. هضاب رضوى: هضاب في الحجاز.

(٩١) ابن الخياط: ديوانه، ص٢٨. أبان: جبل بين فيد والنبهانية أبيض.

(٩٢) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص٦٥.

(٩٣) ابن الساعاتي: ديوانها، ج١، ص٩٩.

أيهـا الغيـثُ إن طَرَقْـتَ تهامـة ... فاسـقِ وادي الغضـا وحـيِ خيامَـهْ
وأقـم برهـةً "بربـع" شـحاني ... بعـد يـأسٍ تذكـري أيامـهْ(٩٤)

أما وادي الآراك، فهو مكان سكنى لمحبوبة ابن أبي حصينة، التي تركته ورَحلَتْ فلم يصدق المنجمون في رؤياهم له، يقول:

تَفـاءلْتُ فـي وادي الآراكِ لعَلّنـي ... أراكِ فلـم يصـدق برؤيتـك الفـألُ(٩٥)

ونلاحظ أن الشعراء لم يأتوا بجديد في وصفهم للهضاب والأودية، وإنّما ساروا على طريق من سبقهم، ووصفوا أودية وهضاباً وقف عليها السّلف كوادي الآراك. ووادي الغضا، وهضاب الغوير.

رابعاً: الصحراء والسراب:

الصحراء بيئة العرب عاشوا في أكنافها، فجاء وصفهم لها وصفاً شاملاً، صوروا فيه حرها، واضطرابها، والخوف من قطع سبابها، وسجلوا آلامهم وغربتهم من خلال صورتها، فجاء وصفهم نابعاً من أعماقهم، معبراً عما يجيش في صدورهم.

وجاء وصف الصحراء من خلال وصف الرّحلة، وما تعرضوا له في طريقهم، فتبدو الغربة التي تلف المكان، المنفتح أمامهم، لا أنيس فيها ولاجليس، لاترى فيه إلا عزيف الجّنّ، وصوت الرّياح، يعزفان على أوتار الخوف عند الشاعر، والشاعر يجمع جزيئات الصوت في هذا المكان القفر حتى يزيد من الرّهبة والخوف في القلوب، ويدلل على أن الرّحلة كانت شاقة ومخيفة، يقول الحكيم:

كـم مَهْمَـهٍ قـذف تمشـي الرّيـاح بـه ... حسـرى تلـوذُ بأكنـاف وأجـزاعِ
لايملـكَ الذّمْـرُ فيـه قَلْبَـهُ فَرَقـاً ... ولايهيـمُ بـه طـرفٌ بتهجـاعِ

---

(٩٤) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٢٠: تهامة: تساير البحر ومنهامكه. وادي الغضا: وادٍ بنجد.

(٩٥) ابن أبي حصينة: ديوانه، ٢، ص٢٧، ص١٨٦. وادي الآراك: واد قرب مكة.

يبيتُ للجنِ في أرجائِهِ زَجَلٌ   كالشَّربِ هُزَّ بتطريبٍ وإيقاعِ[٩٦]

وينقل ابن أبي حصينة صورة أخرى للصحراء من خلال الأجواء التي أثارت في نفسه الرُّعب والخوف، فبالإضافة إلى عزيف الجن، مُضَيِّعة لطرّاقِها، مَن شدة الغبار الذي تثيره رياحُها، ومن تشابه معالمها، حتى ليحار في قطعها الدّليل الذي خَبِرَ معالمها، يقول ابن أبي حصينة:

كأنَّ عزيفَ الجِنُ في فلواتِها   دفوفٌ تغنَّتْ للندامى بها الزُّطُّ
يحارُ دليلُ القوم فيها إذا طفا   بها الآلُ واغبرَّتْ ديامُومِها المُلْطُ
وطار سفا البهميُّ بها فكأنَّهُ   إذا عَصَفَتْ ريح الجنوب لَحْنُ سنط
إذا ماقطعنا حِقْفَ رَملٍ بدا لنا   على إثره حِقْفٌ من الرمل أو سقط[٩٧]

ويصورها كذلك في مقطوعة أخرى أكثر وحشية وغربة من سابقتها، فهي صحراء لم يَؤُمها مسافر من قبل، ولم يسكن فيها أحد، ولم يدق فيها وتداً لبيت، فلا يرى فيها سوى السَّراب كأنَّه بَحْرٌ، يقول:

مجهولة البيْد لم تُمدَدْ بها طُنُبٌ   من الغريب ولم يضربْ بها وَتَرُ
كأنَّما الآلُ فيها حين تنظُرُهُ   يَمٌّ وَمَوَّارُها من فوقِهِ زَبَدُ[٩٨]

ويصفها ابن أبي حصينة كذلك في مقطوعة أخرى بصحراء قفر، لاترى للحيوان والطَّيرُ فيها من أثر، يقول:

وداوية ياسَلْمُ قَفْرٍ كأنَّها   بِرَأْدِ الضُّحَى بحرٌ من الآل طافِحُ
بمهلكة لا السِّيد فها مصوتٌ   ولا الطَّيرُ فيها في ذرى الأيل صادح[٩٩]

---

[٩٦] الحكيم: ديوانه: ص١٢٠، مَهْمَهٌ: صحراء، أجزاع: محلة القوم، الوادي.

[٩٧] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١١، حقق: ما أعوجَّ من الرمل، الزُّطُّ: صوت الذباب. البهميُّ: نبات يشبه الشعير، حقف: ما غلظ من الأرض وارتفع.

[٩٨] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٠٥: الطنب: حبل البيت، الآل: السراب، الموّار: الغبار.

[٩٩] المصدر السابق: ج٢، ص١٥٢، ص١٧٢، ص٢٢٥، رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء، السِّيد: للذئب.

وقفرها ناتج عن قلة مَطَرِها، يقول ابن حيوس:

وخطيطــةٍ ضـــنَّ الغمـــامُ بريِّهـــا　　　خلفتهـــا خلفـــي وَسِـــرْتُ مُتَمِّمـــا
أرضــاً إذا مـــا الـتُّربُ أجْـدَبَ أخْضَبَـتْ　　　بنـدىً إذا مـا الغيـثُ أنجَـمَ أنجمـا[١٠٠]

أما المَعْلَمُ الآخرُ من معالم الصَّحراء بالإضافة إلى قفرها، وغربتها، حراراتها الشّديدة التي بدت لفتيان الشاغوري كنار جهنم، يقول:

بهـــاجرة مثـــل نـــار الجحيـــم　　　إذا مـا انتصـاف النهـار اصطلاهـا[١٠١]

ويقول في ذلك ابن حيوس:

فَهُـمُ ببيـدٍ يصطلـونَ بمـا جنـوا　　　فيهـا إذا حَمِـيَ الهجـيرُ جَهَنَّمـا[١٠٢]

أما اتساعها وترامي أطرافها، فيصورها ابن أبي حصينة بالبحر، حينما يبدو السَّرابَ يتموج على سطحها من شدة الحرارة، يقول:

وفـــلاة كأنّهـــا لُجَّـــة اليــــ　　　ــم عليهـا مـــن السَّـــراب أيـــاءُ
تعـزفُ الشّـمس فـي أواذيِّهـا الغـــ　　　ــرُّ وترمـي شـــارها الرّمضـــاءُ
ذاتِ جـــنٍّ إذا اعتكَـــرَ اللَّيـــ　　　ـلُ اليـلُ مُرَجِّـعٌ وغنـــاءُ[١٠٣]

أما السَّرابُ فقد تطرق الشعراء إلى وصفه من خلال وصف الصحراء، والرِّحلة، ورواحلهم تخوض به كالسَّفينة في البحر، ومن ذلك صورة الرّواحل والسَّراب كما صورها ابن قلاقس، يقول:

تلـــوحُ كالسَّـــفين فـــي الآل إذا　　　نَظَرْتَهَـــا يومـــاً إذا الآلُ طَغَـــا[١٠٤]

ويستعين فتيان الشاغوري بصورة البحر والسُّفن والأصداف ولؤلؤها في إظهار صورة الهوادج والسَّراب يلفها من كلِّ جانب، يقول:

---

[١٠٠] ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ص٥٣٩، ضَنَّ: بَخِلَ.

[١٠١] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٥٦٥، وانظر ديوان ابن أبي حصينة: ج٢، ص٢٣٢.

[١٠٢] ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ص٥٤١.

[١٠٣] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢٧، اليم: البحر، الرمضاء: الحرارة الشديدة، اعتكر: أظلم

[١٠٤] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٩٠.

فهُـــنَّ بـــأصدافِ الهَـــوَادجِ لُؤلـــؤٌ   ســفائنُهُنَّ النُــوقُ والأبْحُــرُ الآلُ[١٠٥]

والعربي يعرفُ أنَّ السَّراب نوع من الوَهَمُ الذي تُوهِـمُ الصحـراءُ بـه ناظرهـا، فيتَّخِذه رمـزاً للخداع والمكر والكذب، ومن ذلك قول الحكيم:

فمــا وَجَــدْتُ ســوى قــوم إذا صدقــوا   كـانت مواعديهـم كـالآل فـي الكـذب[١٠٦]

ونرى أنّ صورة الصحراء والسَّراب، الواحد منها مكملاً للآخر، والشعراء يربطون السَّـراب بالصحـراء، والصحراء بالسَّراب، ليبدو من خلالهما الخوف والرَّهبة التي تَعُمّ المكـان، والغربـة التـي يعيش فيها الشاعر.

خامساً: الأطلالُ والمنازل والدِّيار:

يَسيرُ شعراء هذا العصر الـذي تـدور حولـه الدراسـة، علـى نـهج القدمـاء فـي الوقـوف علـى الأطلال أحياناً ويهجرون هذا المنهج أحياناً أخرى، فهم طوراً يبكون ويستبكون غـيرهم عنـد وقوفهـم عليها، وطوراً تستهويهم حضاراتهم، فيدعون إلى نبذ كلّ ما هو قديم، والالتفات إلى مباهج الحياة فـي بلادهم، وإلى الطبيعة الخلابة التي تسحر الأنفس، وتبعث السُّرور، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ غالبيـة الشعراء في بيئات هذه الدراسة يقفون على الأطلال ويبكونها، ويصورونها، ذاكرين آلامهم وأحزانهم من خلالها، متخففين من بعض قيود القصيدة القديمة، فجاء وصفهم لها بلغـة سـهلة سلسـلة، واصفيـن الحقب التي مرت عليها وأبلتها وتركتها رسوماً دوارس، يقول ابن قلاقس:

لمـــن رســـومُ الدِّيـــار بـــاللُّبب   قــد دَرَسَــتْ مــن تعــاقب الحِقَــب[١٠٧]

وساد الشعراء في هذا العصر على طريق من سبقهم في تتبع الأسماء التي وقفوا عليها، وهي الأسماء نفسها التي تطرق الشعراء لها من قبل، فابن قلاقس يذكر ديار حبيبته ويحدد مكانها بكلّ دقة، وكأنهُ يريدُ أن يُعرِّفَ بديارها قبل أن يُعرِّفَ بها، يقول:

---

[١٠٥] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٢٩، وانظر ديوان ابن أبي حصينة: ج٢، ص٥٣، ص٤٨.

[١٠٦] الحكيم: ديوانه، ص٥٩.

[١٠٧] ابن قلاقس: ديوانه: ج١، ص٢٨١، اللُّبب: اسم موضع هكذا ذكره ياقوت الحموي.

إلـــى ديـــارٍ بيـــنَ الصِّفـــاحِ فـــذا تِ الخـــالِ فـــالرَّقمتينِ فـــالكُتُبِ
فـــالجزعِ فـــالمنحنى فبرقـــةِ تيـــماءَ، فـــوادي الآراكِ فـــاللَّببِ
فـــالمدبرين اللذَيْـــنِ جادَهُمـــا مُلِـــثٌّ وَدْقٍ بواكـــفٍ سَـــرِبِ(١٠٨)

ثم يستعير ديار المالكية، ليرمزَ بها إلى ديار حبيبَتِهِ التي لايستطيع البوحَ باسمها يقول:
أليســـتْ ديـــارُ المالكيـــةِ هـــذِهِ أو الطَّرْفُ من دون الثَّرَى لك حارس(١٠٩)

ويقف كذلك على بطن لعلع الذي له فيه ذكريات هاجتْهُ، وشعر الناس بذلك، يقول:
يقـــولُ أنـــاسٌ لَعَلَـــعَ هاجَـــهُ أكُـلَّ مكـان عندهـم بطـنُ لعلعـا(١١٠)

وَيُصَرِّحُ ابن أبي حصينة، أنَّ خلو المكان من ساكنيه الذي تَعَوَّدَ على لقائهم فيه، يثير في القلوب الحزن والأسى من هذا المنظر الخرب الخالي، يقول:
أهـــاجَكَ بـــاللوى الرَّبْـــعُ الخلـــيُّ فَقَلْبُـــكَ مـــن تذكـــره شَـــجِيُّ(١١١)

ويذكر ربوعها بالأجزعين وأطلالها فيقول:
ربـــوع لكـــم بـــالأجزعين وأطـــلالٌ سَـــقاهُنَّ مُنْهَـــلُّ الشَّـــآبيب هَطَّـــالُ(١١٢)

ويذكر أطلاله بصحراء النُخَيلةِ وربوع الرَّقتين فيقول:
ومهمـــا تَبَخَّلَـــتِ الرَّبـــابُ مِزرِبَـــةً طلـــولاً بصحـــراء النُّخَيْلَـــةِ مُثَّـــلا
وَعُـــجْ عَوْجَـــةً بـــالرَّقتين فَسْـــقِّها حيـــاءً إذا جَلجَـــلُ الرَّعْـــدُ اسْـــبَلا(١١٣)

أما منازل الدِّيار التي مرَّ عليها ابن الخياط، فهي بسفح جبل إضم، دمنٌ دوارس، يقول:

---

(١٠٨) المصدر السابق: ج١، ص١٦٤. برقة: من نواحي اليمامة، الجزع: عدة مواضع في الجزيرة.
(١٠٩) المصدر السابق: ج١، ص١٦٤.
(١١٠) المصدر السابق: ج١، ص١٨٢. لعلع: جبل، أو ماء في البادية.
(١١١) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٤٨، اللوى: منقطع الرَّمل، وهو موضع بعينه ذكره الشعراء.
(١١٢) المصدر السابق: ج٢، ص٤٦.
(١١٣) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٥٢. النخيلة: موضع قرب المدينة على سمت الشام.

يـا حبـذا مـنزل بالسَّـفحِ مـن إضـمٍ   ودِمْنَـةٌ بلـوى خَبْـتٍ وتعشـارِ[١١٤]

أما المنظر العام للديار بعد رحيل ساكنيها، فهي ربوع دوارس خوالٍ كالبرود القديمة التي أبلاها طول العهد، يقول ابن أبي حصينة:

ربـع تَعَفَّـتْ بـاللِّوى عهـودُه   وأصبحَـتْ منهجـةً بـرودُه[١١٥]

أما بقية الأطلال التي وقف عليها ابن قلاقس، فبدت لعينه كأسطر الكتابة في الصحف يقول:

بـدت لعينيـك وهـي مزمنـةً   آثارُهـا كالسـطور فـي الكتـب[١١٦]

وبدت الدمنة التي عفاها الزمان ومحى معالمها، لعين الشاعر بقايا خضاب في ظاهر اليد، يقول ابن قلاقس:

دِمنَـةٌ أقـوتْ فـأضْحَتْ   مِثْـلَ آثـار الخضـاب[١١٧]

ويصور ابن أبي حصينة أطلال بلدةٍ، وخلوها من ساكنيها، يظهر الظبي الأجرد الخالي من الشعر، تثير الخوف والرُّعب في قلوب من مَرَّ من عندها، يقول:

وبلـدةٌ كسـراة الظبـي عاريـةٌ   ذَعَـرتُ غيلانهـا بـالعرمِس الأُجُـدِ[١١٨]

ويشبهها كذلك بالثوب الذي أبلاه صاحبه من كثرة الاستعمال حتى تقادم وأصبح خلقاً بالي يقول:

لقـد انهجَـتْ بعـدي كمـا أنهـجَ الصِّبـا   فَهُـنَّ وأيـام الشـبيبَةِ أسْـمَالُ[١١٩]

---

[١١٤] ابن الخياط: ديوانه، ص١٥٤.

[١١٥] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٤٩، منهجةٌ: خَلِقَةٌ، عَفَت: درست.

[١١٦] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٨١.

[١١٧] المصدر السابق: ج١، ص٣٥٤، أقوت: خلت من ساكنيها.

[١١٨] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢٣، سراة الظبي: ظهره، العرمس الأُجُد: الناقة القوية.

[١١٩] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٦.

أما فعل الزمان في عرصاتها، وتركه بقية قليلة ظاهرة للعيان منها، فيصوره ابن أبي حصينة بالبرود الحمراء أو الصفراء المخططة يقول:

كـــأنَّ بقيـــة العرصـــات فيـــه — علـــى الأزمـــان بُـــردٌ أتحمـــي(١٢٠)

ويصور الحصكفي أنواءها بالأساور التي ترتديها النساء في أرجلها وأيديها، لأنَّها تشبه الشكل الذي عليه أقنية الماء، أما بقية أطلالها فيشبهها بحمام راقد على الأرض، يقول:

كـــأنني بيـــن الطُّلـــول واقفـــاً — أندبُهُـــنَّ الأشـــعثُ المقلّـــدُ
كأنّمـــا أنواؤهـــا خلاخـــلٌ — والمثُـــلُ السُـــفْحُ حمـــامٌ رُكَّـــدُ(١٢١)

وتعرض الشعراء إلى ذكر العوامل الطبيعية التي ساعدت على دُروسها، وهي ذاتها في كلِّ زمان الرِّياحُ والأمطار، فابن قلاقس في تصويره لأطلاله التي لم يبق منها سوى نؤى الماء، ومستوقد النار، والسَّبب في اندثارها الرِّياح التي تسفي عليها الرِّمال وغيرها يقول:

لـم تبـقِ مـن رسـمها الرِّيـاحُ سـوى — نـؤى فمســتوقد فمحتطـــب(١٢٢)

ويلقي القاضي الفاضل باللائمة على الرِّياح في تعفية الأطلال حتى لم يبق منها شيئاً تعرف به يقول:

ولقـد عفَـت، وذيـول الرِّيـح إن سُـحِبَت — لـم يَبْـقَ مـن رسـمِها بـاقٍ يُعثِرُهـا(١٢٣)

ويربط ابن قلاقس في تعفيتها بين الرِّيح من جانب والمطر من جانب آخر يقول:

ودع عنـــد ذِكْـــرِ مـــنزلٍ بـــالأبرقِ — أماتَـــهُ حيـــا الســـحابِ المغـــدقِ
وكـــلُّ ريـــحٍ دائـــبٍ مُصَفْـــفِ — فصـــارَ بَعْـــدَ جـــدةٍ فـــي خلـــقِ(١٢٤)

---

(١٢٠) المصدر السابق: ج٢، ص١٤٨، العرصات: ساحات الدار، الأتحمي: الأحمر أو الأصفر المخطط.

(١٢١) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١٩٢، الأنواء: مجرى الماء.

(١٢٢) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٨١.

(١٢٣) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٤٢، يُعثِرُها: يدلُّ عليها.

(١٢٤) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ٣٤٨.

ولإكمال الصورة التي وصفها الشاعر، لابد من ذكر الظواهر الطبيعية التي حلت مكان ساكنيها، من حيوان، وطير، وأمطار، فالشاعر على ما نظن جاء بهذه المخلوقات في هذا المكان القفر، ليبعد الوحشة والغربة عنها وعن نفسه التي امتلأت بالكآبة فهذا المنظر كان بالأمس يَضُجُّ بالأوانس والساكنين، فابن قلاقس يصور السَّحاب الهاطل على الرسوم بالخمر والعسل يقول:

جرى السَّحابُ على رسو م رُبوعِها خمراً وشهداً(١٢٥)

أما القاضي الفاضل فينظر إلى السَّحاب على أنه عبرة أرادها الله عز وجل، في بعث الحياة من جديد في هذه الأطلال بعد موتها يقول:

كم للسحائب عند الدّار مِن قَنَنٍ مشكورة، ولسانُ الرَّوضِ يشكرها
والدار كالساكنيها، حُكْمُ خالِقِها يميتها، وإذا ما شاءَ ينشرُها(١٢٦)

وأثار الأمطار التي هطلت على الأطلال، غيرت وجهها الأغبر إلى حلل خضراء عند الرَّبيع، يقول ابن قلاقس:

لبست معلم الرَّبيعِ ولم ألـ بَسَها فيه المعلَّمَ المعلُومَا(١٢٧)

ويصور ابن قلاقس حيوانها ونباتها، عندما قَدِمَ الديار في المرة الأولى، وهي عامرةٌ بأهلها، والظباء كوانس، والغصون موائس، أما أطلالها اليومَ، فظباها نوافِرٌ وغصونها ذاوية، بعدما هجرها أهلها، يقول مخاطباً رسوم الأطلال:

لكِ اللهُ ما بالُ الظِباءِ نوافِراً بربعِكِ قد أضْحَتْ وهن كوانِسُ
وَغُصنُكِ ذاوٍ والثرى ولطالما أتيناكِ قِدَماً وهو ريَّانُ مائِسُ(١٢٨)

ويربط القاضي الفاضل بين صورة العروس وحسنها وصورة الأطلال التي تنتشِرُ في عرساتها النباتات الزاهية الألوان، يقول:

---

(١٢٥) المصدر السابق: ج١، ص٤٠٣ وانظر ديوان ابن أبي حصينة: ج٢، ص٥٢.

(١٢٦) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٤٢.

(١٢٧) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٧٧.

(١٢٨) المصدر السابق: ج١، ص١٦٤.

مـا أنـت إلا عـروس، والرَّبيـعُ لهـا ... فـي كـلِّ يـوم بمـا يَشْـرِي يُشَـوِّرُها[١٢٩]

ويصور ابن أبي حصينة حالة الجوع التي تُصيب حيوان الأطلال ونباتها، إذا لم تجُدْ عليه السّماء من غيثها، فتبدو جافة العود، طاوية البطون، يقول:

طاويـةٌ آسـادُهُ وسـيدُه ... ماطَلَـهُ الغيـثُ بمـا يجـودُ

فَغَـبَّ مرعـاهُ وجـفَّ عُـوده ... وذمَّـهُ للحـيِّ مـن يَـرُودهُ[١٣٠]

والمتبع لدواويـن هـؤلاء الشـعراء يجد أنَّ أبيـاتهم الطلليـة، كـانت فـي غالبهـا تقليداً لشـعراء العصور التي سبقتهم، مع التخفف من الكثير من التقاليد التي ورثوها، فجاء وصفهم لهـا فـي صـور واضحة المعالم، ولغة سهلة واضحة، لاتحتـاج إلـى كبير عنـاء لفهم معناها، وابتعدوا عن الغريب والحوشي الذي كثر في شعر العصور السابقة.

والنظرة الثانية في تصوير الشعر الطَّللي، هي الثورة عليه والتهكم علـى مـن يقف عليه فـي ظـل الحضـارة التـي يحيـون فـي ظلالهـا، فـالتلعفري، يسـخرُ مـن الذيـن يذكـرون العقيـق، والمنـازل الدّوارس فيه، ويلهجون بهوى نعم وجبل نعمان، ويتركون المتنزهات بجيرون، وماء بردى، يقول:

ياصـاحِ دعنـي مـن ذكـر العقيـق ومـن ... منـازل ليـس لـي فـي نعتهـا شـان

مـالي ومـالربوعٍ لسـت أعرفهـا ... مـا الحـبُّ نعـم ولا الأوطـان نعمـان

مـالي وفـوج حمـام الـدوح يذكرنـي ... منـون عصـر تولـت وهـي أفنـان

يهيـجُ بـالليل شـوقي إلـى بـردى ... إنـي ومـن بـردة ظمـآن لهفـان

اللـه يـاورقُ فـي عـاني الحشـا وصـبٍ ... صـبّ لـه بربـا جـيرون جـيران[١٣١]

ومن ثم يذكر الشاعر في قصيدته الملذات الأربع الذي يحياها بعيداً عن الأطـلال الدارسة والربوع الخربة، يقول التلعفري:

---

[١٢٩] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص١٤٢. شوّر: الحسن الجميل المنظر.

[١٣٠] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٤٩، وانظر خريدة القصر، قسم شعراءالشام، ج٢، ص٤٩٢. يروده: يستطلع أمره.

[١٣١] التلعفري: ديوانه، ص٤٤، ص٢٥. نعمان: واد بين مكة والطائف: جيرون: أحد أبواب دمشق.

يدعوك فيها إلى اللذات أربعةٌ	بيع الحياة بها ما فيه خسران
ظلٌّ ظليلٌ وماءٌ باردٌ غدقٌ	وجوسقٌ مشرفٌ عالٍ وبستان(١٣٢)

ويدعو ابن منير إلى وصف مُدُنِهم، وديارهم، ومتنزهاتهم، وحياتهم العذبة المفعمة بالنعماء في "جيرون، والنيربين، ومقرى، والسَّرير، وجمرايا، وجسرين، والقصر والمرج، والميدان، والشرف الأعلى، وسطرا، وجروانا، وقلبين، والماطرون، وداريّا ودير قانون، ودير قران، وأعياد الشعانين، ثم يقول بعد ذلك:

تلك المنازل لاوادي الآراك ولا	رمل المصلى ولا أثلات يبرين(١٣٣)

وابن قاضي داوا يدعو إلى نبذ القديم، وذكر قصص الحبّ التي تدور على ألسنة الناس، والالتفات إلى ملذات الحياة يقول:

خلني من ذكر غيلان ومي	واطوِ عنّي بالهوى أخبار طي
أنا مالي ولأيام الحمى	ما الحمى عندي ولا الجزع بشي
مُلكُ آثار أُناسٍ درسوا	وطوتْهُم حادثاتُ الدهرِ طي
هاتِ باللهِ أحاديثَ الحمى	فَهْيَ أشهى من أحاديث لؤي
واسقني صهباءَ تبدو كأسُها	فكأنَّ النارَ تذكي يا أُخَيْ
مِن يَدَيْ معتدل القَدِّ فإن	عطّفَتْهُ نشوةٌ مال إليّ(١٣٤)

وابن قسيم الحموي لاتفتنه مباهج العصر ليدعو إلى نبذ الأطلال، وإنما يدعو إلى نبذ الأطلال لاتخاذ الحكمة والموعظة والزهد، والاتعاظ من صروف الدّهر بديلاً عنها، فالدموع على الحجارة لاينفع، والصّبر عليها مضيّعة للوقت يقول:

يا باكيَ الدارِ بكاظمةٍ	وبكاء الدار من الكَمَدِ
أفنيْتَ الدَّمْعَ على حجرٍ	واضعْتَ الصَّبر على وَتَرِ
فاظفر مخافةَ نازلةٍ	أأمنْتَ اليوم صروف غير

(١٣٢) التلعفري: ديوانه، ص٤٤، جوسق: القصر.

(١٣٣) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص١٧٢.

(١٣٤) ابن الشعار الموصلي: قلائد الجمان، ج٣، ١٨٣، وانظر ديوان ابن قلاقس، ج١، ٣٤٩.

هـــي عَيْنُـــكَ لـــو لـــم تُجَـــنْ لمـــا عـــــاقَبَتْ جفونـــــك بالسَّـــــــهد
فــــأتيْتَ المـــــاءَ تحاولــــــه والمـــــاءُ مُنْيَـــةَ كـــلَّ صـــد(١٣٥)

والمسألَةُ بين الجديد والقديم لم تُحْسَمْ في هذا العصر، بل بقيَ الشـاعرُ نَفْسُهُ يصـف الأطـلال تارة ويثور عليها تارة أُخرى، والشعراء على كلِّ حـالٍ لـم يصفـوا الأطـلال عـن تجربـة، وإنمـا جـاء وصفهُمُ وصورهم من باب التقليد.

سادساً: الرحلة:

الرِّحلة من مقومات القصيدة العربية التي اهتم الشعراء بإيرادهـا فـي قصـائدهم، ونكـاد نقـول أنّها محطة الوصف في القصيدة فمن خلالها وصف الشاعر راحلته وما تعرضت له من تعب وجـوع وعطش، ووصف الصحراء المترامية الأطراف، بحيوانها وطيرها، وهجيرهـا الـذي يكـوي الوجـوه، وسرابها الذي ينتشر كقيعان الماء. ومن خلالها وصف الشعراء صبرهم وقوة تحملهم في وجه أعبـاء الطبيعة التي تحيط بهم من كلِّ جانب، وتظهر من خلالها الغربة النفسية التي يعيش فيها.

وقد أطال الشعراء في وصفهم حتى يسبغوا علـى رحلتهـم أجواء الصِّدق والاقنـاع. واختـار الشعراء اللّيل ليكون وقتاً لسَيْرِهم "لأنَّ اللّيل هو وقت الرّاحـة عنـد جميـع البشـر، ينـامون فيـه قريـرةً أعينهم، وهم وحدهم يعانون مشقة السّهر"(١٣٦) والتعب حتى يظهروا مدى تجلدهم وصبرهم.

وقد تباين شعراء هذا العصـر فـي وصفهم للرحلة، وأتـت أوصفـاهم وصورهـم متحللـة مـن الكثير من أجزاء الرِّحلة التي حَرَصَ شعراء العصور الأولى على إبرازها عند الحديث عن الرِّحلَـةِ، فقد تخففوا من ذكر موعد الرِّحلة إلى أقصى درجة، ومن ذلك وصف ابن الخياط لموعد رحلته الـذي جاء قبل أنْ يبزغ الفجر، يقول:

ولقـــد ســـريْتُ إذا السَّـــماءُ تخالُهـــا بُـــرْداً براكـــدة النجـــوم مشـــبرقا(١٣٧)

(١٣٥) ابن قسيم الحموي: ديوانه: ص٤٧، كاظمة: على سيف البحر في طريق البحرين.

(١٣٦) أنور عليان أبو سويلم": الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، ص٤٤.

(١٣٧) ابن الخياط: ديوانه، ص٥، ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ١٧٦، شبرق: الممزق.

أما الرّاحلة، فهي الناقة التي يجوب بها الصحراء، يرى الشاعر فيها مرآةً لنفسه، فما أن يشعر بألم الغربة وحيداً، حتّى يصفها وما تعرضَتْ له في قطع البيد، وقد بدت صورة رواحلهم في ضمورها كالأهلة"[١٣٨] وقد مرَّ عند وصف الإبل أوصاف كثيرة وصف الشعراء بها رواحلهم.

أما ابن حيوس، فنتيجة للحالة النفسية التي مرّ بها في رحلته، سولَتْ له نفسه بأنَّ اللّيالي التي قطعها لم تكن سبعاً، بل هي السّبع العجاف التي مَرَّت على مِصْرَ زمن سيدنا يوسف عليه السّلام يقول:

فاعلات بهنَّ سبع ليالٍ   فِعْلَ سبع من السِّنين عجاف[١٣٩]

وقد وصف الشعراء فضلاً عن ذلك رواحلهم بالقوة والنشاط والسُّرعة، فهي رياح وخيول[١٤٠]، وسهام[١٤١]، وطيور[١٤٢]، وبروق[١٤٣]، ووصف الشعراء في معرض وصفهم للرحلة الصحراء وحيواناتها، وطيورها، وحرارتها، وسرابها، فنجد وصفهم لها جاء غاية في الدقة والبراعة[١٤٤].

ووصف الشعراء اللّيل من خلال وصف الرّحلة، فَبَدَتْ صفحة السَّماء أمامهم، فأخذ الشعراء يتبارون في وصفها، ولكن مع ذلك ركز الشعراء في وصف ليلتهم على سوادها والخوف والاضطراب الذي يشعرون، فليلة ابن عنين معتمة طويلة لايكاد يطلع لها صباح، يقول:

فكم ليلةٍ بتُّ لا البَدرُ مشرقٌ   يضيءُ لرائيه ولاالنجمُ غاربُ[١٤٥]

ولم يكتف الشاعر بوصف سوادها، بل كانت أشد وطئاً علىنفسه، فليلَتهُ مضطربة كموج البحر، لايأمن فيها على نفسه من الحيوانات التي تدور من حوله يقول:

---

[١٣٨] ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ص٣٨٥.

[١٣٩] المصدر السابق: ج٢، ص٣٨٥.

[١٤٠] ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ص٣٨٥، وابن قلاقس، ج١، ص٢٩٧.

[١٤١] المصدر السابق: ج٢، ص٣٨٥، وابن قلاقس: ج١، ١٧٦.

[١٤٢] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٦٠٣.

[١٤٣] ابن الخياط: ديوانه، ص٧٤.

[١٤٤] انظر: وصف الإبل في الفصل الأول، والصحراء في الفصل الثاني.

[١٤٥] ابن عنين: ديوانه، ص٣٥.

وليلــة مثــل مــوج البحــر بــتُّ بهــا أكـابدُ المزعجيـن الخـوفَ والخطــر(١٤٦)

والشاعر الذي عاش ليلته المزعجة في خضم اللّيل، لايلبث بعد طـول عنـاء ومكـابدة مـن أنْ تتسلّل إلى ناظريه خيوط الصّباح، وكـأنَّ الشـاعر قد شـارف علـى نهايـة رحلتـه، وحـطَّ رحالـه عنـد ممدوحه، يقول ابن الخياط:

حتــى إذا حَسَــرَ الصَّبــاحُ كأنّـــهُ وَجْــهُ الوجيــه تبلُّجــاً وتألقـــا(١٤٧)

ويقول ابن قلاقس:

يقـولُ الحـدا فيهـا وقـد رُفِعَـتْ مـن الـدّ يــاجي لأســفار الصّبــاح ســفورُ
كـأنَّ بيـاضَ الصُّبـحِ فـي حـالك الدُّجـى مـن البيـض مفتـوق الأديـم شــهيرُ(١٤٨)

أما الأماكن التي مرَّ عليهـا الشـاعر إلـى ممدوحـه، فنجده يلْهَجُ بذكرهـا فـي رحلتـه، ليشـعر الممدوح بطول الطريق التي قطعها حتى وصل إليـه، والمصـاعب الجمـة التـي واجهتـه مـن خلالهـا، وخير من مثّل هذه الظاهرة في هذا العصر العماد الأصفهاني، فقد ذكر في قصيدته التي مَدَحَ الملـك الناصر سلطان مصر، الأماكن التي مرَّ بها من الشام إلى مِصْرَ، إلى أن انتهـى إلـى أبـواب السـلطان ومنها:

ولمــا قصدنّــا مـــن دمشَــق غباغبــاً وبتنـا مـن الشـوق الممـضّ علـى الجمـر
نزلْنَــا بــرأسِ المـــاء عنــد وداعِنــا مـواردَ مـن مـاء الدّمـوعِ التـي تجـري
نزلْنَــا بصحـــراءِ الفقيـــعِ وغــودرَتْ فواقِـعُ مـن فيـض المدامـع فـي الغُـدُر
سرينا إلــى الزّرقــاءِ منهـا ومـن يُصِبْ أرامـاً يَسْـر حتـى يـرى الـوِرْدَ أو يَسْـرِ
أعــادتْكِ يازرقـــاءُ حمـــراءُ أدمعـــي فقـد مُزِجـتْ زُرْقُ المـوارد بــالجَمْرِ
وبــــالقريتين، وابـــــن مَـــــنْ مغـانـي الغوانـــي مـــنزلَ الأُدْمَ والعَفْــرَ
غشــينا الغواشــي وهــي يابســةُ الـثرى بعيـدةُ عَهْـدِ القُطـر بـالعهد والقَطْـرِ(١٤٩)

---

(١٤٦) المصدر السابق: ص٣٥.

(١٤٧) ابن الخياط: ديوانه: ص٢٥٦.

(١٤٨) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ٦٠٣.

(١٤٩) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٠٥.

ويمضي العماد الأصفهاني على هذا الوصف إلى أن يصل إلى ممدوحه، ذاكراً أصفات المواقع التي يَمُرُّ عليها، ودموعه السِّجام التي تَسيلُ من شدة ألم الفراق.

ونلاحظ أنَّ الشاعر قد تخفَّفَ من جميع الظواهر الحيوانية والنباتية التي واجهته في رحلته، ولم يصف راحلته التي أقلته ولا الليل الذي هبط عليه، وكأن هذه الأمور لم يرد أن يصورها، مبتعداً في ذلك عن التقليد المعهود في وصف الرِّحلة، تاركاً للمدوح استخلاص جهده من خلال المواقع التي وقف عليها، وكأنَّها اصبحت أطلالاً لرحلته.

ونتيجة للتطور الهائل الذي حصل في هذا العصر، اعتمد الناس على البَّحر في تنقلهم، أكثر من أيّ زمن مضى، فانفتاح حدود مصر والشام على البحار، ووجود أنهار تستطيع حمل المراكب، كلُّ ذلك جعل منها وسائل للنقل أسهل من الراحلة وأسرع، وقد ارتدَّ وصف الشعراء للمراكب والسُّفن إلى البَّر لبيان صورة الرحلة البحرية، فوصفوا من خلال الرِّحلة البحرية الصِّعاب التي واجهوها، والرِّياح الزعزع التي جعلت الرُّوح تصلُ الحلقوم، وربانُ السَّفينة الذي يقود دفتها بكلِّ مهارة وإتقان وخير من مثل هذه الظاهرة الشاعر المسافر ابن قلاقس، الذي صور رحلاته البحرية ووصف حالة البحر الذي طما وهاج، ومن قصيدة، يصف البحر وأمواجه التي أثارتها الرِّياح، وسفينتهُ التي اتخذت من الشِّراع آلةً لدفعها في عباب البحر الذي بدى أمام السفينة ناصع البياض، يقول:

ركبْتُ إليه زاجِرَ الموجِ طامياً ... وعاصفةُ الهَبَّابِ نكباءُ زعزعا
وظامئةٍ تحت الشِّراع، وإن أتى ... لها ممتطيها أن تفارق مشْرَعا
تَشَقَّقَ شيبَ الماءِ أبيضَ ناصعاً ... بمثل الشبابِ الغَضِّ أسودَ أسفعا[١٥٠]

فالشاعر يرتد في وصف السفينة إلى وصف راحلة الصحراء، ويأخذ منها معانيها. ويصف ابن قلاقس اضطراب الماء، والرِّياح تعبث بصفحة البحر، فتقلب مياهَهُ حتى لتبدوا من شدة هولها، تُقَلِّبُ المياه كيفمَا تشاء، يقول:

ألقَتْ به النكباء رِحلةُ عابثٍ ... قَلَبَتْ ظهور مياهه بطونا[١٥١]

ويصف كذلك الرُّبان الماهر الذي قاد دَفَّةَ السَّفينةِ إلى بر الأمانِ ويمدح أفعاله التي أبدى من خلالها الفطنةُ والحنكةُ، يقول:

---

(١٥٠) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٨٣.

(١٥١) المصدر السابق: ج١، ص٢٣٨.

النــا خـــذاءُ علـــيٍّ المحتَـــلُّ مِـــنْ | رُتَـــبِ الرِّباتـــةَ رأس أرفـــعَ رتبـــهِ
مـــن يهـــدي فـــي مظلمـــاتِ بحـــاره | وقـــت الضـــلالِ بفطنـــه مُبْيَضَيْـــهِ
يَـــوَدُّ نـــوحُ أنَّـــهُ رُبانُـــهُ | لـــو كـــانَ شـــاهَدَ مالـــه مـــن خـــبرهِ[١٥٢]

ثم يمضي الشاعر في ذكر المرافئ التي مـرَّ بهـا إلـى أن يصـل إلـى ممدوحـه. وفـي قصيدة أخرى يصف القاضي الفاضل رحلته البحريـة إلى ممدوحه في قصيدة طويلـة، يصـف من خلالها حالتـه، وحالـة السَّـفينة، والمـوجُ والليـلُ، والخـوف المسـيطر عليـه وعلـى الرّكـاب، والرِّيـاح، والصَّباح[١٥٣].

سابعاً: الظَّعن:

استمر تقليد هذه الظاهرة في هذا العَصْر، ولكن هذا التقليد لم يستمر بكُلِّ ما فيه من جزئيات، فتَخَفَّفَ الشعراء كثيراً منها، لأنَّهم لـم يعيشـوا هـذه التجربـة، ولـم يشـعروا بـألم الفـراق الـذي يُسَبّبُه، وتحللّوا من الأوصاف الغريبة للناقة، وكأنّها اندثرت مع الأيّام.

ومع ذلك فقد وصف الشعراء حالة الفراق، وحادي الرَّكب، والهَودَجَ، والمـلاح التـي تَسْكُنُ فيه، والمطي التي تجوب بهم الصحراء، والسراب الذي يلفها، وحماة الرَّكبِ الذين يحرسون الهوادج يقول ابن قلاقس:

يـــاحداة العيـــس مهـــلاً إنَّ لـــي | وســـط الأهـــداج قلبـــاً مســـتطارا
وتخلَّفـــــتُ علـــــى أطلالِكـــــمُ | ألـــم الرَّبـــعَ عشـــاءً وابتكـــارا
وَدَعَونـــــي فَتَدَاعَـــــتْ إحَنـــــي | لـــم أجـــد مـــن بعْدِهـــا عنهـــا قـــرارا
غـــادة مـــن جوهـــر فـــي غُصُـــن | جَمَعَـــتْ أســـاً ودراً ونضـــارا[١٥٤]

أما الملك الأمجد فيحاول أن يجاري الأعراب على طريقتهم من خلال لغتِه ووصفه، يقول:

---

[١٥٢] المصدر السابق: ج١، ص١٩٠.

[١٥٣] القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص٣٢٩.

[١٥٤] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٩٦.

حتـــى إذا عيْســـهُمُ للنـــوى | شُـــدَّت بأنســـاع وأكـــوار
وثوَّروهـــا بهـــم ترتمـــي | مـــابين أنجـــادٍ وأغـــوادِ
ورَجّـــع الحـــادي أراجـــيزهُ | فـــي مهمـــهٍ بـــالآل مـــوارِ
وراحَـت تهـادي فـي الـبرى بُزْلُهـا | كمـوج طـامي الغَمْـرِ زخّـارِ(١٥٥)

ومن خلال وصفهم يُظْهرُ الشاعر أسَفَهُ وبينهُ على فراق الأحبة الذي أخذتهم الأظعان، فما يزال الشاعر يَكْتمُ شوقه إلى أن تفضحهُ عيونه يقول ابن قلاقس:

نَمّـت بِسِـرٍّ غرامـه الأجفـانُ | لمـا نـأتْ بفـؤاد الأظعـانُ
مـازال يخفيـه ويظهـر البكـا | حتـى استوى الإسرار والإعلان(١٥٦)

أما وصف الهوادج، فيستعير لها مجبر الصقلي صورة الرِّياض الموشاة بأنواع الأزاهير يقول:

اسـتودعُ اللّـهَ القبـاب وأوجهـاً | فيهـن كالأقمـار فـي هالاتهـا
والـوردُ يحسـدُ نرجسـاً وبنفْسَـجاً | فـي شُـهْلِ أعيُنِهـا ولعـس لثاتهـا
تلـك الرِّيـاض الـلاء مـابرحت يـدي | تجنـي ثِمـار الوَصـل مـن جناتِهـا(١٥٧)

وفي معرض وصفهم للظعن لاينسون الطيور التي تَحِلُّ مكان المرتحلين، وغالباً ما يكون الغراب رمزَ فراقِها يقول ظافر الحداد:

وسـاروا ولـم أُوْذن بوشـك فراقهـم | إلا إشـارة نـاعب شَنَـحَّاج(١٥٨)

وهكذا نرى أن الجو العام، قد انتقل من المعجم اللغوي الغريب، إلى المعجم السَّهل السَّلِس.

---

(١٥٥) الملك الأمجد: ديوانه، ج١، ١١٥.

(١٥٦) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٢٢.

(١٥٧) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ص٨٥.

(١٥٨) ظافر الحداد: ديوانه: ص٧٧.

ثامناً: البحار والأنهار:

حبا الله مصر والشام بهذه النِّعمة العظيمة، فنجد البحار تطوف بها من كلّ جانب، والأنهار تخترقها من كلّ مكان، فلذا نرى الناسَ قد استخدموها خيرَ استخدام، فاتخذوها وسيلة لنقل الأشخاص، والأمتعة، والجنود، والعتاد، ومحاصرة المدن(١٥٩) فلذا تميزَتْ الأشعار التي تناولت هذا الموضوع بقربها من قلوبهم، وأضفوا على وصفهم، عاطفة صادقة زينت أشعارهم، ومن ذلك وصف ابن قلاقس للبحر في يوم ماطر، مستعيراً له صورة من الصور الحربية، يقول:

يا حُسْنَ وجهِ البحر حين بدا　　والسُّحبُ تهطل فوقَهُ هطلا
فكأنَّهُ درعٌ وقد ملأتْ　　أيدي الرُّماةِ عيونه نبلا(١٦٠)

ومن الشعراء من شبهه بحلبة لسباق الجياد، ويتخذ من الأمواج خيلاً لها، يقول ابن الساعاتي:

ولقد ركبْتُ البحر وهو كحلبة　　والموج تَحسبُهُ جياد تركضُ(١٦١)

أما زبده فاستمدَّ لها الشعراء صورة من صور البادية، ومن ذلك وصف ظافر الحداد له بزبد فحل الإبل حين ترغوا:

وبحر المِلح مثل الفَحْلِ يرغو　　ويُزبد حين يقلقه الهبابُ(١٦٢)

ونلحظ أن الناس أخذت تميل إلى ركوب البحار على سلوك المناطق الوعرة من اليابسة غير المأمون جانبها، ونلحظ اشتياق الشاعر لركوب البحر في رحلته على ركوب البرّ يقول:

وحين رأيتُ البَرَّ وعراً طريقُهُ　　ركِبْتُ أخاك البحر شوقاً إلى البَحْر
وما أنا بالمجهول عِلْمُ مسيره　　إليك ولا الخافي حديثي ولاذكري(١٦٣)

---

(١٥٩) انظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٢٢، ص١٢٣، ص٦٧.

(١٦٠) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٧١.

(١٦١) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٥٥.

(١٦٢) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٧.

ويصف ابن قلاقس أحد رحلاته التي خاض بها غمار البحر، وقد خلع عنه لباس الهدوء، ولبسَتْ أمواجه ريح عاد، وقد أحسن ابن قلاقس في وصفه حالتهم داخل مقصوراتهم، والموج يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، يقول مصوراً ذلك:

أقلعت والبحر قد لانت شكائمه   حداً وأقلع عن موجٍ وإزبادِ
فعادِ لاعادِ ذا ريح مدمّرة   كأنّها أختُ تلك الريحُ في عادِ
ولا أقول أبي لي أن أفارقكم   فحيثُ ما سرتُ يلقاني بمرصادِ
وقد رأيتُ به الأشراط قائمةً   لأنَّ أمواجَهُ تجري بأطوادِ
تعلو فلولا كتاب الله صحَّ لنا   أن السّموات منها ذات أعمادِ
ونحن في مَنْزِلٍ يُسرى بساكنيه   فاسمَعْ حديثَ مقيمٍ بيتُهُ غادِ
أبيتُ إن بتُّ منها في مصَّورةٍ   من ضيقٍ لحدٍ ومن إظلام ألحادِ
لايَسْتَقَرُّ لنا جَنْبٌ بمضجَعِهِ   كأنَّ حالاتنا حالاتُ عُبَّادِ
فكم يُصَعَّرُ خدٌ غيرَ مُنْعَفِرٍ   وكم يَخِرُّ جبين غيرُ سجَّادِ(١٦٤)

ويصف ابن قلاقس البرزخ الذي يفصل الماء المالح عن الماء العذب، ويدعو إلى التفكير في ذلك يقول:

ولم أرَ يوماً كانَ أبهج منظراً   من البرزخ المشهود لو كُنْتَ تَعْلَمُ
غدا حاجزاً ما بين ضدَّين لم تزلْ   جوامع فكري فيهما تَتَقَسَّمُ
وكانَ رداءُ الملح أزرقَ مُصمتاً   وَهَا رُدْنُهُ بالعذب أزرقُ مُعْلَمُ(١٦٥)

وكما اتخذت الصحراء والناقة مكاناً لترويح النفس، وذهاب الهمّ، اتَّخِذَ البحر كذلك مكاناً للسرور، وإذهاباً للهَمّ يقول ابن الساعاتي:

ظَلَلْنَا نَفُضُّ الهمَّ في جنباتِهِ   ونجمَعُ أشتاتَ السُّرورِ وننظِمُ(١٦٦)

---

(١٦٣) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٣، ١٣٢.

(١٦٤) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٥٤، الشكيمة: الحديدة في لجام الفرس.

(١٦٥) ابن قلاقس: ديوانه.

(١٦٦) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٦٩.

وظهرت كذلك صورة البحر السّلبية، التي تثير الخوف والهلع والرُّعبَ في القلوب، فظافر الحداد يردُ على من يأمره بركوبه، ويَظهرُ خوفه منه، يقول:

أمرتني بركوب البحر مرتئياً فَغُرَّ غيري واخصُصْهُ بذا الرأْء
ما أنتَ نوح فتنجيني سفينَتُهُ ولا المسيحُ أنا أمشي على الماء(١٦٧)

أما الحكيم الذي عَلِمَ كُنّهَ البحر، فيظهر خطره، وعدم الوثوق به، يقول الحكيم:

تناهى البَحْر في عرض وطول وليس له على التحقيق كُنْه
وأعجبُ كلّما شاهدْتُ فيه سلامتنا على الأهوال منه
فحسبي أنْ أراه من بعيد واهرب فوق ظهر الأرض منه(١٦٨)

ويقول في مقطوعة أخرى:

يا من يخوض البُحْر مقتحماً ما بين لجتُهُ إلى الشَّطِّ
لايُطْمِعَنَّكَ ماحباك الله فالبحر يأخذ ضعف ما يعطي(١٦٩)

أما الأنهار، فغالبية مدن هذا الإقليم اختصّتْ بنهر، ظهر في شعر شعرائها، يظهرُ من خلاله الود والحبُ الذي يحمله الشاعر لنهره، فعرقلة الكلبي الذي عاش في أكناف دمشق وما حولها يطرق بشعره منظراً جميلاً لنهر بردى، وقد حركته الرِّيح، فبدا منظره كالسَّيف الصّقيل في هدوئه وكالمبرد إذا ما حركته الرِّياح يقول:

والماءُ في بَرَدى كأنّ حبابَهُ بَرْدٌ جَنَتْهُ الرِّيحُ غير مُجَمَّدِ
بينما تراهُ كالسجنجلِ ساكناً حتى تراه أجعد كالمبرد(١٧٠)

وفتيان الشاغوري الذي اتخذ من دمشق داراً، يمزجُ وصفه بحالته النفسية وقت الرَّحيل، ويطلب من صديقيه أن يتوقفا وينظرا إلى بردى على عادة الشعراء في الوقوف على الأطلال والدِّيار، وهم يهمون بالرَّحيل والوداع يقول:

---

(١٦٧) ظافر الحداد: ديوانه، ص٣.

(١٦٨) الحكيم: ديوانه، ص١٥٧.

(١٦٩) المصدر السابق: ص١١٦.

(١٧٠) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٢٥.

إذا جزتُما بالعيس دورة آبلٍ	فداسَتْ بأيديْهما تراب المزابلِ
أعيرا يسارَ الركبِ لفتةَ ناظرٍ	إلى بردى والرَّوضِ ذات الخمائلِ
هنا لِكُما نهرٌ يُرى النيلَ عندَهُ	إذا فاضَ في مِصْر كبعضِ الجداول(١٧١)

ويصف فتيان كذلك حُسْنَ المباهج التي يحويها بردى وما حولها، وكأنَّهُ دليلٌ يَحِثُّ الناس على زيارته، فيأْخُذُ بتعداد محاسنه في ليله ونهاره يقول:

يخالُ به النيلوفر الغضُّ أنجماً	سَمَتْ في سماء الماء غيرَ أوافِلِ
كأنَّ طيور الماء فيه عَرَائِسٌ	جُلِينَ على شاطئيه خُضْرَ الغلائلِ
إذا كرعَتْ فيه تيقَّنْتَ أنَّها	تَزِقُّ فِراخاً وهيَّ زغبُ الحواصلِ
وكم سمك فيه عليه جواشنٌ	من التِّبرِ صيغَتْ وهو بادي المقاتلِ
جريحٌ بأطراف الصَّفا فخريره	أنينٌ له مِنْ مَسِّ تلك الجنادلِ
إذا قابل النَّهْرُ الدُّجى بنجومِهِ	أرانا بقعرِ الماء ضوء المشاعلِ(١٧٢)

وعبدالواحد الغساني، يصفُ نهر ثورا على طريقة فتيان الشاغوري، مازجاً بين حركة الرِّياح، والجَوِّ الشَّجي، وعذوبة الماء، وما يتمتع به المرء من لذيذ الشراب، ومتعة المجالسة يقول:

دمشقُ دار رعاها اللهُ من بلدٍ	ونهرُ ثورا سقاه الله من وادِ
كأنَّهُ ونسيمُ الرِّيح جَمَّشَتْهُ	نقش المبارد في سلساله الهادي
مزجْتُ بالرَّاحِ منه الرَّاح فاكتسَبتْ	لوناً وطعماً غريباً غير معتادِ
في روضةٍ من رياض الخُلد باكرها	صوبُ الغمام بإبراقٍ وإرعادِ
ظَلَلْتُ فيها رَضيَّ البال مع رشاء	مُهَفْهَفٍ لقضيب البان مياد(١٧٣)

(١٧١) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٧٣.

(١٧٢) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٧٣.

(١٧٣) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١٨٠.

وحَلَبُ الشهباء فيها نهر قويق "ماء عذب.. إلا أنّه في الصيفِ ينشَفُ فلايبقى إلا نزوراً قليلة"[١٧٤] وقد وصفه محمد بن صغير القيسراني عندما رآه وقد جفَّ ماؤه، ولم يبق فيه إلا القليل، يقول:

رأيتُ نهرَ قويق ... فساءني ما رأيتُ
فلو ظمئتُ وأُسقِيتُ ... تُ ماءه ما رويتُ
لو بكيتُ عليه ... بِقدره ما اشتفيتُ[١٧٥]

أما نهر العاصي وهو نهر حماة، فيقول فيه صلاح الدين الأيوبي مودعاً:

ولما جرى العاصي وطبع أدمعي ... مع الماء قال الناس أيُّهما النَّهرُ[١٧٦]

أما النيل، فقد تغنى به شعراء مصر ووصفوه بأنهُ جالب الرزقِ إلى أهلها فهو "الذي يكسو الفضاء ثوباً فضياً، ويذكي في الأرض ماؤه سراجاً من النور مضيئاً، ويتدافع تيّاره دافعاً في صدور الجدبِ بين الخصبِ وتُرضعُ أمهاتُ خلجانه المزارع"[١٧٧] فابن خيروف النحوي، لاينظرُ إلى النيلِ على أنّه ماءٌ فحسبُ، بل هو نَهْرٌ يجلب على أهل مِصْرَ أرزاقهم يقول:

ما أعجَبَ النيلَ ما أحلى شمائِلَهِ ... في ضفّتيْهِ من الأشجار أدواحُ
من جنَّةِ الخُلد فيَاضٌ على تُرَعٍ ... تهبُّ فيها هبوب الرّيح أرواحُ
ليستْ زيادتُهُ ماءٌ كما زعموا ... وإنّما هي أرزاقٌ وأرواحُ[١٧٨]

والقاضي الفاضل، يزعم أن الله عندما قَسَّمَ المطر على الناس لم يجعل لمصر نصيباً، لأنَّهُ قَسَمَ إليهم شيئاً خيراً من المطر، وهو النيل، ولكثرة مائه اعتبرتْ الأنهار بجانبية ضئيلة الحَجْم يقول:

---

[١٧٤] الطباخي الحلبي (محمد راغب الطباخي الحلبي) : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط٢، دار القلم العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ج٢، ص١٧١.

[١٧٥] المصدر السابق: ج٢، ص١٧١، قويق: نهر حلب.

[١٧٦] الحميري (محمد بن عبدالمنعم الحميري ت٧٢٧هـ): كتابُ الرُّوض المعطاء في خير الامصار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيوت، ١٩٧٥، ص٤٠٥.

[١٧٧] العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٦٧.

[١٧٨] ابن شاكر الكبتي (محمد بن أحمد الكتبي ت٧٦٤هـ): فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ج٣، ص٨٦.

وقد قسم الله القطار على الثرى ... وما لثراها قط قسم من القطرِ
وإن أجلَبُوا بالنيل، والنيلُ قد زها ... فكم قلَّدَ اللهُ البسيطةَ من نهرِ
قرارتُهُ منها استدارت كأنها الـ ... ـمرآة، بل الأنهارُ كالسَّيفِ إذا جرى[179]

وعندما يُحِسُّ الشعراء بالاشتياق إلى مصر، يذكرون النيل، وعذوبة مائه، ويقارنون بينَهُ وبين البلاد التي ذهبوا إليها ويفضلون مِصْرَ ونيلها يقول تاج الملوك، مقارناً بين ماء الفرات وماء النيل:

شربْتُ من الفرات، ونيل مصرِ ... أحَبُّ إليَّ من شط الفرات[180]

وتتخذ الأعياد في مصرَ النيل مكاناً مناسباً لخروج الناس إليه، فالناس يركبون ظهر النيل ويشعلون الشموع فتبدو صفحته سماءً ركبَتْ فيه، يقول الحكيم:

أبدعْتَ للناسِ منظراً عجباً ... لازلتَ تُحيي السُّرورَ والطَّربا
ألَّفتَ بين الضِّدّيْن مقتدراً ... فمن رأى الماء خالطه اللّهبا
كأنّما النيل والشموع به ... أفقُ سماء تألّقَتْ شهبا
قد كان من فضة فصار سما ... وتسحبُ النارَ فوقَهُ ذهبا[181]

ويستعير الشعراء صورة الثياب الموشاة بمختلف الألوان لوصف النيل، والمناطق المحيطة به، يقول ظافر الحداد:

والنَّيلُ مثل عمامةٍ ... نُشِرَتْ مُحشَّاةً بأخْضَرْ
والجسرُ فيها كالطَّرا ... زِ وَمَوْجُهُ رَقْمٌ مُصَوَّر
والبحرُ في راس الجزيـ ... ـرةِ كالسَّراويل المحرَّرْ
تفريكُهُ ما دَرَّجَتْ ... فيه الرِّياحُ من التكسُّر[182]

---

[179] القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص١٦٥.

[180] تاج الملوك الأيوبي: ديوانه: ص١٣٠.

[181] الحكيم: ديوانه، ص٥٥.

[182] ظافر الحداد: ديوانه: ص ١٣٠، تفرك: تُكَسَّر.

واستعار الشعراء الصورة الحربية في بيان صورة النيل، فظافر الحداد يشبه مجرى النيل بسير العسكر، والشطّ مثل الرِّماح، وبياض الماء وصفائه مثل بريق السُّيوف ولمعانها، يقول:

ولله مجرى النّيل فيها إذا الصّبا ... أرتْنَا به في سيرها عسكرا مَجْرا

فشطٌّ يَهُزُّ السَّمهرية ذُبَّلاً ... وَنَهرٌ يَهُزُّ البيض الهندية تبراً

وإذا مدَّ حاكى الوردَ غضّاً، وإن صفا ... حكى ماءَهُ لوناً ولم يَعْدُهُ شبراً[١٨٣]

واتخذ المصريون أمكنةً على شاطئه للتنزه والاستمتاع بمنظره، وبنو البيوت حتى يُسَرُّوا عن أنفسهم إذا ضاقت عليهم حياة المدينة، يقول ظافر الحداد:

لله يومي بالثّغر في الجوسقْ ... والأرضُ تُجْلَى في روضها المونقْ

والنّيلُ يحشو حَشا الخليج وقد ... كساهُ زهر الرّبيع باستبرقْ

ودرَّجَتْ ماءَهُ الصَّبا فحكى ... ثوب حرير مُدَمَقسٍ أزرقْ

وراق بين الرِّياض فهو كما ... فرجَ فوقَ الغلالةِ اليَلْمَقُ[١٨٤]

ورأوا فيه كذلك مكاناً مناسباً لمعاقرة الشراب، والاستمتاع بأوقاتهم وبالمناظر الخلابة التي أحياها النيل في هذه البلاد، يقول الشريف العقيلي:

النِّيلُ قد لاحت على خصْرِهِ ... منطقةٌ من صيغة البَدْرِ

فاشربْ على مُذْهَبِ أزهارِهِ ... من ذَهَبٍ في فضة يجري[١٨٥]

أما ابن الساعاتي فتختلف نظرتُه عن غيره من الشعراء، وينظر إليه نظرة تأمل وتدبر واستبطان، ويدعو إلى التفكر فيه، لأنه عجيبة من العجائب، لم تستطع الأيام والدهور أن تكشف كُنْهَهُ، فهو كالهلال في تنقله منذ القديم يقول:

وأما لهذا النّيل أيُّ عجيبةٍ ... بكرٍ بمثل حديثها لايُسْمَعُ

مُتَنَقِّلٌ مثل الهلال فَدَهرُهُ ... أبداً يزيدُ كما يريدُ ويرجعُ[١٨٦]

---

[١٨٣] المصدر السابق: ديوانه، ص٣٧١، مجراً: الجيش العظيم.

[١٨٤] المصدر السابق: ديوانه، ص٢٣٠، الجوسق: القصر، الثغر: الاسكندرية، اليلمق: القباء.

[١٨٥] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص١٤٧.

[١٨٦] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٢٣.

ومن القضايا التي أثارها شعراء النيل، قضية نقص مياهه، وقد اتخذوا مقاييس تقاس بها كمية المياه فيه، يقول علي بن ظافر واصفاً ذلك:

أما ترى المقياس قد حُفَّت به سور المراكبِ فوق ظهر اللُّجَّةِ
يسمو وقد حفت به كقلادةٍ سبحية في كُبَّةٍ فضيَّةِ

وأجازه القاضي الأغر بن المؤيد فقال:

وكأنَّهُ حِصْنٌ عليه عسكر للزنج لَفَّ بنورة للحملةِ[١٨٧]

ولعلَّ الشاعر الحكيم قد أوجز فأجاد في وصفه للنيل حين قال:

أبدعت للناس منظراً عَجَباً لازِلْتَ تحيي السّرور والطربا[١٨٨]

ومن خلال الشواهد والأمثلة السابقة، نجد أنّ شعراء الشام قد التفتوا إلى بيان جمال أنهارهم وحسن طبيعتهم، وظهرت صورتها أقل لصوقاً من النيل في شعر شعراء مصر، فقد ظهر عندهم الواهب للأرزاق، المحيّ للأعياد، المضفي الجمال في الطبيعة المحيطة به، حتى انعكس حُسْنِ جمال الطبيعة على نفوس أهل مصر.

تاسعاً: السُّفن والمراكب:

اهتم الشعراء في هذا العصر بوصف السفن، وربطوا بينها وبين منظر الناقة في الصحراء، وجاء اهتمامهم بها من كثرة أسفارهم على ظهرها من بلد إلى بلد، واستخدامها في نقل الجنود والمؤن والعتاد للمدن المحاصرة [١٨٩] ومع قرب الشعراء من الحياة البحرية إلا أنّ بعضهم ارتد في تشبيهاته إلى المعجم البدوي، يستقي منه تشبيهاتهِ، ومن ذلك تشبيه ابن الخياط للسُّفن في رحلته البحرية بالعيس، يقول:

---

[١٨٧] ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص١٢٢، الحصن: كلُّ مكان محميٌّ منيع.

[١٨٨] المصدر السابق: ص١٢٢.

[١٨٩] انظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١١٩، ص١٢٢٠، ص١٤٨.

كأنـا علـى سُـفُنٍ مـن العيسِ فوقَـهُ   مجاديفُهـا أيـدي المطـيِّ وَسَـوْقُها(١٩٠)

ويشبهها ابن قلاقس بالناقة العطشى يقول:

وظامئـةٌ تحـت الشّـراع وإنْ أبـى   لهـا ممتطيهـا أنْ تفـارقَ مَشْـرَعاً
تُشَـقِقُ شـيبَ المـاءِ أبيـضَ ناصعـاً   بِمثلِ الشـباب الغـضّ أسـود أسـفعا(١٩١)

وما لبث المعجم الصحراوي أن انتحى جانباً إلى التشبيهات الحضرية، ومن ذلك قول ابن قلاقس مصوراً سفينتهُ بالخال في وجه الفتاة الحسناء، يقول:

مـن كـلِّ سـوداءَ مِثْـلَ الخـالِ يَحْمِلُهـا   بوجنـةٍ منـه فيهـا للضحـى خضَـرُ(١٩٢)

ومالَ الشعراء إلى استخدام المعجم القرآني في بيان صورة السّفينة يقول هبة الله العلوي:

بجـوار تنسـابُ فـي البحـر كـالأعلام   تجـري بهـا الرِّيـاح رُخـاء
حَمَـلَ المـاءُ كـلَّ سـوداء منهـا   حَمَلَـتْ وقرهـا يـدٌ بيضـاء(١٩٣)

ومن الصّور الجميلة التي بيّنَ فيها ابن قلاقس صورة السّفينة التي تحمل على ظهرها الركاب، صورة المرأة الحامل التي تنتظر الخلاصَ لابنها، يقول:

وإنّمـا نحـنُ فـي أحشـاءِ جاريـة   كأنّمـا حملـتْ مِنـا بـأولادِ
فـلا تَعُـدُّوا لنـا يـومَ السَّـلامةِ إنْ   حُزْنـا السَّـلامةَ إلا يـومَ ميـلاد(١٩٤)

وكثرتْ صورُ الأسطول الحربي في شعر هذه الفترة لكثرة الحروب البحرية الدائرة بين المسلمين من جهة والصليبيين من جهة أخرى، ومن ذلك اتخاذ الشعراء لبيان صورة ممدوحهم، واعتنائه بجيشه، صورة العدد الكبير للأساطيل التي ملأت البحر، يقول البهاء زهير:

---

(١٩٠) ابن الخياط: ديوانه، ص٤٥، العيس: الإبل.

(١٩١) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٨٣، مشْرَع: مورد الماء، الأسفع: الأسود المشرب الجمرة.

(١٩٢) المصدر السابق: ديوانه، ج١، ص١٣٧، خَضَر: الحياء.

(١٩٣) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٢١، الأعلام: الجبال.

(١٩٤) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ١٥٤.

سددتَ سبيلَ البرِّ والبحرِ عنهم بسابحة دُهْمٍ وسابحة غُرِّ
أساطيل ليستْ أساطيرَ مَنْ مضى بكلِّ غرابٍ راح أفتكُ من صقرِ(١٩٥)

واتخذها المسلمون في حروبهم لنقل الجنود والعتاد، ومن ذلك وصف المهذب بن الزبير للأسطول الإسلامي الذي هزم الصليبيين، ورجع بهم مصفَّدين بالأغلال، يقول مصوراً ذلك:

ولقد أتى الأسطولُ حين غزا بها لم يأتِ في حين من الأحيان
أحببْ إليَّ من شواني أصبحتْ من فتكها ولها الغُداةُ شواني
شُبِّهَتْ بالغربان في ألوانها وَفَعَلْنَ فِعْلَ كواسرِ الغربان
أوقرتَها عُدَدَ القتالِ، فقد غَدَتْ فيها القنا عوضاً عن الأشطانِ
فأتَتْكَ موقرةً بسبيٍ بينهُ أسراهُمْ مغلولةَ الأذقانِ(١٩٦)

وصور الشعراء كذلك غرق مراكبهم، ومن ذلك وصف أبو الرضا سالم بن علي مركبه الصغير الذي تفرقَتْ ألواحه على صفحة الماء كتفرق أهل سبأ في أرجاء الأرضِ، متخذاً من ذلك سبيلاً للتعبير عن الألم الذي أصابه، يقول:

قرافتي قد غرقَتْ وَفُرِّقَت أيدي سبأ
والنارُ في قلبي لما أن قد عدِمْتُ الحطبا(١٩٧)

ولايَنْسَ الشعراء عند وصف السَّفينة وأحوالها المختلفة، ربانَها الذي يقود دفتَها، فهو بارع، فَطِنٌ، لو عاش في زمن سيدنا نوح عليه السّلام لاتخذه رباناً لسفينته، يقول ابن قلاقس:

النَّاخذاءُ عليٌّ المحتَلُّ من رُتَبِ الرِّبانةِ رأس أرفعِ رُتَبِهِ
مَنْ يهدي في ظلماتِ بحارِه وقتَ الضلالِ بفطنَةِ مُبْيَضّهِ

---

(١٩٥) البهاء زهير: ديوانه، ص١٠١، وانظر القاضي الفاضل، ج٢، ص٣٢٩، وخريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص٢١١.

(١٩٦) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مِصْرَا، ج١، ص٢١١ الشواني: المركب المعَدُّ للجهاد في البحر.

(١٩٧) المصدر السابق: قسم شعراء الشام، ج٢، ص٦٥، سبأ: قوم كانوا في اليمن أتى عليهم سد مأرب، القرافة: اسم المركب.

ويــــودُ نـــــوحَ أنَّـــــهُ رُبانُـــــهُ   لـو كـان شـاهَدَ مالــه مــن خـبْرِهِ[١٩٨]

وقد مرّتْ صورة السّفينة عند الحديث عن صورة الرّحلة البحرية التي قام بها الشعراء، فظهرتْ هناك صورة السّفينة التي تحمل الرُكاب من بلد إلى آخر، وذكر المراسي التي نزلت عليها في رحلتها، ولم نَرَ فائدة في الإعادة فاكتفينا بالإشارة فقط.

ومن ذلك نرى أن الشعراء كانوا قريبين من البحر وسفنه، مصورين أهمية الأساطيل في حياة الأمة في نقل الجنود والسّلاح والمؤن وأسرى الأعداء.

واستخدموا الصّور القديمة والحديثة في بيان صورتها، متخذين من المعجمين الصحراوي والقرآني هادياً لهم في رسم الصورة المثلى للسفينة وربانِها.

عاشراً: الرياح:

الرّياح من الظواهر الطبيعية التي وصفها الشعراء في أشعارهم، فكانت سبباً في سوق المزن نحو بلادهم، ودفع المراكِب والأساطيل في البحار، وتحريك مشاعر الشعراء عندما تهبُّ على الحدائق تحمل شيئاً من عبقها، فابن أبي حصينة يجعلُ الرّيحَ سبباً في جلب المزن إلى ديار المحبوبة، وإحيائها بعد الممات، يقولُ واصفاً ريح الجنوب:

بـــــاكره مُصْطَخِـــــبٌ رُعُــــودُهُ   تســـــوقُهُ الجنُـــوبُ أو تقـــوده[١٩٩]

ويصور ظافر الحداد يوماً ماطراً، يتمازجُ فيه الرّيح والبرق والرّعْدُ، يقول:

يقهقــهُ فيــه الرّعــدُ مــن أدمــع الحيــا   ويبسِمُ من أنفـاس أرياحـه الـبرق[٢٠٠]

ويجعل ظافر الحداد كذلك من الرِّيح سبباً في تنظيم حَبِّ البَرَدِ على الأرض، يقول:

---

(١٩٨) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٩٠.

(١٩٩) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٤٩. الرياح أربعٌ: الجنوب وهي القبلية، والشمال وهي الشمالية والصبا وهي الشرقية، والدبور وهي الغربية.

(٢٠٠) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٤٢. . الوشك: العقد.

كـأنّ الرّيـح تنـثُرُهُ   علـى الأرْضيـن فـي وَشْـكِ[٢٠١]

واتخذ الشعراء من الرّياح رسولاً ينقل الرسائل بين العشاق، فهو الذي يحمل عَبَقَ الحُبِّ بينهم، ويحمل الشذى الذي يفوح من ديار المحبوبة، فالعماد الأصفهاني يُحمّلُ ريح الشمال تحية إلى محبوبته، ويدعوها أن تُحَمِّلُ مع ريح الجنوب جوابها، يقول:

وتحمّلـي ريـح الشـمال تحيـةً   عنـي، حكـاك رقيقُهـا ولطيفهـا
ليعـود فـي ريـح الجنـوب جوابهـا   إن كـان يحتمـلُ القـويُّ ضعيفُهـا[٢٠٢]

وبمثلها يبعث الملك الأمجَدُ سلامه إلى أحبائه، يقول:

باللـه يـا ريـح الجنـوب تَحَمَّلِـي   منـي التحيَّـة نحـو ذاك المـنزلِ[٢٠٣]

وكما اتخذ الشعراء من الرِّيح رسولاً لتبليغ الأحبة، اتخذوها رسولاً لتبليغ المنازل والديار سلامهم واشتياقهم يقول العماد الأصفهاني:

باللـه يـا ريـح الشـمالِ تحمّلـي   منّـي التَّحيَّـة نحـو ذاكَ المـنزلِ[٢٠٤]

ويُحَمِّلُ ابن أبي حصينة الرِّيح سلامه إلى حيٍّ بني جُناب يقول:

ولازالـتْ جنـوب الرِّيـح تهـدي   سـلاماً نحـو حـيٍّ بنـي جنـاب[٢٠٥]

ويبثُّها الشعراء كذلك عند الحديث عن مدنهم أشواقهم وآلام غربتهم، ويحملوها ما يعتلج في صدورهم من حبٍّ حملوه معهم إلى أوطانهم، يقول ظافر الحداد:

إذا نُسِّـمَتْ مـن ذلـك القُطْـرِ شـمألٌ   تَرَشَّـفْتَهَا رشـفَ الـنَّزيف مـن الثَّمـدِ
لألقَـى مـن الإسـكندريةِ نشـوةً   أغـضُّ بهـا مـا بيـن جنبـيَّ مـن وَقْـدِ

---

[٢٠١] المصدر السابق: ص٢٤٢.

[٢٠٢] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٣٠٥.

[٢٠٣] الملك الأمجد: ديوانه، ص١٩٣.

[٢٠٤] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٣٥٢.

[٢٠٥] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٨٨.

وأودعُ هبـــاتِ الجنـــوبِ تحيَّتـــي فهلْ بلَّغَتْكُمْ مـا أقـول علـى البُعْـدِ(٢٠٦)

ويذكرُ ابن عنين ريح دمشق العبق برائحة النَّشْر من رباها، يقول:

إذا الرِّيـحُ مَـرَّتْ فـي رباهـا كريهـةً حباها بطيـبِ النشْـرِ فيهـا مرورُهـا(٢٠٧)

ويقول كذلك:

وَيَمُـرُّ مُعْتَـلُّ النَّسـيمِ بروضِهـا فتخـالُ عطّـاراً يُحَـرِّقُ منـدلاً(٢٠٨)

ومن الرِّياح التي وصفها الشعراء، الرِّيح النكباء، فقد وصفوها في برهم وبحرهم وهذه الرِّيح لم يصفها الشعراء إلا في حالة الشِّدة والهلاك، ومع ذلك فابن أبي حصينة ينظر إلى هذه الرِّيح بكل ما هو متعارف عليه فيها من شدة وهلاك بأنَّها تحمل في أنفاسها الخير لأنّها جاءت من ديار الحبيبة تحملُ ريحها الطيب يقول:

إذا هبـت النكبـاءُ بينـي وبينكـم وَجَدْتُ لها منكم علـى كبدي بـردا(٢٠٩)

أما في الرِّحلة البحرية فقد واجه الشعراء منها الخوف والهلع، وهم ينظرون إليها تجعل الماء عاليه سافله، وتجعل من البحر أشدَّ خطراً، يقول ابن قلاقس:

ألقَـتْ بـه النكبـاءُ راحـةَ عـابثٍ قَلَبَـتْ ظهـور مياهـه لبطـون(٢١٠)

ويصف ابن قلاقس معاناته قبل أن يصل إلى ممدوحه، فيتخذ من ريح النكباء، أحد الأخطار التي واجهتهُ في رحلته البحرية إليه يقول:

رَكِبْـتُ إليـه زاخـرَ المـوجِ طاميـاً وعاصفـةَ الهبّـابِ نكبـاءُ زعزعـا(٢١١)

---

(٢٠٦) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٩، الثمد: وهو الماء القليل يتجمع في الشتاء وينصب في الصيف.

(٢٠٧) ابن عنين: ديوانه، ص١٦.

(٢٠٨) المصدر السابق: ص١٠، مندل: العود الطيب الرائحة.

(٢٠٩) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٢٧، النكباء: ريح باردة جداً تهلك المال وتحبس القطر.

(٢١٠) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٣٩.

(٢١١) المصدر السابق، ج١، ص١٨٣، الزاخر: الطامي، الزعزع: الشديد.

وزيادة في تهويل الأمر في الرِّحلة البحريَّة، يصور الرِّيح التي مرَّتْ عليهم بريح عاد المهلكة التي أرسلها الله عليهم يقول:

فَعَادَ لاعادَ ذاريحٍ مدمِّرةٍ كأنّها أُخْتُ تلك الرِّيح في عادِ(٢١٢)

وتتخذ الرِّياح كوسيلة من وسائل دفع السُّفن الشِّراعية في البحار، ومن ذلك قول ابن هبة الله العلوي:

بجوار تنسابُ في البحر كالأعلامِ تجري بها الرِّياحُ رُخاءُ(٢١٣)

أما رياح النَّسيم والصَّبا، وهي رياح الحدائق والرياض والشطوط، فأكثر الشعراء من وصفها، وخيرُ من مثل هذه الظاهرة الشاعر الجروي ظافر الحداد، فقد وصف الصَّبا والنَّسيم من خلال لوحات فائقة الجمال، ومن ذلك تشخيص ريح الصَّبا وهي تتخلَّل أوراق الأشجار بعاشق يعاتب محبوبته ويشكوه يقول:

وللصبَّا خلَلَ الأغصان وَسْوَسَةٌ كالصَّبِّ للحِبِّ يشكوه ويُعْتِبُهُ
والرَّوضُ يَبعثُ مسكاً من نوافجِهِ والطَّلُّ يفْتُقُهُ والرِّيح تُجَلِّبُهُ(٢١٤)

وفي لوحةٍ أخرى يَصِفُ الصَّبا والنَّسيمُ الذي يَهبُّ من شواطئ الاسكندرية، يقول:

رَشَفَتْ ثنايا الثَّغْرِ أفواه الصَّبا أُصُلاً وَبَرَّدَهَا الندى برضابهِ
حيث النَّسيمُ السَّاحليُّ يَزوره وندى رياضِ الرّملِ عِطْرُ ثيابهِ(٢١٥)

ويشبه حفيف النَّسيم بالوسوسة التي بين الكتمان والعَلَنْ يقول:

وللنَّسيمِ العليلِ الرَّطبِ وَسْوَسةٌ فيهنَّ كالسِّربين الرِّفقِ و الصَّخَبِ(٢١٦)

وفي صورة جميلة يشخِّصُ ظافر الحداد النَّسيم ويجعلُ منه إنسان أعرج دلالة على هدوئه، فإذا ما لامس أزهار الرُّبا حَمَلَ أريجَها معه أينما يهبُّ يقول:

---

(٢١٢) المصدر السابق، ج٣، ص٩٥٤.

(٢١٣) العماد الأصهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٢١، الجواري: السُّفُن.

(٢١٤) ظافر الحداد: ديوانه، ص٦٥، وسوسة: الكلام الخفيُّ، النوافج: وعاء المسك.

(٢١٥) المصدر السابق: ص٦٥، الثغر: الاسكندرية،

(٢١٦) المصدر السابق: ص١٩.

ونســـيم الرِّيـــح يســـعى ضالعـــاً   واهـــي الخطِـــو كليـــلُ المنْكِـــبِ
فــإذا مـــا صـــافَحَ أردان الرُّبـــا   أرجَـــتْ مـــن ذيلـــه المنْسَـــحِبِ(٢١٧)

وفي صورة أخرى تحمل بصمات الصورة السابقة، يفوح من أردانها العُطْر والأريج، يمازج فيها ظافر الحداد بين الحركة والصوت والرائحة ليجعل صورته راقصة فواحة واصفاً من خلالها ريح الصبا يقول:

تســـرى الصَّبـــا فـــي جانبيـــه عليلـــةً   فيثـــورُ عـــرفُ المســـك مـــن ريحاتـــهِ
وتَهُـــبُّ فـــوقَ إهابـــه فَتُعِيْـــدُهُ   دُراً يعـــزُّ الطَّـــرف عنـــد عياتـــه
فكـــأنَّ وسوســـةَ الغصـــون أحبَّـــةٌ   كـــلٌّ يَبْغَـــثُ أخـــاه مـــن ألحاتـــهِ(٢١٨)

وله مقطوعات عدة أخرى وصف بها الرِّيح والنَّسيم عندما يَمُرُّ على الماء فوصفها بالخَرَز يُدَقُّ عليه خطُّ الكتابة(٢١٩)، ودروع الحرب(٢٢٠)، والسَّيف إذا مَرَّتْ عليه المبارد(٢٢١). أما رياح الصَّيف، فأكثر ما يميزها إثارة الأتربة، والحشائش اليابسة ومن ذلك وصف ابن أبي حصينة للرياح التي تثير الحشائش وتضربها كالنبال يقول:

إذا هَبَّـــتْ ريـــاحُ الصَّيـــفِ بـــاتت   تُفَـــوِّقُ مـــن ســـفا البُهمـــي نِبـــالاً(٢٢٢)

ويصفُ ابن المؤيد وعلى بن ظافر يوماً ثار فيه الغبار من شدة ريح الصَّيف يقول ابن المؤيد:

وقتـــامٍ إذا رآهُ بصـــيرٌ   عـــاد ممَّـــا يُقْذِيـــه مِثْـــلَ الضَّرِيـــر

واستجاز علي بن ظافر فقال:

---

(٢١٧) المصدر السابق: ص٤١، الظلع: العرَجْ.

(٢١٨) المصدر السابق: ص٣٠٠.

(٢١٩) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٣.

(٢٢٠) المصدر السابقك ص٢٧.

(٢٢١) المصدر السابق: ٢٨.

(٢٢٢) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٠، فوّقَ: أي وضع الرامي السَّهم في الوتر ليرمي به البهُمي: نباتٌ يشبه الشعير.

ردَّ ثوبـي مصنـدلاً بعدمـا كـا   نَ شـديد النقـاء كالكـافور[٢٢٣]

أما ابن سناء الملك، فإنّهُ يطرح قضية التنجيم وما يثيره المنجمون عند هبوب الرِّياح من أنّها فألٌ سيءٌ، ونذمر شؤم قد تلحق الأذى بالجيش وقيادته، ولكن الشاعر يَشُدُّ من عزيمة القائد، ويفنِّدَ حجج المنجمين، يقول:

يقولـون إنَّ الرِّيـح تـأتي وأنَّهـا   تبيدُ الورى ما بين شرق إلى غربِ

وأنتَ الذي لو شاء أسرى وقارُهُ   إليها فَهَدَّ من زعزعها النُّكَّبِ

وأنت الذي لوشاء سدّ مهبَّها   بجيشٍ يَصُدُّ الرِّيح من مَسْلَك الهبِّ[٢٢٤]

إذن جاء وصف الرِّيح معبراً ومصوراً لبعض الظواهر البيئية التي عاشها الشعراء في برهم وبحرهم وتفاعلوا معها.

حادي عشر: البرق والرّعد:

البرقُ والرَّعدُ صنوان، ماذكِرَ أحدهما إلا وتَخَيَّلَ المرء الآخر، وشاع في الشّعر وصف البرق أكثر من وصف الرّعْدِ، وأكثر ما ارتبط بذكر الأيام التي مَرَّتْ على الشاعر في دياره أو مع حبيبتهِ التي هجرته وباعَدَتْ الأيام بينهما، فأخذ ينظرُ إلى حمى الحبيب الذي أبرق البرقُ من وجهته، فيوقف صحبه ويأخذ بتذكُّر أيامه ومواطن محبوبته، يقول ابن أبي حصينة:

خليليَّ انظُرا لمعانَ برقٍ   كأنَّ على الرُّبا مِنْهُ ذُبالا

تألَّقَ من دُوَيْنَ خرير خَبَتْ   فأذكرني به الحَيَّ الحلالا[٢٢٥]

---

(٢٢٣) ابن ظافر الازدي: بدائع البدائه: ص١٠٤، القتام: الغبار، الصندل: شجر هندي طب الرائحة يشبه شجر الجوز وله حب أخضر في عناقيدها. الكافور: نبتٌ طيبٌ، طيّبٌ يوخذ منه.

(٢٢٤) ابن سناء الملك: ديوانه: ج١، ص٢٤.

(٢٢٥) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٩، ص٢١٤، ص٨٢، خرير خبت: مكان في الجزيرة واسع مطمأنٌ في الأرض.

ويتطرقُ الشعراء عند وصف البرق إلى الأماكن التي رأوا فيه لمعان البرقِ للتدليل على مكان الحبيبة، يقول ابن أبي حصينة واصفاً برق العراق الذي أثار شجونَه وهو بأرض الشام يقول:

ولقد سرى برق العراقِ فهاج لي بالشام وجداً من سنا لمعانه[٢٢٦]

ومن الأماكن التي حدّدها ابن أبي حصينة في شعر، ولمع فيها برقة، الوعساء[٢٢٧]، وجانب الغور[٢٢٨]، وتهامى[٢٢٩]، ونجد[٢٣٠].

ومن العادات التي تَطَرّق لها الشعراء عند وصف البرق، إيمان الناس في ذلك العصر بأن البَرْقَ تنزله الجنّ، يقول ابن أبي حصينة:

وانظُرَا البَرْقَ كيفَ تنزلِهُ الجِنّ كما تُنْزِلُ السُّلافُ السَّمول[٢٣١]

ولبيان صورة البرق شبَّهَهُ الشعراء بعدة تشبيهات عدة، فشبهه ابن أبي حصينة بالعاشق المتيَّم الذي بدى على محيَّاه الصُّفرة والنحول والخفوق، يقول:

فيه ما في المتيَّم من العِشْقِ خفوق وصفرةٌ ونحولُ[٢٣٢]

وشبههُ إذا ما لمع في غيهب الدجى بالأفعوان عندما يخرجُ من جُحْرِهِ، يقول:

تبَوَّجَ مستشرياً في الظلامِ إذا ابتَدرَ الإفعوان الوجارا[٢٣٣]

ويشبهه كذلك إذا ما لمع في ظلمه اللّيل، بالنار تلوح من وسط الدُّخان يقول:

---

[٢٢٦] المصدر السابق: ج٢، ص٧٤، الوَجْد: الحبُّ الشّديد.

[٢٢٧] المصدر السابق: ج٢، ٩٨، الوعساء: الرّمل اللين.

[٢٢٨] المصدر السابق: ج٢، ٢١٤، الغور: ما تداخل وما هبط، وهي تهامة وما يلي اليمن.

[٢٢٩] المصدر السابق: ج٢، ٢٣١، تهامة: المنطقة التي تساير البحر ومنها مكة.

[٢٣٠] المصدر السابق: ج٢، ٧٤، نجد: قسم من بلاد العرب مرتفع، أعلاه تهامةُ واليمنُ وأسفله العراقُ والشام وهي معروفة في أيامنا وتعد الرياض من مدنها المشهورة.

[٢٣١] المصدر السابق: ج٢، ٩٨، السُلاف: ماسال وتحلّبَ من الخمر قبل العصر، والسَّمول: بقية الخمر في الإناء.

[٢٣٢] المصدر السابق: ج٢،٩٨.

[٢٣٣] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ٢٣١، ٧٤، ابتدرَ: طَلَعَ، الوجار: الحجر.

لاح فـي حنـدس الظلمـاء كمـا لا حَ سنا الوَقْـد بـارزاً مـن دخانـه(٢٣٤)

ويشبهه كذلك بلمعان السّيف المسلول في عتمة الليل، وثغر الحبيبة إذا ما افترّ، وبالنار إذا ما استطار لهيبها، يقول:

وبـرق تـألقَ فـي الظلمـاء وأومضـا فذكـرْتُ مَبْسِـمُ ثغرهـا لمـا أضـا
وكأنّـهُ لمـا اسـتطار وميضُـهُ فـي حنـدس الظلمـاء سـيف منتضـى
يَحْمَـرُّ أعـلاهُ وينْصَـعُ وَسَـطُهُ فَسَـناهُ يَلْمَـعُ مُذْهبـاً ومفضَّضَـا
بـرقٌ تهـاميٌ كـأنّ بريقَـهُ لَهَـبٌ يَشِـبُّ إذا اسـتطار وأومضـا(٢٣٥)

ويربط ابن أبي حصينة بين البرق ونار المعزّ عندما يشعلها على رؤوس الجبال في ظلمة اللّيل في معرض مدحه للمعز بالكرم يقول:

فكأنّـهُ واللّيـلُ معتكـر الدُّجـى نـار المعـزّ علـى متـون رعانـه(٢٣٦)

أما ابن سنان فيرى في البرق صورة الشّيْب في رأسه يقول:

إذا راعنـي وضـح المشـيبِ فإنّـهُ بـرقٌ تـألّق بـالخطوب وأومضـا(٢٣٧)

ويستعير ابن قلاقس صورة البرق ليعبّر بها عن صورة الخَجَل المرتسم على محيًا محبوبتـه، وصورة المطر للدموع يقول:

أومَـضَ بَـرْقُ الخَجَـلِ فـانْهَلّ غيـثُ المقَـلِ(٢٣٨)

واتخذ الشعراء من سرعة البرق تشبيهاً مناسباً لوصف حيواناتهم فشبهوا كما مرّ فـي الفصل السابق سرعة الخيل والجمال بسرعة البرق ومن ذلك قول ابن أبي حصينة:

---

(٢٣٤) المصدر السابق: ج٢، ٧٤، الحِنْدس: اللّيل شديد الظلمة.

(٢٣٥) المصدر السابق: ج٢، ٢١٤، سيف منتضى: مسلول، مُفضّض: متفرق.

(٢٣٦) المصدر السابق: ج٢، ٣٨، الرّعان: رؤوس الجبال.

(٢٣٧) ابن سنان الخفاجي: ديوانه، ١١٩.

(٢٣٨) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ١٦٩. المقل: العيون.

أمـــــا إذا جـــدَّ النَجـــاءُ فإنّهـــــا   بـــرقٌ وأمّـــا إن ونَـــتْ فَـــبُراقُ(٢٣٩)

أما الرَّعد، فقد ارتبط تناول الشعراء له بوصف الصورة الصوتية، واتخـذ للدلالـة علـى خيـل الممدوح وبيان أصواتها، ففتيان الشاغوري، يتخذُ من صوت الرّعـد صوتـاً للخيـل وهـي مُتَّجهـة إلـى ساحة المعركة لبث الخوف والرهبة في القلوب، يقول:

وكـأنَّ صـوت الرّعـدِ ركـضُ خيولِـهِ   والنَّصْـرُ فـي جبهـاتِهِنَّ مُركَّبَـا(٢٤٠)

وشبه الشعراء صوت الرَّعد بتشبيهات عدة، استقاها الشعراء من بيئتهم ليظهروا لنا الصـورة الصوتية له، فالشريف العقيلي يصوره بصهيل الخيل يقول:

إذا تغنَّـــى بـــالصَّهيل أطربـــا   ينفُـضُ عنـه عرقـاً مسـتعذباً(٢٤١)

وبصوت بكاء الناس، يقول:

والرَّعْـدُ مُنْتَحِـبٌ والـبرقُ ملتهـبٌ   والقطْـرُ مُنْسكِبٌ والمـاءُ مضطـرِبٌ(٢٤٢)

وصوت نواح النساء الثكالى كما يصوره القاضي الفاضل:

ليلـــة للـــبروق فيهـــا جُـــروح   وعيـونٌ تبكـي، ورعـد ينـوح(٢٤٣)

وبصوت الإنسان حينما يضحك، كما في قول ظافر الحداد:

والغيْـمُ يبكـي، والرَّعْـدُ يَضْحـكُ والـ   ـبرقُ يديـمُ ابتسـامَ ذي خَفَـر(٢٤٤)

أما ابن ابي حصينة فيصفُ الرَّعد بخطيب أعجمـيٌّ لايُفْهَمُ لـه منطـق، أو بالقيـان التـي تدقُّ الدفوف يقول:

---

(٢٣٩) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ٣١٨، وانظر ديوان ابن حيوس: ج٢، ٣٩٨.

(٢٤٠) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٤.

(٢٤١) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ٦٤.

(٢٤٢) المصدر السابق: ديوانه، ج١، ٦٢.

(٢٤٣) القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ٤٤١.

(٢٤٤) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٣٤، ص٢٤٢، الخَفَر: الحياء.

يقــومُ لـــه وَجُنْـــحُ اللَّيــل داجٍ خطيــبٌ مـــا لمنطقــهِ بيـــان
يهدهِــــدُ والنجـــومُ مغـــوِّراتٌ كمـا ضربـتْ مزاهِرَهـا القيـان[٢٤٥]

ويشبهها كذلك بصوت حنين العشار عندما تجتمع، يقول:

كـأنَّ رواعِــدَهُ فـي الصَّبِّـير حنيـن العِشَـار تلاقـي العشـارا[٢٤٦]

ويشبهُه ظافر الحداد بصوت الثَّوبِ إذا ما قُدَّ، يقول:

والـبرقُ ثـوبٌ تَشِـقُ حُمْرتُـهُ والرَّعْـدُ تصويتُـهُ إذا خُـرِّقَ[٢٤٧]

ومن خلال هذه الأمثلة نرى الشعراء في وصف البرق. وتوضح صورته مالوا إلى وصف صورته ولونه، واتخذوا لذلك صورة النّار، ومبسم المرأة وخدودها، والثعبان خارج جحره وغيرها، أما الرَّعْدُ فوصفوا صوتَهُ، وصوروه بصوت النساء الثكالى، والبكاء، والضَّحك، وصهيل الخيل، وحنين العشار، وصوت قدّ الثَّوب...إلخ.

ثاني عشر: السَّحاب والأمطار والثلوج:

أكثر الشعراء من وصف هذه الظواهر الطبيعية في شعرهم، ويعود ذلك إلى الحاجة الماسة إليها، أضف إلى أن منطقة بلاد الشام، يكثر فيها سقوط الأمطار والثلوج، فأصبحت مفردات يعايشها الشعراء وتلامس حياتهم، ولم يستقوها من دواوين الشعراء على سبيل التقليد.

وقد ظهرت صورتين لها، الأولى اتباعيّة تقلّدُ ما مضى من الشعر العربي واقفة على صوره، وتشابيهه، في رسم صورة الأمطار المتساقطة على رسوم المنازل والأطلال، والمتتبع لهذه الظاهرة في دواوين ابن أبي حصينة، وابن قلاقس، والملك الأمجد، وابن حيوس وظافر الحداد يَجِدُ الكثير، ولكن خير من مَثَّلها في هذا العصر أسامة بن منقذ وذويه، فالمصائب الكثيرة التي حلَّتْ بهم جعلتهم

---

[٢٤٥] ابن أبي حصينة: ديوانه: ج٢، ص١١٦.

[٢٤٦] المصدر السابق: ج٢، ص٢٣١، الصَّبِّير: وسط الشتاء، شدة البرد.

[٢٤٧] ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٣٠.

كثيراً ما يبحثون عن الخراب ويصفونه، ويدعون له بالسّقيا، ويقارنون بين دموعهم ووابله، يقول عز الدولة علي بن مرشد:

ايا منزلاً لعِبَ البَلى برسُومه — شغفاً ببهجتِهِ فليس يريمُ
لاتَبْعِدَنَّ وجادَ ربْعَكَ وابِلٌ — يروي ثراكَ أتيُّهُ وَيَسِيمُ
فاسْقِ الرُّبوعَ من الدّموع سجالها — إنّ الرّسومَ لها عليك رسومُ(٢٤٨)

أما أسامة فقد كان أكثرهم مصاباً، فقد تفقّدَ الموتُ أهلَهُ، وأبقاه ليسقيه كأس الحسرة عليهم، فجادَتْ قريحته برثائهم ورثاء ديارهم، ويدعو لنازلهم ورياضهم بالسّقيا وبوابل الأمطار، يقول:

حيّا رُبُوعَك من رُبىً ومنازِلِ — ساري الغمامِ بكلِّ هامٍ هامِلِ
وسقَتْكِ ياديار الهوى بعد النّوى — وطفاءُ تَسْفَحُ بالهتونِ الهاطِلِ
حتى تروِّضَ كلَّ ماحٍ (ما حِلِ) — عافٍ وتُروِي كلَّ ذاوٍ ذابِلِ(٢٤٩)

وتتأزم نفسية ابن منقذ من ألم الذكريات وشدتها، وحسرة الفراق، فيدعو على هذه الدّيار التي فقدَتْ أهلها بعدم السّقيا فيقول:

لاجادَ رَبْعَك من ديار أقفرَتْ — من أهلها صوبُ الغمام الماطِرِ
لم يبقَ منك الدَّهْرُ إلا حَسْرَةً — للذاكرين، وعبرة للناظِرِ(٢٥٠)

أما الصّورة الأخرى، فبنْتُ عصرها، وسليلة وقتها، وصفها الشعراء كما بدت لهم خلال ملاحظة السَّحاب وهطول الامطار، فوصفوا لوحتها بكل أبعادها، الحركية، والصوتيّة، واللّونية، في نسيج متكاملٍ جديد المظْهَرِ والصُّورة، فبدا السُّحاب والمطر ينبعثُ من بين فجاجه، والبرق يَشُبُّ داخل أحشائه. ومن هذه الصور صورة لتكاثر الغيوم وتلبُّدها، يقول الشريف العقيلي:

بلى الجوُّ حَنَّ إلى جوِّه — فَرَقَّعَ منه الذي خرَّقا

---

(٢٤٨) أسامة بن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ت ٥٨٤هـ): المنازل والدّيار، ط١، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ج١، ص٥٢.

(٢٤٩) المصدر السابق: ج١، ص٥٥، هامل: دام المطر، وطفاء: منهمرة، هتون: مصبوب.

(٢٥٠) المصدر السابق: ج١، ص٥٢.

فصرنـــا نشـــاهدُهُ فضـــةً وقــد كـــان فيروزجـــاً أزرقـــاً[٢٥١]

ومنهم من صوره بالعاشق المتيَّم يبكي معشوقه من شدة النوى والفراق، يقول مجبر الصقلي:

أتـرى السّحاب الجـون بـات مشـوقاً يبكـي النّـوى ويعـاتب التفريقـا[٢٥٢]

ويقول ظافر الحداد:

ويـومٍ تَـبَرَّى مـن سـحائبهِ الـودْقُ كما استَعْبَرَ المعشوق أقلقَهُ العِشْـقُ[٢٥٣]

ويصور الشريف العقيلي السَّحاب المتفرق الذي يغطي وَجْهَ الشمس تارة وأخرى ينكشف، بالمرأة التي تتنقَّبُ تارة وتارة تُسفرُ عن وجهها، يقول:

والـرّوْض مُبْتَسِـمٌ والزّهـرُ مُنْتَظِـمٌ والشّـسُ تُسْـفِرُ أحيانـاً وتنتَقِـبُ
والغَيْـمُ فـي الأفـق ممـدود سـرابقُهُ والطـير يُصفِرُ والأوتـارُ تَصطَخِـبُ[٢٥٤]

وصور الشعراء أدق التفاصيل في هذا الفَصْل الشاتي، ومنها صورة الشّمْسِ التي تتسلل من بين الغيوم، ورذاذ الأمطار يتساقط، فيشبهها محمد بن عبدالله بالإنسان الضاحك الباكي في آن واحد، ويقول:

كأنّمـا الشَّـمْسُ والـرَّذاذُ معـاً فيـه بكـاء يشـوبه ضَحِـكُ[٢٥٥]

ونظر الشعراء إلى الأمطار على أنّها حَرْبٌ على الفقر والجَّدْب وَمبْعَثُ خير ورخاء يقول العقيلي:

يـنزلُ فـي الوَهْـدِ إذا مـا قَرُبـا أغـرّ إن أبصـرَهُ المحْـلُ اختبـا
يُقَـرِّبُ الـذي مـا قرُبـا كـم سـافرٍ غـادره منتقبـا

---

[٢٥١] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٢٢، الفيروزج: حجر كريم.

[٢٥٢] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص٨٦.

[٢٥٣] ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٥٥.

[٢٥٤] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص٦٢.

[٢٥٥] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٣، ص٢٦.

ومجـــدبٍ مـــرَّ بـــه فأخْصَبـــا وعـــاتبٍ مـــن الظّمـــا قـــد أعْتَبـــا
مـــوف علـــى كـــلِّ الوهـــاد والرُبـــا تبْتَسِـــمُ الأرضُ إذا مـــا قطَّبـــا(٢٥٦)

ويقول مشبِّهاً السُحُبُ بالأمِّ التي ترضع أبناءها، يقول:

والسُحبُ تُرضعُ من نبات الأرض ما جعل الرّبيعُ لها الغصون مهورا(٢٥٧)

ويؤكِدُ مرة أخرى ابن قسيم الحموي، بأن المطَر ما هو إلا غيث تُغَاث به البلاد، يقول:

ولنـــا إذا انبجَسَـــتْ أهـــاصيبُ الحَيَـــا يـــومٌ تُغَـــاثُ بـــه البـــلادُ وتُمطِـــرُ
فحسَـــبتُ أنَّ الـــرَّوْضَ منـــه مُنَـــوِّرٌ والأرضَ غَرْقَـــى والغديـــرُ مُجَـــدَّدُ(٢٥٨)

أما البَرَدُ فيصفُهُ ظافر الحداد في يوم باردٍ، وقد انتثَرَ على الأرض في أشكال مختلفة، بالأسنان البيضاء التي زانت الثغور، يقول:

ويـــوم بَـــرْدٍ عقـــودُهُ بَـــرَدٌ لهـــا سـلوكٌ مـــن هَيْـــدَبِ المطـــرْ
ينـــثُرُهُ الجـــوُّ ثـــم تَنْظِـــمُ منـــ ـــه الأرضُ فـــي الحـــالِ كـــلَّ مُنْتَـــثِرْ
فهـو يحـاكي الثُّغـور فـي اللّـون والـ ـلطلـفِ وعـذْبِ الرُضـابِ والخَصـر(٢٥٩)

أما البَرْدُ الذي يَهبُّ مع هذا الفَصْلِ، فإنَّهُ من شِدَّتِهِ يُجمِّدُ الخَمْرة في أقداحهـا، يقول الشاغوري:

قـد أحمَـدَ الخَمْـرَ كـانون بكـلِّ قَـدَحْ وأخْمَدَ الجَمْرَ فـي الكانون حين قَدَحْ(٢٦٠)

أما الثَّلْجُ، فهو من المظاهر المعتادة في بلاد الشام، وغالباً ما وقفَ الشعراء عند جمال هذا المنظر، وأكثر من وقف عند هذه الظاهرة الأسعد بن مماتي، عند زيارته إلى حلب لمدح غياث الدين

(٢٥٦) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص٦٤، أمَحَلَ: أجْدَبَ.

(٢٥٧) المصدر السابق: ج١، ص١٢٠.

(٢٥٨)ابن قسيم الحموي: ديوانه، ص٥٢.

(٢٥٩) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٣٤.

(٢٦٠) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٩٤، وانظر ديوان ظافر الحداد، ص٩٠.

بن غازي بن يوسف واليها، وقد أكثر من تكرار الفعل رأى في مقطوعاته للتدليل على مشاهدته للثلج في أحواله المختلفة، ولم يكن من قبل الاتباعية والتقليد، ولكن وصفه جاء خالياً من العاطفة والشعور النفسي بجماله، فكان الشاعر ناقلاً للصورة لم يدخل عليها من حسّه شيئاً. واتخذ الشاعر من التشابيهِ التي تدلُّ على اللّون الأبيض مداراً لوصفه، فجاء بوصف الأقاحي، والصَّباح، والدُّرّ، أو بياضُ الشحْم. والأسنان، ليوضّح صورته التي أراد إبرازها، يقول:

لمّـا رأتْ عينـي الثّلـ ـــج ســاقطاً كالأقــاحي
وصــارَ لَيْــلُ الــثرى منـ ـه أبيضــاً كالصَّبــاح
حَسِــبْتُ ذلــك مــن ذو ب دُرٍّ عِقْــدِ الوشــاح
او مــن حبــاب الحمُيَّــا أو مــن ثغــور المــلاح
فمــا علــى داخــل النّــا ر بعــد ذا مِــنْ جُنــاح[٢٦١]

وشبهه كذلك باللَّبَنِ يقول:

لمّــا رأيــتُ الثَّلْــجَ قَــدْ غطّــى الوهــادَ والقُنَــنْ
ســألْتُ يــا أهــلَ حلَــب هَــلْ تُمْطِــرُ السَّــما اللّبــنْ؟[٢٦٢]

وينظرُ الشاعر إلى الأرض المغطاة بالثُّلوج، فيخالها سماءً قد غطّتها الغيوم، فيصابُ بالدّهشة والخوف من رؤيته لهذا المنظر البديع، يقول:

لمــا رأيــتُ الثَّلْــجَ قــد أضْحــتْ بــه الأرضُ ســما
وأنْسَــ - الصِّبــا الصَّبــا وأذكــرَتْ جهنّمــا
خِفْــتُ فَمَــا فَتَخْــتُ مِــنْ تعــاظُم الخــوف فمــا[٢٦٣]

واتخذه كذلك مدخلاً لمدح والي حلب غياث الدين يقول:

---

[٢٦١] ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله، الحموي ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، تحقيق، أحمد فريد رفاعي، ط١، دار المأمون، مصر، ج٦، ص١٢٠، الحُمَيّا: الشَحْم.

[٢٦٢] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٦، ص١٢٢، القنن: الجبل الصغير.

[٢٦٣] المصدر السابق، ج٦، ١٢٢.

قـد قُلْـتُ لمـا رأيْـتُ الثَّلْـجَ منبَسِـطاً | علـى الطريـق إلـى أنْ ضـلَّ سـالكها
مـابَيَّضَ اللـهُ وَجْـهَ الأرضِ فـي حلـبٍ | إلا لأنَّ غيـاثَ الدّيـن مالكهـا(٢٦٤)

ويقول:

وشـاهدتُهُ فـي الدَّسْـتِ والثَّلْـجُ دونَـهُ | فَقُلْتُ، سليمان بن داوُدَ والصَّـرح(٢٦٥)

وَيَصفُ صباحاً جميلاً، نثر الجوُّ فيه ثلجَهُ، فكرَّرَ القافية في كلِّ بيت ليزيد من موسيقاه الشّعرية الداخلية في كلِّ بيت، ويسير فيه على وتيرة واحدة، ويظهر مدى براعته وتفننه في نظمه يقول:

مـذ رأينـا الصُّبـحَ يـزدا | ن ويـزدادُ انفراشـا
وحسـبنا نـورَهُ يطـ | ـرُدُ مـن خلـف الفَرُاشـا
نـثر علينـا | ياسـميناً وفراشـا
ورأى أنْ يرسـلَ الأسنـ | ـهُـمُ بـالبرد فراشـا
فغـدا الكـافورُ فـي عَنْـ | ـبَرَةِ الأرض مِراشـا(٢٦٦)

ومن الشعراء الذين وصفوا الثلج في هذا العصر، ابن شرف الدين الأنصاري(٢٦٧)، وفتيان الشاغوري(٢٦٨)، وابن أبي حصينة(٢٦٩)، وابن عنين(٢٧٠)، وابن منير(٢٧١).

---

(٢٦٤) المصدر السابق، ج٦، ١٢٠.

(٢٦٥) المصدر السابق، ج٦، ١٢١.

(٢٦٦) المصدر السابق، ج٦، ١٢١، انفراشا: الانتشار. فراشا: مايبقى من الحبب، فراشا: سدّد السّهم، فراشا: الفرش المفروش.

(٢٦٧) ابن شرف الأنصاري: ديوانه، ص٢١٩.

(٢٦٨) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٩٤.

(٢٦٩) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ٢٦١.

(٢٧٠) ابن عنين: ديوانه، ص٧٥، ص٧٨،ص٨٩.

(٢٧١) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص١٥٠.

ثالث عشر: الأشجار والنباتات والأزهار:

تمتاز طبيعة مصر والشام بجو معتدل المناخ، ساعد على انتشار الأشجار والنباتات والأزهار في مختلف أرجائها.

ولتنوع بيئتها من سهول وجبال وصحراء، تنوعت نباتاتها وأشجارها، ففيها أثلات الصحراء التي تغنى بها الشعراء منذ القديم، وأشجار التفاح في المناطق المرتفعة الباردة، والموز في المناطق الغورية الحارة، والأزهار المتناثرة في السهول والجبال والصحاري.

وسار الشعراء على طريقة من سبقهم من الشعراء في وصفهم نباتات وأشجار الأراك، والخزامى، والعرار، والطلح، والغضا،... وغيرها من النباتات. وبقي الشعراء في هذا العصر مقلدين لأسلافهم، فجاء وصفهم في بيت واحدٍ أو بيتين، متخذين من صفاتها صفات يطلقونها في أشعارهم، وأتت هذه الأوصاف في معرض الحديث عن المرأة، أو اسلحة الممدوح، أو ذكر ما رآه في رحلته إلى الممدوح فابن أبي حصينة يذكر شجر الآراك، عندما يرى شجيرات فتاته التي كانت تجلس في ظلها، فتُهيّجُ فيه ذكريات الماضي الذي عاد أمام ناظريه، يقول:

يرقدون في ظلّ الآراك موائلا ... فتخالهن سَقَطْنَ من أغصانه(٢٧٢)

وتنبري الذكريات تطفو على مخلية ظافر الحداد، عندما يرى شجر الآراك يتمايل متعانقاً مع شجو الحمائم يقول:

يشدو الحمامُ على الأراك فتنبري الـ ... ـأ غصانُ بين تمايلٍ وتعانقِ
ياليْتَ شعري: هلْ يعاود ما قَضَى ... أم جَذّبتِ الأيامُ منه علائقي(٢٧٣)

ونرى الشعراء في وصفهم للآراك قد ارتبط عندهم بالأيام الخوالي، وإثارة الذكريات أما شجر البان، فارتبط بالمرأة وبوصفها، فلطوله وليونته اتخذه الشعراء لبيان صورة قدها، يقول عبدالواحد بن أحمد الغساني:

---

(٢٧٢) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٧.

(٢٧٣) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٣٦، وانظر ديوان ابن قلاقس: ج١، ص١٧٥، جَذّت: قطعت.

ظَلَلْتُ فيها رخيَّ البالِ مع رشاءٍ   مهفهف كقضيب البان ميادِ(٢٧٤)

أما ناقة أُسامة بن منقذ التي أتعبها الترحال، والتنقل من مكان إلى مكان، فيدعوها إلى الرَّاحة في ظل شجر البان إيذاناً بانتهاء الرِّحلة والوصول إلى ديار المحبوبة ثم يبدأ بمصارحتها بما يهوى يقول:

حتى تناخي تحت بانات الحمى   سقى الحمى والبان صوبُ غمام(٢٧٥)

ويرمز ابن السّاعاتي بغصن البان إلى الحبيبة التي أثارها شجو الطيور على الأغصان، فأخذت تشدو وتهتز طرباً يقول:

وصَفَّقَ الزَّهرُ وقد هَزَّ غُصْنُ البان شجواً من شدو ذات الجناح(٢٧٦)

أما شجر النَّبعِ فقد ارتبط بصنع الرِّماح، لقوته وليونته، ومن ذلك وصف ابن حيوس لرماح شجر النبع، بأنَّها أصبحتْ شرايين في رؤوس الأعداء تنفر الدماءُ منها يقول:

والنَّبع كالشّريان إلا أن ذا   نبتُ الوهاد وذاك نبتٌ في الذُّرى(٢٧٧)

ويتخذ ابن قلاقس من شجر النبع رمزاً لقوته وبيان كرمه من خلال الصّورة التي رسمها بقوله:

خُلِقْتُ كالنَّبع إلا أنّ لي ثمراً   والنَّبْعُ عريانٌ ما في فروعه ثمرُ(٢٧٨)

واتخذوا كذلك من أشجار الخط رماحاً لهم يقول العماد الأصفهاني:

غرسْتَ في أرض مِصْرَ من جسومهم   أشجارَ الخطِّ لها من هامهم ثَمَرُ(٢٧٩)

---

(٢٧٤) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص٣٨٣، البان: شجر معتدل القوام لين ورقه كورق الصفصاف.

(٢٧٥) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص١٠١.

(٢٧٦) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٠٨.

(٢٧٧) ابن حيوس، ديوانه، ج١، ٢٦٨، النبع: شجر تتخذ منه السّهام والقسي.

(٢٧٨) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٣٦.

(٢٧٩) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص١٧١.

أما الرّند والعَرْعَرُ، فوصف الشعراء ريحه الطيبة التي ملأتْ الوهاد والجبال، يقول ابن أبي حصينة:

والرّنْـــدُ فيّـــاح الشـــذا والعَرْعـــرَا حتـــى تَسُـــوفَ بالوهـــاد والـــذرى[٢٨٠]

وكذلك الخزامى والبان فأريجها ريح المرأة وعطرها، يقول ابن أبي حصينة:

إذا مـا سَـحَبْتَ الرِّيـط ضَوّعَـنْ للصبِّـا نسيماً كمـا ضـاع الخُزامـيُّ والبـانُ[٢٨١]

ويقول ابن قلاقس ذاكراً العرار والخزامى من خلال وصف رحلته:

طرحنـــا فـــوق غاربهـــا الزّمامـــا فأسـلمها العَـــرَارُ إلـــى الخزامـــى[٢٨٢]

ومن ذلك قول عَرقلَة الكلبي واصفاً نبات دياره، يقول:

يـاراكبَ البكْـرَ بيـــن الشـــيح والغـــار أجـارَك اللـه مـن جـورٍ ومـن عـار[٢٨٣]

ويمزجُ ابن أبي حصينة بين نفسه ومكان الحبيبة الذي تلفه نباتات الطلح والضال، يقول:

بحيـثُ يبيـتُ الطّلْـحُ والضّـالُ منكُـمْ قريباً بنفســي ذلـك الطّلْـحُ والضّـال[٢٨٤]

أما فتيان الشاغوري فيتّخذُ من نباتات الحمى علامات للتعرف على دياره، فعندما يرى العبهَرَ، والقيصوم، والشيحَ، والعرارَ، يعرفُ أنّه قد وَصَلَ إلى دياره يقول:

---

(٢٨٠) ابن أبي حصينة: ديوانه: ج٢، ص١٨١، الرند: نبات من شجر البادية طيب الرائحة، العرعر: نبات يشبه السّرو لاساق له وينبت في الجبال.

(٢٨١) المصدر السابق: ج٢، ص٧٩، الخزامى: نبت زهره من أطيب الأزهار، الرّيط: الملائه إذا كانت واحدة.

(٢٨٢) ابن قلاقس: ديوانه: ج١، ١٧٥.

(٢٨٣) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٤٠، الشيح: نبات أنواع كثيره كلّه طيب الرائحة، الغار: نوع من الشجر عريض الأوراق.

(٢٨٤) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ٤٦، الطلح: شجر من شجر العضاه.

وعـــــايَنتْ عينـــــاك حــــو ذان الحِمـــــــي والعبهـــــــرا
والشِّـــيح والقيصـــوم والعـــــ ـــــرار غضــــاً مزهــــراً[٢٨٥]

ويتخذ الشعراء من صفات بعض الأشجار أوصافاً، يطلقونها على أنفسهم، وعلى من يريـدون وصفه ومن ذلك صفة الحرارة الشّديدة التي يخلفها شجر الغضا بعد حرقـه، اتخذوهـا لوصـف حرقـة الحُبِّ في قلب العاشق، ومنه قول ابن قلاقس:

وقلْـــــتُ لــــــه رِقَّ إن فـــــي فـــؤادي بحبــك جمـــر الغضــــا[٢٨٦]

والنار المشتعلة من السَّيّال والعرفَج تذكِّرُ بلمعان البرق يقول ابن أبي حصينة:

يـــــوحُ يمانيــــاً كــــأنَّ صَرِيمَـــــهُ سنا النـار أذكاهـا سيالٌ وعرفـج[٢٨٧]

أما الأشجار والنباتات المثمرة، فهناك مقطوعات تتناول المشمش والنّخيل والرّمان وأزهـاره، وقد ظهر وصف النخيل في إقليم مِصْرَ، لأن أجواءه تناسب زراعته، وقد اتخـذوه فـي بسـاتينهم وحدائقهم، فانظر إلى ظافر الحداد يصف روضةً مُعَرِّجاً في وصفـه على أشـجار النخيـل، فصورهـا بالنساء الحسان التي تتقلّدُ القلائد في أعناقِهنَّ، وهو في صورته هذه يأتي بإحدى مفردات الجمـال فـي الطبيعة المحيطة به يقول:

والنَّخْــــلُ كـــالهيف الحســـان تزينَــتْ فتقلَّـــدتْ مـــن أثمارهــــا قلائــــدا[٢٨٨]

ومن العادات التي تتخذ بمصر في الأعياد، حمل الفوانيس والشموع وتعليقهـا علـى أغصـان الأشجار، ومن ذلك وصف ابن قلاقس ليوم عيد علقَتْ فيـه الفوانيـس علـى أغصـاء أشـجار النخيـل، فبَدت من عُلاها كالثمار من لهب، وقنواتها من فضة، وهو يحاول في أبياته القليلة أن يزيد من جمـال المنظر، ويصور السُّرور الذي أبداه النـاس مـن خـلال تزيينهم المكـان الجميـل بشـيء أجمـل، فبـدت الطبيعة في أبهى حللها، يقول:

---

[٢٨٥] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٨٣، القيصوم: من أشجار الصحراء ليس لها ساق ولها ورق صغير.

[٢٨٦] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ٤٥٨، الغضا: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمناً طويلاً.

[٢٨٧] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ٣٢٧، السيال: نبات له شوك ابيض طويل إذا نزع منـه خـرج منـه مثل اللبـن ـ العرفج: نبات سهلي جمعه عرافج.

[٢٨٨] ابن منظور: نثار الأزهار، ص٣٦٧، الهيف: ضامرة البطن.

مـــا عهدنـــا النخـــل لـــولا هـــذه باســـقاتٍ بثمـــار اللّهـــب
هطـــل الغيـــثُ لهـــا مـــن فضـــةٍ فهـــي فـــي قنواتهـــا مـــن ذهـــب
وكسَـــاها الـــروضُ نـــوار الذّكـــا فتثنّـــتْ ذاتَ بـــردٍ أشـــقَب[٢٨٩]

ويصور الشريف العقيلي ثمار النخيل من رُطَبٍ أصفر وأحمر، وعناقيدها المتدلية بآنية الذهب التي يوضع فيها الأكل، يقول:

البُســـرُ يجلـــو نَفْســـهُ مـــن أصفـــرٍ واحمـــرِ
كـــأنّمـــا أقماعـــهُ إذا بـــدتْ للمبصـــرِ
ســـكارجٌ مـــن ذهـــب علـــى برانـــي جوهـــرِ[٢٩٠]

واتخذ الناسُ ثمار النخيل كهدايا في مناسباتهم الاجتماعية، يقول الشريف:

وأخٍ كريـــمَ العُنْصُـــرِ مُتفضـــلٍ حُـــرٌ سَـــري
أهـــدى لنـــا بُسْـــراً لـــه طعـــم كَطعـــم السُّـــكر
كخرائـــط مـــن مُصْمَـــتٍ خُتِمَـــتْ بِشَـــمْعٍ أصفـــرِ[٢٩١]

أما عملية استخراج التمر من أليافه، فهي عند الشعراء كاستخراج المال من يد البخيل، فالصورة تدلُّ على صعوبة النّوال، يقول ابن أبي حصينة:

قَـدْ يبـذُل المـال مغصوبـاً أخـو بُخُـلٍ كـالتَّمر يَخْرُجُ مـن ليف ومـن كَـرَبٍ[٢٩٢]

أما شجر المشمش، فاختصت به مدينة دمشق، واحتضنته أشعار العماد الأصفهاني، فكلما بدتْ نفحات دمشق، تذكر مشمشمها، فجاء وصفه ممزوجاً بشيء من العشق لهذه الفاكهة، فالعماد يحاول الارتداد إلى وصف الطفولة البريئة التي تركضُ وتتسابق لقطف الثمار، ومن ثم يجلسون حلقات لأكل القطاف، يقول:

---

(٢٨٩) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٣٧١.

(٢٩٠) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ١٧١، البُسر: التمر إذا لوّن ولم ينضج، السكارج: وعاء الأكل.

(٢٩١) المصدر السابق: ج٢، ٨٤،

(٢٩٢) ابن ابي حصينة: ديوانه، ج٢، ص ١٥٧.

هلمـوا نسـابق نحـو مشـمش دمشـق ... وثم لمَّـا نهـوي علـى الأكـل نلتقـي(٢٩٣)

والعماد الأصفهاني في مقطوعة أخرى يركز في وصفه على الطعم واللون، فالطعم طعم العسل المصفى، أو الرحيق المعتق، أما اللَّون فهو بلون صفرة العاشق الذي شفَّهُ الغرام، وجمرات الغضاء عُلقت، ونجوم تَعلقَتْ في غصون أشجار، ووجنات محمرة، أو كرات من ذهب في فضةٍ ذائبة، أو دنانير في أيدي الصيارفة يقول:

إذا حضـرتْ أطباقـه غـاب رُشْـدُنا ... لمَّـا يتلاقـى مـن مشـوقٍ وشـيقِ
لأنْ مـذابَ الشـهْد فيـه مُجَسَّـدٌ ... أجِـدَّ لـه عهـدُ الرّحيـقِ المُعتـقِ
ومـا اصفـرَّ إلا خـوف أيـدي جناتـه ... فليـسَ لـه أمـنٌ مـن المتطـرّفِ
حكـى جمـراتٍ بالفضـا قـد تعلقَـتْ ... فيـاعجبي مـن جمـره المتعلـقِ
كـأنَّ نجـوم الأرضِ فـوق غصونـهِ ... فيـا حـيرتي مـن نجمـهِ المتـألقِ
وجَنَاتُهـا محمـرةٌ وجُنَاتُهـا ... فمـن يراهـا مثلـي يحـبُ ويعشـقُ
بـدتْ بيـن أوراق الغصـون كأنّهـا ... كـراتُ نضـارٍ فـي لجيـنٍ مُطـرقِ
تُسَـاقِطُها أشـجارُها فكأنّهـا ... دنـانيرٌ فـي أيـدي الصيـارف ترتقـي(٢٩٤)

وفي قصيدة أخرى يتشوقُ فيها إلى دمشق وهو بعيد عنها، وإلى مشمشها، ويصوره بالعرائس الحسان المنظر والطعم، قد بَرَزْن من خدورهن، وبدت الأشجار لهن إكليلاً، يقول:

قـد صـح عزمـي علـى المسير فـلا ... أبغـي مقـامي والقلْـبُ قـد رحـلا
أمْضـي إلـي دُميـةٍ مُقبَلُهـا ... أرشـفُ منـه المـرامَ والعَسَـلا
مصـورٌ بـل مـدوَّرٌ عجـبٌ ... تـرى بـه وهـو جـامدٌ شُـعلا
ففـي قلـوب الأشـجار منـه جُـذاً ... وفـي ظهـور الغصـون مِنْـهُ كُلَـى
طلبـوا بمـاءِ النَّـارِ ظـاهِرَهُ ... لبـاطِنٍ فـي حشـاهُ نـارُ طـلا
تختفـي إذا مـا بـدأ لعينيـكَ فـي ... فيـك، وفيـه النَّـوى إذا وصـلا
حُلـيُّ تـبر علـى عرائـس أغـ ... صـان تَشَـكَّتُ مـن قبلهـا عطـلاً
حُمـرٌ حسـان الوجـوهِ قـد لبسـتْ ... مـن خضـر أوراقهـا لهـا حُلـلا

---

(٢٩٣) المصدر السابق: ديوانه: ٣١٦.

(٢٩٤) عمان الأصفهاني: ديوانه: ص ٣١٦.

عرائيسٌ مِن خدودها برزتْ   تحسبُ أشجارها لها كللاً
حلاوةٌ لا يملُّ آكلُها   إذا الحلاوات أحدثت ملَلاً[٢٩٥]

أما إذا نثرته الرِّياحُ على الأرض فهو أمحاح بيض، يقول العقيلي:

وَمُشْمُش نثرتْهُ   على الرِّياض الرِّياح
كأنّهُ إذا تراءى   لناظري أمحاح[٢٩٦]

وينقل العماد شعوراً إنسانياً بلذة الأكل حين القطاف طازجاً، فيقول:

إذا كُنتُ مبتاعاً من الشَّوقِ مشمشي   فمالي إلا لذةُ المتسَوقِ[٢٩٧]

ومن هذا نرى أن العماد الأصفهاني قد ركزّ في وصفه للمشمش على خاصيتين هما اللون والطعم، وهو في ذلك يختار الأوصاف الجميلة، اللون التي توافق في لونها لون المشمش وطعمها طعمه.

أما التين، فمع أنها شجرة مباركة تكثر في هذا الإقليم، وتنتشر فيه انتشاراً واسعاً، حتى لا تكاد منطقة تخلو منه، إلا أنّ وصفه جاء مقتضباً في مقطوعتين لظافر الحداد وابن قلاقس، أما ظافر فقد وصف لونهُ وحجمه وشبهه بالمرأة التي تحمل أجنّتها في بطنها فرادى وتوائم، وهي جواهِرٌ واصدافها من زبرجد، يقول:

جاءَ بلوز أخْضَرِ   أصغرُهُ مِلءُ اليَدِ
كأنّما زِبِرُهُ   نَبْتُ يحذارِ الأمرد
كأنّما قلوبُهُ   مِن توْءَمٍ وَمُفْرَدِ
جواهِرٌ لكنّما ال   أصدافُ مِن زبرجد[٢٩٨]

أما ابن قلاقس فيعجبه منظر التين في فصل الربيع منعقداً على فروعه يقول:

---

[٢٩٥] المصدر السابق: ص ٣٣٠، وانظر ديوان العماد: ص ١٦٨، ص ١٤٩.

[٢٩٦] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص٩٦.

[٢٩٧] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص ٣١٦.

[٢٩٨] ظافر الحداد: ديوانه، ص ٣٦٩، الزِئْبَرُ: ما يظهر من درز الثوب.

التينُ في فصل الرّبيع مكتبساً   والبسرُ في فصل المصيف معصفرا[٢٩٩]

وشجر الرمان يصفه ابن قسيم الحموي في طور نضوجه، بالملكة المنكسة التاج، التي إذا ما افترت عن مبسمها، ظهرت أسنانها كعقد العقيقُ، يقول:

ومُحمَرةٍ من بناتِ الغصو   ن يمنعُها ثقْلُها انْ تمِيدا
مُنكسةِ التاج في دستها   تفوقُ الخُدور وتحلي النُهودا
تفض فتغترُّ عن مبسمٍ   كأنَّ به من عقيقٍ عقودا
كأن المقابلَ من حبِّها   ثُغورٌ تقبلُ فيها خدودا[٣٠٠]

وأزهار الرُّمان أكثر الشعراء من وصفها لجمال منظرها، وحسنهِ عندما يعقدُ على الشجر، فابن سناء الملك ينظر إليها وهي تميس على الغصون، فيرى من خلالها طاقية الأتراك ذات الشراشيب، يقول:

وجلنارٍ على الغصون   وكلّ غصن بهن ماس
يحلى الشراويب وهي خُضْر   وهو بأطرافها كبائس[٣٠١]

ويصور كذلك، بزعفران في ثوب أحمر في يد مخضوب، يقول: ظافر الحداد:

وجلنار بين أغصانه   يُبْدي أفانين الأعاجيب
كزعفران لاحَ في لاذةٍ   حمراء في راحة مخضوب[٣٠٢]

ويقول الشريف العقيلي:

فالجُلّنار كأنّه   في الإحمرار أخو الخلوقِ[٣٠٣]

---

[٢٩٩] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ١٠٦، مكتبس: مُنْعقِدٌ.

[٣٠٠] ابن قسيم الحموري، ديوانه، ٤٢، التدّست: المجلس، صدر الدار.

[٣٠١] ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص ٤٤٧، الشراريب: طاقية الأكراد الكباسة: العذق وهو من النخيل كالعنقود من العنب. الجلنار: زهر الرُّمان.

[٣٠٢] ظافر الحداد: ديوانه، ص ١٢، اللاذة: ثوب حرير أحمر.

[٣٠٣] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ٢٢٨.

ويصف الشريف العقيلي التفاح بأنهُ يجل عن الوصف في حسنه يقول:

تفاحنـــا بمجلـــسِ الهِبـــاتِ   يجـلُّ فـي الحسـنِ عـن الصفـات
أهليلجـــيٌ خلـــقُ القامـــاتِ   كأنــهُ وســائطُ الجاتــات(٣٠٤)

ويتخذ الأمراءُ التفاح هدايا، يقول ابن الخياط:

أهـدى الأمـير إليـك خـيرَ تحيـةٍ   مـن خـير بسـامٍ أعـرَّ بشـوشِ
مـن نرجـس وبنفسـج غَـضٍّ   وتفـاحِ كوشـي الحُلَّـةِ المرشـوشِ
فكأنهـا وجـه الحبيـب إذا رنَـا   وبخـدهِ أثـرٌ مـن التجميـشِ(٣٠٥)

ويصف ظافر الحداد طعم الكمثري ولونها، فلونها يحكي ماء الورد خالطه الزعفران والعسل، وطعمها يحكي رشف ريق المحبوب، يقول:

للـه وافـرُ كمـثرى ذكـرْتُ بـه   مـا كنْـتُ اعْهَـدُ فـي أيـاميَ الأمـلِ
لـم أدنِّـهِ لفمـي إلا وأوْهَمـه   مـن النهـود لذيـذ العـضِّ بـالقبلِ
قد ذقْـتُ مـن طعمـه مـا كـاد يبلـغ بـي   مـا ذقتُ من رشفِ محبوبٍ علـى وجلِ
يحكـي قواريـر مـاء الـورد خالطـه   فيهـا من الزعفران المسك بالعسـلِ(٣٠٦)

ويشبه ابن الخياط لونه الأصفر بالمحب الذي به جوىً من محبوبه، فابقى هذا الحبُّ لون الصفرة على محياه، يقول:

ثَمَـرٌ كـأنّ بـه الـذي   بـي مـن جـوىً فيـه اصفـرارُ
أبقـي الهـوى أثـراً بـه   والسُّـكْرُ يتبعُـهُ الخمـارُ(٣٠٧)

ويصف البهاء زهير لون الموز وطعمها وريحها، بالمسك، والتبر، والعسل يقول:

---

(٣٠٤) المصدر السابق: ديوانه، ج١، ص ٨٤.

(٣٠٥) ابن الخياط: ديوانه، ١٩٤.

(٣٠٦) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٤٥.

(٣٠٧) ابن الخياط: ديوانه، ص ٢٨٤.

يــا حبــذا المــوز الــذي أرســلتَهُ   لقــد أتانــا طيّبــاً مــن طيــبِ
فــي ريحــه أو لونِــه أو طعمــه   كالمسْــكِ أو كــالتبر أو كــالضَّرَبِ
وافــت بــه أطباقُــهُ منضــداً   كأنَّــهُ مكــاحل مــن ذهــبِ(٣٠٨)

وَيَصفَرُّ الأُتْرجُ خوفاً من السّكين أو من فراقه لأشجاره، كما يشخصهُ العماد الأصفهاني بقوله:

وأترجــةٍ صفــراء لــم أدر لونُهــا   أمــن فــرقِ السّــكين أم فرقــةُ الســكنِ
بحــقٍ علتْهــا صفــرةٌ بعــد خضــرةٍ   فمنْ شجرٍ بانتْ وصارت إلى شجنِ(٣٠٩)

ويصف ابن قلاقس البطيخ بصورة جميلة مبتكرةٍ جديدة، فقد شبه السكين بالبرق، والبطيخة بالبَدْر، وأقسامها بالأهلة يقول:

أتانــا الفقيــه ببطيخــةٍ   وســكينةٍ قــد أُجيــد صقالُهــا
فقطــع الــبرقُ بــدر الدجــىَ   ونــاول كــلَّ هــلالٍ هــلالاً(٣١٠)

ويصف ابن الخياط الخيار، لونه وطعمه وريحه الذي يزكي به النّسيم الأنوف، يقول:

خيــارٌ حيــن تنســبُهُ خيــارُ   لريحــانِ السُّــرور بــه اخضــرار
كــأنَّ نســيمهُ أنفــاس حِــبٍّ   فليــس لمغــرمٍ عنــه اصطــبارُ(٣١١)

ويعدُّ القمحُ، منذ القديم من المحاصيل المهمة في حياة الناس، فهذا ظافر الحداد، يحمدُ الله ويشكره على هذه السنة الوفيرة بالقمح، ويبارك للفلاح الذي زرعهُ، ثم يصف بعد ذلك شكله ولونه وقسوته بالودعة التي في عنق الأطفال يقول:

بــورك فــي بُرنــا ومــنْ زرعــه   والحمــدُ والشــكرُ للــذي صنعــهْ
وفْــرهُ خصْــبُ عامِنَــا فيكــا   د المــرء يحــوي مــن قمحــه شَــبَعَهْ

---

(٣٠٨) البهاء زهير: ديوانه، ص ٢٤.

(٣٠٩) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص ٤٠٤، الأترج: ثمر تسمية العامة الكبار، وهو من جنس اللّيمون.

(٣١٠) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٣٩٥.

(٣١١) ابن الخياط: ديوانه، ص ٢٨٤.

كأنّمـا كـلُّ حبـةٍ فيـهُ   فـي الشكل واللون والجفا ودعـه[٣١٢]

ويصف ظافر الحداد سنابل القمح عند الحصاد ويبيّن لونها، فيقول:

كـأنّ سـنابلَ حَـبُّ الحصَيـدِ   وقـد شـارَفتْ حيـن إبانِهـا
كبـائِسَ مصْفـورةٌ رُبّعـتْ   وأرخـى فـاضِلُ خيطانهـا[٣١٣]

الأزهار:

الشام ومصر واحتان يجد الناظر إليها ما يسر العين، ويعطر الأنف، ويبهج الروحُ، فلا ينظرُ أمامه إلا ورأى الرياض تحفُ النيل من كل جانب، تزف إليه ألق الحياة الفواح مع كل نسمة، ولا ينظر خلفهُ إلا ورأى الغوطة تتربع على صدر دمشق، تبعثُ النور في عين البصير، لذا نجدُ الكل يُهَرْوِلُ مسرعاً ليغتنم فرصة لأخذ قسط من الرّاحة بين فيا فيها، واشتهر شعراء هذه المنطقة بوصف الأزهار والرياض، والتعبير عمّا يختلجُ النفس من سرور وروعةٍ عندما تتلاطم أمواج الأزهار في المروج، وجاء وصفهم في ديباجة مذهبة بالألوان الجميلة، والصور البديعة، والمناظر الساحرة، تتبسمُ الروح عندما ترى صور الخالق في كلمات.

وتطرق الشعراء في وصفهم إلىٰ وصف السوسن، والإقحوان، والخيري، والورد والكبار، والباقلان، والشقيق، والأقاح، والنرجس، والمنثور، والنيلوفر، والياسمين، والنارنج.

ويصور ابن الخياط المنثور على هيئة عاشق ضمّ إليه معشوقه في غفلة من الرقيب، فبدا لونه بين أحمر وأصفر من شدة الخوف يقول:

ففـي نظـمِ منثـوره قـرةُ العيـون   وفيـه حيـاة القلـوبِ
تَبَـدَّتْ غرائـبُ أنـوارهِ   تُلاقـى بهـا كـلَّ حُسْـنٍ وطِيْـبِ
فَمـنْ أحمـرٍ ضمـهُ أصفـرُ   كلـونِ المحـبِّ ولـون الحبيـب
تلاصـق خداهُمـا للعنـاق   وقـد وَجَـدَا غفلـة مـن رقيـب[٣١٤]

---

[٣١٢] ظافر الحداد: ديوانه، ص ١٨٩.

[٣١٣] المصدر السابق: ص ٣٠١.

[٣١٤] ابن الخياط: ديوانه، ص ٢١٢، المنثور: نباتٌ ذو زهرٍ زكي الرائحة.

وكأن ابن الخياط على موعد مع عشق المنثور، حتى بدأ منظره في عينه أحسن منظرا، ونشره أطيب نشرا، يقول:

أيـــا مـــا أحْسَـــنَ المنثـــو رَ منظومـــاً ومنثـــورا
ومــــا أطيَبَـــهُ نشـــراً ومـــا أشـــرقه نـــورا(٣١٥)

ويصف عرقلةُ الكلبي ربا دمشق والمنثورٌ منثور في أرجائها، والنورُ يتفتحُ باشراقه نورٍ، فيدعو إلى ترك كلِّ شيء، والالتفات إلى مباهج ربا دمشق يقول:

مـا فتـحَ النُّـوْرُ إلا أشـرق النُّـوْرُ فمـا اشـتغالك، والمنثـور منثـورُ(٣١٦)

ويصوره فتيان الشاغوري بعاشق يدعو ربَّه بلقاء حبيبه، يقول:

وأنـامل المنثـور منـه خَيَّمَـتْ فَحَثَّـتْ علـى الكـافورِ تُـرْبَ عُيُونِـهِ
بسـط الأكـفَّ كعاشـق يدعـو إلـى الرحمـن أن يحظـى بوصـل حبيبـهِ(٣١٧)

وبدا النرجس كالمنثور من حيث التركيزُ على وصف جماله من ناحية منظره ولونه، أو ريحه ونشره، وبدأ الجمال جمال فتاة والنشر نشرها، ففتيان الشاغوري، يصف نرجساً وسط خميلة خضراء، بوجنة الحبيبة عندما تحْمرُّ من الخجل يقول:

والنرجس الغضُّ على السُّنْدُس الأخضر مِنْـهُ بُسْـطُهُ والـزلالْ
كالشـمعِ الأخضـرِ قضباتِـهُ مـن وجنتـيْ قـاتلتي بـالدلالْ(٣١٨)

وتعج صورة ظافر الحداد، بالصُّور لتوضيح صورة النرجِس، فهي تزدهي بشتى الألوان من ذهب على بلور، إلى أشعة شمس على شمع يقول:

---

(٣١٥) ابن الخياط: ديوانه، ٢١٢.

(٣١٦) عرقلة الكلبي: ديوانه، ٤١.

(٣١٧) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ١١، ص ٧٥، الكافور: نبت طيب طيبة يؤخذ منه.

(٣١٨) المصدر السابق: ٣٨٧، النرجس: نبت من الرياحين أصله بصل صفار وورقه شبيه بورق الكراث، وله زهر مستدير تسبه به الأعين، السُّندس: ضرب من نسيج الديباج أو الحرير.

كأنّمـــا الـــنرجسُ الطـــافيُّ حيـــن بـــدأ   قِعـــابُ تـــبرٍ علـــى جامـــات بلـــور
كأنّمـــا أورقـــه والمشـــمسُ تصَقُلُهـــا   أوراقُ شـمعٍ فمــن خــام ومقصــور(٣١٩)

أما رائحته فمزيج من عنبر الكافور والزعفران، يقول فتيان:

زهـــرات نرجســـه تَضَـــوَّعُ عنـــبراً   مـــن زعفـــران ضمـــهُ كـــافور
يرنـــو بـــأعين غانيـــات مـــا بهـــا   مـــن نعســـةٍ لكـــن بهـــنّ فتـــور(٣٢٠)

ويصفها القاضي الجليس بالعيون التي تجلبُ العيون إلى عشقها يقول:

وفـدَ الربيـعُ علـــى العيـــون بـــنرجسٍ   يحكـــي العيـــون فقـــد حباهـــا نفســـها
عِلقَـــتْ علـــى استحســـانه أبصارُنـــا   شـغفا إذ الأشـياءُ تعشـق جنسـها(٣٢١)

وشقائق النعمان، فقد وصف الشعراء لَونَها، وبيان مواطن جمالها، وأتو بالأوصاف والتشابيه التي تناسبُ حمرتها، فابن عنين يصفُ تفتحهِ بالثكلى التي تشق ملابسها من الحزن يقول:

شـــقَ الشـــقيقُ بهـــا ملابســـهُ   حزنـــاً علـــى ديباجـــة الأُصُـــلِ
فكأنّـــهُ قلْـــبٌ تصَـــدَّع عـــن   ســـودائِهِ فبَـــدَتْ مـــن الخَلَـــلِ(٣٢٢)

وتطرق ظافر الحداد للمعنى نفسه، ولكن في ديباجة مختلفة، وصور مبتدعة، فيصورها والصبا يحركها ببحار من الدماء متموجة، أو بالخمرة الحمراء والأوراق أقداح يقول:

ففـــي تلـــك الشـــقائق منـــه شـــاقتْ   شـــقائِقُ شُـــقِّقَتْ منهـــا ثيـــابُ
تـــراءتْ مـــن كمائمـــه فكـــانت   كحمـــر الـــلاذ أبدتْهمـــا العيـــابُ
تحركهـــا الصَّبـــا فتخـــالُ منهـــا   بحـــارُ دَمٍ يُموِّجهـــا انصبـــابُ
كـــأنْ الخمـــرة الحمـــراء راقـــتْ   وأوراقُ الشـــقيق لهـــا قعـــابُ

---

(٣١٩) ظاهر الحداد: ديوانه، ١٤٦، الجام: الكأس.

(٣٢٠) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ٣٨٧، الزعفران: نبات أصفر الزهر له أصل كالبصل.

(٣٢١) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص ١٩٥، وانظر ديوانه، ص ٢٨٠.

(٣٢٢) ابن عنين: ديوانه، ص ٤١، شقاشق النعمان، نبات أحمرُ الزهر مبقعّ بنقط سوداء.

وتَحْسَبُ فحمةً في كلِّ ساقٍ أحاط -سوى اليَسِير- بها التهابُ[٣٢٣]

ويصفها ابن قسيم الحموي بالشَّقق، ويتخذُ منظره سكينةً للنفس وراحة لها، وهذا الذي يشعُرُ به ابن قسيم يشعر به غالبية الناس إذا ما نظروا إلى مناظر الورود والرَّياحين، متخذين من ذلك متنفساً لهم يقول:

ومُضرج الوجنات تحسبُها شفقاً تبسَّمَ عن دُجى سَبَجِ
قانٍ يروقُكَ حُسنُ منظره فكأنَّما يُسْقى دم. المهجِ
طَعَنَ الهمُوم بمايسٍ خَضَلٍ صافي الأديم ومنظرٍ بهيجِ
ويظلُّ مبتسماً يضاحكُهُ ما في الثغور النورِ من فَلَجِ[٣٢٤]

والحكيم يصورها بخدِّ ثكلى فقدت غالٍ عليها، فسألتْ دمائها من شدة اللطم يقول:

وكأن الشقيق خدُّ ثكولٍ ضرجتهُ دماً بموجعِ اللَّطمِ[٣٢٥]

ويصفها ظافر الحداد بالخدِّ الذي بدت حمرتهُ من الخجلِ وفي وسطه خال يقول:

وشقيقٍ شُققتْ أطمارُهُ كدموع العارض المنتحبِ
أو خالٍ لاحَ في وجنة ذي خجلٍ فرَّط أوذي غَضَبِ[٣٢٦]

ووصف الشعراء حُسْنَ زهرة الباقلاء، وريحها، يقول الشريف العقيلي:

وباقلاء مُونقِ المنْظرِ أنفاسُهُ أذكى من العنبرِ
كأنّما فتِّح من نورهِ فما هنَّ رُكِّبِ في مَرْمَرِ[٣٢٧]

---

[٣٢٣] ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٨.

[٣٢٤] ابن قسيم الحموي: ديوانه، ص ٣٣، ص ٣٤، الفلج: الانبلاج.

[٣٢٥] الحكيم: ديوانه، ص ١٤٤.

[٣٢٦] ظافر الحداد: ديوانه، ص ٤١، ٩٦،٢٢،١٩، وانظر ديوانه فتيان: ص ٥٦١.

[٣٢٧] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ١٦٥، الباقلاء: زهرة الفول.

ووصفها ابن قسيم الحموي باللؤلؤ، أو الشمس المحاطة بالنجوم، أو الدُّرَّة المطبقة على فيروزجة يقول:

لله في زمن الرّبيع وصائفٌ حَفَّتْ بزَهرةِ باقلاء مُبْهجَهْ
ولوتْ بمفرقِها عصابةَ لؤلؤ فكأنَّ شمساً بالنجوم مُتوَّجَهْ
وكأنَّ أنْملَها حَبَتْكَ بِدُرَّةِ بيضاء مُطبقةٍ على فيروزجهْ[٣٢٨]

ويشبه ظافر الحداد الأقحوان بعدة تشبيهات، تتبين من خلالها جمال المنظر، وحُسْنُ الصورة، ومن ذلك تشبيه الأقحوان بثغر فتاة غانية يقول:

والأقحوانَة تحكي ثَغْرَ غانيةٍ تبسَّمتْ فيه من عجبٍ ومن عجبِ
في القَدِّ والثغرِ والريقِ الشهيِّ وطِيـ ـبِ الرِّيحِ واللّونِ والتفليجِ والشنبِ[٣٢٩]

أما عندما تميل زهرةٍ على أخرى، فهي فمٌّ يميلُ على فمٍّ بالتقبيل يقول:

والإقحوانة تمُّ تلقى أُختها كَفَمٍ يحاول من فمٍ تقبيلُ[٣٣٠]

وعندما يتفتحُ الزهرُ ضاحكاً فهو فصوص دُرٍّ يقول:

أُنظُر فقد أبدي الأقاحي مَبْسماً يفترُّ ضحكاً فوق قدٍّ أملد
كفصوص دُرٌ لُطِّفَتْ أجرامُهُ وتنظمتْ من حول شمسهِ عسجدا[٣٣١]

وباللآليء التي نظمتْ في حواشي كَوكَب من ذهب يقول:

والأقاحي كَلآلِ نُظمتْ في حواشي كوكب من ذهب[٣٣٢]

ويصف ابن سناء الملك السَّوسَ بالرقة والنعومة، فهي كالدمقس أو كالشفاه اللعس يقول:

---

[٣٢٨] ابن قسيم الحموي: ديوانه، ص ٣٥.

[٣٢٩] ظافر الحداد: ديوانه، ص١٩ وانظر ديوان فتيان: ٥٦١، الإقحوان، نبات وراق، زهرة مُفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان.

[٣٣٠] ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٦٧.

[٣٣١] المصدر السابق: ص ٣٦٩.

[٣٣٢] المصدر السابق: ص ٩٥،٤١.

وسوســـنٍ أحـــوى جنـــى الغـــرسِ   يـــذوي مـــن اللَّمْحَـــةِ قبـــل اللَّمْـــسِ
أوراقُـــهُ فـــي رقـــةِ الدمقـــسِ   وتصبـــو إلـــى تقبيلهـــنَّ نفســـي

لأنهـــا مثـــلُ شـــفاهٍ لُعْـــسِ(٣٣٣)

ويقول فيها كذلك ظافر الحداد:

وتخـــال السَّوسَـــنَ الغـــضَّ علـــى   عذبـــات الرَّمْـــل بيـــض العَـــذْبِ(٣٣٤)

ويصف ظافر الحداد لزهرة الكبارجامعاً جزئيات الجمال فيها، من خلال الأوصاف الكثيرة المتعددة التي تعادل في مجملها لون الكبار يقول:

كُبـــارة لاحَ بهـــا   زهـــرٌ عجيـــبُ الخلـــقِ
كأنّـــهُ لمـــا بـــدأ   فـــي شـــكله المنمـــقِ
بِيَـــضُ القبـــاطي أودعَـــتْ   أنصـــافُ قشـــر الفســـتق
منوطـــة أجوافـــه   أثـــرَ خضـــابٍ قـــد بقـــي
يُشـــبهُ مـــا آثـــاره   شـــحطُ النَّـــوى فـــي مفرقـــي(٣٣٥)

ويصف زهرة النيلوفر كذلك بأوصاف مختلفة، ندلِلُ على لونِهِ وليونتهِ يقول:

إذا النّيلوفـــر المفتـــوح دارتْ   بصُفْـــرِ قِبابـــهِ زُرقُ النِّعـــالِ
ومـــادَ الخـــيزرانُ بـــه، تَنَـــاهى   إلـــى صفـــةٍ تجـــلُّ عـــن الوصـــفِ
قنـــاديلُ مُشـــرفةٌ الأعـــالي   تســـبُ بهـــنَّ السّـــنةُ الذبـــالِ
قـــد حـــانت سلاســـلها عُراهـــا   فنيـــط بحملهـــا سُـــمْرُ العوالـــي(٣٣٦)

ويشبهها كذلك بساعد فتاة ضَمتْ أناملها إلى كفها يقول:

---

(٣٣٣) ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص ٥٦٩، السوسن: نبات من الرياحين بريّ وبستاني.

(٣٣٤) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٤١، ص٩٦.

(٣٣٥) المصدر السابق: ص ٢٤٥، القباطي: ثيابٌ من كتّانٍ منسوبة إلى القبط.

(٣٣٦) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٤٥، النيلوفر: ضرب من النباتات ينبت في المياه الراكدة له أصلٌ كالجزر وساق أملس يطول بحسب عمق الماء، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر.

أنظـــــر لنيلوفـــــرٍ غـــــضٌ فحكـــــى سـواعدَ الغيـدِ قـد ضُمَّـتْ أناملُهـا(٣٣٧)

وقد أتخذ الناس في مجالسهم أنواع الورود والرياحين المختلفة ليسر ناظرهم، وتعطرُ أماكنهم، ومن ذلك وصف ابو المعافي بن المهذب لمجلس تحفُّ به أزهار الخيريِّ من كلِّ جانب كأنهُ لَبِسَ من الطلِّ ثياباً يقول:

أنظـــر إلـــى الخـــيرى مـــا بيننَـــا مُقَمَّصَـــاً بـــالطلِّ قمصانـــاً
كأنّمـــا صاغتْـــهُ أيـــدي الحيـــا مـــن أحمـــر اليـــاقوت صلبانـــا(٣٣٨)

ويبدو النارنج الأبيض في عين القاضي الفاضل قد أورق من بين أغصانه بالفضة يقول:

وقد أزهرَ النارنجَ أزهارَ فضَّةٍ تَـزُرُّ علـى الأشجار أوراقها الخضـرا(٣٣٩)

وقد عقد الشعراء المجالس في هذه الرياض، وأخذوا يتبارون في وصف أزهارها ارتجالاً ليظهروا براعتهم في الوصف، وقدرتهم على النظم، ومن ذلك اجتماع عدة شعراء على وصف ضمة من الياسمين على لجةِ ماء، فأخذ كلٌ واحدٍ منهم يصفها مصوراً اياها صوراً تزيدها جمالاً على جمالها وحسناً على حسنها، فقال العباس بن طريف الخراط الاسكندري:

نـــثروا الياســـمين لمَـــا جنَـــوهُ عَبَثـــاً فاســـتقَرَّ فـــوق المـــاءِ
فحَسِـــبنّا زهـــرَ الكواكـــبِ تحكـــي زَهْـــرَ الأرضِ فـــي أديـــم السَّـــماء

وانشدَ فيه أبو الحسن علي بن سيف الدين الحصري:

نـــثروا الياســـمين لمـــا جنَـــوهُ فـــوق مـــاءٍ أحبـــب بـــه مـــن مـــاء!
فحكـــى زهـــرُه لنـــا لمّـــا تَبَـــدَّى زَهْـــرُ الشُـــهُبِ فـــي أديـــم السَّـــماء

وقال ابن المؤيد:

نـــثروا الياســـمين فـــي لجـــة المـــا ء فخلنـــا النُّجـــومَ وســـط السَّـــماء

---

(٣٣٧) المصدر السابق: ص ٢٤٦.

(٣٣٨) العماد الأصفهاني: جريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٣، ١٢٩، الخيري: المنثور الأصفر.

(٣٣٩) القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص ٤٤٣، النارنج: ضرب من الليمون تعرفهُ العامة "بليمون بو صغير".

فكـــأنَّ السّـــماء فـــي بـــاطن الأر ضِ أو الـــدُرُّ طـــفَّ فـــوقَ المـــاء

وقال أبو عبد الله النحوي ولم يكن حاضراً في ذلك:

نَـــثَرَ الغـــلام الياســـمين ببركـــةٍ مملـــوءَةٍ مـــن مائِهـــا المتَدَفِّـــقِ
فكأنّمـــا نـــثروا النجـــوم بأســـرها فـــي يـــوم صحـــوٍ فـــي سـماءٍ أزرق(٣٤٠)

ويصف ظافر الحداد رائحة الرّيحان العطرة التي يبعث من خلالها الريحانُ أحاديثه للجالسين حولهُ يقول:

وَيُجَمِّـــشُ الرَّيحـــانَ راحُ رياحِـــهِ فيسُـــوقُ منـــه مـــا يحُدِّثُنـــا بـــه(٣٤١)

ويشبه ظافر الحداد البهار بقرص الشمس عند المغيب، يقول:

بهـــــارٌ بـــــاهرٌ هيْئَتـــــهُ مثـل جِـرْمِ الشـمس عنـد المغـربِ(٣٤٢)

أو كالدّنانير الصّفراء التي سُبكتْ بنارِ الشمس يقول:

وللبهـــــار دنـــــانيرٌ مُنمقّـــــةٌ سَـــبكُ الغيـــوثِ بنـــار الشّـــمْسِ(٣٤٣)

وتعدَّدَتْ اللوان الورود بين الأبيض، والأحمـر، وتعـددتْ أوصافـه بيـن لـون الكـافور ولـون الشقِقِ، وقد وصفهُ الشعراء من خلال وصفهم لمجالسهم التي تحفها الورود من كل جانبٍ فبدا وصفهم غاية في الدقة والروعه يقول ظافر الحداد مصوراً وردةً بيضاءَ مشوبةً بحمرة:

ووردةٌ بيضـــاء يقصُـــرُ عنهـــا الوصـــفُ صَوْتُهـــا لكُـــلِّ طـــرْفٍ ظـــرْفُ
بيضـــاءُ فيهـــا حمـــرةٌ تشْنـــتفُ بيـــن بنـــانٍ للنـــوال وقْـــفُ
فيهـــا حيـــاةٌ للـــورى وحتْـــفُ كأنّهـــا حيـــن جناهـــا القطـــفُ
ونـــافسَ الكـــافورٌ منهـــا العَـــرْفُ وابتهـــجَ القلـــبُ بهـــا والطـــرفُ
مجمـــوعٌ كـــم قـــد حوتْـــهُ كـــفُ كـــانَ أحمـــرُ اللـــون وعـــاد يَصْفَـــرُّ

---

(٣٤٠) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٢٤٧، الياسمين، نبات زهره طيب الرائحة.

(٣٤١) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٢، الريحان: كلُّ نبات طيب الرائحة.

(٣٤٢) المصدر السابق: ص ٤١، البهار: نبتٌ طيب الرائحة ويقال له "عين البقر" وهو بهار البر.

(٣٤٣) المصدر السابق: ص ١٩.

حتـــى لقـــد كـــادَ الصَّبـــاغُ يعفـــو أو خامـــةٌ لـــم يَغْـلُ فيهـــا الحـــرفُ[٣٤٤]

ويقول الشريف العقيلي:

والـــوردُ مـــا بيـــن أنهـــارٍ مُدرَّجـــةٍ كأنّـــهُ شـــفقٌ مـــن حولـــه حُبُـــكُ[٣٤٥]

ويقول في مجلس شرابه فتيانٌ، مُتخذاً الوردَ مُنبِّهاً له:

والـــوردُ يدعـــو للصبـــوحِ تنبَّهـــوا نـــادى المـــؤذِّنُ فـــالقَ الأصبـــاح[٣٤٦]

ومن خلال هذه الأوصاف الكثيرة للأزاهير، نجد الشعراء قد تناولوا في أوصافهم جانبين، اللّون، والرائحة، وحشدوا في سبيل ذلك الأوصاف الكثيرة لبيان صورتها، فبدتْ أوصافهم ملاصقة لوصفهم، معبرة عنها، ومردُّ ذلك إلى أنّ الأزهار والرِّياض غالباً في حدائقهم، تحف بمجالسهم، يُسَرُّوْن بمناظرها، ويتنشقون ريحها.

---

[٣٤٤] ظافر الحداد: ديوانه: ص٣٦٠.

[٣٤٥] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٣١.

[٣٤٦] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ٧٥، ص١١.

الفصل الثالث

الطبيعة الصناعية

الفصل الثالث

الطبيعة الصناعية

حاول الإنسان منذ القدم تسخير الطبيعة لمصلحته، فلم يألُ جهداً في البحث عن الراحة ودعة العيش، فلذلك أخذ بالتفكير في الأمور التي تقربه منها، وبدا مشواره الطويل بالبحث عن السعادة، فأوجد ما أسميناه بالطبيعة الصناعية من مدن، وقصور، ودور، وحمّامات، وأماكن لعبادته وتعليمه من مساجد، وأديرة ومدارس، وأماكن ليحمي فيها نفسه ويدفن فيها موتاه من قلاع، وحصونٍ، ومنارات وأهرامات، وأوجد خلال ذلك أماكن تضفي على نفسه متعة وجمالاً، فبنى البركَ والفواراتِ، والمتنزهات، والجداولَ، والخلجانَ، والنواعيرَ، وكلُّ ذلك جعل شعرَه يتفجَّرُ بالصُّور الناطقة، واللوحات الجميلة الفتانة، يجانسُ بين كلماته ليظهر روعة الكلمة إلى جانب روعة المنظر، يطابق بينها ليظهر بالضد الجمال الذي يبحثُ عنه، فبدت لوحاتهُ قطعاً موسيقية، تُسَرُّ بها الآذنُ قبل العين أحياناً، فنرى الماء من خلالها يترقرق في الجداول، يسير على أنغام الأزاهير حتى يصب في البركة أمامَ القصرِ المنيف الذي يَعجُّ بأنواع كثيرة من الطيور.

١-المدن:

انتشرت ظاهرةُ المدينة بالنسبة للعربي بعد الفتوحات الأسلامية للبلاد المحيطة بجزيرتهم، فقد كان العرب إلا القليل منهم بدواً رحلاً، يطلبون الماء والكلأ أينما وجد، يبحرون بحثاً عنه في صحرائهم المترامية الأطرافِ، وبعد الفتحِ الاسلامي أخذوا يميلون إلى تكوين مُدن لهم، فظهرَت الكوفة والبصرةُ[١]، واستوطنوا مدن الشام، وأصبحتْ دمشق فميا بعد عاصمة لهم، وأسسوا الفسطاطَ في مَصْر[٢]، وتعاقبتْ الدول الإسلامية عليها، وأخذ الشعراء يتغنون بها وهي عزيزة، ويرثون حالها إذا دالت عليها الأيام.

ووصف شعراء هذا العصر مدنَهم، في لوحات اختلطتْ فيها الطبيعة الحيّة والصامتة بالطبيعة الصناعية، فكان حنين الشعراء لمدنهم في هذا العصر يوازي حنينَ الشعراءِ في العصور

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٤٣٠، ج٤، ص ٤٩٠.

(٢) المصدر السابق: ج٤، ص ٢٦١.

السابقة على ديارهم ومنازلهم، ولكن إنْ بَدَتْ لوحة الأطلال مقفرةً لا حياة فيها سوى الغراب ينعق فيها والبوم، وبعض الشجيرات نبتَتْ بين دِمنها، بَدَتْ لوحة المدينة جميلة مفعمةً بالحركة، والصوت والألوان الزاهية، فبدت في زيٍّ عروس تلتقي بعريسها، وجنة تلوحُ بمغانيها.

وظهرتْ صورة المدينة في شعر هذه الفترة من خلال وصف الشعراء لذكرياتهم التي خلفوها وراءهم، مغتربين في أرض الله، إما بحثاً عن الرزق كثير من الشعراء، وإما مجبرين هاربين بأرواحهم من ظُلم السلطان وسيفه مثل ابن عنين، وأسامة بن منقذ، فبدَتْ قصائدهم مع جمال التصوير، ممزوجة بدموع الألم والحسرة، يتذكّرون مدنهم وأحياءها، ورياضها، ومياهها، وسفوحها، وجبالها، وكأنّهُ يعدّدُ بطريقة أو بأخرى، ما وقف عليه الشعراء منذ القدم على منازلهم وديارهم، مع اختلاف الشبه بينها، ومن ذلك وصف ابن عنين لمدينة دمشق، يقول:

دمشقُ فبي شوقٌ إليها مبرِّحٌ ... وإنْ لجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ
ديارٌ بها الحصباءُ دُرٌّ وتُرْبُها ... عبيرٌ وأنفاسُ الشمالِ شمولُ
تَسَلْسَلَ فيها ماؤها وهو مطلق ... وَصَحَّ نَسيمُ الرَّوض وهو عليلُ
فيا حبذا الرَّوض الذي دون عَزَّتا ... سحيراً إذا هَبَّتْ عليه قبولُ
وياحبذا الوادي إذا ما تدفَّقتْ ... جداول باناسٍ إليه تَسِيْلُ
وفي كبدي من قاسيون حزازةٌ ... تزولُ رواسيه وليس تزولُ
إذا لاحَ برق من سنير ترافقتْ ... لِسُحْبِ جفوني في الخدود سيولُ[٣]

أما فتيان الشاغوري الذي يعيش في كنف دمشق، ويستنشقُ هواءها، ويعرفُ سِرَّ جمالها، يأتي وَصفُهُ لها معبراً عن حب كبير لها، تفيضُ به عاطفةٌ صادقةٌ، تنظر من خلالها دمشق، شمس وجنة، ونهر يجري، وورود تتراقص، وطير يشدو، وفي نهايتها يَهْزَأُ من الشعراء الذي ما زالوا يبحثون عن مواطن الجمال في شعب بَوّان، وإيوان كسرى، وأعمدة غمدان، والأبلة يقول:

دمشقُ كالشمس لا نظير لها ... يوجدُ في سائر النصاوير
كأنها جنةٌ مزخرفةٌ ... زهتْ بولدانها وبالحور
وكلُّ غُصنٍ بكلِّ فاكهةٍ ... دان لجاني الثمار مهصور

---

[٣] ابن عنين: ديوانه، ص ٦٩.

قبول: ريح الصَّبا، عليل: الرّيح الليّنة، إذا مرّت على الرياض تحمل معها العبير. باناس: أحد الجداول في دمشق، حزازة: الألم في القلب أو الصدر، أو وجع في القلب من الغيظ.

تَهُـزُّهُ راحـةُ النسـيم علـى الرفـق   فتبـدي اهـتزاز مقـرور
وكـل نهـرٍ حصبـاؤهُ دُررٌ   جـرى عليهـنَّ ذوبُ كـافور
رياضُهـا مـن بنفسـج بهيـج   ونرجـسٍ مُضعـفٍ ومنثـور
وورودهـا كـالخدود تصبغهـا   كلونهـا الـراحُ فـي القواريـر
تمنـحُ آنافنـا وأعيننـا   بكـلِّ حُسـنٍ وكـلِّ تعطـير
والطـيرُ فـي الـدوحِ شـادياً غَـرِداً   مـن بلبـلٍ صـافرٍ وشـحرور
أنمـوذج للجنـان ربوتُهـا   تُقـررُ الوعـد أيَّ تقريـر

ويمضي في قصيدته يصف المناظر الجميلة الخلابة في دمشق إلى أن يقول:

دع شـعب بـوان والأُبلـه   والإيـوان وأعمُـد غمـدان فـي البـور[٤]

وكما دعا الشعراء العرب القدامى لديارهم وديار محبوباتهم بالسُّقيا والغيث، دعا الشعراء في هذا العصر لدمشق بالسُّقيا، لأنها مكان الهوى والعشق، يقول ابن منير الطرابلسي:

سـقى دمشـق مغنـىً للهـوى فيهـا   حيـاً تهـزُّ لـه أعطافهـا تيهـا
لا زال للـدَّوحِ عطـاراً يراوحهـا   وللسـحائب خمـاراً يغاديهـا
دار هـي الجنَّـةُ المحبـورُ سـاكنها   إن لـم تكنِهـا وإلا فهـي تحكيهـا[٥]

ومن الأسباب الجوهرية التي دعت الشعراء إلى وصف مدنهم، الرد على شعراء المدن المصرية الذين يتباهون بمدنهم وجمالها، مع بيان الفارق الجمالي الكبير بين جمال دمشق الذي يجمع مظاهر الطبيعة كلِّها وجمال تلك المدن، يقول فتيان في ردِّه على مَنْ ذم دمشق:

مـن ذمَّهـا يومـاً وفضَّـلَ غيرهـا   فـذاك موسـوم الجبيـن بأحمقـا
مـن كـان يفخـر بـالخليج وكسـره   والنيـل قـد عـم البـلاد وطبقـا
فلِكُـلِّ سـببٍ مـن دمشـق مفـاخرٌ   أصبحـن أولـى بالفخـار وأليقـا
بلـد تـراه إذا البـلادُ تسـابقَتْ   فـي حلْبـةِ التفضيـل جـاء الأسـبقا

---

[٤] فتيان الشاغوري: ديوانه: ص ١٧٧، هصور: متهدلُ الأغصان، المقرور: الذي أصابه برد شعب بوان، شعب بارض فارس وهو أحد متنزهات الدنيا، الإيوان: إيوان كسرى بالمدائن، غمدان: قصر بني في هذه المدينة في اليمن بين صنعاء وطيوة بناه يشرح بن يخصب، البور: ما لم يزرع.

[٥] ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص ١٧٨، التيه: التكبُّر، المحبور: المسْرور المبتهج. تكنها: تسمى بها.

أكـــرم بنبـــتِ رياضـــهِ وغياضـــهِ   والنـــورُ نـــورُ بـــالحدائق محدقـــاً
والـــورقُ تشـــدو والغصـــونُ رواقـــصٌ   إذا هـــبَّ فـــي الـــورق النسِـــيم فَصفّقـــا
فكأنمـــا الأرضُ الســـماءُ طـــلاوةً   والزهـــرُ كـــالزُّهْرِ الكواكـــبِ رونقـــا(٦)

ولم يجـد كلّ مـن وصـف دمشـق أن ينعتها بأوصـاف الجنـةِ، لحسنها، وجمالهـا فهـي "جنـة الأرض بلا خلاف، لحُسنِ عمارة، ونضارة بقعةٍ، وكثرة فاكهةٍ، ونزاهةِ رقعةٍ، وكثرة مياه، ووجـود مآرب"(٧) وبعد وصف مدينةِ دمشق ، عمد الشعراء إلى وصـف أحيائهـا والبيئـة المحيطـة بهـا، فـابن الساعاتي يبثُ شكواه من خلال وصف سفح دمشق الذي قضى فيـه أوقاتاً سـعيدةً مـع مـن أحـب مـن النساء، ويجعل جمال السفوح وكثرة مياهه مدخلاً لوصف وجه الممدوح وكثيرةِ عطائه، يقول:

وآهـــا لســـفح دمشـــق حيـــث تفـــاوحتْ   كثباتُـــــهُ وترنحـــــتْ باناتـــــهُ
هـــو موقـــفُ الشـــكوى الـــذي لـــولاه مـــا   فتكـــتْ بغلـــبِ أســـوده ظبياتـــهُ
مُتبلِّـــجٌ والليـــلُ تحـــت لوائـــهِ   والصبـــحُ مـــا نشـــرت عليـــه ملاتـــهُ
والأرضُ تفهـــقُ بالميـــاه كأنمـــا   خلقـــتْ علـــى تلـــك الهضـــاب صفاتـــهُ
وتـــرى صفـــاءَ الجـــوِّ يُشـــبهُ وجهَـــهُ   سَـــيْلُ النـــدى فَتَهلَّلـــتْ قســـماتهُ(٨)

ويتخذُ من وصف "باب البريد" مدخلاً لبثِّ حزنهِ وشكواه في غربتهِ عن بلده، يقول:

شـــديدٌ إلـــى بـــاب الـــبريد حنينُـــهُ   وليـــس إلـــى بـــاب الـــبريد ســـبيلُ
منـــازلُ ماؤهـــا فمصفـــقٌ   زلالٌ وإمـــا ظلُّهـــا فظليـــلُ(٩)

ويسيرُ ابن عنين في وصف الغوطتين على نهج ابن الساعاتي في تذكر أيامه التي مرت عليه فيها، مبيناً من خلال ذلك ظِلُّهاً ونسيمها المشبعُ بالعطور من أريجها يقول:

---

(٦) فتيان الشاغوري: ديوانه، ٢٩١، غياضه: مجتمع الشجر في مغيض ماء. الطلاوة: الحَسَنُ المعَجب.

(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢. ص ٤٦٣، وانظر الـروض المعطـار للحميري: ٢٣٧. ورواه ابـن بطوطـه: ج٢/ ص ١٠٢.

(٨) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص ٥١، البان: شجر معتدل القوام لين ورقه كورق الصفصاف يؤخذ من حبّهِ دهنٌ طيب. المُلاءَة: ثوب يلبس على الفخذين. تبلج: أشرق. هلل: فرح.

(٩) المصدر السابق: ج١، ٦٤، باب البريد: اسم لأحد أبواب دمشق. الزلال: ماء عذب صاف يمر سريعاً في الحلق.

وأيـامَ دوحِ الغوطتيـن وظِلِّهـا الظليـلُ إذا صـامَ الهجـيرُ وَصمَّمَـا
وروضـاً إذا مـا الريـحُ فيـه تَنَسَّـمَتْ سـحيراً تخـالُ المنـدلَ الرطـبَ أضرمـا[(١٠)]

ويستجمعُ ابن الخياط ذكرياته على طريقة مالك بن الرَّيب، ويذكرُ أيامَ الجمعِ، وكؤوس الشراب تدارُ بينهم في أجواء من الدعة والسرور، يقول:

إلا ليـتَ شـعري هـلْ أبيتَـنَّ ليلـةً يُروِّحنـي بـالغووطتين نسـيمُ
وهـل يجمعَـنَّ شـملي بفتيـةٍ علـى العيشِ منهـمْ نضـرةٌ ونعيـمُ[(١١)]

ويُحيِّي ابن منير الديار، ويذكر أحياء دمشق، وأماكن اللهو التي عاش في أكنافها، ويسخر من الذين يتخذون من الأماكن التي وقف عليها الشعراء في العصور السابقة أمكنةً يلهجون بذكرها ويتباكون عليها للتدليل على الشوق والحنين الكامن في نفوسِهم، بدلاً من الأماكن التي ارتادوها، ودرجوا على رُباها في طفولتهم وصباهم، يقول:

حـيِّ الدّيـار علـى عليـاء "جـيرون" مهـوى الهـوى ومغـانيَّ الخُـرَّدِ
مـرادَ الهـوى إذ كفـيَّ مُصَرَّفَـةٌ أيمنَـةَ اللّهـو فـي تلـك الميـادين
بـ"النيربين" فـ"مقرى" فـ"السَّرير: فـ "جمـ ـرايا" فَحَـوٌ حوشـي جِسْـرَ "جسـرين"
فـ"القصرِ" فـ"المرج" فـ"الميدان" فـ"الشرف الأ علـى" فـ"سـطرا"فـ"جمرايـا" فـ"قلبيـن"
فـ"المـاطرون" فـ"دَارَيّـا" فجارتَهـا فـ"آبـل" فمغـاني "ديرقـانون"

---

(١٠) ابن عنين: ديوانه، ص ٨٠. وانظر ديوان التلعفري: ص ٢٥، الغوطتين: الكورة التي منها دمشق يحيط بها جبال عالية. الهجير: شدة الحرُّ. المندل: العود الطيب الرائحة.

(١١) ابن الخياط: ديوانه، ص ١٥٣، مالك بن الريب: غزا مع جيش سعيد بن عثمان بن عفان خرسان، فلم يزل بها حتى مات، ولماحضرتهُ الوفاة قال قصيدة يرثي بها نفسه ويذكر فيها ذكرياته، ومطلعها

الا ليـت شـعري هـل أبيتـت ليلـةً بجنـبِ الغضـا أزجـي القـلاصَ النواجيـا

تلـــــك المنـــــازل لا وادي الآراك ولا "رمـل المصلـى" ولا أثــلاث يــبرين(١٢)

أما تلُّ راهط فقد وصفهُ ابن عنين، وتأثَّرَ بمناظره الجميلة، وتذكرَ أيامه التي مرتْ في ربوعه يقول:

لــولا ادكـــارُكَ تَــلَّ راهِــطَ الحمـــى مــا سَــحَّ جفنُــكَ بــالدموع ولا همـــى

أنّـى اتجهْــتَ رأيــتَ روضــاً مُخدقــاً بشَــفَا غديــرٍ كــالمجرة والســـما(١٣)

أما حَلَبَ، فقد هام الشعراء في وصفها، ولكنها لم تصل إلى مرتبة دمشق في حُبِّ الشعراء لهـا، فـابن سنان الخفاجي حينما تثور في نفسه الذكريات، يذكرُ مدينته ومواطن صباه فيها، يقول:

يــا بــرقُ طــالع مـــن ثنيَّــهِ جواشـــنٍ حلبــاً، وحـــيَّ كريمـــةً مـــن أهلهـــا

واســأله هـــل ســـحبَ الربيـــعُ رداءه فيهـــا وجـــرَّ الفَضْــلَ مــن هُدَّابــه(١٤)

ويهدي ابن سنان حلب تحيتهُ وسلامه، من خلال جبلها الشهير وهضابها يقول:

قُــلْ للنســـيمِ إذا حملْـــتَ تحيَّـــةً فـــاهدِ الســـلام لجوشـــنٍ وهضابـــهِ

وتبســمتْ عنـــهُ الريـــاض وأفصحـــتْ بثنـــاء بارقِـــهِ ومـــدح ســـحابهِ(١٥)

أما أحمد بن عبد العزيز أحد شعرائها، فيذكرُ أنهُ كلما ابتعد عنها كلما ازدادَتْ حباً في قلبــه، واكتـوى بنار بعدها، يقول:

فيــا جـــيرة الشـــهباء إن طـــال نأيُنَـــا وحـــالتْ حُـــزُوْن بيننـــا وســـهوبُ

صفوتُ لكـم حبـاً علـى القُرب والنـوى فَســـيَّان منكـــم مشــــهدُ ومغيـــبُ

---

(١٢) ابـن منـير: ديوانـه، ص ١٧٢، ص ١٧٣، جيرون، النيربين، مقرى، والسُّرير، وحمرايـا، جسـرين، والقصـر والمرج، والميدان، والشرف الاعلى، سطر، جمريا، قلبين، الماطرون، داريـا، أبـل: أحيـاء وقـرى لدمشـق ديرقـانون: دير في مدينة دمشق. وادي الأراك: وادي قرب مكة. يبرين: وهو رمل في حجر اليمامـة او بـاعلى بـلاد بنـي سـعد، وقيل من أصقاع البحرين، الخرد: التي لم تمس.

(١٣) ابن عنين: ديوان، ص ٧٩، ٨٩، تل راهط: مكان بالقرب من دمشق. جواشن: جبل مُطل على حلب من غربها.

(١٤) ياقوت الحموي ياقوت بن عبد الله الحمـوي. (ت٦٢٦ هـ): معجـم البلـدان، دار صـادر، بـيروت، ١٩٨٦، ج٢، ١٨٦.

(١٥) ابن العديم (الصاحب كمال الدين عمر بن أبي جراده): بغية الطلب فـي تـاريخ حلـب، تحقيق سـهيل زكـار، ط١، مطبعة مديرية البعث، دمشق، ١٩٨٨، ج١، ص ٤١٣-٤١٤.

وكـلُّ الـذي يأتيـه مـن حسـناته رمـاني مـع هـذا البعـاد ذنـوبُ
فيـا ليـت شـعري والأمـاني تَعِلَّـةٌ أيضحـي بعيـد الـدار وهـو قريـبُ(١٦)

وكما دعا شعراء دمشق لها بالسُّقيا، دعا شعراء حلب كذلك لها بالسُّقيا والغيث الذي يجلبُ لها الخيرَ والسعادةَ، يقول ابن سعدان:

يـا ديـارَ الشـامِ حيَّـاك الحيَـا وسـقى سـاحتكِ الغيـث الهمـولُ
وتمشـتْ فـي نواحـي حلـبٍ شـارداتُ الـرَّوضِ والسَّـاري البَليـلُ(١٧)

ووصف الشعراء ثَلْجَ حلب وتغنوا بمنظره وسحره وهو يغطي الأرض بالبساط، ووصفوه بالأوصاف الكثيرة، وقد مرت مقطوعات كثيرة عند بيان صورة الثلج.(١٨)

أما صيدا، فوصف الشعراء الطبيعة الجميلة المحيطة بها، التي تبعث في النفس الراحة والسعادة عندما ينظر المرء إلى الغطاء الأخضر التي ترتديه، يقول ابن الساعاتي:

للـه صيـداءُ مـن بـلاد لـم تُبْـقِ همـاً دفينـا
نرجسُـها حِلْيَـةُ الفيـافي قـدْ طَبَّـقَ السـهل والحزونـا
وكيـف ينجـو بهـا هزيـمٌ وأرضُهـا تُنْبِـتُ العيونـا(١٩)

اما مدينة بيت المقدس، فالصورة التي ظهرتْ عليها كانتْ من خلال دعوة الشعراء القادة وحثهم على تحريرها وتخليصها من براثن الصليبيين، يقول العماد الأصفهاني حاثا صلاح الدين على تحريرها:

ولا تهملـوا البيـت المقدَّس واعزمـوا علـى فتحـه غـازين وافـترعوا البكـرا(٢٠)

---

(١٦) الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء، ج٣، ص ٥٥٧، الحزون، ما غلظ من الأرض، الشهباء: اسم من أسماء حلب.

(١٧) ابن شداد(عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم ت٦٨٤هـ): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحي عبارة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨، ج١، ص ١٦٥. الهمول: دام المطرفي سكون.

(١٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٦، ص ١٢٠، ص ١٢١، ص ١٢٢.

(١٩) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٦٨.

(٢٠) العماد الأصفهاني: ديوانه، ١٦١.

ويصور طلائع بن رزيك أحدى غاراته على القدس وقد أذاق الصليبين خلالها طعم الهزيمة، مصوراً خلال ذلك جبال القدس وقد أصبحت مستوية قفراً من ركضِ خيوله، يقول:

جعلنا جبالَ القدس فيها وقد جرت ... عليها عتاق الخيل كالنَّفنفِ السَّهْبِ
فقد أصبحتْ أوعارُها وحُزونُها ... سهولاً تُوطَّا للفوارس والرَّكْبِ
ولما غَدَتْ لا ماء في جنباتِها ... صَبَبْنَا عليها وابلاً من دمٍ سكبِ[٢١]

أما الخليل وغزة، فصورتها ظهرتْ من خلال ما ظهرت عليه صورة البيت المقدس، فيصورها ابن منير الطرابلسي بالخائف المرتعب الذي يستجير بنور الدين ليخلصها مما هي فيه، يقول:

جارَ الخَليل ومن بغزَّة هاشم ... بلهامك المتدَمشق المُتمصّرِ[٢٢]

وذكر الشعراء الكوارث الطبيعية التي حلت بالشام وأهلها، وكيف تخرج من حرب دروس إلى زلزال مروع، ومن ذلك وصف طلائع بن رزيك للزلزال الذي ضرب الشام، مصوراً إياها بغادة ترقص، راثياً من خلال ذلك حالها وحال أهلها يقول:

كَرِهَ الشام أهلَه، فهو محقوق بالا يقيم فيه لبيبُ
إنْ تَجلَّتْ عنه الحروبُ قليلا خلفتها زلازل وخطوبُ
رقصتْ أرضُهُ عشيةَ غنى الرعد في الجوِّ، والكريمُ طروبُ
وتثنتْ حيطانُهُ فأمالتها شمال بزمرها وجنوب
لا هبوبٌ لنائم من أمانيه، وللعاصفات فيها هبوب
ذكروا أنّهُ تذوب به السُّحبُ، فما للصخور أيضاً تذوب
أبذنبٍ أصابها قدرُ الله، فللأرض كالأنام ذنوب[٢٣]

أما الجانب الغربي من هذا الاقليم، فجاء وصفهم من خلال بيان مواطن الجمال في مدنهم، فابن قلاقس الذي أثقلت الغربة كاهله، وظهرت آلامها في نفسه يشتاق في غربته إلى مدينته

---

(٢١) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص ١٧٨، النفنف: مهواة بين جبلين. السَّهب: الفلاه.

(٢٢) ابن منير الطرابلسي: ديوان، ص ٢٣٠، غزة هاشم: نسبة إلى هاشم جد الرسول عليه السلام. لُهام: الجيش العظيم.

(٢٣) طلائع بن رزيك: ديوانه، ص ٦٣، اللبيب: العاقل.

الأسكندرية وقصورها البيض، ومنارتها، وشاطئها، والباب القديم، وكنيستها، وقصبتها، وواديها، ونخلها، يقول:

متى تُنَوِّرُ آفاقُ المنارةِ لي ... بكوكبٍ في ظلامِ اللَّيلِ وقّادِ
وألحظُ الشرفاتِ البيضَ مُشرفةً ... كالبيضِ مشرفةً في هام أنجاد
واستجدُّ من الباب القديم هوىً ... عن الكنيسةِ فيه جلَّ أسنادي
بحيثُ أُنشِدُ آثاراً وأنشدُها ... فتبلغُ العذر نشداني وانشادي
والقصرُ والنخلُ فالجمّاءُ بينهما ... فالأثْلُ فالقصباتُ الخضرُ فالوادي[٢٤]

أما قليوب، المدينة ذات الحضرة، والطيور، والأشجار المثمرة، فيقول فيها ظافر الحداد، ذاكراً أيامه التي قضاها بين ربوعها بين أفانين الرِّياض وأشجار الرُّمان ، يقول:

لله أيامي بقليوب ... والعيشُ مُخضرُّ الجلابيب
والطيرُ في الأغصان فتانةٌ ... ما بين تلحين وتطريب
والشمسُ في الغروب مصفرةً ... كعاشقٍ من بعد محبوب
وجُلّنار بين أغصانه ... يبدي أفانين الأعاجيب
كزعفران لاح في لاذةٍ ... حمراء في راحة مخضوب[٢٥]

ويصف ابن الساعاتي أسيوط، من خلال تذكُّر أيامه فيها، وساعات السعادة التي قضاها في ربوعها، يقول:

لله يوم في اسيوط وليلةٌ ... عمرُ الزمان بمثلها لا يَغْلَطُ
بتنا بها، والبدرُ في علوائه ... وله بجنح الليل فرعٌ أشمَطُ
والطيرُ تقرأ والغديرُ صحيفةٌ ... والرِّيحُ تكتُبُ والغمام ينقُطُ[٢٦]

---

[٢٤] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ١٥٤، المنارة: منارة الاسكندرية على شاطيء البحر لتهدي السفُن إلى الخليج. الإثل: شجر يشبه الطرفاء، إلا إنه أعظم منها وخشبه صلب جيد تصنع منه القصاء والجفان.

[٢٥] ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٥١، ص ٢٣٠، الظاهرية: قريتان في مصر منسوبتان إلى الظاهر لاعزاز دين الله.

[٢٦] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٥٣.

٢-القصور والجواسق والخيام والدُّور:

كثر ذكرها في أشعار هذه الفترة، ولهج الشعراء في بيان جمالها، والطراز المعماري الذي تميز بالأفنية الواسعة، والقباب اللاّمعة، والشرفُات المطلية بأنواع الفسيفساء الملونة، ووصفوا ما في باحَاتها من برك وفوارات، وتماثيل تَمُجُّ الماء من أطرافها، أضف إلى ذلك الأجواء المحيطة بها من أشجار متنوعة، وأزهار من كل صنف، وطيور تبعثث الحياة في النفوس بتغريدها.

واتخذ الشعراء من وصف القصور مادة خصبة لرثاء الدول البائدة، التي لا يستطيع الشعراء رثاء أهلها مباشرة، خوفاً على أنفسهم، ونتيجة للأوضاع السياسية السائدة.

واتخذوها كذلك على سبيل الوصف الاعتباري، وتذكير الناس بمصيرهم المحتوم، وفناء كلّ جميل بن أيديهم، وبقاء ما عمَّروا شاهداً على عدم الخلود، حتى يعتبر الناس، ويعودوا إلى جادة الطريق. ومن القصور والدور التي طرقها البهاء زهير ووصفها وصفاً يدلُ على حياة فيها بذخ ومجون وترف، القصور والدور التي على شاطيء النيل، فقد كانت مواطن للهوهم وشربهم ومتنزههم، يقضون فيها ساعات من المتعة التي يبحثون عنها في هذه المواطن يقول:

حبـــذا دور علـــى النيــــ	ـــل وكاســـاتٌ تـــدور
ومَســـرّاتٌ تمـــوجُ	أرض منهـــا تمـــور
وقصـــورٌ مـــا لعيـــش	نلتَـــهُ فيهـــا قصـــور
كـم بهـا قـد مـرَّ لـي - استغـ	ـفـر اللـــه - ســـرور
كـــلُّ عيـــش غـــير ذلـــك الـــ	ـعيـــش فـــي العـــالم زُور
مـــنزلٌ ليـــسَ علـــى الأر	ض لـــهُ عنـــدي نظـــير[٢٧]

ويعقد الشعراء المقارنات بين ما يريدون وصفَهُ من قصور، وقصور من سبقهم من ملوك، كإيوان كسرى، حتى يظهروا مدى الجمال في قصورهم، وما امتازت به على غيرها، ومن ذلك وصف ابن حيوس لقصر السُّدلي، الذي علا بناؤه، وزهتْ قبابه، حتى ليخال الناظر إليه أنهُ مطوق بالنجوم والسحاب، يقول:

وهـــذا السُّـــدليُّ الـــذي ماســـما	لـــه ملـــكٌ فـــي قديـــم العُصُـــرْ
رُفِعَـــتَ لـــه قبـــة أصبحـــتْ	تطـــولُ علـــى مـــا عـــلا واشـــمخرْ

---

(٢٧) البهاء زهير: ديوانه، ص ١١٦.

إذا مــا بــدتْ فــي الدُّجــى خِلتَهــا مُرصعـــةً بـــالنجومِ الزُّهـــرْ
وفــي الدُّجــنِ تحســبُها كاعبــاً عليهــا الســحائبِ مثــل الأُزُرْ
تُــراعُ لهــا الشــمسُ عنــد الطلــوعِ فلــو ملكــتْ نفســها لــم تُــنرْ
ولــو راءَهــا البــدرُ فــي تمــهِ وكــانتْ لــه قــدرة لا ســتترْ
فصــارَ لهــا عَلَمَــاً فــي البنــاء كســيرةِ صاحبهــا فــي الســيرْ
فــإيوان كســرى وإن أعجــز الــ بريَّــة فــي جنبــهِ محتقــرْ
وكــلُّ بنــاء بنتــهُ الملــوكُ حديــثٌ عــلا وقديــمٌ دُثِــر(٢٨)

ويشتاق ظافر الحداد إلى مربع صباه في الأسكندرية، فيصور في لوحات جميلة دورها وقصورها، وكأنّها جنات على الأرض، تحيط بها الأشجار والرياض من كل جانب، وتحلو الأسماع بما تسمعه من تغريد للطيور في أعشاشها، أضف إلى ذلك لون البياض الزاهي الذي زينتْ به جدرانها، يقول:

تــرى أزورُ القصــور البيــضَ ثانيــةً بـالرمل بيــن غصــون التيــن والعِنــبِ
وفوقَهــا شــاهقاتُ الكــرمِ أخبيــةٌ مــن حولهــا قُضُــبُ الأغصــان كــالطنُبِ
وللنَّســيم العليــل الرطــب وسوســةٌ فيهــن كالسِّــر بيــن الرفــق والصخــبِ
والــوُرْقُ فــي خَلَــلِ الأوراقِ مُسْــمعةٌ طَــوْراً غنــاءً وطــوراً نــوحَ مُنتحِــبِ
والــروضُ ينشُــرُ مــن نــوارهِ حُلَــلاً كمــا تحُــوكُ يــدُ الأنــواءِ السُــحُبِ(٢٩)

وتفنن الأمراء والسَّلاطين في إظهار قصورهم، حتى بدتْ للناظر تحفة فنية وقف على نحتها أئمة الفن، فقد اتخذوا في باحات قصورهم بركاً، وتماثيلَ تَمُجُّ الماء من فيها، ومن ذلك اتخاذ الأمير عضُد الدولة ديكاً من فضة يقذف الماء من أجنحته وذيله، دالاً من خلال ذلك على حياة الترف والبذخ التي يحياها الأمراء، يقول ابن الخياط:

وديكــاً تــرى الصفــرَ جســماً لــهُ ومــن فضَّــة ريشــه والجناحــا
إذا المــاءُ راســلهُ بــالخرير أحســنَ تغريـــــدهُ والصِّياحـــــا

---

(٢٨) ابن حبوس: ديوانه، ج١، ص ٢٩٠، السَّدلي: قصر.
اشمخر: طال. الدُّجن: شدة السَّواد. إيوان كسرى: بناء بناه كسرى بالمدائن في العراق.
(٢٩) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٩، أخبيه: كمام الزهر. الطنبُ: أحد حبال الخيمة.

لــــه شـــيمتان مــــن المكرُمـــــات يُريــــكَ الوقـــارَ بهــــا والمراحـــا
إذا هـــمَّ مــــن طـــرب أنْ يطـــير لـــم يســـتطعْ مـــن حيـــاءٍ بَرَاحَـــا
إذا مـــا تغنـــى أغـــارَ الحمـــامَ فرجـــعَ ألحانَـــهُ ثـــم ناحـــا
غـــداة غـــدا اليـــوم فيهـــا صريحـــاً وأضحـــى الغمـــامُ لديهـــا صُرحَـــا[٣٠]

واتخذ الشعراء من وصف القصور طريقاً للتعبير عما يجيشُ في صدورهم من آلام وأحزان على الدول البائدة، إذ انهم لا يستطيعون رثاءها مباشرة، فاتخذوا من هذا الوصف ستاراً يعبرون بـه عما يختلج في صدورهم من ألم الفراق الذي أودى بمن يحبون، ومن ذلك رثاء عمارة اليمنـي للدولـة الفاطمية التي كان له عندها مكانة مرموقة، وقد عبرعن كلّ ما يحسُّ به من خلال رثاء قصر العاضد عندما مرَّ به وهو خاوٍ على عروشه، رابطاً بين وصفه من جهة والمفردات الشيعية التـي أتـى بهـا لربط ما حلَّ بآل البيت في الماضي والحاضر يقول:

بالله زر ساحةَ القصرين وابـك معـي عليهمـا، لا علـى صفيـن والجمـل
وقـلْ لأهلهمـا: واللـه مـا التحمـتْ فيكـم جراحـي ولا قراحـي بمندمـلِ
مـاذا تـرى كـانت الافرنـجُ فاعلـة فـي نسـلِ أمـير المؤمنيـن علـي
هل كـان في الأمر شيء غير قسمة مـا ملكتُـمْ بيـن حكـم السـبي والقتـلِ
وقـد حصلتـم عليهـا واسـم جدّكـمُ مُحمـد، وأبيكُـمْ غـيرُ منتقـلِ
مَـررْتُ بـالقصر والأبـواب خاليـة مـن الوفـود وكـانت قُبْلَـةُ القُبَـلِ
فملْـتُ بوجهـي خـوف مُنتقـد مـن الأعـادي، دوحـةُ الـودّ لـم تمـلِ
أسـلمْتُ مـن أسـفي دمعـي غـداة خلـتْ رحـابكم وغـدت مهجـورة السُـبلِ[٣١]

أما القاضي الفاضل، فيمر على قصر العزيز عثمان بن صلاح الدين، فيراهُ بلقعا بعدمـا كـان عامراً بأهله، وكيف بدله الزمان بعـد العز ذلاً، فيتمنـى أن اللـه لـم يبلغـهُ مـن العمـر حتـى رأى هذا المنظر يقول:

وقفنـا علـى قصـر العزيـز وقـد عفـا نعيْـبُ عليـه الدهـرَ لمـا تحكّمـا

---

[٣٠] ابن الخياط: ديوانه، ص ١٩٢. انظر مسالك الأبصار، ج١، ص ٢٤٢.

[٣١] شهاب الدين النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٣٤٨، صفين والجمل: معركتان دارتْ بين الإمام علي وخصومه، العاضد: أحد خلفاء الدولة الفاطمية، القرح: الجرح، أثر السّلاح بالبدن. النّفل: الغنيمة. السُّبل: الطريق.

سلامٌ عليه من مغنى مُعَنَّفِ | وقلْ له من صاحبٍ أنْ يسلما
بكيتُ له دمعاً، ولو كنتُ منصفاً | بكيتُ دماً، والدمعُ ضربٌ منِ الدَّما
فيا عجباً مني ومنه، فإنني | خرستُ وهمَّ الربعُ ان يتكلَّما
منازلُ كانت للنجوم، منازلاً | وصارتْ بآفاقِ التذكُّر أنْجُما
أيا ربعُ، قل لي، كيف حالكَ بعدما | تفانوا؟ فقالَ الرَّبْعُ: لم يبقَ بعدما
لئنْ صرتَ فوق الأرضِ أرضاً فربَّما | عهدناك من فوق السَّماءِ لنا سما
حكيْتَ لنا بالأمسِ عنْهمُ حقيقةً | فاصبحْتَ أنت اليوم ظنّاً مُرجما
عزيزٌ علينا أنْ نراكَ على البَلَى | تُراباً نهى المشغوفَ أن يُتَيَّما
تَصَدَّى له من لا يُراقبُ حُرْمَةً | ومن ليسَ يرعى للمكارم محرماً[٣٢]

وأكثر الشعراء من وصف القصور المهجورة، والسببُ في ذلك كثرةِ التقلبات التي حدثت في هذا العصر، فانهارت الدَّولة الفاطمية، وأعقبتها الزنكية، ثم التناحر الذي حدث في الدولة الأيوبية الذي أصبح صورة لأمرائها وسلاطينها أدى في النهاية إلى انهيارها.[٣٣]

وشاع في هذا العصر الوصف الإعتباري للقصور، واتخذوا القصور الخربة موعظة، يوعظ الناسُ بها، فهذه القصورُ كانت مرابع الملوك والأمراء تعجُّ بالشعراء والناس، وقد دار الزَّمان عليها دورته، فبدتْ بلقعاً خراباً خاوية على عروشها، يقول القاضي الفاضل:

صاحبُ هذا القصرِ كم قُبلتْ | ساحتُهُ أمسِ وكم عُظِّما
وقدرة القادر على هدمه | أعظمُ مِنْها في بناء السَّما[٣٤]

وكَتَبَ أسامة بن منقذ على القصور أحد الخربة التي مرَّ بها، أبيات يُذكِّرُ بها كيد الزمان، وصروف الدهر، ويحذرُ الذي ركن إلى الدُّنيا وزخرفها، يقول:

إحذر من الدُّنيا ولا | تَغْتَرَّ بالعُمرِ القصير
وانظُرْ إلى آثار مَنْ | صرعتْهُ منّا بالغرور
عمروا وشادوا ما تراه | من المنازل والقُصور

---

[٣٢] القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص٤٠١، عنف: الشدة عكس الرفق، تحول عنه. المرجم: تتكلم بالظنْ.

[٣٣] انظر ديوان عمارة اليمني، ص ٣٦١، وصبح الأعشى، ج٣، ص ٦٠٤.

[٣٤] القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص ٤٠٦.

وتحولـــــوا مـــــن بعـــــد سكناهم إلـــى سُـــكنى القبـــور[٣٥]

ويذّكرُ ابن سنان الخفاجي بإيوان كسرى، والحيرة، ومدائن فارس التي أبادها القدرُ، فأصبحت بعد الأُنس في وحشة المكان، يقول:

إيــوان كســرى صــار مرتــعُ ثُلّــة وديــارُهُ بــاتت منــاخَ عرائِــسِ
والحــيرةُ البيضــاءُ بُــدّلَ أنسُــها قــدرٌ أطاعتــهُ مدائــن فــارسِ[٣٦]

أما الجواسق التي بنيت في أفنـان البساتين، فقد اتخذهـا أصحابهـا أمـاكن للهوهـم وشـرابهم، ومتنزهاً لهم، لذا حرصوا ان يكون في أبهى صورة، يحيط به من الريـاض مـا يسـرُّ النـاظر، ويمتّـعُ الجالس، وجداول الماء تترقرق مع كلّ نسمة صَبَا تَمُرُّ مـن فوقـه، ومـن ذلـك وصـف فتيـان لأحـد الجواسق، حاشداً من خلال ذلك كلُّ ما تجود عليه الطبيعة من جمال فتان، مُلبسها ثوبـاً مزركشـاً مـن أفانين الأزهار والأشجار وجداول الماء وأصوات الطيور، وإنشاد المطرب على عوده، مخرجـاً ذلـك كلّه بلوحة تتماوج فيها الألوان والأصوات والحركات، يقول:

تمتــع بأنفــاس الضُحــى والأصــائلِ وحــثّ كــؤوس الــرّاح حُمْــرَ الغلائــل
وجوســـق بســـتانٍ أنيـــقٍ كأنّــــهُ أرانــا مــن الفــردوسِ خــيرَ المنــازل
ومطــردِ الأمــواج مضطــربُ الحشــى كــأنّ حشــاهُ جُرِّحَــتْ بالجنــادل
تثــالب ظــلُ المــوج فــي صفحاتــه فــذرّ عليــه مــن جَنِــيِّ المكــاحل
وللذُهبيــات اصفــرارُ ذوي هـــوىً أطــلّ عليهــم فــي الجســوم النّواحــل
صواعقُ مـن مَـسِّ الهـواء كـذي هـوى تخِــرُّ صريعــاً مــن مقــال العــواذل
يجاورُ صـوبَ المـزنِ حيـن نضوبهـا نــثْرَ اللآلــي مــن جفــونٍ هوامــل
ونغمــة شــادٍ ترقُــصُ الــرُّجُ كلّهــا ترنــمَ فــي أعضائنــا والمفــاصلِ

---

[٣٥] اسامة بن منقذ: ديوانه، ص ٣٧٢.

[٣٦] ابن سنان الخفاجي: ديوانه، ص ١٢٢، الثلة: مجموعة الغنم. العرائس: الجمل شدّ عنقه إلـى ذراعـه وهـو بـارك. الحيرةُ البيضـاء: وصـف للحيرة في العـراق وإنّمـا وصفوهـا بالبيـاض لحسـن العمـارة. مدائـن فـارس: هـي مدينـة أنوشروان، افتتحها جيش عمر بن الخطاب.

يجاوبُ صوتَ العودِ في الدَّوحِ إن شدا | على عذباتِ البانِ صوتُ البلابلِ[٣٧]

أما الخيام والقبابُ، فقد وصفها الشعراء مبدين جمالها وجمال الطبيعة المحيطة بها، وشبهوها بالجبال، والفلك، والنجوم في علوها، وقد اختار السلاطين ووزرائهم لخيامهم الأمكنةَ الجميلة التي تحيط بها الرياضُ، والأشجارُ، من كلِّ جانب، وتطير الطيور حولها كأنها الحرمُ وطيوره، ومن ذلك وصف أبي علي حسن بن زيد الأنصاري لخيمة بدر الدين الجمالي متطرقاً من خلال ذلك إلى عظيم الصُّنع، وجودة الأتقان التي تميزت بها هذه الخيمة حتى بدَتْ للشاعر وكأنَّها فلك يحوي في حنباته كلُّ ما تُسَرُّ به الأعين، وتستريح إليه النفوس ، وتعطر به الأنوف، متخذاً من كل ذلك مدخلاً لمدح الوزير بدر الدين، يقول:

مجبراً، فقد قَصَّرَتْ عن شأوكَ الأُممُ | وأبدتْ العجزَ منها هذه الهممُ
أخيمةٌ ما نَصَبْتَ الآن أم فلكٌ | ويقظةٌ ما نراهُ منك أم حُلُمُ
ما كان يخطرُ في الأفكار قبلكَ أنْ | تسمو عُلواً على أفقِ السها الخيمُ
حتى أتيْتَ بها شماء شاهقةً | في مارنِ الدَّهر من تيهٍ بها شممُ
إنَّ الدَّليل على تكوينها فلكاً | أن احتوتْكَ وأنت الناسُ كلُّهمُ
يمُدُّ من في بلاد الصين ناظرهُ | حتى ليبصرَ علماً أنَّها علمُ
ترى الكناسَ وآرام الظباء بها | أضحتْ تجاورها الآسادُ والأجمُ
والطيرُ قد لزقتْ فيها مواضعَها | لما تَحَقَّقْنَ منها أنَّها حَرَمُ
لديكَ جيشٌ وجيش في جوانبها | قُصورٌ وكلا الجيشين مُزدحمُ
إذا الصَّبا حركتْهَا ماجَ مَوكبُها | فمقدمٌ منهم فيها ومنهزمُ
أخيلُها خيلُكَ اللاتي تغيرُ بها | فليس تنزعُ عنها الحُزُمُ واللجُمُ
كأنَّها جنةٌ فالقاطنون بها | لا يستطيل على أعمارهمْ هَرَمُ[٣٨]

---

[٣٧] فتيان الشاغوري: ديوانه، ديوانه، ص ٣٨٦، ص ٥٨٩، الجوسق: القصر

الأصايل: جمع أصيل وهو الوقت بين العصر والمغرب. الجندل: الصَّخر العظيم.

[٣٨] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص ٦٨.

السها: كوكبٌ خفيٌّ من بنات نعش الصغرى، الكناس: بيت الظبيْ. الأجمُ: مأوى الأسد.

أما أبو جعفر محمد بن هبة الله الطربلسي، فيصف علوّ خيمة الأفضل بالجبل العالي الذي لامستْ الشُّهاب ذراه، ومن ثم يلتفت إلى الرسومات التي زين بها الأفضل خيمتهُ، فبدت متحركة ناطقة من شدة اتقان الرسام لها يقول:

ضربتَ خيمة عزٍ في مقرٍّ علاً أوفتْ على عذبات الطودِ ذي القُنَنِ
جاءتْ مدى الطَّرفِ حتى خلْتَ ذروتها تأوي من الفُلك العلى إلى سكنِ
أقطارها مُلئتْ من منظرٍ عجبٍ يهدي إليكَ ذكاء الصانع الفطنِ
فمن رياضٍ سقاها القطرُ صَيِّبُهُ فما بها ظمأً يوماً إلى المزنِ
وجامح في عنانٍ لا يجاذبُهُ وطائرٌ غير صلاح على فننِ(٣٩)

أما ابن ابي حصينة فينقُلُ فنَّ بناء القباب العالية في ذلك الزمان، فبناؤوها صمموها حيث لا تحتاج إلى الأعمدة والحبال التي كانت تربط وترفع بها الخيام فاصبحت من جودة صنعها كالجبال التي لا تزعزعها الرِّياح يقول:

بنى القبابُ رفيعات الذُّرى شهباً مخلوطةً بنجوم الحندسِ الشُّهُبِ
مطنباتٍ إلى العليا ما افتقرَتْ إلى عمود ولا احتاجَتْ إلى طُنُبِ
مثل الجبال الرَّواسي كلَّما لَعِبَتْ بها الصَّبا رَقَصَتْ من شدة الطَّربِ(٤٠)

أما وصفُ الدُّور والمنازل، فقد ركَّزَ الشعراء في وصفها على جانبين الأول منهما دور الأمراء ومنازلهم، وتناولوا فيها وصف الجمال الداخلي الذي يمتاز بحُسْن السَّبكِ، وكثرة التصاوير التي رُسِمَتْ على جدرانِها، وما فيها من أشكال هندسية صُنِعَتْ من الرُّخام، فمنها المتقابل، والمؤلَّف، والمفوف، المضلَّع، والمجزَّع.

أما جمالها الخارجي، فوصف الشعراء الرِّياض وما تحويه من أشجار وأزهار وطيور وجداول تَسِيلُ بالمياه العذبةِ إلى بركتِها، فبدت لوحدتها مكتملة الجوانب، جامعةً للحسن الصِّناعيَ حسناً طبيعياً، من ذلك قصيدة طويلة وصف ابن حيوس بِهَا دار تاج الملوك محمود يقول:

وخُصِصْتَ في زمن الحياة بجنَّةٍ حسن المصيفُ بها وطابَ المربَعُ
دارٌ بها اكتَسَت، البسيطةُ زينةً ويُزيِّنُها منك الهمامُ الأرْوَعُ

---

(٣٩) النويري: نهاية الأدب، ج٢٨، ص ٢٨٥. القنن: أعلا الجبل.

(٤٠) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٥٦.

مــــا زال مُبصِرُهــــا يعـــود بخــــاطرٍ ... يشـــكو الكـــلال ونـــــاظرٌ لا يَشْـــبَعُ
وتـــرى طيـــورَ الجـــوِّ فـــي جنابِتهـــا ... بعـــضٌ مُحَلِّقَـــةٌ وبعـــضٌ وُقَّـــعُ
وَسَـــوابقاً ليسَـــتْ تُفـــارقُ أرضَهـــا ... وكأنَّهـــا تحـــت الفـــوارس تمـــزَعُ([41])

وهـي قصيدة طويلة تربو على اثنين وثلاثين بيتاً، يصف الشاعر فيها الجمال الداخلي والخارجي بأسلوب يقطُرُ بالرِّقَّةِ والسُّهولة وَحُسْنِ انتقال اللفظ.

أما الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي سعيد المعروف بالكاسات، فيتخذُ من وصف دار الملك مدخلاً لمدح السلطان، ذاكراً من خلال ذلك الموقع المتميز الذي أُقيمت عليه الدار، مازجاً بين عطاء الممدوح من جهة، والنيل الذي يجري من أمامها يقول:

شـــماء كـــالجبل الرّاســـي يجاورُهـــا ... بحـــران نِيْـــلٌ ونَيْـــلٌ كيـــف ينقطـــعُ
كأنَّهـــا كعبـــةٌ والقـــاصدون لهـــا ... مِثْلَ الحجيـــج إذا طـافوا بهـا ركعـوا([42])

وكما اتخذ الكاسات دار الملك ككعبة يقصدها الحجيجُ دلالة على كثرة الرُّواد الذين يطلبون العطاء، اتخذها أبو الفضل أمية، فَلَكاً تحوي الشّمس والنجوم يقول:

دارٌ هـــي الفَلَـــك الأعلـــى، وأنـــتَ بهـــا ... شـمس الضُّحى وبنوك الأنجم الزُّهـر([43])

ومن الدّور التي وصفها الشعراء دار عزالدين أسامَةُ([44])، ودار الأفضَلُ([45])، ودار مجلس الأمير([46]).

أما الجانب الآخر من هذا الوصف، فيتَمثلُ في وصف الشعراء لمنازلهم، والمنازل التي مروا عليها في رحلاتهم، وهذه وصفها الشعراء على سبيل بيان حالتهم الاجتماعية للمدوح حتى يجزل العطاء، فهم بهذا الوصف يطلبون المال بطريقة غير مباشرة، ومن ذلك وصف ابن قلاقس لبيته الذي لايقيه برد الشتاء ومائه، يقول:

([41]) ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٣٢٢.
([42]) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ٦٢.
([43]) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٧٥.
([44]) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٢٨.
([45]) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٢٤، ص ١٢٥.
([46]) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٢٢.

ولمـا بـدا ركْـبُ السَّـحاب تسُـوقُهُ حُـدَاةُ الرِّيـاحِ الهُـوج وهـي تُزمْجِـرُ
ركَنْتُ لبيـتٍ اسـتجنٌ مـن الحيـا بـه وإذا غيـثٌ مـن السَّـقْفِ يَقْطُـرُ
فـلا فـرق بيـن السَّـحاب وبينـه سِـوى أنَّ ذا صـافٍ وذاك مُكـدَّرُ([٤٧])

أما ظافر الحداد، فيصف بيته بالضِّيق، والحرارة الشديدة، حتى أنَّه من شدة الزّحام لو دَخَلَتْ فيه ذرة لانْدكَّ جداره، يقول:

وبيـتٌ دُعِيـتُ لـه ثـم لـم أجـد لـي عـن الكـون فيـه فكاكـا
فـزادَ بنـا فَـرْطُ الزِّحـا مِ والحـرُّ حتـى اشـتهينا الهلاكـا
أمِنـا براغيثَـه أن تَضُـ ـرَّ ولـو حـاولتْ مـا أطـاقَتْ حراكـا
فلـو دَخَلَـتْ بيننـا ذَرَّةٌ تشَـقَّقَ حائطـه عنـد ذاكـا([٤٨])

ويصور ابن سنان حالته النفسيّة وهو نازلٌ في دار مع مجموعة من الرُّوم، وقد طافَتْ به الهموم يقول:

فأنزلنـا الدّهـرُ فـي منـزلٍ كثـير الهُمـومِ قليـل الكـرى
تَظَـلُّ مـع الـرّومِ فيـه فمـا نعاشـرُ إلا كـلابَ الـورى([٤٩])

ويمازج ظافر الحداد بين وصف بيته، ووصف حالة العوز والفقر التي يحياها، في وصف حزين ساخرٍ يدللُ على ما كان يعانيه الشاعر، وكثير من الناس في عصره يقول:

بيْـتٌ كصـدري ورزقـي ضيِّقـا كخلقِـي وَخُلُقِـي
ملأْتُـهُ مـع هُـزال معـي وسُـقمي ودقـي
فـالتزَّ عضـوٌ بعضـو منـي وعِـرْقٌ بعـرقِ
حتـى لقَـد كـادَ فيـه كعبـي يُصَـافح فَرْقـي
فمـا يُطيـقُ لسـاني يـدورُ فـي وسَـطِ شـدقي
ولـو تجشَّـأتُ فيـه لمـا تجـاوزت حلقـي

([٤٧]) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٦٠٩، استّجَنَ: استتر.

([٤٨]) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٤٢.

([٤٩]) ابن سنان الخفاجي: ديوانه، ص٢٢٧.

أمنْـــــتُ فيـــــه مـــــن المـــــو تِ وهـــــو يدمِـــــنُ خنقـــــي
لأنَّ روحـــــي لـــــم تَلْـــــ ـــــقَ فُسْـــــحَةً للـــــتَّرقي(٥٠)

ويطّلبُ ابن أبي حصينة دار المعونة من الممدوح، موضحاً الأسباب التي دعتهُ إلى أن يُجشِّمَ نَفْسَه السؤال يقول:

"دارُ المعونـــــة" بِمَنَـــــةٌ مدروسَـــــةٌ للنـــــاس فيهـــــا جيئَـــــةٌ وَذَهـــــابُ
أنعِـــمْ علـــيَّ بهـــا لعشـــرة صبيَـــةٍ هيَـــةٌ فـــأنتَ المنعـــم الوهـــابُ(٥١)

وأكثر الشعراء من هذا النوع من الوصف، سواء ما كان منه إيجابي النظرة كوصف العماد الأصفهاني(٥٢) وابن عنين(٥٣) أو السلبي منه كوصف ابن مكنسة(٥٤) وظاهر الحداد (٥٥) والملاحظ على هذا الوصف أن الشعراء مالوا إلى إظهار الحالة الاجتماعية التي يحياها العصر من خلال وصف أماكن سكناهم، في حين أنّ السلاطين والأمراء ومن دار في فلكهم يحيون حياة أخرى تكاد تكون مناقضة تماماً لما عليه الناس، فهم ينعمون بالعيش الرَّغيد في قصورهم التي تحفُّ بها مباهج الحياة.

٣. الحدائق والمتنزهات والبساتين:

انتشر هذا الوصف بين الشعراء لكثرة المجالس، والمتنزهات، والحدائق، ولجمال الطبيعة الساحرة في كلٍّ من مِصْرَ والشّام، وانتشار حياة اللهو واللّعب، والترف بين الناس، حتى اتخذوا أماكن خاصة يشربون بها ويطلقون للمرح عنانه، بين مُغَنٍ يصدَحُ، وشاعر يشدو، وشحرور يغرد.

ولطبيعة مِصْرَ والشام التي تنتشِرُ فيها الأنهار والأشجار الأثر الواضح في انتشار هذه الظواهر في ربوعها.

---

(٥٠) ظافر الحداد: ديوانه، ص١٢٤.

(٥١) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢١.

(٥٢)العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٩٤.

(٥٣) ابن عنين: ديوانه، ص٢٢.

(٥٤)ا العماد الأصفهاني:خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٢١١.

(٥٥) ظافر الحداد: ديوانه، ص ١٣٦، ص ١٣٧.

وقد ركّزَ الشعراء في وصفهم لهذه الظواهر على أمرين، أولهما وصف جمال هـذه الأماكن، وثانيهما وصف المتعة التي يحسون بها، ومن ذلك وصف ابن الخياط لمجلس حـوى أصنـاف متعددة من متع الحياة، فالرِّياض تحيط بالمكان من كلّ جانب، والأزهار المختلفة الألوان، تذكي النّسيم الذي يَمُرُّ من بينها، وكؤوس المدام تزيل الهم، وتزيد المتعة يقول:

لنـا مجلـس مـا فيـه للهَـمِّ مَدْخَـلُ ... ولامِنْــهُ يومــاً للمسَــرَّةِ مَخْــرَجُ
تَضَمَّــنَ أصنــافَ المحاسِــنِ كلُّهــا ... فليسَ لبــاغي العيـش عنــه معْــرَّجُ
غِنـاءٌ إلـى الفتيـان أشـهى مـن الغنـى ... بــه العيـشُ يَصْفــو والهُمُــوم تُفَــرَّجُ
يَخِــفُّ لــه حُلْـمُ الحليـم صبابَــةً ... ويصبــو إليــه الناسِــكُ المتحــرِجُ
وروضــاً كــأنَّ القَطْـرَ غـاداه فـاغتدى ... يصــوغُ بمسْــكيِّ النَّسِــيمُ ويــأدَجُ
تــرى نُكَـتَ الأزهــار فيــه كأنَّهــا ... كواكِــبُ فــي أُفُــقٍ تُنِــيرُ وتُسْــرَجُ
وَيُذْكِــرُكَ الأحبــابَ فيــه بدائــعٌ ... مــن النَّــور مِنهــا نرجـسٌ وبنفسَــجُ
فهــذا كمــا يرنــو إليــك بطرفــه ... أغــنٌ غريــرٌ فــاتنُ الطَّــرف أدعــجُ
وهــذا كمــا حَيّــا بخــطٍّ عــذاره ... مــن الهيـف ممشـوقُ العـذار مُعَــرَّجُ
غريبُ افتتـانِ الدَّلِّ في الحسنِ لـم يَـزَلْ ... تُعَقــرَبُ أصــداغٌ لــه وتَصَوْلَــجُ
ومعشــوقُ نــارنجٍ يُريــكَ احمــرارُهُ ... خُــدُودُ عــذارى بالعتــاب تُضــرَّجُ
ونــارٌ تُضاهيهــا المــدامُ بنورهــا ... فَتَخْمُــدُ لكــنَّ المــدامَ تــأجَّجُ
كـؤوس كمـا تهـوى النفـوسُ كأنَّهـا ... بنيــلِ الأمــاني والمــآرب تُمْــزَجُ
كــأنَّ القنــاني والصَّوانــي لنــاظِرٍ ... نجـوم سـماءٍ سـائراتٌ وأبـرُجُ(٥٦)

وغالبية المجالس التي وصفها الشعراء يكون الشّراب أحد عناصر المتعةِ التي يسعى إليها الجميع، فوصف الشعراء خلال ذلك خمرها، وسقاتها، والأجواء المحيطة بها يقول ابن أبي حصينة:

واشــرب هنيئــاً طيِّبــاً فــي مجلــسٍ ... مُــذْ قُمْــتُ فيــه للعلــى لــم تجلــسِ
أنْبَــتَ فيــه روضــةٌ مــن نرجــسٍ ... أزرَتْ نضارَتَهــا بــروضِ الأوعــسِ

(٥٦) ابن الخياط: ديوانه، ص١٩٥. مَعْرَجُ: عَدَلَ عنه وتَرَكَهُ، أغنُّ: الصوت الرخيم الذي فيه غنه. الغرير: الخُلُق الحسن. أدعج: شديد سواد العين مع سعتها.

فكـــأنَّ قضبـــان الزبرجَـــدِ حمِّلَـــتْ   أعـــلا ذوائبَهـــا نجـــوم الحِنْـــدِسِ(٥٧)

ومن المجالس التي أقامَها الملك العزيز عثمان، وحضرها ابن الساعاتي، ليكون شاهد العصر على روعة الجمال الذي ملأ عليه نفسه، وغمَـرَ بـه روحـه، وهـو يتَلَفَّتُ حولـه ليرى آيـة مـن آيـات الجمال الذي يستقبل الملك فيه ندماءه بين فيافي الرِّياض وكؤوس الشراب، والسقاة تدور عليهم بما لذَّ وطاب، فجاءت قصيدته راقصة الألفاظ فواحه الرِّيح، مبنيَّـة علـى مـا أحـس بـه مـن جمـال، متخذهـا مدخلاً لمدح وليِّ نعمته يقول:

وبـــاغ كفانـــا كـــلَّ بـــاغٍ مـــن الأســـى   وزقٌ لنـــا بِكْـــرَ المنـــى وهـــي نـــاهدُ
إذا النَّـــدُّ سُـــحْبٌ والسُّـــقاةُ أهلَّـــةٌ   تديـــر شموســـاً والكـــؤوس فراقِـــدُ
وكـــم عـــاطلٍ مـــن لـــذَّةٍ زانَ جيـــدُه   نـــدى ملـــكٍ ضـــنَّ الحيـــا وهـــو جـــائرُ
فتـــى بعوالـــي سُـــمْرة وســـيوفُهُ   تَعِـــزُّ المعـــالي أو تهـــوِّن الشـــدائد
شـــربنا لديـــه الـــبرَ والتـــبرُ ذائـــب   علـــى صفحـــات الـــبر والتـــبرُ جـــامِدُ
وبيضـــاء حمـــراء الأســـيِّلين أرْسَـــلَتْ   ذوائـــبَ ســـوداً هُـــنَّ عنـــدي أســـاورُ
بحيـــثُ تمـــاثيلُ الريـــاحين عُكَّـــفٌ   لهـــا وأبـــاريق المـــدام ســـواجدُ(٥٨)

أما مجلس الدَّسْتِ الذي يجلسُ فيه الأمير، وما حوله من الأزهار المختَلِفةِ الألوان، التي يبدو الأمير من خلالها بهيَّ الوجه، يقول ابن أبي حصينة في ذلك:

تُبصِرُ فـــي الدَّسْتِ منك شَمْسُ ضُحَـىً   تحجبُهـــا نورُهـــا عـــن البَصَـــر
قـــد نُـــثِرَ الـــوَرْدُ فـــي جوانبهـــا   كأنَّـــهُ حُلَّـــةٌ مـــن الحَـــبَرَ
كـــأنَّ شـــمس النَّهـــار طالعـــةٌ   تُنِيرُ شـمس الضُّحَـى علـى القمـرِ(٥٩)

---

(٥٧) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٧٢، الوعس: رابية من رمل لبنة تنبتُ أحرار البقول، أزرى: احتقر. الزبرجد: حجر كريم يشبه الزُّمرد أشهره الأخضر.

(٥٨) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٠٣، النَّدُّ: عود يتبخرُ به، الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به. تهوِّنُ: تُسَهِّل. التبر: ما كان من الذهب غير مصنوع أو في تراب معدنه. الأسيل: الخدُّ. الملك العزيز عثمان: هو ابن صلاح الدين الأيوبي ملك مصر.

(٥٩) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٨٣، الدّست: صدر البيت، المجلس، الحَبَر: ضربٌ من برود اليمن.

ويمازج علي ابن ظافر الأزدي بين وصف المجالس نثراً وشعراً، ومن نثره الذي تلاه شعراً "والبَدْرُ قد محا خضابَ الظلماء، وحلا محياهُ في زَورقِهِ قناع السّماء، وكسا الجدران ثياباً من فضةٍ، ونَثَرَ كافوره على وَجْهِ الثرى، بعد أنْ سَحَقَهُ روضَهُ، والرَّوضُ قد ابتَسَمَ محياهُ، ووَشَتْ بأسرار محاسنُهُ ريّاهُ، والنّسيمُ قد عانقَ قامات الغصون فميّلَها، وغصّبَها مباسم نورها وقبّلها، وعندنا مُغَنٍّ وَقَعَ على تفصيلة الاجماع، وتغايرت على محاسنه الأبصارُ والأسماعُ.. فلم نَزَلْ على كذلك حتى نعِسَ طرفُ الصّبّاح، واستيقظَ نائم الصّبّاح" وبعد هذا الوصف نَظَم فيه قصيدة عدد أبياتها ستة عشر بيتاً(٦٠).

وأكثر الشعراء مِنْ وصف مجالسهم والمجالس التي يرتادونها، حتى لَيَظُن المرءُ أن حياتهم بين كأس ومزمار(٦١).

أما الرِّياض فقد تغنى الشعراء بوصفها، فأبدعوا لوحات لاتستطيع ريشة الفنان أن ترسُمها، ولاعينهُ أن تلتقط أنفاسها كما فعل الشعراء، ومن ذلك لوحة العماد الأصفهاني التي تَعُجُّ بالحركة والصوت واللّون، يزيد من جمالها التَّجسيم الذي أودعه الشاعر قصيدته، فبدت في عين الشاعر فتاة تأخذ من كلِّ مفردات الجمال قسطاً يقول:

وما روضةٌ غنّاءُ حسناً كأنّما	من نسجِ نوّارِها مِرطُ
إذا قادني للنرجس النَّضر ناضِرٌ	تلاهُ عذارٌ للبنفسجِ مُخْتَطُّ
وللورد خدٌّ للحياء مُورَّدٌ	وللبانِ قدٌّ جيدُهُ أبداً يعطو
تلوحُ به الأشجارُ صفاً كأنّها	سطورُ كتابٍ والغديرُ لها كَشْطُ
تُغَنّي على أعوادها الوُرقُ مثلَما	يُرَتِّلُ للتوراةِ ألحانها سِبطُ
كأنَّ سقيط الطَّلِّ عَبْرَهُ مُغْرَمٍ	وبارقةٌ من نارِ لوعتِه سِقطُ
ترى لِمُحَيّا الشّمْسُ من هامر الحيا	لثامُ حياءٍ دونَهُ ليسَ ينحَطُّ(٦٢)

وأكثر الشعراءمن عقد جلسات الحُبِّ والغرام داخل هذه الرِّياض، لذلك ربط نوع من الودِّ بينهم وبينها، فناجوها، وَرَسَموا صورتها، وتتبعوا خيوطها، وألقوا عليها رداء الحُسْنِ الذي تبتهجُ به

---

(٦٠) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص٤٥٠.

(٦١) نظر ديوان ابن قلاقس، ج١، ص٢٠٥، ص٣٣٧، ص١٠٦، والشريف العقيلي، ج١، ص٥٨، وابن عنين، ص٤١، وابن الساعاتي، ج١، ص١٢٣، وفتيان الشاغوري، ص٢٦٨، والبهاء زهير، ص١١٠.

(٦٢) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٨٠، مرط: كساء من صوف يؤتزرُ به. يعطو: تثنى من غير كسر. الطَّل: الندى. عَبْرة: دمعه. سقْط: مايسقط من ندى وثلج، أو طرف السحاب.

الأنفُسَ، فزادها حسناً على حُسْنٍ، وجمالاً على جمالٍ، ومن هذه اللوحات الجميلة لوحة لفتيان الشاغوري في وصف إحدى الرياض:

لـــدى روضـــةٍ جـــادَ نوّارهـــا نطـــاقُ غيـــومٍ ســـجومٍ حياهـــا
فَعُطِّـــتْ عليهـــا بـــرودُ الغمـــامِ وعيـــنُ السَّـــماء شـــديدٌ بكاهـــا
وَشَـــوَّسَ طُـــرَّةَ حوذانِهـــا نَســـيمُ النعـــامى فـــأبدى شـــذاها
فـــأحداقُ نرجِســـها رانيـــاتٌ إلـــى العاشـــقين بقُصـــوى مُناهـــا
وحـــلَّ البنفْسَـــجُ أصداغـــهُ وَقَـــدْ عَقَـــدَ النَّـــدُّ فيهـــا نداهـــا
كـــأن الأقـــاحي ثغـــور المـــلاحِ بَسَـــمْنَ لعاشِـــقها عـــن رضاهـــا
وَدَبَّ علـــى الـــوردِ مـــرُّ النَّســـيمِ برفـــقٍ سُـــحَيْراً فَهَـــبَّ انتباهـــا
فـــأبدى خـــدودَ الغوانـــي وقـــد ثَمِلْـــنَ فَمِلْـــنَ علـــى مشـــتهاها
تشُـــقُّ الشـــقائقُ أردانَهـــا وَتَنْحَـــلُّ مـــن بعـــد عَقْـــدِ حُباهـــا
وقـــد غـــادرَ السَّـــيْلُ فيهـــا غديـــراً يَـــرُوقُ العيـــونَ يجلـــو قذاهـــا(٦٣)

أما وصف المتنزهات والبساتين، فقد جاء من حيث الوصف مشابهاً لوصف الرّياض والمجالس، فأكثر الشعراء من وصف جمالها، وروعةِ المناظر الخلابة فيها، فانتقوا الكلمات التي تعبرُ عن الجمال، ومازجوا بينها وبين العشرات من الصّور، واعتمدوا على التشخيص والتّجسيم لبيان جمال الصُّورة، ومن متنزهات دمشق التي وصفها الشعراء، متنَزَّه الحاوي، ليدلل من خلاله على جمال أخلاق الأمير يقول:

وخيَّـــمَ بالحـــاوي فتـــىً بـــاتَ حاويـــاً منـــاقبَ غُـــر مَـــنْ حوَاهـــا حـــوى المجْـــدَا
إذا النَّـــورُ أهـــدى نفحـــةً مـــن نســـيمه فَمِنْ عِرضِهِ أهـــدى النَّســـيمُ الـــذي أهـــدى
تـــأمل بعينيـــكَ الفِجـــاجَ كأنَّهـــا مُكَلَّلـــةٌ وشـــياً ومُجلَّلـــةٌ بـــردا
غَنِيِّـــا برَيَّاهـــا عـــن المســـكِ كلَّمَـــا تهـــادى وآنسَـــتْنا شـــقائقها الـــورْدَا
ريـــاضٌ كـــأخلاق الأمـــير أنيقـــةٌ تَمُـــجُّ شـــفاهُ الأرضَ مـــن ريقهـــا بَـــرْدَا

---

(٦٣) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٢، ١٩٧، ٣٨٧، ١٩٩، وانظر ابن الخياط: ص١٩٢، والطالع السّعيد: ص٣٧٥.
سجوم: طال مطرها. شوَّس: اختلط، اضطرب. طُرَّة: طرف كلُّ شيء وجانبه. الحوذان: نبات طيب الطعم زهره أحمر. النُّعامى: ريحُ الجنوب. الحُبى: ما يُشتَمَلُ به من ثوب أو عمامة.

كـأنَّ الحسـانَ الغيـدِ خـزَنَ بأرضِهـا فـألقَتْ عليهـا كـلُّ غانيـة عِقـدا([٦٤])

ويصف ظافر الحداد أحد المتنزهات في مصر، متطرّقاً من خلال وصفه إلى بركتها التي تحيطُ بها الأشجار والرّياض يقول:

أُنظُـرْ إلـى مسـتنزه الأنفسِ والبركـةِ الغنـاء فـي المجلـس
كأنّهـا والنبـتُ مـن حولهـا فـي مَغْـرِس نـاهيكَ مِـنْ مَغـرَسِ
جـامٌ عـن البلّـوْر قـد حَفَّـهُ غشـاؤه الأخضَـرَ مـن سُـندسِ
زيَّنَهـا التوفيـقُ للآمـر الـ منصـور بـالأنفُسِ الأنْفُـسِ
حتـى غَـدَتْ كالشَّـمس عنـد الضُحـى والبَـدْرُ حسـناً فـي دجـى الحِنْـدسِ([٦٥])

ويصفُ ابن سناء الملك أحد أماكن التنزه في مصر، فيجمع فيه مظاهر الجمال حتى لتبدو في عين الشاعر قطعة تبعث في النَفس السُرور، يقول:

انظـر إلـى المنظـرة النـاظرة تزهـرُ مثـل الزهـرة الزاهـرة
أحْسَـنُ مـا فـي حُسْـنِها أنّهـا الدُنـ يـا ومـا ألهَـتْ عـن الآخـرة([٦٦])

ومن متنزهات مصر التي أكثر الشعراء من وصفها، متنزه بركة الحَبَش التي اتخذها أهل مِصْرَ متنزهاً لهم يَستَجمّون فيه من عناءِ النفوس المتعبة، فالحكيم يصفُ مجلس شراب عقَدَه مع صحبه بجانب بركة الحبش، واصفاً من خلال ذلك أجواء الطبيعة المحيطة بها من أشجار وأزهار، ونيل، وسقاة خمر، والألحان الشجية التي يبعثها المطربون، يقول الحكيم:

عَلِّـل فـؤادك بـاللّذات والطـربْ وبـاكر الـرَّاحَ بالطاسـات والنُخـب
أمـا تـرى البركـة الغنـاء قـد لبسَـتْ فراشـاً مـن النّـور حاكَتْـهُ يَـدُ السُـحُبِ
وأصبحَـتْ مـن جديـد النبـت فـي حُلَـلٍ قـد أبـرزَ القطْـرُ فيهـا كـلَّ مُحتَجِـبِ
مـن سوسـن شَـرقَ بـالطَلِّ مَحْجَـره وأقحـوان شـهي الظَلْـمِ والشَّـنبِ
وانْظُـرْ إلـى الـورد يحكـي خـدَّ مُحْتَشِـم مـن نرجـس ظَـلَّ يحكـي لحـظَ مرتقـبِ

([٦٤]) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٦٨، خَيَّم: أقام. المناقب: ما عُرِفَ به من خصال حميدة الفيجاج: الطريق الواضح بين جبلين. مَجَّ: رمى بالريق. الغانية: التي استغنت بجمالها.

([٦٥]) ظافر الحداد: ديوانه، ٣٤٠، الجام: الكاسات. السُندس: ضرب من نَسيجِ الدّيباج أو الحرير.

([٦٦]) ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص٣٩٣.

والنِّيـل مــن ذهــب يطفــو علـــى ورق والـــرَّاحُ مــن ورق يطفــو علـــى ذهــبِ
ورُبَّ يـــومٍ نَقَعْنَـــا فيـــه غُلّتَنَـــا بجــاحم مـــن حســـا الإبريـــق مُلْتَهِـبِ
شـــمس مـــن الـــرّاح حيَّانـــا بهـــا قَمَـــرٌ موفٍ علـى غُصُـنٍ يَهْـتَزُّ فـي كثـبِ(٦٧)

ووصف الشعراء الكوارث الطبيعيّة التي تَحِلُّ بالمتنزهات، وكأنَّهم يبعثون إليها نوعاً من الرِّثاء الحزين، وإن دلَّ على شيء فإنّما يدلُّ على مدى ارتباط الشعراء والناس بهذه المتنزهات، ومن ذلك وصف عرقلة الكلبي لحريق متنزه جيرون، يقول:

حـــادَ صـــرفُ الـــردَى علـــى جـــيرون وســـقى أهلهـــا كئـــوس المنـــون
أصْبَحَـــتْ جنَّـــةً وأمسَـــتْ جحيمـــاً تتلظَّـــى بكـــلِّ قلـــبٍ حزيـــن
كيْـــفَ لاتـــذرفُ الدُّمـــوعَ عليهـــا وهـــي فـــي الشـــام نزهـــة للعيـــون
خِلْـــتُ نيرانهـــا وكـــلَّ ظـــلامٍ نـــار ليلـــى تلـــوحُ للمجنـــون(٦٨)

أما وصف البساتين فجاء مشابهاً لِمَا دَرَجَ عليه الشعراء في وصفهم للحدائق والمتنزهات، فمن خلال وصفهم أظهروا الجوانب الجمالية سواء المعنوية منها كالمتعة النفسية التي تثيرها تلك المناظر أو الحسية وما تثيره في العيون والأسماء من مُتَعْ، ومن ذلك وصف البهاء زهير لبستانه، وذكرياته العطرة التي قضاها فيه، فوصف أجواءه، وأزهاره، وثماره، يقول:

للّـــــه بســـــتاني ومـــــا قَضَيْـــتُ منـــه مِـــن المـــآربْ
لهفـــي علــــى زمنــــي بــــه والعيْـــشُ مُخْضَـــرُّ الجوانـــبْ
فـــيروقُني والجـــو منـــــه ســـاكنٌ والقطـــرُ ســـاكِبْ
ولقـــد بكَـــرتُ لـــه وقـــد بكَـــرَتْ لـــه غُـــرُّ السَّـــحائِبْ
والطَّـــلُّ فـــي أغصانـــهِ يحكـــي عقـــوداً فـــي ترائـــبْ
وتَفَتَّحَـــتْ أزهـــارُهُ فتَـــأرَّجَتْ مـــن كـــلِّ جـــانبْ
وبـــدا علـــى جنباتـــه ثَمَـــرٌ كأذنـــابِ الثعـــالبْ

---

(٦٧) الحكيم: ديوانه، ص٥٢٩، ص١٠٩، النُخَب: الشُربة من الخمْر وغيرها. الجاحم: الجمر الشديد الاشتعال. غلّتنا: شرب الخمر فذهب بعقله. بركة الحبَش: هي أرض في وَهْدَة من الأرض واسعة... مشرفة على نيل مصر، وقَفْ على الأشراف، تزرع فتكون نزهة خضراء لزكاء أرضها واستضحائها وريّها وهي من أجل متنزهات مصر، رأيتها وليست ببركة ماء وإنما شبهت بها... وعندها بساتين تعرف بالحبش والبركة منسوبة إليها.

(٦٨) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص١٠٥، جيرون: أحد أبواب دمشق وهو موقع.

وكأنّمـــــــا آصالُـــــــــهُ ذَهَـــبٌ علـــــى الأوراق ذائـــــبْ
فهنـــــاك كـــــم ذهبيَّـــــةٍ لـــي فــي الولــوع بهــا مذاهــب(٦٩)

ومن خلال هذه المقطعات ركَّزَ الشُعراء علىالجانب الجمالي فيها، من ألوان وأصوات، وحركات، فأتَتْ لوحاتهم ذات لمسات من العبير الذي يفوح من بين أزهارها.

٤ . المساجد والأديرة والمدارس:

اهتم الشعراء بهذه المظاهر الصناعية من الطبيعة، وأكثروا من ذكرها، ولكن تناولها جاء متفاوتاً بينها.

أما المساجدَ، فقد استأثر الجامع الأموي بالنصيب الأكبر من وصف الشعراء، ولاغرو في ذلك "فهو أعظم مساجد الدُنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حُسْن وبهجة، وكمالاً، ولايعلم له نظير، ولايوجد له شبيه"(٧٠) ووصفه ابن عساكر فقال: "وأمضيتُ إلى جامعه فشاهدتُ منه ماليسَ في استطاعة الواصف أن يَصِفَهُ ولا الرائي أن يعرفَهُ وجملتَهُ أنَّهُ بكْرُ الدَّهر، ونادرة الوقت، وأعجوبة الزمان، وغريبة الأوقات، لقد أبقى بنو أمية به ذكراً لايدرس، وخَلَّفَتْ أثراً لايخفى"(٧١) وقد تفنَّنَ الشعراء في وصف الجامع الأموي، وبيان محاسنه، فوصفوه من الداخل والخارج، ومن ذلك قصيدة ذكرها عبدالقادر النعمي يَتحَسَّرُ فيها الشاعر على حريق الجامع، فوصف من خلال ذلك روعة بنائه، وجدرانه، ورخامه، وأشجاره، ومناظره، وقبّته وأرضيّته التي فرشَتْ بالرُّخام، وجدرانه التي تلونت بالخطوط المختلفة للآيات القرآنية، والرُسومات التي اتخذت من الأشجار أشكالاً لها، وحماماته والحريق الذي شبَّ فيه يقول:

جامعهـــا جـــامع المحاســـن قـــد فـــاقت بـــه المـــدن فـــي جوامعهـــا
بُنْيَكُـــهُ بالإتقـــان قـــد وَضِعَـــتْ لاضيَّـــعَ اللـــهُ ســـعْيَ واضعهـــا
تذكْـــر فـــي فضلـــه ورفعتـــه أخبـــار صِـــدق راقَـــتْ لســـامعها
قـــد كـــانَ قَبْـــلَ الحريـــق مدهشـــةً فغيَّرتْـــهُ النّـــار فـــي بلاقعهـــا

---

(٦٩) البهاء زهير: ديوانه، ١٠٥، وانظر ديوان فتيان: ص٢٦٨. الترائب: عظام في الصدر.

(٧٠) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج١، ص١٠٣.

(٧١) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج١، ص٢١١.

فـــأذهبَتْ بـــالحريق بهجَتَـــهُ	فليـــسَ يرجـــى إيـــابُ راجعهـــا
إذا تفكَـــرتَ بـــالفصوص ومـــا	فيهـــا تيقَّنْـــتَ حـــذقَ صانِعهـــا
أشـــجارٌ مـــا تـــزالُ مثمـــرةً	فـــي أرض تَـــبرٍ يغشـــى بقائعهـــا
تقطَـــعُ بالألحـــاظ لابجارحـــةٍ	الأيـــدي ولاتجتنِـــي لبائعهـــا
وتحتهـــا مـــن رخامـــه قطـــع	لاقطَّـــع اللـــه كـــفَّ قاطعهـــا
أحكـــمَ ترخيمهـــا المرخِـــمُ قـــد	بـــان عليهـــا أحكـــام صانعهـــا
وإنْ تفكـــرْتَ فـــي منـــاظره	وســـقفه بـــانَ حـــذْقُ رافعهـــا
وإنْ تبيَّنْـــتَ حُسْـــنَ قُبَّتِـــهِ	تَحَـــيَّرَ اللُّـــبُّ فـــي أضالِعِهـــا
تخـــتَرِقُ الرِّيـــحُ فـــي مخارِمهـــا	عَصْفـــاً فتقـــوى علـــى زعازِعِهـــا
وأرضُـــهُ بالرُّخـــام قـــد فُرِشَـــتْ	بَنفَسَـــجُ الطَّـــرفِ فـــي مواضيعهـــا
مجـــالِسُ العِلْـــمِ فيـــه مونقـــةٌ	ينشَـــرِحُ الصَّـــدْرُ فـــي مجامِعِهـــا
وكـــلُّ بـــاب عليـــه مُطهـــرة	قـــد أمِـــنَ النـــاسُ دَفْـــعَ مائِعهـــا
يرتَفِـــقُ الخَلْـــقُ مـــن مرافِقِهـــا	ولايَصُـــدُّون عـــن منافعهـــا(٧٢)

ويصفُ فتيان الشاغوري قُبَّة المسجدُ الأموي المسماة بقبَّة النَّسر، فيشبهها بالفتاة الجميلة التي أبدت محاسنها وتزيّنت بأصناف الزينة المختلفة، للتدليل على مدى جمال القُبَّة والتصاوير الكثيرة التي زيِّنَتْ جدرانها، يقول:

مـــا غـــادة راكبَـــةُ النَّسْـــرِ وَقَـــدْ	يَـــدَت لأبصـــار الـــورى نقوشـــها
يَحْمِلُهـــا النَّسْـــرُ الـــذي أضحـــى لـــه	مـــن الطَّواويـــس الذكـــور ريْشُـــها
خـــافَتْ سُـــطاها الشَّـــمسُ فـــي مصامِهـــا	وذلـــك إذا شَـــكَّ الهـــلال شَيْشُـــها
كأنَّمـــا الهـــلالُ خشـــكنانَةٌ	وكَفُّـــهُ فـــي أفقِـــهِ تحوشُـــها(٧٣)

ويَصفُ صَحْنَ الجامع وما أبدع الصانع فيه من نُقُوش طُليت بالفضة، حتى بدى في أبهى مَنْظر، يقول فتيان:

---

(٧٢) النُعيمي (عبدالقادر بن محمد بن عمر بن يوسف ابن عبدالله النُعيمي ت٩٢٧هـ): الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفَر الحَسَني، ط١، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥١، ج٢، ص٣٩٠. البلْقع: الأرض القَفْر، فصوص: مايركب في الخاتم من الحجارة الكريمة، المخارم: استقبلها بأنفه.

(٧٣) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢٤٥، ص٥٨٩، وانظر ديوان ابن عنين: ص٢٠.

وأفخمُ بالترخيم في الأرض صحنهُ   وكأنَ به الآجرُ قد عانق الجصا
ولما عرى جدرانه العُريُ فاكتستْ   قشعريرةً أوصى بأنْ يُلبسَ الفَصا(٧٤)

ووصف جعفر بن دواس الجامع والفوارة التي في باحته فشبهها بالبيت الحرام ومن حوله الحجيج ركعاً يقول:

رأيتُ بالجامع المعمور معجزةً   في جلّق إحدى (كذا) من بها سمعا
فوارةٌ كلّما فارتْ فرتْ كبدي   وماؤها فاضَ بالأنفاس فاندَفعا
كأنّها الكعبة العظمى فكلُ فتى   من حيثُ قابل انبوباً لها رَكعاً(٧٥)

ووصف علي بن ظافر وابن الذروي قناديل الزيت التي تُضيُ مسجد مصر، فبدت كالشهب في السماء، وأسطر من ذهب على ماء يقول:

انظر إلى حُسن القناديل التي   لاحت كشهب في متون سماءِ
والصحنُ قد أبدى شهاب شعاعه   إذ صارَ مصقولاً بمرِّ الماءِ
فكأنّما هي أسطرٌ من عسجد   كتبتْ بظهرِ صحيفةٍ بيضاءِ

وقال ابن الذروي:

ايا حُسْنَ جامع مِصْرٍ وقد   تَروّى من الوابلِ المغدقِ
وضوء القناديل من فوقه   كأسطُرِ تبرٍ على مهراقِ(٧٦)

أما الأديرة، فقد شد الشعراء منذ القديم رحالهم إليها، ووصفوا أيامهم ولياليهم فيها، وما شعروا به من متعة وجمال وحُسن استقبال من الرُّهبان والرّاهبات التي تدور عليهم بكاسات الشراب، دون قيد أو عرف، ففيها يتحرَّرُ الشاعر من قيود المجتمع، وينطلقُ يصفُ ليلتهُ في الدير والأماكن المحيطة به، والراحُ يدور به السقاة، والغواني تتيه دلاً ولينا، مازجاً كلّ ذلك في لوحة جذابة يتراقصُ فيها النسيم مع ضوء القمر.

---

(٧٤) المصدر السابق. ص ٢٤٧، الآجر: ما يبنى به من الطين المشوي. الجص: ما تطلى به البيوت من الكلس. قشعريره: خشن الملمس.

(٧٥) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٣٩٠.

(٧٦) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٢٦٧، العسجد: الذهب، مهراق: الثياب والقراطيس.

ووصف الشعراء العديد من الأديرة التي انتشرت في مصر والشام، كدير مرّان ودير مرحنا، ودير سمعان، ودير القصير.(٧٧)

وتناول الشعراء عند وصفهم للأديرة، المكان، والليل، والطبيعة المحيطة، وصورة المرأةّ التي تقدّم الخمرة، والجواري التي تحييّ الليل طرباً وغناءً، وأكثر الشعراء من ارتياد الأديرة في أوقات أعياد النّصارى، ومن ذلك وصف عرقلة الكلبي لدير مران، عندما شدَّ إليه رحاله في أحد أعيادهم المسمى بعيد الشعانين، تحلل الشاعر فيه من كلّ ما يربطه بالمجتمع المسلم، متخذاً رفقاء له من اليهود والنصارى، يتعاطون كؤوس الشراب بكلّ ألوانها، في رياض تتناثر فيها الأزهار، وتَصدَحُ فيها الأطيار، يقول:

دعْ استماعكَ ذكرى دير سمعان ... فما أمرُّ النوى عن دير مرانِ
فيه شمامسةٌ مثلُ الشموسِ إذا ... جاءوك بين أناجيلٍ وصُلبانِ
وكلُّ قسٍ كَقُسٍّ إذا تحدثَ عن ... عيسى بن مريم أو موسى بن عمرانِ
وفي الشعانين من أولاد حفنة لي ... ظبيٌ يناشد في أشعار حسانِ
لله ليلةٌ بتنا وهو ثالثنا ... من مسلم ويهوديٌ ونصراني
وراحنا من ثلاثٍ أبيضٍ يقف ... وأصفرٍ فاقعٍ أو أحمرٍ قاني
وقالَ هيا فقد لاح الصباحُ وقد ... طاب الصبوحُ على روحٍ وريحاني
ما بين سطراً ومقراً جنةٌ سَرَحَتْ ... أنهارها في ظلال الآس والبانِ
يظل منثورها والروضُ منتثراً ... كأنّما صيغ من دُرٍ ومرجانِ
والطيرُ تنشدُ في أغصانها سحراً ... هذا هو العيشُ إلا أنّهُ فانِ(٧٨)

---

(٧٧)انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان: مادة دير

دير مرّان: دير بالشام سمي باسم الموضع الذي بني فيه. دير مرحنا: دير بمصر على شاطيءُ بركة الحَبَش.

دير سمعان: دير بنواحي دمشق بموضع نزهة وبساتين. دير القصير: في ديار مصر في طريق الصعيد. بموضع يقال له حلوان.

(٧٨) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص ٩٦، الشمامسه: دون القسِ ومعناها بالسريانية الخادم. قيس: قيس بن ساعدة الأيادي أحد خطباء الجاهلية، الشعانين: وهو عيد للنصارى، الأحد الذي قبل الفصح. حسان: هو حسان بن ثابت شاعر الرسول. سطر ومقرى: قرى بالشام.

ويصف الحكيم إحدى لياليه في دير مرحنا، وما حوتْهُ من لذة في العيشِ، وطيب مقام، بين كؤوس الشراب، وألحاظ الغواني، والأُنسُ مع الصحبة، متخذاً من اللّيل ستاراً له من أعين الناس، وهدوء يبعث السَّكينة والرَّهبَة في النفوس، يقول:

يا ديـر مرحنّـا لنـا ليلـةً ... لـو شُـربَتْ بـالنفسِ لـم تبخسِ
بتنـا فـي فتيـةٍ أعربّـتْ ... آدابهـم عـن شـرف الأنفـسِ
والليـل فـي شـملةِ ظلمائـه ... كأنّـهُ الراهـبُ فـي البـرنسِ
نَشْـرَ يُهـا صهبـاءَ مشـمولة ... تُغنـي عـن المصبـاح فـي الحنـدسِ
يسـعى بهـا أهيـف طـاوي الحشـا ... يَرفـل فـي ثـوب مـن السُّـنْدسِ
تجنيـكَ خـدّاه وألحاظـهُ ... مـا شـئتَ مـن ورد ومـن نرجـسِ
قـد عُقـدَ المـئزرُ مـن خَصـره ... علـى قضيـب البانـةِ الأملـسِ
يفعـل فـي الشـراب بألحاظـه ... أضعـاف مـا يفعـلُ بـالأكؤس(٧٩)

ومن الأمور التي يستحَسَنُ ذكرها في هذا الموضع، أن الشعراء كانوا يذهبون جماعاتٍ إلى الأديرة، وتدور بينهم مساجلات شعرية بداهةً، ومن ذلك وصف الشهاب، وابن ظافر، والأعز، لدير القصر، مظهراً كلُّ واحدٍ منهم قدرته على وصف المكان، يقول الشهاب:

سـقى اللـه يومـي بديـرِ القصيـرِ ... قَصـيرُ العزالـي طويـلُ الذيـولِ
محـلٌ إذا لاحَ لـي لـم أفـقْ ... بصحبـي علـى حوامـل والدخـول

فقال ابن ظافر:

فكـمْ فيـه مـن قمـرٍ فـي دُجـىً ... علـى غُصُـنٍ فـي كثيـبٍ مهيـلْ!
بِـودٍ صحيـحٍ وطـرفٍ سـقيم ... ورُوحٍ خفيـفٍ وردفٍ ثقيـلْ!

فقال الأعز:

فقطعـتُ بـه العيـشَ مـع فتيـةٍ ... صِبَـاحِ الوُجُـوهِ كـرامِ الأصـولْ!
بكـلِّ كريـم قصـير المـرا ... ء حـازَ المعـالي ببـاع طويـل!(٨٠)

---

(٧٩) الحكيم: ديوانه، ص ١٥٣. وانظر ديوان ظافر الحداد: ص ٥٥. وقلائد الجمان، ج٣، ص ٢١، البرنس: قلنسوه طويله كانت تلبس في صدر الاسلام، كلُّ ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به.

(٨٠) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص ٣٦٥، وانظر بدائع البدائه، ص ٢٢٧، العزالي: شدة المطر حومل والدخول: موضعان في الجزيرة العربية.

واتّخذَ الشعراء من الأديرة أمكنةً تذكرُهم بديارهم، وأيام اللهو والمرح فيهـا، بعد أن شـعطتْ بهم الدار، واعقبتهم حسرة وآلام، ومن ذلك قول الحسن بن ابراهيم:

يـا ديـر مـرّانَ قـد شـطتْ بنـا الـدارُ ... ومـا تقضـتْ مـن الأحبـاب أو طـارُ
بـانوا ففـي العيـن مـاءٌ يـومَ بينهـمُ ... وفـي الفـؤادِ المعنّـى بعدهـم نـارُ(٨١)

أما المدارس، فقد انتشرت في هذا العصر انتشاراً واسعاً فـاق كـلّ العصـور التـي سبقتهُ، وتسابق الحكام والأمراء والأميرات في بنائها، ووقف الأموال والضّيـاع عليهـا، حتـى غـدت الحركـة العلمية في هذا العصر زاخرة بالعطاء العلمي، فألفت فيه أمهات الكتب التي نجدها في مكتباتنـا، مـن كتب نحوية، ولغوية، وفقهية(٨٢)، ولكن مع كل هذا لم تحظ المدارس في هذا العصر باهتمام الشعراء، وقيلتْ فيها أشعار قليلة على نحو ما نرى فـي قـول عرقلـة الكلبـي يذكـر مدرسـة نـور الديـن زنكـي، يقول:

ومدرسـةٌ سَـيُدْرَسُ كـلُّ شـيءٍ ... وتبقـى فـي حمـى عِلـمٍ ونُسـكِ
تَضـوعَ ذكرهـا شـرقاً وغربـاً ... بنـور الديـن محمـود بـن زنكـي
يقـولُ وقولُـهُ حـقٌّ وصـدقٌ ... بغـير كنايـةٍ وبغـير نُسـكِ(٨٣)

ويذكر ابن منير المواد التي تُدرسُ في هذه المدارس، فيذكُرُ منها علم الفلك والتنجيم، ومذهبيْ الإمام الشافعي وأبي حنيفة يقول:

سـمكتَ المـدارسَ فـوقَ النُجـوم ... فكـمْ مُنجّـمٍ تحتهـا قـد نجـمْ
وعـاش الحنفـيُّ والشـافعيُّ ... بمـا شَـدْتَ منهـا وكانـا رِقـمْ(٨٤)

وكما اتخذ عرقلة الكلبي المدرسة باباً للمديح، اتخذها ابن قلاقس أيضاً مدخلاً لمدح طلائع بن رُزْيِّك، عندما بنى مدرسةً في الأسكندرية يقول:

وشَـيَّدْتَ بالاسـكندرية بُنْيَـةً ... بهـا أصبـح الثغـرُ المبـارك مُعلمـاً
حبـوتَ بهـا فخـرَ الأئمـة فـاغتدى ... بجمعهـا شـمل المعـالي فَلأَمـا

---

(٨١) الأدفوي: الطالع السعيد، ص ٢٢٣.

(٨٢) انظر كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي والخطط المقريزية للمقريزي.

(٨٣) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص ٧٠. النسك: الزهد والعبادة.

(٨٤) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص ٢٥٩، سمك: رَفَعَ. الحنفي والشافعي: من الأئمة الأربعة.

بتدريســهِ فيهـا الـدروسَ اسـاسُ مـا يقيمونـــه الكفــارُ أضحـــى مُهدَّمهـــا
بــه وبهــا لــم يــتركِ اللــهُ كــافراً إلى أن غدا فضلاً مـن اللـه مُسْلِما(٨٥)

ويقول فيها ابن قلاقس مشبهاً علوّ مكانتها في نشر العلم وهداية الناس، وبالمنارة التي تُهدي البحارة في عُرض البحر إلى شاطيء الخليج يقول:

ســارَ للمجـــد بجـــدٍّ صـــادقٍ فبنـــى فـــي ذروةِ النّجــمِ منـــاراً
بنيـــةٌ مـــا مثلُهـــا مدرســـةٌ أثبتـــتْ فـــي كبـــدِ الحســـاد نـــاراً
هـــي صـــدرٌ وهـــو صـــدرٌ حبـــذا بحــرُ عِلْــمٍ فَرّغَــتْ منــه بحــاراً(٨٦)

ويصف ابن قلاقس مجلس العلم فيها، والحافظ السِّلفي يدرسُ فيـه، طـارداً الجهل من عقول تلاميذه كما يطردُ النُّور الظلام يقول:

يــا أيُّهــا الحــافظُ الــذي بسَــنَا طلعتـــه الدّهــر يُطــردُ الحلـــكُ
فَجْلِسُـــكَ الآن قـــد ســـما فكـــذا مجـــالس الغـــير حاذَهـــا الـــدَّركُ
صـــفٌ بـــك الطـــالبون فاســـتمعوا لفظـــاً لألبـــابهم هـــو الشـــركُ
منهـــم نجـــومٌ تلـــوحُ وزاهِـــدةٌ وانـــت بـــدرٌ والمجلـــسُ الفلـــكُ(٨٧)

ومن ذلك نرى الشعراء قد ركزوا في وصفهم للمدارس على الجانب المدحي، إذ اتخذوها ضمن تعدد المناقب للممدوح، ونظروا إليها على أنّها منارة للعلمِ والهدى، يدرَّسُ فيها علوم العصر وثقافته، ووصفوا مجالس العلم وطلابه، ضمن صورة جذابة تروق للمتلقي.

٥- الحمامات

انتشرت الحمامات بشكل واسع في هذا العصر، وأكثر الشعراء وبخاصة في الجانب المصري من وصفها، فذكروا محاسنها، وعدَّدوا مساوئها، ونوهوا بطيب المقام، وحُسن الخدمة،

---

(٨٥) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ١٩٨.
(٨٦) المصدر السابق: ج١، ص ١٩٦.
(٨٧) المصدر السابق: ديوانه، ج١، ص ٢٩٦.

ونظافة المكان، وجمال الجدران، وصفاء المياه، ومن ذلك وصف ظافر الحداد لحمام بدأ لناظريه كعروس ترفل بزينتها، وتتجمل بالوشيّ والعقود، ذاكراً ما ينعم به الحمام من جدران كستها الصُّور المختلفة، من طيور، وحيوانات، وأشجار، وقيان، وما يتمتع به الرُّواد من مياه باردة وحارة تجري في مجاريها، يقول:

صحةٌ في سلامةٍ ونعيمٍ ... وبقاءٌ في عزِّ مُلكٍ مقيمِ
طابَ هذا الحمامُ واجتمع الحُسـ ... ـنُ إليه في جملةِ التقسيمِ
فهو مثلُ العروس تُجلى على الأبـ ... ـصار زهواً في حلةٍ من رقيمِ
فيه حُسنٌ بادٍ وحُسنٌ خفيٌ ... ليس يبدو إلا لكلّ حكيمِ
وشموس قد جاورتها بدور ... ونجومٌ لكنْ بغير رُجومِ
وسيولٌ تفيضُ بالحار والبا ... رد لكنّها بغير غيومِ
بخارٌ نكهة المعـ ... ـشوقِ في أنف عاشقٍ محرومِ
وطيورٌ تكادُ تشدو ووحشٌ ... رُتَّعٌ في فواكهٍ وكرومِ
وقيانٌ تكاد تُفصحُ بالإيـ ... ـقاعِ بين الثقيل والمزمومِ
وحياضٌ راقتْ ورقتْ فأبدتْ ... كلَّ سرٍّ في ضِمنِها مكتومِ(٨٨)

وفي مساجلة شعرية بين ابن الذروي والنجيب هبة الله الوزير، ينقلُ علي بن ظافر شعورهما وهما يصفان حماما نظيفاً اتخذتْ أحواضه من رخام، طاب فيه العيش، والتذتْ النفوس فيه بدخول جحيمه، يقول ابن الذروي:

إنَّ عيشَ الحمام عيشٌ هنيٌّ ... غير أنَّ المقامَ فيه قليلُ
جنةٌ تكرَهُ الإقامةَ فيها ... وجحيمٌ يطيبُ فيه الدخولُ
فكأنَّ الغريق فيه كَليمٌ ... وكأنَّ الحريق فيه خليلُ

ومن ثم قال هبة الله الوزير:

للهِ يومٌ بحمامٍ نعمتُ به ... والماءُ من حوضها ما بيننا جارِ

---

(٨٨) ظافر الحداد: ديوانه/ ص ٢٧٢، ص ١٣٣، ص ٣٦١، ص ٢٦٨، الرقيم: ضربٌ مخطط من الوشي أو البرود. الرجمُ: ما يظهر في المساء كأنهُ نجومٌ تتساقط، الثقيل والمزموم: ألحان موسيقية.

كأنّه فوق شفاف الرخام بها سيلٌ يسيلُ على أثواب قصارِ(٨٩)

أما النظرة الأخرى، فهي ساخطة، ثائرة، على الحمامات وأصحابها، لقلة العناية بها والاهتمام بمرافقها، فالماء بارد، والرائحة كريهة، والظلام دامسٌ، والجدران متشققة، والسَّخام يغطيها ويغطي سقوفها، والهوام تتخذُ منها بيوتا، والماء يقطُرُ كأنَّهُ الحبر الأسود، والداخلُ إليها مُعتلُّ البدن والنفس يقول ظافر الحداد:

حمامُنا هذا حِمامٌ وإنَّما صُحِّفَ الكلامُ
أقلُّ أوصافِها ثلاث البردُ والنتنُ والظلامُ
يلسعُ بردُ البلاد فيها فالناسُ في وسطها قيامُ
وبين جدرانها شقوق يكمنُ في جوفها الهوامُ
والبراغيثُ في نواحي بيوتها عَسْكَرٌ لُهَامُ
وأقصُدُها في دمٍ ولحمٍ بالعضِّ بلْ قَصدُها العظامُ
كأنَّما سقفُها مدارٌ يقطرُ من دونِهِ السَّخامُ
والماءُ فيها أقلُّ شيءٍ يُدرَكُ بالجهدِ أو يُرَامُ
وليست ذا كلِّهِ عجيباً فيها بلِ الأعجبُ الرخامُ
يخرجُ عنها اللبيبُ يجري عَرْيانَ يَحتثُّهُ الهُزامُ
وهو لعمري مما يراهُ من شدةِ الهولِ لا يلامُ(٩٠)

٦- الأهرامات ومنارة الأسكندرية:

من العجائب التي أوجدتها يدُ الإنسان على هذه البسيطة أهرامات مصر، لتصبح عبر العصور محط إعجاب الناس في الجمال، وروعة البناء، حتى أنهُ ما يمر زائر أو سائح بأرض مصر

---

(٨٩) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٢٥٩، الكليم: سيدنا موسى عليه السلام الخليل: سيدنا ابراهيم عليه السلام. وانظر ديوان ابن عنين: ص ١٨٧.

(٩٠) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٦٩، ص ٢. وانظر خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ١٠٣، وديوان الحكيم: ص ١٤٤، لهام: الجيش العظيم. السُخام: الفحم، سواد القِدره رام: أراد.

إلا استرعاءُ منظرها، وسحر لبه جودة أتقانها، فتحدث عنها، فابن بطوطة عندما حلَّ بأرض مصر، وصفها بقوله "من العجائب المذكورة على مر الدهور، وللناس فيها كلام كثير، وخوضٌ في شأنها"(٩١) وقال أحد الحكماء "كلُّ شيء يُخشى عليه من الدّهر إلا الأهرامات، فإنّهُ يُخشى على الدهر منها"(٩٢) وقد تمثّل هذا القول عمارة اليمني في شعره عندما قال:

خليليَّ ما تحتَ السَّماء بنيةٌ — تُماثِلُ في اتقانها هرمي مِصْرَ
بناءٌ يخافُ الدهرُ منه وكلُّ ما — على ظاهرِ الدُّنيا يخافُ من الدَّهرِ
تَنَزَّهَ طرفي في بديع بنائِها — ولم يتنزَّه في المراد بها فكري(٩٣)

ويصفُ الإمام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي الأهرام بالرحى التي تطحنُ الإنس والجان، دلالة على بقائها صامدة على مر العصور، والناس حولها يفنون، يقول:

ألستَ ترى الأهرامَ دامَ بناؤها — ويفنى لدينا العالم الإنسُ والجنُّ
كأنَّ رحى الأفلاك أكوارها — قواعدها الأهرام والعالم الطحنُ(٩٤)

أما الحكيم، فيأخذ لبهُ حسنُ العمارة، وعلوها في عنان السماء، فيشبهها بنهدي المرأة، يقول:

بعيشكَ هل أبصرت أحسنَ منظراً — على ما رأتْ عيناكَ من هرمي مصر؟
أنافا بأعنان السماء وأشرفا — على الجوِّ إشراف السماك على النسرِ
وقد وافيا نشزاً من الأرض عالياً — كأنّهما نهدانِ قاما على صدر(٩٥)

ومنظر الأهرام وقد تربع أبو الهول بينها، فيصورها ظافر الحداد، بظعن محبوبين حط الرقيب راحلته بينهما، يقول:

---

(٩١) ابن بطوطة "محمد بن عبد الله اللواتي ت ٧٧٩هـ": رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المستنصر الكتاني، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيورت، ١٩٨٥، ج١، ٧٥.

(٩٢) المقريزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥هـ): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت، ج١، ص ١٢١.

(٩٣) المصدر السابق: ج١، ص ١٢١.

(٩٤) المصدر السابق: ج١، ص ٩٢١، الرحى: الطاحونة، كور: لفها وأدارها.

(٩٥) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص ٢٣٧، وانظر ديوان الحكيم: ص ٩٨ أناف: ارتفع. عنان السماء: ما ارتفع منها وما بدأ لك منها إذا نظرتها. السمّاك والنّسر: نجمان، نشز: المكان المرتفع.

تأمل هينة الهرمين وانظر — وبينهما أبو الهول العجيبُ
كعمّاريتين على رحيلِ — بمحبوبين بينهما رقيبُ
وفيضُ البحر عندهما دموعٌ — وصوتُ الريحِ بينهما نحيبُ[٩٦]

أما شهاب الدّين التلمساني فيبحثُ في الأسباب التي دعتْ الفراعنة إلى بنائها، ويجمع الآراء التي أثيرت في عصره حول هذا الموضوع، فهي التي فاقت في البناء إيوان كسرى، ووقفت عبر الأزمان في وجه الريح، والبرد، والحرّ، والسيول، ولم تتأثر من هذه المظاهر الطبيعية، يقول:

أمبانى الأهرامِ كم من واعظ — صَدعَ القلوبَ ولم يفُهْ بلسانه
أذكرنني قولاً تقادم عهدُهُ — أين الذي الهرمان بنائه
هُنّ الجبال الشامخاتُ تكادُ أنْ — تمتد فوق الأرضِ عن كيوانهِ
لو أنّ كسرى جالس في سطحها — لأجلّ مجلسه على إيوانهِ
ثبتتْ على حرّ الزمان وبرده — مُدداً ولم تأسف على حدثانهِ
والشّمسُ عند إحراقها الرِّيحُ عند — هبوبها والسيلُ في جريانهِ
هلْ عابدٌ قد خصها بعبادةٍ — فبانى الأهرام من أوثانهِ
أو قائل يقضي برجعة نفسه — من بعد فرقتهِ إلى جثمانهِ
فاختارها لكنوزه ولجسمه — قبراً ليأمن من أذى طوفانهِ
أو أنّها للسائرات مراصدٌ — يختارُ راصدُها أعزّ مكانهِ
أو أنّها وصفتْ شؤون كوكب — أحكام فرس الدّهر أو يونانهِ
أو أنّهم نقشوا على حيطانها — علماً يحاولُ الفكرُ في تبيانهِ
في قلبِ رائيها ليعلمَ نقشها — فكرٌ يعضُ عليه طرف بنانهِ[٩٧]

أما منارة الأسكندرية، فهي من الأماكن الأثرية التي احتضنتها مدينة الأسكندرية، واتخذتْ دليلاً للسفن في عرض البحر إلى موقع الخليج وقد وصفها الرحالة والمؤرخون في كتبهم بأنها "بناءٌ مربع ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت عليها ألواح

---

(٩٦) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٣٨، وانظر ديوان ظافر الحداد، ص ٤ العمارة: الهودج على ظهر الجمل.

(٩٧) المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص ١٢٢، حدثان الدهر: نوائبه.

خشب يعبر عليها إلى بابه"(٩٨) وتبتعد عن "مدينة الأسكندرية في هذا الوقت نحو ميل وهي على طرف لسان من الأرض قد ركب البحر جنبتهُ وهي مبنية على فم ميناء الأسكندرية"(٩٩) وفيها "قوم مرتبون لوقود النار طول الليل، فيقصر ركاب السفن تلك النار على بعد"(١٠٠) واتخذتْ ايضاً لتنبية أهل المدينة من الأخطار التي تأتيهم من البحر، فإذا ما أحسن المرتبون عليها بالخطر "أشعلوا النار من جهة المدينة، فإذا رأها الحرسُ ضربوا الأبواق، والأجراس، فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو"(١٠١) واتخذوها كذلك مكاناً للتنزه، ومكاناً يلتقون فيه في أعيادهم، ومن هذه الاعياد، يومُ خميس العدس، يقول المقريزي "وكان لهذه المدينة مجمع في يوم خميس العدس، يخرجُ سائر أهل الأسكندرية إلى المنارة من مساكنهم بمآكلهم، ولا بد أن يكون فيها عدس، فيفتحُ باب المنارة ويدخلهُ الناس، فمنهم من يذكرُ الله، ومنهم من يصلي، ومنهم من يلهو، ولا يزالون إلى نصف النهار ثم ينصرفون"(١٠٢).

وأول الأمور التي وصف الشعراء بها منارة الأسكندرية، أنها تتخذ كدليلٍ يرشدُ البحارة إلى موقع الخليج، فابو عبد الله محمد بن الحسن، يرى فيها هادياً للبحارة إذا جُنَّ الليل، وتاهتْ السفنُ في غيهبه يقول:

للـــه دُرُّ منـــارة الأســـكندرية كـــم ... يســموا إليــه علــى بُعــد مــن الحــدقِ

مــن شــامخ الأنــف فــي عرنينــه شــممٌ ... كأنـــهُ بـــاهتٌ فـــي دارة الأفـــق

يُكَسِّـــرُ المـــوجُ منـــه جـــانبي رجـــلٍ ... مُشـمِّر الذيــل لا ينجــو مــن الفــرق

لا يــبرحُ الدهــرُ مــن ورد علــى سُــفنٍ ... مــا بيــن مصطبــحٍ منهــا ومغتبــقِ

للمنشــآت الجــواري عنـــد رؤيتـــه ... كموقـــع النـــوم فـــي أجفـــان ذي أرقِ

تهـــوي إليـــه وعنـــهُ الفلـــك طـــائرةً ... بمثــل أجنحــةٍ صيغــتْ مــن الخــرقِ

كأنـــهُ وعليـــه الفلـــك حائمـــة ... بـــرجُ الحمـــامِ، فمــنْ آتٍ ومنطلــق(١٠٣)

ويقول ابن قلاقس في المعنى نفسه، متخذاً اياها مدخلاً للحديث عن أيامه التي مضتْ، يقول:

---

(٩٨) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة: ج١، ص ٣٧.

(٩٩) المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص ١٥٧.

(١٠٠) المصدر السابق: ج١، ص ١٥٧.

(١٠١) المصدر السابق: ج١، ص ١٥٧.

(١٠٢) المصدر السابق: ج١، ١٥٧.

(١٠٣) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٣١٨، وانظر الخطط المقريزية: ج١، ص ١٥٨، العرنين، الأنف كله أو ما صلُب منه.

وسـامية الأرجـاء تُهـدي أخـا السُـرى ... ضيـاءً إذا مـا جِنْـدِس الليْـلِ أظلمـا
لبسْـتُ بهـا بُـرداً مـن الأنـس ضافيـ ... فكـان بتذكـار الأحبـه مُعلَمَـاً
وقـد ظللتنـي مـن ذراهـا بقيّـةٌ ... ألاحـظُ فيهـا مـن صحـابي أنجمـا
فخُيِّـلَ أنَّ البحـرَ تحتـي عمامـةٌ ... وإنـي قـد خيمـتُ فـي كبـدي السـما(١٠٤)

ويصف ابن قلاقس علوها، وذهابها مرتفعة إلى عنان السماء، فيشبهها بالبناء المرتفع الذي شارف السماء، وليبرز صورته أكثر جعل من نجوم السماء كائنات تتخذ منها سكناً ومقاماً، مما دفع الشعراء أمام هذا المنظر الخلاب إلا أن يتباروا في وصفها، وبيان صفات الجمال فيها، يقول:

ومـنزل جـاوز الجـوزاء مرتقيـاً ... كأنّمـا فيـه للنـيرين أوكـارُ
راسِيَ القـرارةِ سـاميَ الفـرعِ فـي يـده ... للنـونِ والنّـور أخبـارٌ وآثـارُ
أطلقْـتُ فيـه عنـان النظـم فـأطردَتْ ... خيـلٌ لهـا فـي بديـع الشـعر مضمـارُ
ولـم يـدعْ حسـناً فيـه أو حسـنٍ ... إلا تحكّـمَ فيـه كيـف يختـارُ
حـلَّ المنـارة كمـا حـلَّ ذِرْوَتَهـا ... بجوهـر الشـعر بحـرٌ فيـه زخّـارُ
مـا زال يذكـي بهـا نـار الذكـاء إلـى ... أنْ أصبحـتَ علمـاً فـي رأسـه نـارُ(١٠٥)

ويدعو ابن قلاقس الناس إلى التفكر في بنائها الذي حير أصحاب الألباب فبالتفكير وحده يستطيع المرء أن يعرف أسرارها، مشبهاً إياها بالفتاة تارة، وبالدوحة تارة أُخرى، يقول:

وهيفـاء فيهـا إنْ تـأمّلْتَ أمرهـاَ ... عجـائبُ لا تُبـدي سـوى الفكـر سـرَّها
تقـومُ ولكـن ليـس تنقُـلُ رِجلهـا ... وترنـو ولكـن ليسـت تطبـقُ شـفرها
إذا نَظَـرَتْ منهـا النواظـرُ دوحـةً ... رأتْ بأعاليهـا مـن النـار نورهـا(١٠٦)

أما النار التي تشبُّ في أعاليها لهداية السفُنِ، فيشبهها بالفانوس، يقول:

---

(١٠٤) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص ٢٤١، وانظر الخطط المقريزية: ج١، ص ١٥٨.

(١٠٥) المصدر السابق: ج١: ص ٢٤١، وانظر ديوان ابن قلاقس، ج٢، ص ٦١٠. قرار: الثابت المستقر من الأرض النون: الحوت، السفينة، الذكاء: اشتد لهيب النار. العلم: الجبل.

(١٠٦) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص ٤٣٨.

تجاورهـــــا منارتهـــــا وفيهـــــا وفـــي فاتوســـها عجــبٌ عجـــابُ(١٠٧)

وبالقبس يقول:

وفـــي القبَـــس مـــن تلقائنــــا قَبَـــسٌ والبـــدرُ يظهـــرُ ثلثـــاه لنـــاظري(١٠٨)

فالشعراء قد صوروا أهرامهم ومنارتهم باحسن الصور، وتفننوا في إظهارها ووصفوا مبانيها العالية، والفائدة التي بنيتْ من أجلها، وما تناقلته الناس من أقوال بخصوصهـا، فأتتْ لوحاتهم جميلة الصور، لا ينقصها سبك لفظ ولا حُسْنُ معانٍ.

٧- القلاع والحصون:

أكثر الشعراء من ذكر القلاع والحصون في هذا العصر، ويعود السببُ إلى كثرة الفتوحات الاسلامية لها، واتخاذ السلاطين منها مقراً ومقاماً.

وجاء وصف الشعراء لها في مقطوعات مستقلة، أو من خلال قصائد المديح التي يمدحُ بها الشعراء القادة والأمراء عقب كلّ معركة.

ومن أكثر القلاع التي تعرَّض لها الشعراء في وصفهم، قلعة حلبَ، وهي "قلعة شهيرة الامتناع، بائنه الارتفاع، معدومة الشبه، والنظير في القلاع، تنزهتْ حصانةً أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوته الأرجاء، مُوضعةٌ على نسبة اعتدال واستواء"(١٠٩).

وأكثر شيء تعرضَ له الشّعراء في شعرهم عند وصفهم للقلاع هو العلوّ، واستعاروا لذلك النجومَ لبيانه، أما تمنعها على الأعداء، ومقاومة نواياهم في فتحها، فاستعاروا صورة الفتاة التي تمتنعُ على معشوقها، يقول ابن سيناء الملك:

---

(١٠٧) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٦.

(١٠٨) ظافر الحداد: ديوانه، ص ١٥٣، القبس: شعلة النار.

(١٠٩) البطاخي الحلبي: اعلام النبلاء، ج٢، ص ١٣١.

جليســـةَ النجـــمِ فـــي أعلـــى مراتبـــه   وطالمـــا غـــاب عنهـــا وهـــي لـــم تغـــبِ
ومانَعتُــــــهُ كمعشــــــوقٍ تَمَنّعَــــــهُ   أحلى من السَّهْدِ أو أشهى من الضَربِ[١١٠]

أما ابن السَّعدان الحلبي، فيتخذُ من وصفها سبيلاً لحث صلاح الدين كي يفتحها، ما دام النصر محالفاً له يقول:

مُـــدَّ إلـــى أخـــت السُّـــهاء زورةً   لا فـــــرقَ يعقبُهـــــا ولا نـــــدَمِ
فيالهـــــا شـــــماء مشـــــمخرَةً   تُطـــارحُ الـــبرقَ وســـاحات الدَّيـــمِ
إيـــةٍ صـــلاح الديـــن شُـــدَّ أزرَهـــا   وأعـــزِمْ عليهـــا فالزمـــانُ قـــد عـــزمِ
ودونـــك المَنَعَـــةُ مـــن قبابِهـــا   وبابهـــا المغلـــقُ فـــي وجـــه الأُمـــمِ[١١١]

ويصفُ ابن أبي حصينة الموقع الحصين الذي اختاره بانيها، لتكون في مأمن من الأعداء، واصفاً من خلال ذلك علوّها، ومنظرها والليل يلفها، ومشاعلها المضاءة، والدُّخان المتطاير منها، يقول:

فـــي ســـفحٍ شـــاهقة الـــبروج كأنّمـــا   يكسُـــو جوانبهـــا الربيـــع زبرجـــدا
موصولـــة بـــالجوِّ تحســـبُ ضَوْءَهـــا   ســـاري الدُّجُنّـــةِ كوكبـــاً أو فرقـــدا
رفَعَـــتْ مشـــاعلُها الدُّخـــانَ فَقَنَّعَـــتْ   وجـــه السَّـــماءِ بـــه قناعـــاً أسْـــودا[١١٢]

ويصف ابن أبي حصينة كذلك دار الذهب بقلعة حلبَ، وهي قاعة الإيوان ومجلس السلطان، في يوم بعث الله فيه الغيث على عباده فبدا المجلس في بهجة والصحبة في نعمة وسرور، يقول:

يـــا حُســـنَ مجلســـنَا وبهجتـــهُ   بـــأغرِّ زادِ علـــى الـــذي وصفـــا
نـــزلَ الغمـــامُ علـــى الرخـــام فقـــد   خـــلاّه حولـــكَ روضـــةً أُنُفـــاً
غنـــاءَ تضحَـــكُ كلّمـــا انطَرَفَـــتْ   عيـــنُ الســـحابِ فـــأنبتتْ طُرفـــاً[١١٣]

---

(١١٠) المصدر السابق، ج٢، ص ١١٤، الضَرَب: العسل.

(١١١) المصدر السابق، ج٢، ص ١١٤: السُّها: كوكب خفي من نبات نعش الصغرى. مشمخرة: عالي، مرتفع.

(١١٢) أبي ابي حصينة: ديوانه، ج٢، ص ٦٧، البروج: بناء مرتفع عل شكل مستدير او مربع.

(١١٣) المصدر السابق: ج٢: ص ٢٩٢، طُرُف.

ويمدح ابن سناء الملك، الملك المعظم شمس الدولة عندما استولى على القلعةِ، واصفاً من خلالها نتائج الفتح، وقوة الجيش الاسلامي الذي فتحها، وترك سورها مهدماً، ونساءَها رملاً، ورجالها عزباً، دلالة على شدة الخراب الذي أصابها يقول:

وكم قلعة فوق السماءِ أساسَها ... وعامرها من أسلاف عادٍ وجرهمِ

رقى سلماً للعزِّ أوصله لها ... فقد نالَ أسباب السَّماء بُسلَّمِ

أتاها وكانتْ ذا قصرٍ مُشيدٍ ... فأضحَتْ لديه ذات سور مُهدَّمِ

ولم يبقَ من أبطالها غير أعزبٍ ... ولم يبقَ من نسوانها غير أيِّمِ(١١٤)

ومن خلال المديح، يُحَرِّضُ ابن حيوس الأمير على فتح قلعة دوسر، لموقعها الأستراتيجي، الذي يسيطر من ملكه على ما خلفها من بلدان، يقول:

وقلعة دورسر بابٌ إلى ما ... تحاولُ فارمِها بالفارتحينا

فكم بلدٍ ملكْتَ به بلاداً ... وكم حصنٍ فتحتَ به حصونا(١١٥)

ومن باب المديح الذي يوصل إلى وصف القلاع، مدحُ عماد الدين الأصفهاني لنور الدين زنكي عندما فتح قلعة حلب، مُبيناً تمنعها على غيره من القادة، ومن ثم يستخلصُ إلى أنّها ستكون مكان عزٍّ للمسلمين وجنودهم، يقول:

ومالك حين رُمتَ قلعتهُ ... غداً مطيعاً للأمر مُتبعا

عَنَا خشوعاً لربِّ مملكةٍ ... لغير ربِ السَّماء ما خشعاً

كانَ مقيماً بها على الفلك الأ ... على شهاباً بنوره سطعا

لكنما الشُّهُبُ ما تنير إذا ... لاحَ عمودُ الصَّباحِ فانصدعا

يدفعها طائعاً إليكَ، وكم ... عنها إباءً بجهده دفعا

هي التي في علوها زُحلٌ ... كرَّ على وردها وما كرعا

وهي التي قاربت عطارد في الأ ... فقِ فلاحاً والفرقدين معا

كأنَّ منها السُّها إذا استرق السَّـ ... ـمعَ أتاها في خيفةٍ ودعا

---

(١١٤) ابن سناء الملك: ديوان: ج٢، ص ٧٠٣، عاد وجرهم: أقوام عربية بائده.

(١١٥) ابن حيوس: ديوانه: ج٢، ص٤٥١. قلعة دوسر: قرية قرب صفين عل الفرات وذكر لي من اعتمد على رأيه أنها قلعة جعبر.

هضبـــةِ عِـــزٍّ لـــولاك مـــا ارتُقِيـــتْ وطـــورُ ملـــكٍ لـــولاكَ مـــا فُرِعـــا
مـــا قبلـــتْ فـــي ارتقـــاء ذروتهـــا مـــن ملـــكٍ لا رُقـــيَ ولا خُدَعـــا(١١٦)

أما الحصونُ، فهي أصغر حجماً من القلاع، تُتخذُ قاعدةً متقدمة، يراقبُ منها الجندُ طرق العدوّ وامداداته من المؤنِ والسلاح، ويخزنُ فيها بعض الأسلحة والمؤن، ويكون فيها في الغالب حاميةٌ صغيرة، ومن خلال صورة الحصون ظهرت صورة الأسلحة التي يستخدمها الجيش في فتح الحصون مثل المجانيق.

وظهرت صورتها من خلال قصيدة المديح، التي أظهرت صورة البطل القائد الشجاع الذي استطاع كسر شوكة الحصن العنيد.

وهدفُ الشعراء من خلال وصفهم إلى إبراز صورة المنعةِ والقوة في الحصنِ، حتى يظهر من خلال ذلك قوة جيش المسلمين الفاتح، ومدى التعب والعناء الذي واجهوه قبل الفتح، ومن ذلك وصف ابن منير لحصن أفامية الذي هدمتْ المجانيق جدرانه، مُتخذاً من ذلك سبيلاً إلى مدح عماد الدين يقول:

فغـــرتْ أفاميـــةُ فمـــاً فهتمتَـــهُ كَبَـــوارِ أجناهـــا الآران بوارَهـــا
أرهقـــت رائـــكَ فـــوق رائـــك تحتهـــا فحَطَطْـــتَ مـــن شـــعفاتِها أغفارَهـــا
أدركـــت ثـــأرك فـــي البغـــاة وكُنـــتَ يـــا مختـــارَ أمـــةَ أحمـــد مُختارَهـــا
عاديـــةُ الزّمـــن المغـــير، ســـمالهاَ منـــكَ المُعـــيِّر فاشـــتدَّ معارَهـــا
زأرَ الهزبـــرُ فقيـــدتَ عاناتهـــا عصـــرُ الفـــلال وأســـلمتْ أعيارَهـــا
أمســتْ مـــع الشّـــعرى القبُـــور وأصبحَـــتْ شـــعراء تســـتلقِي الفحـــول شـــواردها
حتـــى إذا اشـــتملتكَ أشـــرقَ ســـورها عِـــزاً وجلاهـــا ســـناكَ ســـوارَها
وإذا مجانيقـــهُ ركعـــنَ لصعبـــة الـــ ـــملقـــاة أســـجَدَ كـــالجدير جدارهـــا(١١٧)

ويعلل فتيان الشاغوري سبب بناء الحُصون، بأنّها لصدّ هجمات الأعداء وتهديدهم، يقول:

---

(١١٦) العماد الاصفهاني: ديوانه، ص ٢٨٦، ورد: الماء. كرع: شرب. الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي يهتدي به وبجانبه آخر أخفى منه فهما فرقدان.

(١١٧) ابن منير: ديوانه، ص ٢١٦. أفامية: قلعة في منطقة حلب. هتمَ: انكسرتْ ثناياه من أصلها. البوار: الأرض التي لم تزرع. الآران: الجمل النشيط. شعف: رأس الجبل. أغفار: زئبر الثوب، الغطاء. الجدير: المصاب بالجدري.

بنـــاء عجلـــونَ تهـــدذت العِـــدى عَجِـــلاً، يهـــدُ بلادهـــا تهديـــداً
حِصْـــنٌ ســـما بصعـــودِهِ وســـعوده طـولاً فـأرهق مـن عصـاك صعودا([١١٨])

ويتخذُ كذلك لخزن الأسلحة لساعة النزال، ولإمداد الجيوش بالعتاد، ولحفظها من التلف والخراب، يقول:

حِصْـنٌ فجـرْتَ بـه للنـاسِ نهـرَ ظبـاً لمّـا دعـوْتَ إليـهِ الهـامَ سـربَ قطَـا
عَـذوُهُ نجمـاً، فلـولا أن يُقارنَـهُ مـن عـترةِ النجـمِ أقمـارٌ لهـا هبطـا
مـن كـلِّ مـن لبِـسَ الهنـديَّ راحتـهُ من قَبلِ ما لبِسَتْ أعضاؤه القُمطا([١١٩])

وينقلُ أسامة بن منقذ بعضُ الإهمال الذي يُصيبُ الحصونَ، فيبرزُ ما فيه من البراغيثُ، والروائح الكريهة، حتى يتمنى أن تسوى حيطانه بالأرض، ومنها حصن الطوبان، يقول:

متـى أرى الطوبـانَ قـد مُهِّـدَتْ حيطانُـــهُ السُّـــودُ المحـــاريثُ
مـا فيـه إلا ريْـحُ عـادٍ، وأجـلافُ طعـامٍ، وبراغيـث([١٢٠])

وكما وصف الشعراء القلاع والحصون وهي قائمة على سوقها، وصفوها بعدما أصابتها يَدُ الطبيعة بكوارثها، فاصبحت دكاء تذروها الرياح، ومن ذلك وصف طلائع بن رُزّيك لحصن "شيزر" الذي هدَّهُ الزلزال الذي ضرب الشام عام (٥٦٥ هـ) وقضى على من فيه يقول:

رَقصـتْ أرضُـهُ عشـيةَ غنـى الـرَّ عـد فـي الجـوِّ والكريـمُ طـرُوبُ
وتَثَنَّـتْ حيطانُـهُ فأمالَتْهـا شـمألٌ بزمرهـا وجنـوبُ
لا هبـوبٌ لنـائم مـن أمانيـه وللعاصفـاتِ فيهـا هبـوبُ
وأرى البـرقَ شـامتاً ضـاحِكَ السـنِّ وللجـوِّ بالغمـام قُطـوبُ
ذكـروا أنّـهُ تـذوربُ بـه السـحبُ، فمـا للصخـور أيضـاً تـذوبُ

([١١٨]) فتيان الشاغوري: ديوانه، ١٢٩، قلعة عجلون: قلعة تقع في مدينة عجلون في الأردن.

([١١٩]) القاضي الفاضل: ديوانه: ج١، ص ٢٤٩، القطاة: طائر في حجم الحمام. القُمُط: خرقة عريضة يلف بها الصغير إذا شدّ في المهد.

([١٢٠]) اسامة بن منقذ: ديوانه: ص ١٥٧، أجلاف طعام، بقية الخبز وكسره، الطوبان: حصن من أعمال حمص او حماه.

أيذنــــبٍ أصابهــــا قـــدرُ اللـــه، فلـــلأرض كالأنـــام ذنـــوبُ!(١٢١)

ويصف عماد الدين قلاع الشام بعد الزلزلة فيقول:

خَفَضَــتْ فــي قلاعهــا كــلَّ عــالٍ وأعــادتْ قلاعَهــا كالوهــاد(١٢٢)

وأكثر الشعراء من ذكر القلاع والحصون، وتشابهت صورهم لها ومن ذلك وصف فتيان لحصن كوكب(١٢٣)، وابن منير لحصن إنّبْ(١٢٤)، والعماد الأصفهاني لحصن منبج(١٢٥) ومن ذلك نرى الشعراء قد وصفوا منعة القلاع والحصون، وصورها وهي متماسكة البنيان تارة، وتارة وهي مهدمة الجدران ساجدة، وجاءتْ أوصافهم لها في غالبها من خلالِ قصيدة المديح، التي ظهرتْ من خلال نتائج المعركة وما اسفرتْ عنه، والأسباب التي دعتْ الناس إلى اتخاذ القلاع والحصون.

٨- النواعير والفوارات:

مصر والشام من البلاد التي كثرتْ فيها الأنهار، لذا كثرتْ على جانبيها الدواليب والنواعير التي ترفعُ المياه إلى البساتين والغيطان لسقايتها، وعلى جوانبها اتخذ الناس مجالس اللهو والمرح، وأمكنة للترفيه عن النفس، يجتمع فيها الخلان والأحبة.

ومن المدن التي ذاعتْ شهرتها بالنواعير حماة، فلا تذكرُ إلا وذكرتْ النواعير، ولا تذكر النواعير إلا خطر على البال حماة، فنهرها العاصي "لا يسقي إلا بنواعير تنزع الماء فيه"(١٢٦) وتستعملُ لإخراج "الماء إلى ما على جانبيه من غيطان المدينة"(١٢٧).

---

(١٢١) طلائع بن رزيك: ديوانه، ص ٦٣، حصن شيزر: قلعة تشمل على كورة بالشام قرب المعرة قطوب: عبوس.

(١٢٢) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص ٦٣.

(١٢٣) فتيان الشاغوري: ديوانه: ص ٢٣، حصن كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على طبرية.

(١٢٤) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص ٢١٢: حصن إنبْ: حسن من أعمال عزاز من نواحي حلب.

(١٢٥) العماد الأصفهاني: ديوانه: ص ١٠٣، حصن منبج: بلدة شرقي حلب تبعد عنها عشر فراسخ عليها سور مبني بالحجارة محكمة، وهي مدينة معروفة في أيامنا هذه.

(١٢٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٨٣.

(١٢٧) الحميري: الرّوض المعطار، ص ١٩٩.

وبجانب النواعير تتخذُ المجالس التي أصحبت قبلة الناس، كلما شعروا في نفوسهم حُزْنٌ وغمٌ، هرعوا إلى شواطئها، فوصفوا صوتها، وصوت الماء المتساقط من دلائها، ومازجوا بينها وبين أصوات الطيور من حولها، ووصفوا شكلها، ومازجوا بينها وبين شكلِّ الفلك من حولهم، وكلُّ ذلك والطبيعة تدور دورتَها مع كلِّ دورة من دوراتها، يُجمِّلُ بها الشاعر لوحتهُ التي يرسمها للنواعير.

وظهرت صورة النواعير من خلال صوتها، فاستعار الشعراء أصوات الطيور للتعبير عن مدى جمال الأصوات التي تصدر عنها، يقول ظافر الحداد:

حنتْ دواليبُ المياهِ وساعدَتْ　　　شدوات لحن الطير في أغصانه([128])

ويقول:

وإن نعرَتْ فيها النّواعيرُ رَجعَتْ　　　بها الطيرُ ألحان الغناء المجرَّدِ([129])

ويشبه علي بن ظافر أنين النواعير بأنين ثكلى فقدتْ أبناءَها، فأتى أنينها تعبيراً عما يجيش في داخلها من حُزْنٍ وألم، يقول:

وسامية تئنُّ أنينَ ثكلى　　　شكتْ بأنينها حرَّ الأوارِ([130])

ويشبهها الأعزُّ بن المؤيد بحنين الناقةِ إلى حوارها يقول:

تحنُّ ولا تزالُ تطوفُ عجلى　　　كرازمةٍ تحنُّ إلى حوار([131])

ويشبهها علي بن ظافر بانتحاب المحبِّ على أطلال محبوبته، يقول:

غدتْ تحكي مُحباً ذا انتحابٍ　　　يطوفُ باكياً في رسم دار([132])

أما ابن منير فيعبر عن طريق صوتها عن ألم المحبِّ الذي يعتريه، فصوتها يثير فيه الأشواق إلى محبوبته يقول: .

([128]) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٣٠٠.

([129]) المصدر السابق: ديوانه: ص ١٤٣.

([130]) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٢٠٤.

([131]) المصدر السابق: ص ٢٠٤، الرازمة: صوت الناقة إذا رنمتْ ولدها فتخرج الصوت من حلقها ولا تفتح به فاها.

([132]) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٢٠٤.

لنواعيرهـــا علـــى المـــاء الحـــا نّ تُهَيِّجُ الشـــجا لقلـــبِ المعشـــوق(١٣٣)

وأحَسَّ فتيان الشاغوري في صورتها تعبيراً عن شجون نفسه ونواها، فصوتها يثير في نفسه ألم الفراق والبعد عن بلاده ودياره يقول:

لمَّـــا أُديـــرتْ بباتـــاسَ النواعـــيرُ بـــالدارِ قُلنَـــا أُثـــيرت بـــالنوى عـــيرُ
يَـــدُعُّ فـــي صدرهـــا دعـــاً براحتـــهِ فتنثنـــى ولهـــا جـــدٌ وتشـــميرُ
تبكـــي عليـــه اشـــتياقاً إذا يعانقهـــا كمـــا بكـــى فـــي زمـــان الهجـــر مهجـــور
لهـــا حنيـــنٌ حنيـــنَ النيـــبِ تُفْصَـــلُ عـــن فُصلانِهـــا فهـــي صعرٌ نحوهـــا صُـــورُ(١٣٤)

واتخذ المجالس قريبة من النواعير، للاستمتاع بمنظرها وهي تدور حاملة الماء بين جوانحها، وصوت خرير الماء الذي يسيلُ عائداً إلى أصله، فعقدتْ بجانبها مجالس الشراب، يستمع روادها بأصوات النواعير وتغريد الطيور من كلِّ جانب، يقول البهاء زهير:

علـــــى حـــــسنُ النّواعـــــير واصـــــوات الشـــــحارير
وقـــد طـــابَ لنـــا وقـــتٌ صفـــا مـــن غـــيْر تكديـــر
فقُـــمْ يـــا إلـــفُ مـــولايَ أدرهـــا غـــير مـــأمور
وخذهـــا كالدّنـــانير علـــى رغـــم الدّنـــانير
أدرهـــا مـــن ســـنا الصُّبـــح تـــزد نـــوراً علـــى نـــور(١٣٥)

ومن المجالس التي عقدها الشعراء في هذه الأماكن، وتساجلوا فيها الشّعر، مجلسٌ ضم القاضي الأعز، وعلي بن ظافر، اتخذوا نواعير الماء في هدأة الليل مكاناً يقضوا به بعض الوقت، فمزجوا بينها وبين سكون الليل ونجومه، يقولُ القاضي الأعز مُشبها الناعورة بحصان أسود يتحرك بجد ونشاط في مكانه على شكل حركة دائرية يقول:

حبـــذا ســـاعةُ المجـــرَّة والـــدُّو لاب يُهـــدي إلـــى النُفـــوس مســـرَّةْ
أدهـــم لا يـــزالُ يعـــدو ولكـــن ليـــس يعـــدو مكانَـــهُ قـــدرَ ذرة

---

(١٣٣) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص ١٣٢.

(١٣٤) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ١٩٠، النوى: البعد والفراق، النيب: النياق الهرمة الفصلان: ولد الناقة أو البقر إذا فصل عن أمه.

(١٣٥) البهاء زهير: ديوانه، ص ١١٠.

ذو عيـــون مـــن القواديـــس تبُـــدي كـلُّ عين من فـائض المـاء عَـبرة
فلــــك دائــــرٌ يرينــــا نجومـــاً كـلُّ نجـمٍ فيهـا يرينـا المجـرة(١٣٦)

أما علي بن ظافر فيشبهها بالفلكِ الذي تدور فيه نجومه، وصوتها بانين الثكالى، ليقول:

ودولابٍ يئـــنُّ أنيـــنَ ثكلـــى ولا فقـــداً شـــكاهُ ولا مضـــرَّه
تـرى الأزهـارَ فـي ضحـكٍ إذا مـا بكـي بدمـوع عيـنٍ منـه ثـرة
حكـى فلكـاً تـدور بـه نجـومٌ تُوَثِّـرُ فـي سـرائرنا المَسَـرَّةْ
يظـلُّ النَّجـم يغـرُبُ بعـد نجـم ويُطلِـعُ بعدمـا تجـري المجـرة(١٣٧)

وصورتها وهي تهتز حاملة الماء في دلائها، يشبهها العقيلي بالغـادة الحسـناء التـي تهتزُ مـن أثر الشراب، يقول:

وكـلُّ نـاعورةٍ فـي الـرُّوض قـد نعـرَتْ كغـادةٍ هزهـا مـن سـكرها طـربُ(١٣٨)

أمـا الفوارات، فقد أتخـذت زينـة فـي سـاحات القصـور أو الحدائـق العامـة، واتخـذتْ كذلـك لترطيب الجوّ في اليوم الحار، ومن ذلك وصف مجبر الصقلي لاحدى الفوارات، بأنّها تسقي الجو من مائها خوفاً عليه أن يتوقد ناراً من شدة الحرّ، يقول:

وفـــوَّارةٌ يســـتمدُّ السَّـــحا بُ مـن فضلهـا أخلافهـا المحتَلَـبْ
رأتْ حمـــرة القيـــظِ مُحمـــرةً لهـا شـررٌ كرجـومِ الشُّـهُبْ
فظلّــتْ بهـا الأرضُ تسـقي السـما ء خوفـاً علـى الجـوِّ أن يلتهـبْ(١٣٩)

أما شكلُ الماء وهو ينتشرُ في الجوِّ معوجاً بِشَكْلٍ مُقَوَّسٍ، فيصـوِّره الشـريف العقيلـي بـالظهر الذي تقوس من التعب، يقول:

---

(١٣٦) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٢٤٦، القواديس: إناء يخرجُ به الماء من السّواقي.
(١٣٧) المصدر السابق: ص ٢٤٦: عين ثره: عزيزة الماء.
(١٣٨) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ٥٠.
(١٣٩) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ص ٨٩.

مـــــن حـــــولِ فـــــوّارةٍ مُركيـــــةٍ   قـــد انحنـــى ظهـــرُ مائهـــا تعبـــا(١٤٠)

ويصورها ابن الخياط، بأن لها حاجة في السماء فهي دائمة الطلب لها يقول:

وفـــــوارةٌ مـــــا يغـــــي وصفهـــــا   جريـــــرٌ ولا رامـــــةُ الأ حـــــوصُ

كـــأن لهـــا مطلبـــاً فـــي السَّـــما   ء فهـــي علـــي نيلِـــهِ تحـــرصُ

إذا مـــا وفـــي قدُهـــا بالســـمُوِّ   أخلفهـــا عُنُـــقٌ يوَقّـــصُ(١٤١)

٩- الخلجان والبرك:

انتشرت الخلجان والبرك في بلاد الشام ومصر، وذلك عائد إلى كثرة الأنهار فيها، فمصر يتربع على عرشها النيلُ، والشام، بردى والعاصي وثورا، إلا أن شعراء الجانب المصري أكثروا من وصفها مقارنة بالجانب الشامي، فنجد مجموعة من شعراء مصر قد برزت في شعرهم هذه الظاهرة كظافر الحداد، وابن قلاقس، والحكيم والعقيلي.

ومن اشهر البرك التي وصفها الشعراء، بركة الفيل والحبش، فقد كان سكان مصر يتخدونها أمكنة للتنزه، والاستجمام، واتخذوا من يوم كسر الخليج مكاناً يجتمعُ فيه الناس، ليحضروا ساعة كسره مع السلطان.

أما النوع الآخر من البرك، فهي البرك التي توجد في محيط القصور، تكون خاصةً للأمراء والسلاطين وخاصتهم.

فظافر الحداد عندما يترك النيل خلفه الماء في متنزه بركة الحبش على شكل برك من الماء، يستعير لها منظر الثياب الموشاة المزركشة، ليعطي المكان الذي تحيط به الرياض من كل جانب في وصفه حيزاً من الجمال الذي أحسَّ به الشاعر في نفسه يقول:

تـــأملْتُ بحـــرَ النيـــل طـــولاً وخلفَـــهُ   مـــن البركـــة الغنـــاء شـــكلٌ مُـــدَوَّرُ

فكـــان وقـــدْ لاحـــت بشـــطِّيهِ خضـــرةٌ   وكـــانت وفيهـــا المـــاءُ بـــاقٍ مُوفـــرُ

(١٤٠) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ٦٢.

(١٤١) ابن الخياط: ديوانه: ص ٢٠٨. وقص: قصرتْ عنقهُ خلقَةً.

عمامــةَ شَــرْبٍ فــي حــواشٍ بخضــرةٍ أُضيــف إليهــا طيلســانٌ مُقــوّرٌ(١٤٢)

أما بركة الفيل فيصفها ابن سعد، ويبين جمالها وما يحيط بها مـن منـاظر خلابـة حتـى غـدت وسطها كالأهداب للعيون يقول:

أُنظـرْ إلـى بركـة الفيـل التـي اكتنفـتْ بهــا المنــاظرُ كــالأهداب للبصــرِ
كأنّمــا هــي والأبصــارُ ترمُقهــا كواكـبُ قـد أدارهــا علـى القمـرِ(١٤٣)

ويصفها وقد علتْ أشعة الشمس سطحها ساعة شروقها، فبدأ الماء متلونا باشعتها كالدم يقول:

انظـر إلــى بركــة الفيـل التـي نحـرتْ لهــا الغزالــة نحــراً مــن مطالعهــا
وَحَــلْ طرفَــكَ محفوفــاً ببهجتهــا تهيـمُ وجـداً وحبـاً فـي بدائعهـا(١٤٤)

أما برك القصور، فحرص منشؤوها على أن تبدو في غاية الحسن والجمال، وأضافوا إليها إضافات تزيد من جمالها، فإحدى البرك حرصَ صاحبها على أن تكون محاطة بمجموعة من الأسـود تقذف الماء من فيها إلى البركة، ومن ذلك وصف فتيان الشاغوري، يقول:

وبركــــة تُحمــــى بأســـدٍ ومـــا تَمنَعُنــــا الــــوِردَ إذا جِئنَــــا
ومــــا رأينــــا أسُـــداً قبْلَهــــا تَمُــــجُّ بالمــــاء ثعابينــــا(١٤٥)

وحرص الشعراء عند وصف البرك، إبراز صفاء مياهها ونظافتها، وكمية الماء التي لا تنضب مع مرور الأيام، يقول الشريف العقيلي مضفياً إلى ما سبق الجمال الذي تمتاز به هذه البركة:

بيــــن يديهــــا بركــــةٌ ماؤهــــا جــــار مــــع الأيــــام لا يَنْضُـــــبُ
مــــا حــــطَّ مُــــذْ أنشــــأتَها ســــالفاً قــــطُّ علــــى ســــالفها طُحْلُـــــبُ
يرقُــــصُ فــــي حافاتهــــا بُسْــــطُهَا إذا غــــدا بُلبُلهــــا يلْعــــبُ

---

(١٤٢) ظافر الحداد: ديوانه، ص ١٥٤. ص ٤٨، الحواش: أطراف الثوب، الطيلسان: نوع من البرد، المقور، المقطوع من وسطه خرقاً مستديرة.

(١٤٣)المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص ١٦١.

(١٤٤) المصدر السابق: ج٢، ص ١٦١.

(١٤٥) فيتان الشاغوري: ديوانه، ص ١٥٨.

وربمـــــا تُطلـــــعُ أمواجهـــــــا   كوكبـــاً مـــن وقتهـــا تَغْـــرُبُ(١٤٦)

وقد أكثر الشعراء من وصف البرك، منهم ابن الخياط(١٤٧). والشريف العقيلي(١٤٨)، وابن قلاقس(١٤٩)، وساروا على الطريقة المذكورة في وصفهم.

أما الخلجان، فقد اعتمد الشعراء في وصفهم على ما يتمتع به الخليج من جمال، جمال الموقع، وجمال المياه، وحرصوا في مقطوعاتهم على بيان اعتدال الأجواء، وسيطرةْ الأجواء النفسية المريحة عليهم، ومن ذلك وصف ظافر الحداد لخليجٍ مستعيراً لذلك صورة المعركة وأجوائها من اضطَّرابها، واصواتها المتداخلة، وتموجها يقول:

وســـيف خليجهـــا كالســـيفِ حـــدّاً   وفـــي أرجِ الرِّيـــاح لـــه اصطـــرابُ
يَمُـــدُّ مـــدىً تُلَقّـــبُ بالمجـــاري   وليـــس لمديـــةٍ منهـــا قـــرابُ
وإيقـــاع الضفـــادع فيـــه عـــالٍ   وللـــدولابِ زخـــرٌ واصطخـــابُ
وتكسُـــوه الرِّيـــاحُ دروعَ حـــربٍ   ولا طعـــنٌ هنـــاك ولا ضـــرابُ
وترقُـــصُ فـــي جوانبـــهِ غصـــونٌ   كرقـــصِ الغيـــد مـــاد بهـــا الشـــرابُ
وتشـــدو بينهـــا الأطيـــارُ شـــدْواً   رخيمـــاً للقلـــوب بـــه اتجـــذابُ(١٥٠)

ويتخذُ أهل مِصرَ من الخليج مكاناً للسباحة والاستجمام، ومِن ذلك وصف الأسعد بن مماتي لبعض النساء وهُن يسبحنَ فيه، وقد راق ماؤه وصفا، يقول:

خليـــجٌ كالحســـامِ لـــه صقـــالٌ   ولكـــن فيـــه لـــلرائي مَسَـــرَّةْ
رأيـــتُ بـــه المـــلاح تُجيْـــدُ عومـــاً   كـــأنَّهُمْ نجومـــاً فـــي المجـــرةْ(١٥١)

---

(١٤٦) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ٤٦.

(١٤٧) ابن الخياط، ديوانه، ص ٢٠٨.

(١٤٨) الشريف العقيلي، ديوانه، ج١، ص ٤٦، ص٥٨.

(١٤٩) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ٢٢٩.

(١٥٠) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٧، مدية، السكين، القراب: بيت السّكين.

(١٥١) العماد الاصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج١، ١٠١.

ومن العادات الاجتماعية التي درج أهلُ مِصرَ عليها، عندما يزيدُ ماء الخليج، يجتمعُ أهل مِصرَ مع السلطان لِكسْر الخليج، في يوم بهيج، يكثرُ فيه الضجيج والدُعاء إلى الله بالشُكر على نعمته يقول ثقة الملك الحسن بن علي بن أبي جرادة:

حبذا كَسْرُ الخليج ... وهو ذو مرآى بهيج
حبذا ما نحنُ فيه ... من دعاء وضجيج
والشواني فيه تجري ... كالصَّياصي في النَّسيج
نحن في جوّ سماءٍ ... ما لديها من خروج
كبدور في بروج ... أو سطور في دُروج
أو زهور في مروج ... أو ملوك في سروج[١٥٢]

ومن الأوصاف كذلك للخليج وصف ظافر الحداد[١٥٣] وابن الساعاتي[١٥٤] اللذين ساروا على النهج نفسه.

وهكذا نرى أنّ الشعراء قد ركزوا في وصفهم للبرك والخلجان على جمال منظرها، وتطرقوا لها من خلال وصف بعض العادات الاجتماعية التي تقام بجانبها، ومن خلال أخذها أمكنة للتنزه.

(١٥٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٧. الشواني: المراكب المعدّة للجهاد في البحر. الصّياصي: شوكة الحائك التي يسوى بها السُّدى واللُّحمه، الصُّنّارة التي يغزلُ بها وينسجُ.

(١٥٣) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٣، ٩٤، ٢٤٦.

(١٥٤)ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص ١٥٥.

الفصل الرابع

الطبيعة وموضوعات الشعر

الفصل الرابع

الطبيعة وموضوعات الشعر

لم يكن الشعر العربي في مجمله إلا صوراً متناثرة مستوحاة من الطبيعة الواسعة، فأتى الشاعر العربي بلوحات متناغمة مع كلّ مفرداتها، يستعير ألوانها، ويسترق نسيمها، ويستضيء بنورها، يمدح ببحرها، ويرثي بكسوف قمرها، ويزين جيد نسائه بنجومها، ويهجو بصفات حيوانها، ويتلذذُ بشرب راحه بين أفنانها.

ولا يلام الشاعر في استعارة صوره من الطبيعة المحيطة به ولا ينقص هذا من شعره، لأنَّهُ ابن الطبيعة التي يعيش في كنفها، اقتبس صورها وصفاتها، وصبغ شعره بها حتى يُقَرِّب إلى الناس ما يريد أن يقول في لوحات تنتقل عبر الواقع إلى الخيال.

ويبين هذا الفصل الأثر الذي أحدثتهُ الطبيعةُ في بعض موضوعات الشعر، والجمال الذي أضافته إليها، فاعتنى الفصل بالطبيعة من خلال الغزل، والمديح، والرثاء، والهجاء، والخمرة، والمعركة.

أولاً: الطبيعة والغزل:

توزعت أوصاف المرأة في الشعر الغزلي بين جمال الطبيعة الصامتة، والطبيعة المتحركة" فراقهم من البقرة الوحشية سعة عينها، وشدة سوادها، ونصاعة بياضها، فشبهوا عيني المحبوبة بهما، وأعجبهم من القطاة خطوها، فشبهوا مشي المرأة بمشي القطاة"[١] وحنينها بحنين الحمام، ونظراتها الناعسة المترددة بنظرات الجؤذر إلى أمه، واستمدوا من الطبيعة الصامتة بعض صورهم "فشبهوا رشاقة المرأة وانعطافها وتثنيها وليونتها بغصن البان، وشبهوا ساقيها بالبرديّ بياضاً واستدارة ونعومة، وشبهوا ثدييها بالرُّمان حجماً واستدارة وشكلاً، وأسنانها بالإقحوان بياضاً واستواءً واتساقاً"[٢]، واستمدوا منها أيضاً صوراً كثيرة، فمن الصّباح طلعته، ومن اللّيل سواده، ومن البرد حسنه، ومن البحر صفاءه، وما زجوا بينها وبين أعضاء المرأة.

---

[١] (أحمد الحوفي): الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، ١٩٦١، ٣٦٥.

[٢] المصدر السابق: ص ٣٦٨.

وحُسن المرأة كما قال الجاحظ أجمل من هذه الأوصاف كلها "ولكنّهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسنَ ما يجدون، فيقول بعضهم كأنّها القمر، وكأنها الشمس، والشمس وإن كانت بهيةً، فإنما هي شيء واحد، وفي وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروبٌ من الحسنِ الغريب، والتركيب العجيب، ومن يشكُ أن عين المرأة الحسناء أحسنُ من عين البقرة، وأنّ جيدها أحسن من جيد الظبية"(٣).

ولم يكن هذا العصر بالمنقطع عن العصور التي سبقته، أو الأقل حظاً في وصفهم للمرأة والتغزل بها، بل لم "يقل في جملته عن أسلوب الغزل في أرقى عصوره العربية شأواً"(٤) فجاءت أوصافهم رقيقة، مستمدةً من الطبيعة المحيطة بهم، وصورهم لها جاءت تبحث عن الجمال في الطبيعة لتلقيه بحلله على المرأة.

فقلبُ المرأة الذي لا يستجيب للقاء الحبيب وندائه، ويفضل التمنُّعَ والجفاء، وصفوه بالحجارة أو اشد قسوة منها، يقول القاضي الفاضل:

وهي القلوبُ إن استكشفْتَ باطنها　　　فكالحجارةِ او أقسى، وكالقلُبِ(٥)

ويصف ابن الساعتي جسم محبوبته التي فُتِنَ به بالماء في الليونة والصفاء، وفي التمنع ورفض اللقاء بالحجارة يقول:

كالماء جسماً غير أنَّ فؤاده　　　كالصخْر لا يحنو على مشغوفه(٦)

ويعكس القاضي الفاضل وصف القلب، فيصف قلبه بالحجر عند لقاء حبيبته بعد طول جفاء منها، ولكنّ دمع عينيه له بالمرصاد في فضحه، يقول:

وقلبي من صخرٍ ولكن عدمتُهُ　　　فعيني كالخنساء تبكي على صخْر(٧)

---

(٣) الجاحظ (عمر بن بحرت ٢٥٥هـ) مجموعة رسائل الجاحظ، رسالة العشق تحقيق محمد ساسي، مطبعة التقدم، مصر، ١٣٢٥هـ، ص ١١٨.

(٤) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص ٩١.

(٥) القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص ٣٤٩، ج١، ص ٣٤، القلُب: البئر القديمة.

(٦) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص ١٠٢، الشغف: غلاف القلب، المولع بحبيبه.

(٧) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص ٣٤. الخنساء: تماضر بنت عمرو، شاعرة مخضرمة، وصخرٌ أخوها قتل في سهم أصابه في إحدى غزواته، فرثته بكير من شعرها.

ومع ذلك فهذا الوصف لقلب المرأة فيه من الغلظة والجفوة ما تمجُّهُ النفس وتأباه، فبالإضافة إلى الحجارة في البيت الأول، نعتهم بما نعتَ الله به قلوب بني اسرائيل كما استوحاه من الآية الكريمة {ثم قَسَتْ قلوبكُمْ من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّرُ منه الأنهار وإنَّ منها لما يشَّقَّقُ فيخرج منه الأنهار وإنّ منها لما يشَّقَّقُ فيخرجُ منه الماءُ وإنّ منها لما يهبطُ من خشية الله وما الله بغافلٍ عمَّا تعلمون}[٨].

أما الخدود، فقد استعاد لها الشعراء صفات الورود الحمراء، ومن ذلك وصف القاضي الفاضل لصدر حبيبته الناهد بالرمان وخدودها بزهرة يقول:

بينما جلنارَ خدِّك يبدو إذا رأينا في صدرك الرُّمانا[٩]

ويتخذُ الشريف العقيلي من حمرة شقائق النعمان وصفاً لحمرة الخدود، يقول:

ومن له خدٌّ غدا حائزاً شائقَ النُّعمان من وَردِهِ[١٠]

ويبدو احمرارُ خدود محبوبة عرقلة الكلبي في عينيه بروضة ورود يقول:

كأنَّ احمرار الخدِّ ممن أُحِبُّهُ حديقةُ وردٍ والعذارُ سياجُها[١١]

وتمتزج الصورة عند فتيان فتبدو مختلطة بين الورود التي تعلو الخدود وبين الآس من حوله، يقول:

والخدُّ وردٌ مُضَعَّفٌ ولكنَّهُ بالآس من بنتِ العذار مُسيَّجُ[١٢]

ويشبهها كذلك في بروزها واستدارتها واحمرارها بالتفاح الأحمر، يقول:

فَللتُّفاحِ من تلكَ الخدود سوافراً خَجَلُ[١٣].

واستعاروا لون الشفق الأحمر لبيان صورتها، يقول أُسامة بن منقذ:

---

[٨] سورة البقرة: آية ٤٧.

[٩] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص ١٠٩. الجلنار: زهر الرُّمان.

[١٠] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ١٠٨. شقائق النعمان: نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء.

[١١] عرقلة الكلبي: ديوانه، ص ١٦.

[١٢] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ٧٦.

[١٣] المصدر السابق: ص ٣٨٢. وانظر ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٨٨.

يـــا لأئمـــيَّ انظـــر إلـــى قمـــرٍ   فـــي الأرضِ فـــي وجناتـــهِ شـــفقُ[١٤]

ويتخذُ التشبيه نفسه للتدليل على الوجنات الحييَّةِ التي برز للعيان احمرارها، يقول:

قمـــرٌ إذا عاتبتُـــهُ شـــغفاً بـــه   غـرسَ الحيـاءُ بوجنتيـــهِ شـــفقُ[١٥]

ويقول كذلك:

يـــا لائمـــيَّ، انظـــر إلـــى قمـــرٍ   نـــارُ الحيـاءِ يشُـبُّهاء مـــاء الصِّبَـــا[١٦]

ويقول مشبِّهاً الخدود التي يلفُّها الحياء بالنار التي تشبُّ في روضة، يقول:

وتوقـدَتْ فـي الـروضِ مـــن وجناتـــهِ   نـارُ الحيـاءِ يَشُـبها مـــاء الصِّبَـــا[١٧]

والوجنات الناعمة الطرية الحمراء، يشبهها بالنار والماء، يقول:

وقـــال للمـــاء فـــق بوجنتـــهِ   فمـــازَجَ النَّـــارَ وهـــي تضطَـــرمُ[١٨]

أما العيون، فلعلها سمة جمالية حازت على اهتمام الشعراء على مرِّ العصور، فاتخذوا من النرجسَ وصفاً لجمال عيون المحبوبة وسعتها، ومن ذلك وصف فتيان الشاغوري لعيون محبوبته:

ما مَسَّ نرجسُ مقلتيه وَوَردُ خدَّيه ذبول[١٩].

أما العقيلي، فيمازج بين جمال خدود محبوبته وعيونها، فيتَّخِذُ من النرجسَ وصفاً لعيونها، ومن التفاح وصفاً لخدودها، مبرزاً بذلك القيم الجمالية فيها يقول:

يـــا هـــلالاً خـــدّاه تفاحتـــان   وغـــزالاً عينـــاه نرجســـتان[٢٠]

---

[١٤] أسامة بن منقذ: ديوانه، ص ٣٢.

[١٥] المصدر السابق: ديوانه، ص ٣٢.

[١٦] المصدر السابق: ص ٣٢.

[١٧] المنصدر السابق: ص ٣٢.

[١٨] المصدر السابق: ص ٩٣.

[١٩] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ٣٨٣، ص ٧٦. النرجس: نبت من الرّياحين، وورقة شبيه بالكراث، وله زهر مستدير تُشبّهُ به الأعين.

[٢٠] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص ٢٨٨.

واستعار الشعراء عيون الظباء، والرِّيم، ووحش وجرة، لتشبيه عيون النساء بها، ومن ذلك وصف ابن الساعاتي مشبهاً عيون محبوبته بعيون الظبيِّ، يقول:

هو ثاني طلْعةً وبعاداً وأخو الظبيِّ مقلةً ونفاراً(٢١)

ومحبوبة ابن أبي حصينة وهي تسترق النظرات إليه، وتديمها في رقة وسكون، يشبه عيونها بعيون الريم، يقول:

وسلمى كشاة الريم ترنو بطرفها إليك كما ترْنُو وتعطُو كما تعطُو(٢٢)

ويشبهها التلعفري بعيون المهاة في نظراتها، يقول:

يغازلُ عن ريم وينظرُ عن مها ويسطرُ عن بدر ويبسمُ عن عقد(٢٣)

أما فتيان الشاغوري، فيصف عيون محبوبته الناعسة بالنظرات الناعسة لوحش وجرة ويصف خدها بالأملس المستوى الطويل، يقول:

تَصُدُ وتبدي عن أسيلٍ وتتقي بناظرَتيْ وسنانَ من وحش وجرة(٢٤)

واتصل بالعيون دموعها، فقد شبَّهها الشعراء بقطرات الندى، ومن ذلك وصف ابن قلاقس لدموع محبوبته بالطل المتساقط من العيون الواسعة على الخدود المحمرة، يقول:

فكأنّ الدُّموع طلٌ بدا من نرجس العين تحته جلنار(٢٥)

ويقول العماد في المعنى نفسه:

كأنّما وجنتُهُ وردٌ بطلٌ رشّشا(٢٦)

---

(٢١) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص ٦٨. نَفَرَ الظبي: شرد. الظبي: الغزال للذكر والأنثى.

(٢٢) ابن ابي خصينة: ديوانه، ج٢، ص ١٠، ترنو: إدامه النظر بسكون الطرف.

(٢٣) التلعفري: ديوانه، ص ١٢. الرِّيم: الظبي خالص البياض. المها: البقرة الوحشيةّ.

(٢٤) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ٦١. أسيل: المستوى الأملس. وسنان: كثيرة النعاس. وجرة: اسم موضع.

(٢٥) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ٣١٢. الطل: الندى.

(٢٦) العماد الاصفهاني: ديوانه، ص ٢٤٤.

ومن مفاتن المرأة التي وصفها الشعراء، وما زجوا بينها وبين جمال الطبيعة، الثغر، والأسنان، والرِّضاب، فشبهوها بالنجوم، وبالورود، وبالبرق، وبالعقد، وبالدُّرِّ، وشبهوا رضابها بالسلسبيل العذب، وبالخمرة، وبالرحيق الخسرواني، وبالثلج، وبالعسل، إما ريح الفم، فريح البنفسجِ. فابن عنين في صورته التي نقلها لثغر المرأة المبتسمِ، وأسنانها تتلألأ فيه، يضفي عليه صورة الثريا ونجومها، يقول:

ما رأينا قبل ابتسامك بدرَ التمِّ يفترُّ عن نجوم الثريا(٢٧).

ويصف بياض أسنانها الناصع، ببياض ورود الأقاح، ورضابها بالخمرة الصافية التي تسقيها، يقول:

يفـتَرُّ عـن مثـل الأقـاحِ كأنَّمـا عَلّـتْ منابتَـهُ رحيقـاً سلسـلا(٢٨)

ويصف ظافر الحداد لمعان أسنان محبوبته ونصاعتها عندما تقابله بابتسامتها بالبرق الذي يزيل عتمة الليل، أو بضوء السِّراج في ليلة مظلمة، يقول:

تجلـو الظـلام ببـارق مـن ثغرهـا فكأنَّمـا فَـرتِ الدجـى بسـراج(٢٩)

ووصفها التلعفري عند وصف العيون بالعِقْد جمالاً واصطفافاً(٣٠) وينكرُ ابن منقذ على الذين شبهوا الأسنان بالأقاحي في بياضها وبريقها وتلألئها لأن هذه لا تتمتع ببريق الدُّرِّ الذي يراه في أسنان محبوبته يقول:

شـبهوا دُرَّ ثغـره بالأقـاحي وليـس للأقحـوان ذاك البـريق(٣١)

أما رضاب المحبوبة، فشبهوه بعدة أوصاف من الطبيعة، تدلُّ في مُجملها على الحلاوة، والطَّعم اللَّذيذ، والعذوبة، ومن ذلك وصف التلعفري لريق محبوبته بالماء العذب الفرات، يقول:

---

(٢٧) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٤٠٣.

(٢٨) ابن عنين: ديوانه، ص٩. وديوان ابن الدهان: ص٦٠. وديوان ظافر الحداد: ص٦. الرَّحيق السَّلْسَلا: الخمرة العذبة الصافية.

(٢٩) ظافر الحداد: ديوانه، ص٧٧، تجلو: تزيل.

(٣٠) التلعفري: ديوانه، ص١٢.

(٣١) أسامة المنقذ: ديوانه، ص٣٣.

مَنَعَــــتْ مـــن رضابـــه السَّلْسَـــبيلا   مقلــــةٌ لــم تـــدع إليـــه ســـبيلا[٣٢]

ويستطعم ظافر الحداد رضاب محبوبته، فيجده خمرة باردة، يقول:

أهْـــدَتْ لنــا مـــن خدِّهــا ورضابهـــا   ورداً تحيّينـــــا بـــــه شـــــمولا[٣٣]

ويزاوج العقيلي في إبداء جمال محبوبته بين رضابها الذي يشبه الخمرة، ومبسمها الذي يفتر عن بياض الأُقحوان، يقول:

رضـــــابٌ كـــــالرَّحيق الخســـــرواني   وَمَبْسَــــمٌ كنـــــور الأُقحـــــوان[٣٤]

ويشبهه أسامة ابن منقذ بالخمرة طعماً، وبالثلج برودة، يقول:

رحيـــقَ ريـــق عـــذْبٍ، ففـــي كبـــدي   منـــه ســـعيرٌ، وفـــي فمـــي ثلـــج[٣٥]

وحلاوة طعم رضاب محبوبة القاضي الفاضل يشبه العَسَلَ، يقول:

شَـــهِدْتُ أنَّ مثـــالَ الشَّـــهْدِ مـــن فَمِهـــا   وإنّ فـــي ســـرِّه ضرباً مـــن الضَـــرَبِ[٣٦]

ويشبهه بالمعنى نفسه ابن أبي حصينة:

مـــع كـــلِّ غانيـــةٍ كـــأنّ رِضابهـــا   عسَـلٌ مـــن الأُشَـــرِ العـــذاب مُشَـــارُ[٣٧]

ويقول فتيان:

أما شفاهُهُنَّ اللُّعْسُ منها يجتنى العَسَلُ[٣٨]

---

[٣٢] التلعفري: ديوانه، ص٥١، الرّضاب: الرّيق المرشوف، العَسَل. السلسبيلا: الماء العذب.

[٣٣] ظافر الحداد: ديوانه، ص٩٦، الشمولا: الخمرة الباردة.

[٣٤] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٨٩.

[٣٥] أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٩.

[٣٦] القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص٣٤٣، الضَرَب: العسل.

[٣٧] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢١٨، الأشر: الأسنان المحدودة الأطراف.

[٣٨] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٨٢، الشفاه اللُّعس: التي فيها سواد.

أما ريح الفَمِ، فإنَّهُ يفوح بشذى البنفسج العَطر، يقول فتيان:

يفـــتَرُّ عـــن نـــور الأقـــاحي ثغـــرُهُ وإذا تنفَّــسَ فـــاحَ منـــه بنفسَـــجُ[٣٩]

أما قوام المرأة وقدها، فهام فيه الشُّعراء، وفضلوا منه الطويل اللَّين، ووظفوا الطبيعة في بيان صورته، فشبهوه بالأغصان، والبان، والخيزران، وهذه جميعاً تدلُّ على الطول، واللُّيونة، والدِّقةِ، فالعماد الأصفهاني يشبه طول قدها وتثنيها في مشيتها وليونتها بالبانة في تثنيها وحركتها، يقول:

وجنتِهـــا الـــوردُ فـــي احمرارهـــا وَقَدُّهـــا البانَـــةُ فـــي اهتزازهـــا[٤٠]

ويصف عرقلة الكلبي قدَّ محبوبته بأغصان البانة إذا ما حركتها النَّسِيم، ليزيد من حركة محبوبته وتثنيها، يقول:

أغصـــانُ بـــانٍ إذا هـــبَّ النَّسِـيم بهـــا ترنَّحَـــتْ بيـــن كثبـــان وأقمـــارِ[٤١]

ويصفها عرقلة كذلك بالخيزرانة ليونةً وطولاً يقول:

ومهفهفـــة كالخيزرانـــة ليِّنَـــةٌ يزيـد اعوجـاجي حيـن زادَتْ تقوُّمـا[٤٢]

أما وجه المرأة، فاتَّسَمَ غالباً في مخيلة الشعراء بالنور والوضاءة والصَّفاء فأصبغوا عليه الأوصاف الطبيعية التي تدلُّ على هذه الصِّفات، فشبهوه بالصَّباح، والبَدْر، والشَّمْس، والهلال، وقد قَرَنَ الشعراء هذه الأوصاف باللَّيل حتى يظهروا مدى جمال وجه محبوباتهم، ومن ذلك وصف القاضي الفاضل لمحبوبته التي أطلت عليه بوجهها المشرق، فبدا كالصباح عندما تشقُّ أنواره عتمة اللَّيل، يقول:

زار الصَّبـاحُ فكيـف حـالك يـا دجـى قـم فاســتَذْمِّ بفذعِــهِ أو فالنَّجـــا[٤٣]

---

[٣٩] المصدر السابق: ص٧٦. البنفسج: نبات زهره سمنجوني اللون طيب الرائحة.

[٤٠] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٢٥. وانظر ديوان العقيلي، ج٢، ص٢٨١. البان: شجر معتدل القوام لين ورقه كورق الصفصاف يؤخذ من حبه دهن طيب واحدته البانة، ويشبه به القَدُّ لطوله.

[٤١] عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٤٠، ترنحت: تثنت وتمايلت.

[٤٢] المصدر السابق: ص٢٢، وانظر ديوان ابن عنين: ص٣٥، وفتيان: ص٧٦.

[٤٣] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص١٣٥، ص٧٥. استذمَّ: انكفا واستحى.

ويتخذ ابن الساعاتي من اللّيل والصَّباح صوراً لبيان وجه المحبوبة وشعرها، فشبه وجه محبوبته بالصَّباح وشعرها باللّيل، يقول:

انظر إلى اللَّيل والصَّباح معاً　　بين فروج الفروع الثُّقَبِ[٤٤]

ويبين ابن رزيك بياض وجه محبوبته، الذي بدا كالصَّباح من عتمة اللَّيل يقول:

من البيض مثل الصُّبح ما للظلام في　　محاسِنها، لولا ذوائبها، قَسطُ[٤٥]

والرّديف الآخر للصباح عند وصف وجه المحبوبة هو البَدْرُ، فقد اتخذه الشعراء أحد المفردات الطبيعية التي يظهرون من خلالها محاسن الوجه وجماله فابن الساعاتي عندما وصف وجه محبوبته التي جدَّتْ في المسير إليه في اللَّيل شبهها بالبدر الساري جمالاً وبهاءً وطلعة، متخذاً من ظلمة الليل ساتراً له، يقول:

أشبه البَدْرَ في السُّرى فلهذا　　تَجِسدُ اللَّيلَ حين زار إزاراً[٤٦]

ويقول سعد بن خليل الجبرتي واصفاً وجهه وقدَّهُ وشعره:

بدا بدرُ تِمٍّ فوقَ غُصْنٍ مُهَفْهَفٍ　　يَحِفُّ به ليلٌ من الشعر فاحِمُ[٤٧]

أما محبوبة التلعفري الذي جمع فيها المحاسنَ التي يبحث عنها الشعراء، فالوجه قمر، والقَدُّ بان، والثغرُ وضاءٌ، فبدَتْ لوحه تعجُّ بالحركة واللون والخوف والاضطراب، يقول:

قَمَرٌ ضَلَلْتُ بخاله وبشَعره　　لكن هُدِيتَ بثغره وبجبينه
ترتاع أقمار الدُّجا من نوره　　وتغار أغصان النقا من لينه[٤٨]

---

[٤٤] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٢٥٠، فروج: الفتوق، الانكشاف.

[٤٥] ابن رزيك: ديوانه، ص٨٤، القَسط: التفريق.

[٤٦] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٦٧، السُّرى: المشيُ باللّيل.

[٤٧] ابن الشعار الموصلي: قلائد الجمان، ص٧، وانظر ديوان ابن منقذ: ص٣١، ص٣٢.

[٤٨] التلعفري: ديوانه، ص٦١، ترتاع: تخاف، النقا: القطعة من الرّمل المحدودبة.

أما الشَّمْسُ، فوصف الشعراء في الغالب شمس الضُّحى عند وصفهم لمحبوباتهم دون غيرها من الأوقات، لأنَّ هذا الوقت تكونُ فيه الشَّمس محببة إلى النفس، ويكون شعاعها لطيفاً مقبولاً، يقول أسامة واصفاً وجه محبوبته بهذه الشمس:

شمسٌ وليلٌ، فاعجَبْ لشمسِ ضحىً تُشْرِقُ، واللَّيلُ راكدٌ يدجو[٤٩]

الأوصاف السابقة كانت للوجه السافر الذي أماط اللثام، أما الوجه الذي اتخذ من النقاب مفردة جمالية، فقد كان له نصيبٌ هو الآخر من وصف الشعراء، فقد مازج الشعراء بين صورة الوجه السافر والمنتقب، وأبدعوا في لوحاتهم لإظهار السمات الجمالية لكلٍّ منهما، واتخذوا من صورة البدر والهلال دلالات على كلٍّ منهما يقول:

طَلَعَ الهلالُ وقد بدا متلثِّما حتى إذا حَسَرَ اللِّثامَ تَنَصَّفا[٥٠]

أما ابن قلاقس: فيصور لوحةً، يصفُ من خلالها جمال الوَجْهِ المتنقب، الذي يصون بهذا النقاب جماله عن الناس، متخذاً صورة الورود قبل تفتحها صورة يماثل بها صورته يقول:

لو حلَّ عن عقدَيه عِقْدُ لثامه نَقَلَ الهلالُ إلى صفات تمامه
لكنَّهُ صانَ الجمالَ لأنَّهُ وردٌ وَحُسْنُ الورد في أكمامه
أرخى ذوائبَهُ نقابَهُ كالبَدْرِ بين ظلامه وغمامِهِ[٥١]

ويعطي ابن أبي حصينة صورة لهيئتين يكون فيها وجه المرأة، مُشَبِّهاً أحدهما بالهلال إذا ما كانت ساتره باللثام وجهها، وبالشمس إذا ما أماطت عنه لثامها يقول:

بيضٌ يَكُنَّ إذا انتقَبْنَ أهِلَّةً وإذا سَفرنَ النُّقْبَ كُنَّ شموساً[٥٢]

---

[٤٩] أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٩، ص٢٢. وانظر ديوان فتيان الشاغوري: ص٦، وابن سنان: ص٨٣ والتلعفري: ص٥. وبدائع البدائه: ص٢٨٠. وابن الساعاتي: ج١، ص٩٩، والعماد الأصفهاني: ص٢٢٥، وظافر الحداد: ص٣٩.

[٥٠] ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص٩١.

[٥١] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٣٣.

[٥٢] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٣.

أما الأرداف، فقد سار الشعراء على الصورة التراثية التي تطرق لها الشعراء في العصور السابقة، فلم يخرجو عن تشبيهها بالرّمال للتدليل على الليونة، ومن ذلك صورة فتيان الشاغوري لها بالرّمل المعوج يقول:

متـــــأوّدٌ كالخيزرانــــــة قــــــدُّهُ حِقـفُ النَّقـا مـن تحتـهِ يـترجرجُ[٥٣]

ويشبهها ابن الساعاتي بقطعة الرّمل المحدودبة، يقول:

يُرِيكَ المهـا بـاللَّحظِ والشَّـمْسِ بالسَّـنا ودِعْص النَّقا بـالرِّدْف والغُصْنِ بـالقَدِّ[٥٤]

ويشبه ظافر الحداد قدودها بالأغصان، أما تثني الروادف وتمايلها فيشبهها بتجمع الرّمال وانتثار بعضه فوق بعض، يقول:

قـــدودٌ حكَتْهُــــنَّ الغصـــون تهُزُّهــــا روادفُ تحكِيهـا مـن الرَّمْـل كثبـانُ[٥٥]

أما النهود، فوصف الشعراء استدارتها وتكويرها، بالرُّمان، والثمار، ومن ذلك وصف فتيان الشاغوري لها في تكورها واستدارتها بالرُّمان، يقول:

فـــالفرعُ منــــه عنــــاقيدٌ ووَجْنَتُــــهُ تفــاحُ لبنــــان، والنَّهــدانِ رمَّــانُ[٥٦]

وقول القاضي الفاضل في المعنى نفسه، يقول:

بينَمَــــا جلنـــــار خَـــــدِّكِ يبـــــدو إذ رأينــا فـــي صَــدْرِك الرُّمانــا[٥٧]

ويشبهها ابن الساعاتي بحبات ثمار البان، يقول:

وقـــد قيـــل إنَّ البـــانَ ليـــس مُثمِــرٌ وهــا هــي بــانٌ والثمــارُ نهودهــا[٥٨]

---

[٥٣] فتيان الشاغوري: ديوانه، ٧٦، حِقف: ما اعوجَّ من الرّمال واستطال، النقا: القطعة من الرّمل المحدودبة.

[٥٤] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٩٩، الدّعص: كثيب الرّمل المجتمع.

[٥٥] ظافر الحداد: ديوانه، ص٣٢٨، الكثبان: تجمع الرّمال وانتثار بعضه فوق بعض.

[٥٦] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٤٧٥.

[٥٧] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص١٠٩.

[٥٨] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٧٣.

ومن جمال وَجه المرأة، التي وَصَفَهُ الشعراء خالها، فقد نظروا إليه على أنَّهُ ميْزة جمالية هاموا فيها، وأكثروا من وَصْفِهِ، يقول ظافر الحداد واصفاً الخال على الخدِّ، بالسّواد الذي يلمع في زهرة الشقيق، أو لون وجه الزنجي، يقول:

انظر إلى الخال على خَدِّها ... فإنَّ فيه كلَّ معنىً دقيق
كوجه زنجيٍّ بدا من خلا ... ل النار يدعو الحريق الحريق
أو السوادِ المستحبِّ الذي ... يَلْمَعُ في حمرة زهرة الشقيق(٥٩)

ويشبه القاضي الفاضل بسواد اللّيل يقول:

سَرَتْ، فكأنَّ اللَّيلَ قبَّلَ خدَّها ... فأبقى به قطعاً، اسْبَلَ عقربا
فما استغربَتْ في موطن الحسبِ غربتي ... فهذا الدُّجى في صُبْحِها قد تغربا(٦٠)

أما زينة المرأة، فقد كان للطبيعة جانبُ في بيان حُسْنِها وجمالها، فشبه الشعراء القرط بالثريا، وحبات السِّمط بأنجم الجوزاء، والسِّوار بالهلال، وحليِّ الصدر بالثمار، ومن ذلك وصف ابن رزيك للقرط، والعقد، يقول:

هي البَدْرُ، ولكنَّ الثريّا لها قرطُ ... ومن أنجم الجوزاء في نحرها سِمْطُ(٦١)

أما ابن أبي حصينة، فصور عقد جيدها بالنجوم، وسوار معصمها في شكله بالهلال، يقول:

بيضاء وصيغ من النجوم لنحرها ... عِقْدٌ ومن قَصْفِ الهلال سوار(٦٢)

ويصف ابن قلاقس حليِّها بالثمار، أما عطرها الفواح، فقد أخذ من الزهور ما تمتاز به من حُسْن الرائحة، يقول:

---

(٥٩) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٢٣.

(٦٠) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص١٣. وانظر ديوان الساعاتي، ج١، ص١١. وعرقلة الكلبي: ص٨٨، ص٩٢، ص١٠٠.

(٦١) ابن رزيك: ديوانه، ٨٤، وانظر ديوان أسامة بن منقذ: ص١٧٥، السِّمط: الخيط مادام الخرز أو اللؤلؤ منتظماً فيه. قرط: ما يعلق بشحمة الأذن من دُرٍّ ونحوها.

(٦٢) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢١٨.

عَبثَتْ بالغصون فانعطفَتْ غيداء لاحَتْ من الثمار حُلِيّاً
واستطالت على الأزاهر حتى سلبتها نسيمها العنبريا(٦٣)

ومن أدوات الزينة أيضاً، اتخاذ شكل الحيَّة والعقرب إحدى أدوات الزِّينة التي تراعيها النساء في هذا العصر، عن طريق نقشِها على الخدود أو اتخاذ ذيل العقرب شكلاً محبَّباً لتصفيف شعورهن، يقول علي بن ظافر:

نَقَشَتْ حيةُ على ورد خدٍّ مُزَخْرَفِ
فبدَتْ آية الكليم على وجه يوسف(٦٤)

ويقول في ذلك ابن الساعاتي:

جاء الكليمُ بآيةٍ من حيَّةٍ وأراك جئْتَ بحيَّةٍ وبعقرب(٦٥)

وجاء مزج الشعراء لأعضاء المرأة وزينتها بالطبيعة، حتى يظهروا مفاتنها وحسنها من خلال الصّور المختلفة.

ثانيا: الطبيعة والمديح:

ازدهر شعر المديح في هذا العصر، وكثر كثرة مفرطة، لحثِّ القادة والأمراء على المضيِّ قدماً في تحرير البلاد من الصليبين، وتوحيدها، ومدح القادة والأمراء على الفتوحات التي مَنَّ الله بها عليهم.

والجانب الآخر من هذا اللّون من الشّعر جاء منوطاً بالتكسُّب، وطلب المال من ذوي الجاه والسلطان.

ولقد استخدم الشعراء في قصائدهم ظواهر طبيعية متعددة، للتأثير على السامع والقارئ للقصيدة، وإبراز الصورة المثلى للمدوح التي تمطئنُّ بها نفسه، فالشاعر يبحثُ في نفس الممدوح عن

---

(٦٣) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٣٣١، وانظر ديوان الشريف العقيلي: ج٢، ص٢٨٨، وفتيان: ص٢٤٦.

(٦٤) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص٢٧٩.

(٦٥) المصدر السابق: ص٢٧٩.

مفردات يُحِبُ أن يكون مثلها أو قريباً منها، "يلتقطُ بحسه وحدسه ما استقرَّ في أعماق الجماعة التي يعيشُ معها من مشاعر خفية غامضةٍ، فيبرزُها أمامهم مجسمة في صورة تروعهم وتشعرَهم أنَّه ينْطقُ عما في قلوبهم"(٦٦).

فالقصيدة التي تحتفظ في أبياتها بأكبر قدرٍ من الصّور الطبيعية هي الأكْثَرُ دوراناً على ألسنة الناس، فمنذ القصيدة المدحية الأولى ولوحات الطللِ تزيّنُ مقدمات القصائد، فهذه صور طبيعية أحَبَّها الشاعر في زمانه، يأتي فيها بالدِّمنِ الدارسة، والأرض المخضرة المعشبة، والرِّياح شمألها وجنوبها وحيواناتها من آرام ومهـا، ثم يجود الغيثُ عليها بقطره(٦٧). وجاءت أوصاف الممدوح الشجاع، الكريم، العادل، ذي المكانة العالية، العفيف، الثابت الحليم، ثاقب الرأي، ذي النسب العالي مُغلَّفةً بغلافٍ من الطبيعة المحيطة.

وأكثر الأوصاف دوراناً على ألسنة الشعراء في هذا العَصْر، صورة الإنسان الكريم، فهو غيثٌ مُنْهَمرٌ، ونهرٍ جارٍ، وسحابٌ، وأياديه البَحْرُ في العطاء، وكلُّ المقارنات التي عقدها الشعراء بين ممدوحيهم ومفردات الطبيعة، نجد أن الممدوح يتفوقُ عليها في غالب الأحيان أما عطاياه، فخيلٌ مسرجة، ونياق نجيبات عمَّتْ على الورى كالصَّباح، يقول ابن أبي حصينة، واصفاً الكرم العظيم لممدوحه، متخذاً من الصَّباح مادة للتشبيه:

عَمَّتْ مواهبُهُ الدُّنيا وساكنِها   فلا خلا بشرٌ منها ولا أُفقُ
كالصّبحِ فاضَ فغشّيَ كلَّ ناحيةٍ   فليسَ يَعْرِفُ فيها نَفْسَهُ الغسقُ(٦٨)

ويصف كذلك كرم ممدوحه بالشجر المثمر، يقول:

رأو شجر المكارمِ مثمراتٍ   وأغصان النَّدى خُضَر المجاني(٦٩)

---

(٦٦) عبدالعزيز الأهواني: ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢، ص٦.

(٦٧) ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم ت ٢٧٦هـ) الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٨٢، ج٢، ٧٤.

(٦٨) ابن أبي حصينة:ديوانه، ج٢، ص٣٣٤، الغَسَق: اللّيل.

(٦٩) المصدر السابق: ج٢، ص٢٦٤، المجاني: الكثير الكافي الواسع.

وأكثر الشعراء من وصف ممدوحيهم بالسَّحاب، والغيثِ، والغمام التي تجلب معها السُّيول،دلالة على كثرة العطاء، ومن ذلك الصُّورة التي رسم معالمها ابن الدهان لممدوحه بالسَّحاب دائم الغيث، الذي عمَّ على أهل الخير:

وياسحاباً على أهل التُّقى هَطِلاً ويا شهاباً لشيطان الخنا رصدا[٧٠]

ويعقد ابن قلاقس مقارنةً بين السَّحاب الذي يبعثُ الحياة في الجزيرة والممدوح الذي تبعثُ راحتُهُ بعطائها الحياة للناس، ليدلِلَ بهذه الصَّورة على عطاء الممدوح، يقول:

فسقى الجزيرة كُلُّ مُرتَكِمٍ لم يألُها نهلاً ولا علاً
مزنٌ إذا سُلَّتْ بوادقِهِ أردتْ بصدمِ حَصْبَهِا المحلا
من كلِّ مُثْقَلَةٍ تَحُطُّ على عَرَصَاتِها عن متنها الحِملا
طلبَتْ لراحةِ مالِكٍ شَبَهاً وتجاسَرَتْ فأجبتها مهلا[٧١]

ونرى أنّ ابن قلاقس قد وفِّقَ في اختيار المقدمة المناسبة التي يستطيع من خلالها أن ينتقلَ إلى مدح الممدوح بالكرم والعطاء الجزيل الذي فاق المزن.

ويشبه ابن الخياط أنامل ممدوحه بالغمائم التي تُخَلِّفُ في إثرها السُّيول الدوافق، للتدليل على عظم كَرَم الممدوح، يقول:

غمائِمُ عِزٍّ ليس تُدرى هِباتُها أهُنَّ سُيُوبٌ أم سيولٌ دوافق[٧٢]

وقد أكثر الشعرا ء من وصف ممدوحيهم بالسَّحاب، ومنهم ابن حيوس[٧٣]، وظافر الحداد[٧٤]، وابن عنين[٧٥].

---

[٧٠] ابن الدّهان: ديوانه، ص١٤١. رَصَدَ: قعد له على الطريق.

[٧١] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٦٨. مرتكم: السَّحاب بعضه فوق بعض. يألُ: قَطَرَ وأبطأ النّهل: الشربة الأولى، علاّ: الشربة الثانية، سقاه سقياً بعد سقي. الورق: مَطرات المطر.

[٧٢] ابن الخياط: ديوانه، ٣٠٧، ص١١٢. سيوبٌ: المطر الجاري، مجرى الماء.

[٧٣] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص١٩٧.

[٧٤] ظافر الحداد: ديوانه، ص١٩٠.

[٧٥] ابن عنين: ديوانه، ص٩٧.

ومن الظواهر الطبيعية التي شبهوا بها كرمَ الممدوح، البحر، لاتساعه من جهة، ولغزارة مياهه من جهة أخرى، ولعطائه الذي لاينضَبُ للإنسان، يقول ابن قلاقس عاقداً مقارنة بين البحر وممدوحه، مُفضّلاً في صورته ممدوحه صاحب العطاء الذي لايكدِّره شيئاً، يقول:

كالبحر لكنّه تصفو مواهبُهُ ... والبحرُ لابدَّ أنْ يبدو لنا كدره(٧٦)

ويقول في المعنى نفسه:

والبَحْرُ يَعْلَمُ فَضْلَ نائِلِهِ ... فتراه يَنْضُبُ بعدما يَمْلا(٧٧)

وفي صورةأخرى يبين القاضي الفاضل فضل ممدوحه على عطاء البحر، لأن عطاء البحر متنوع، أما كَرَمَ ممدوحه فثابت على الدُّرِّ الصافي يقول:

أيادٍ هي البحرُ التي لو وَصَفْتُها ... بأفعالِها يُمْنَاً، إذا أنفدَ البَحْرُ
في البحْرِ أصدافٌ وَدُرٌ مُجَزَّعٌ ... وَصَيدٌ، وهذا البَحْرُ أجْمَعُهُ دُرٌّ
وذاكَ لَهُ عَبْرٌ وَنَقْصٌ وغايةٌ ... وبحرُكَ في الإحسان ليس له عبر(٧٨)

وتأثر الشعراء في هذا المجال بقصص القرآن الكريم، فعطاء الممدوح الذي توزع على الناس، فاق ماء البحر، وفاق ماء طوفان نوح عليه السلام الذي غطى الأرض، وفي كلّ ذلك يدلل على عظيم كَرَم الممدوح، يقول ابن أبي حصينة:

لو جرى ما يُنِيلُهُ لاحتقرنا ... عَصْرَ نوحٍ والفيضَ من طوفاتِهِ(٧٩)

ويتأثر كذلك فتيان بقصة أصحاب الجنّة، وفي بيان صورة تارك عطاء الأيوبيين إلى غيرهم يقول:

---

(٧٦) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٧٩، ص١٥٩.

(٧٧) المصدر السابق: ج١، ص١٨٦.

(٧٨) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٢٣٨. مُجَزَّع: مقطّع. العبر: الكذب، الوزن.

(٧٩) ابن حصينة: ديوانه، ج٢، ص٧٦، ص٥١، ص٩١، وانظر ديوان ابن قلاقس: ج١، ص١٤١. وأسامة بن منقذ، ص١١١. طما: عمّ، احتقرنا: استصغرنا.

وراجٍ سوى أبناء أيوب في الورى كعشواء في جنح الظّلام لها خَبْطُ
كتارك كلتا جنّتيهِ ولم يكن له بعد إلا الإثْلُ والأُكْلُ الخمْطُ(٨٠)

وللنيل في وصف عطاء الممدوح نصيبٌ كبير، وخاصة عند شعراء الجانب المصري، الذين عرفوا النيل وفوائده الجمة التي لاتحصى، فالصورة التي استقوها منه ليست غريبة عليهم، ومن ذلك قولُ ظافر الحداد:

ورأى النِّيل الذي استعظَمهُ قطرَةً من نيلِكَ المنتَهَبْ(٨١)

أما عطاء الممدوح، فكان في الغالب ممّا أحبَّ الناس في طبيعتهم، فوهبَ الممدوح، الخيل، والإبل، وهذا غاية الكرم في عرف الناس، يقول ابن الخياط:

الواهِبُ الخيلَ إما جئْتَ زائرَهُ أقلَّ سَرْجِكَ منها كُلُّ طيّارِ(٨٢)

أما ممدوح ظافر الحداد، فإنّهُ يجمع أركانَ العطاء من ذهبٍ، ومُدُنٍ، وإبل وخيل،يقول:

أعطى المدائن، وألجَمَ الهجائنَ والـ جُرْدَ والصَّواهِلَ لما استنفدَ الذّهبا(٨٣)

ويقول ابن قلاقس، عاقداً مقارنة بين ممدوحهِ وغيره مِنْ أهل الكرم، يقول:

هو يعطي بُزْلاً وكلُّ كَريمٍ غيرَهُ باخِلٌ ببنتِ مخاض(٨٤)

ومن الصّفات التي راجَتْ في أشعار الشعراء، وراقَت لممدوحيهم صفة العدِل، فالممدوح "يتميّزُ بالتُّقى والعَدْل بين الرَّعيَّة، وأمنَتْ الرَّعيَّة على نفسها حتى أنَّ الطلا كانت تمشي إلى جانب الذئاب وهي آمنة مطمئنة"(٨٥) وأمنت الطيور الصغيرة في أعشاشها، وأكرَمَ اللّيث الظبا، واتقى السِّرحان ظلم الثعلَبِ، وعمَّ العَدْلُ بين الناس كالضّوء الذي يَعمّق الأرض ليطرد الظلام، فهذه اللّوحة

---

(٨٠) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢٥٧، العشواء: الناقة التي لاتبصرُ أمامها. الخَمْطُ: الطعام إذا تغيرت ريحه.

(٨١) ظافر الداد: ديوانه، ص٤٢.

(٨٢) ابن الخياط: ديوانه، ص١٥٦.

(٨٣) ظافر الحداد: ديوانه، ص٣٥، الهجائن: الإبل البيض الكرام.

(٨٤) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢١٨، البُزْل: البعير إذا انشق نابه، بنت مخاض: الأرانب.

(٨٥) أحمد الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، مؤسسة الرسالة، ص٧٢.

الجميلة بما تحوي من مفردات طبيعية، مازج الشاعر بين صفاتها لتخرج في النهاية للتدليل على عَدْلِ الممدوح، يقول ظافر الحداد:

وأضاء العدلُ حتى لم تجِدْ ظُلْمُ الظلم له من سَبَب
فلياليه حَكَت أيامَهُ فكأنّ الشمسَ لم تُحتَجَب
وبغاث الطّير في أفنانها آمناتٌ من ذوات المخلب
وتوخى اللّيثُ إكرامَ الظّبا واتقى السّرحانُ ظُلْمَ الثعلب(٨٦)

أما الرأيُ، فاعتمد الشعراء على صورة الضياء، لما فيه من شبه، فرأي الممدوح يُبَدّدُ ظلْمَة الخطوب، كما الضياء يُبَدّدُ ظلمة اللّيل، فلذا نجد الشعراء قد عمدوا إلى تشبيه ممدوحيهم، بالصّباح، والشّمس، ومن ذلك قول ابن عنين:

أنتَ الذي ما زال واضِحٌ رأيهِ كالصُّبح إنْ ليلُ الحوادث أظلَمَا(٨٧)

ويقول الحكيم في المعنى نفسه مشبهاً رأي ممدوحه بالشّمس:

وأنار في ظلم الحوادث رأيه فأراكَ فِعْلَ الشّمس في الأحلاك(٨٨)

ويجلو رأي الممدوح مادار من شكٍّ في الأقوال، فيأتي رأيه الصّواب كضوء الشمس يجلو الخطوب، يقول ابن الدّهان:

ورأي كضوء الشّمسِ نوراً إذا انبرى لخطبٍ جلا ليلاً من الشّك أليَلا(٨٩)

أما صفة الشّرف الرّفيع، والمكانة العالية، فاستعار الشعراء مكانة النجوم وعلوها للدلالة على ذلك، فابن حيوس يرى مكانة قوم الممدوح فوق السّماك، يقول:

قضى لك أنْ يزداد بيتُكَ رفْعَةً على أنّهُ فوق السّماك مُطَنَّبُ(٩٠).

---

(٨٦) ظافر الحداد: ديوانه، ص٤٢. البغاث: طائر صغير من الرّخم بطيء الطيران.

(٨٧) ابن عنين: ديوانه، ص٤٤.

(٨٨) الحكيم: ديوانه، ص١٣١. الحلك: الظلام.

(٨٩) ابن الدهان: ديوانه، ص٤١.

(٩٠) ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٤٠، الطُّنُب: حبل من حبال الخيمة.

أما مكانته بين ملوك عصره، فمكانة القمر بين النجوم، والجبال بالنِّسْبَة للوهاد، يقول:

كذلــك أنــوارُ النجــوم خَفِيَّــةٌ　　إذا مــا جــلا أنــوارهُ القَمَــرُ الفَــرْدُ
وأنَّ أديــمَ الأرض لاشــكَّ واحــدٌ　　ومـا يستوي فيهـا الشـواهق والوُهْـدُ(٩١)

وتطاولُ مكانَة الممدوح مكانَةَ السِّماك، يقول ابن قلاقس:

يــا حافظــاً طــاولَ السِّــماكَ عُــلا　　وَمَــنْ لــه جوهــرُ القريــض حــلاً(٩٢)

ويراه مرة أخرى مرتفعاً على السِّماكين والنَّسْر في علاه، يقول:

ذو ارتفــاع علــى السِّــماكين والنَّسْــ　　ــر كمــا أنَّ ضــدَّهُ ذو انخفــاضِ(٩٣)

ويقارن ابن أبي حصينة بين ممدوحه وملوك عصره، فيرى أنّه الثريا وأنَّهم الثرى، يقول:

إلــى ملــك جــاوز قــدرَ الملــوكِ　　فكــانَ الثُّريــا وكــانوا الــثرى(٩٤)

وكما استعار الشعراء صفات النجوم، استعاروا صفات الكواكِبِ في بيان هذه الصِّفة الحميدة، ومن ذلك وصف ابن عنين لمكانة ممدوحه بزحل، يقول:

ومتــى ينــالُ عُــلاكَ مُجْتَهِــدٌ　　هيهــاتَ أيــن الــتُرْبُ مــن زُحَــلِ(٩٥)

ويرى ابن حيوس مكانَةَ ممدوحه على أقرانه، كفارق الصَّباح على المساء، أي كفارق النُّور على الظلام، يقول:

وأرى مشــبَّهَكُمْ بــأهلِ زمــانِكِمْ　　كَمُشَــبِّهِ الأصبــاح بالإمســاء(٩٦)

---

(٩١) ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص١٥٥. أديم الأرض: وجه الأرض. الوهاد: المنخفضة.

(٩٢) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٢١٤.

(٩٣) المصدر السابق: ج١، ص٢١٩.

(٩٤) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٨٤، ص٩١، ص٧٦، وانظر ابن حيوس: ج٢، ص٥٩٣.

(٩٥) ابن عنين: ديوانه، ص٤٣. وانظر ابن سناء الملك، ج٢، ص٢٥، ص٣٧.

(٩٦) ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص١٦، وانظر ديوان ابن أبي حصينة: ج٢، ص١١٣.

أما صفة الحلم والثبات والوقار، فاستندَ الشعراء إلى إبرازها على الجبال للتدليل على الثبات، وعدم التزعزع، لأيِّ طارئ، ومن ذلك قول عرقلة الكلبي مبرزاً صفة السَّماحة والحلم في ممدوحه، يقول:

أقاموا في سماحهم بحاراً وأضحوا في حلومهم جبالا[٩٧]

ويقول ابن أبي حصينة:

لو وازن الطّودُ الأشمّ بحلمه لانحطَّ وارتع الأشمُّ الأرفعُ[٩٨]

أما ثباته الذي يوزي الجبال، فيقول فيه:

أشمٌّ يوازن شُمَّ الجبالِ ولايَبْلُغُ الشُمُّ وَزْنَ الأشَمّ[٩٩]

ويشبه ابن حيوس وقار وحلم ممدوحه بالجبال يقول:

ويخفُّ نحو الجودِ إلا أنّهُ يوفي على شُمِّ الجبال وقارا[١٠٠]

ومن الصّفات التي استمدها القاضي الفاضل من الطبيعة المصرية، ليوازن بها حُلْم ممدوحه، فَضْلُ النِّيل على أهل مِصْرَ، يقول:

وأحلامُكُمْ لو ناسَبَ النِّيلُ فَضْلَها لما كان منها وزنَ حَبَّةِ خردَلِ[١٠١]

ومن المعاني التي تطرّق الشعراء لها في ممدوحيهم، التفاؤل بهم، وَحُسْنِ طالعهم، واتخذوا لذلك صفات الشّمْسِ في نورها، والقمر في ضوئه، والصَّباح في طلعته وانبلاجه، يقول القيسراني مادحاً نورَ الدين بعد معركة إنّب:

---

[٩٧] عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٨٤.

[٩٨] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٦، ص١٧٧، وانظر ديوان فتيان: ص١٩٤.

[٩٩] المصدر السابق: ج٢، ص٦٣، وانظر ديوان ابن حيوس: ج٢، ص٣٧٤، ص٦٠٤، وابن عنين، ص٣٩.

[١٠٠] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٢٢٣، وانظر ديوان ابن عنين: ص١٨.

[١٠١] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٢٦٨. خَرْدَل: نباتٌ له حبٌّ صغير جداً أسود مُقرّح.

ذو عـزةٍ مـــا سَـمَتْ والَّليْــلُ مُعْتَكِــرٌ   إلا تمَزَّقَ عن شمس الضُّحـى الحُجُبُ[١٠٢]

ويقول ابن أبي حصينة:

مبـــاركُ الوَجْـــهِ يُستَسْــقى برؤيتـــهِ   ويهتـدي بسناه الرَّكـبُ فـي الظُّلُـمِ[١٠٣]

ومنها قول الحكيم:

يـا شـمْسُ لـو واجهـتِ غُـرَّةَ وجهـهِ   لَسَـتَرَتْ نـوركَ دونَهـا وسـنَاكِ[١٠٤]

ويقول ابن قلاقس:

كـالبدْرِ وجهــاً مــا اسـتَهَلَّ وكالـــ   ـغيـثِ الرُّكـامِ الجـودِ مـا أملـى[١٠٥]

وخلاصة القول في المديح، أن الشعراء قد اتكأوا على مفردات الطبيعة المختلفة لبيان صورة الممدوح، فصوروه بالسَّحابِ، والبحارِ، والجبالِ، والشَّمسِ، والكواكبِ، والنجومِ، والقمرِ، والصَّباحِ، والسَّيلِ، والنَّهرِ، كلُّ ذلك والشاعر يبحث عن السَّبيل لعطاء وجود الممدوح.

ثالثاً: الطَّبيعة والرِّثاء:

منذ بداية الخلْق، ووجود الفناء، ظهر إلى جانبها الرِّثاء، وإظهار الألم والحسرة والتفجع "والإنسانُ في بكائه الميت وحزنه عليه إنَّما يبكي ويحزن على مصيره المحتوم"[١٠٦] وللتعبير عن هذا الحزن درجات، فمنهم من يظهره بالدموع، ومنهم مَنْ يكتمُه في قلبه، أما الشاعر فتظهَرُ عنده في الغالب عن طريق القصائد التي ينشُؤها راثياً من أحبَّ وفَقَدَ، مظهراً عليه تفجعه وحسرته، من خلال مجموعة الصور التي لوَّن بها قصيدته.

---

[١٠٢] الطباخي الحلبي: أعلام النبلاء، ج٢، ص١٦.

[١٠٣] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١١٢.

[١٠٤] الحكيم: ديوانه، ص١٣١.

[١٠٥] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٨٦، ص١٨٧. وانظر ديوان ابن الخياط: ص٢٩١، ص٣١٣.

[١٠٦] محمد فوزي الهيب: الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب، ط١ مكتبة المعلا الكويت، ١٩٨٧، ص٩٥.

وكثر الرّثاء في هذا العصر، ومردُ ذلك إلى كثرة سقوط الشهداء في المعارك مع الصليبيين، وفجيعة الناس والشعراء بموت السّلاطين والأمراء.

ومن خلال قصائد الرّثاء، نجد أنّ العاطفة كانت صادقة، معبرة عن نفس الشاعر والأمة.

ولإظهار مدى الحسرة والتفجُعِ التي أصابت الشاعر، نجدهُ يمازج بينها وبين مفردات الطبيعة من سحاب، وكواكب، وشمس، وقَمَر، وجبال. فابن قلاقس، يرسم لوحة سماوية، ينوح الرَّعدُ منها، ويلطمُ البرق ويبكي الغيث، وتُسْدِلُ الظلماء غدائرها، وتشيب نواصي الصَّباح، فالطبيعة تشارك الشاعر في حزنه وتفجعه على الميت، يقول:

لمنعاهُ قامَ الجوُّ بالرَّعدِ نائحاً ... وبالبرقِ ملطوماً وبالغيث باكياً
واسبَلَتْ الظلماءُ سود غدائرها ... عليه أشابَ الصُبْحُ منها النواصيا(١٠٧)

وتنعكسُ الأشياء في نَظَر الشاعر ومسمعه، فتغريد الطيور أصبح في مسمعه صوت نواح على الفقيد، يقول ابن الخياط:

كأنّ المغرد في مسمعي ... لفرط اكتئابي له نائحُ(١٠٨)

أما السَّحاب لفرط الحزن نراهُ قد أقلَعَ عن الهُطالِ، يقول ابن سناء الملك:

والطَّرفُ قد قال السَّحابُ له ... قد صرت بعدك غيرَ هطال(١٠٩)

ويقرن تاجُ الملوك هطول دموعه بهطول السَّحاب، يقول:

دموعُ العين واكفةُ السَّحاب ... ونارُ جوانحي ذاتُ التهاب(١١٠)

أما الكواكبُ والنجوم، فقد كان لأُفولها، وسقوطها، وكسوفها، جانب من المفردات التي استخدمها الشعراء في بيان مدى الحزن واللوعة التي أصابتهم ومن ذلك قول فتيان:

---

(١٠٧) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٨١. الغدائر: المضفور من شعر النِّساء.

(١٠٨) ابن الخياط: ديوانه، ص٥٠.

(١٠٩) ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص٥٧٤.

(١١٠) تاج الملوك الأيوبي: ديوانه، ص١٢٠، والنظر القاضي الفاضل: ج٢، ٢٩٤. واكفة: متساقطة القطر.

أتـى نعـيُ ملـك أظلَـمَ الشـمس والقَمَـرْ   لـه ووهـى عِقْـدُ الكواكـب فـانتثر
وانـبرى بشـرق الأرضِ والغـرب رجفـةً   تطأطأ منها كـلُّ مـا طـال واشـمخر(١١١)

ويرثي الأمير أسد الدولة أبا الجود معن بن محسّن، فيصوِّر المكرمات بالنجوم الغائرة، والشّمْسُ ملفوفة مجموع ضوئها، حزناً على الفقيد وتألماً، يقول:

وغـارت نجـوم المكرمـات وكـوِّرتْ   هنـالك شـمسُ المجد كاسـفةً حُزنـاً(١١٢)

ويصورُ محمد بن عبدالله موت والده بالنّجم الهادي الذي اختفى، فالناس في حيرة من بعده، يقول:

قـد كُنْـتَ نجمـاً هاديـاً فـالورى   فـي حـيرةٍ مُنْـذُ هجـرة الطُّلـوع(١١٣)

ويرى راجح الحلي في موت الملك الظاهر غازي، كواكبَ متساقطة، وشمساً منطفئ نورها، وسماء مطوية، يقول:

لـي اللـهُ كـم أرمـي بطرفـي ضلالـة   إلـى أُفـق مجـد قـد تهـاوت كواكبُـهُ
نعـم كُـوِّرت شـمسُ المدائـح وانطـوَتْ   سماء العلا والنجم ضـاقتْ مذاهبُـهُ(١١٤)

ويصوِّرُ ابن الخياط، اظلامَ السَّماء، وأُفول قمرها، لموت الأمير عثمان، يقول:

إن أظْلَمَـتْ تلـكَ السَّـماءُ فقـد خـلا   مـن بدرهـا الأبهـى مكـان المطلَـعِ(١١٥)

ويرى عرقلة الكلبي في موت مرثيِّهِ، هلالاً كُسِفا، وغصناً قُطفا، وسراجا انطفأ، وهو في كلّ ذلك يجمع مفردات مصيرُها تغيُّرٍ عن العادة إلى حالة أُخرى، يقول:

---

(١١١) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢١٠، واشمَخَرَّ: ارتفع.

(١١٢) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٣، ص٥٤٣. كورت الشمس: جمع ضوؤها ولف كما تُلفُّ العمامة.

(١١٣) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٣، ص٢٠.

(١١٤) الطباخي الحلبي: أعلام النبلاء، ج٢، ص١٣١.

(١١٥) ابن الخياط: ديونه، ص٢١٦، ص٢١٥.

أيُّ هـــــــلال كُسِـــــــفا وأيُّ غُصْـــــــنٍ قُصِفـــــــا
كــــان ســـــراجاً قـــد طفـــا علىالـــورى، ثـــم انطفـــا(١١٦)

ويتَحَسَّرُ أسامة بن منقذ على ابنه الذي مات، ويصوره بالهلال الذي ما لبث أن غرُب، يقول:

لهـــف نفســـي لهـــلالٍ طـــالع ما استوى في أفقه حتى غَـرَب(١١٧)

ومن رموز الطبيعة التي اشتهرت بالحزن، الحمامة التي ما برحت تنوحُ على الأغصان، فقد اتخذها الشعراء مقدمة تصلُحُ لقصائد الرّثاء، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ، مقارناً بينه وبينها، مظهراً مدى الحزن والألم الذي يشعر به، يقول:

نـاحَتْ فبـاحت فـي فـروع البـان عـن لوعتـي وعـن جـوى أحزانـي
بخيلـةُ العينيـن بـالدّمعِ، ولـي عيـن تجـود بـالنَّجيعِ القـاني
إذا دَعَـتْ أحبتّهـا بروعـةٍ وُرقٌ تداعـتْ فـي ذرى الأغصـان
واحسـرتي إنَّ الزَّمـانَ غـالَ مَـنْ كُنْـتُ إذا دعوتـهُ لبـاني(١١٨)

وكما رأينا سابقاً في المديح فـإنَّ الجبالَ راسياتٌ، ثابتاتٌ، أما في الرّثاء، فهي مزعزعة، مهدودةُ الأركان، متضعضعة، ومن ذلك صورة صلاح الدين الأيوبي في مرثية عماد الدين الأصفهاني الذي يقول:

جبـل تضعضـعَ، مـنْ تضعضُـعِ رُكنـهِ أركانُنـا، وتَهُدُّنـا هَدَّاتُـهُ
مـا كنْـتُ أعلـم أن طـوداً شـامخاً يهـوي ولاتهـوي بنـا مهواتُـهُ(١١٩)

ويصورُ تاج الملوك، موت الملك المعظَّمِ شمس الدولة، بالجبل الذي يهوى، والأرض التي زلزلت، يقول:

---

(١١٦) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٦٥.

(١١٧) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٢٩٥، وانظر ابن حيوس: ج١، ص٨٨.

(١١٨) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٣١٠.

(١١٩) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٨٨.

جبلٌ هوى فارتجَّت الدُّنيا له   فكأنَّما رُكِّبَتْ جناحَيْ طائِر[١٢٠]

ومن مفردات الطبيعة التي أظهرها الشعراء في مراثِيْهم، صورة البحر الذي غيْضَ ماءُه، ومن ذلك الصُّورة التي رُثِيَ بها الملك الظاهر غازي، يقول:

وَغيْضَ ذاك البحر بعدما طَمَتْ   وَطمَّتْ لغياب البلاد غواربه[١٢١]

ومن الصور التراثية التي تكررَّتْ عبر العصور، صورة السُّقيا للقبور، ومن ذلك قول ابن الخياط داعياًبالسُّقيا لثرى ثقة الملك، يقول:

سقاكَ كجودك غادٍ على   ثراكَ بوابِلِه رائِحُ
يُدَبِّجُ في ساحَتَيْكَ الرِّياضُ   كما نَمَّقَ الكلِمَ المادِحُ[١٢٢]

ويقول ابن قلاقس في المعنى نفسه:

وسقى ثراه من الغمائم صيِّبٌ   ضَحِكُ المعاهد في بكاء عِهَاد[١٢٣]

وقد وصف الشعراء الدّنيا في مراثيهم، واتخذوها عبرةً يعتَبِرُ بها الناس، يقول ابن الخياط:

وما هذه الدُّنيا بدارِ إقامةٍ   فيحزَنُ فيها القاطن المترحِّلُ
هي الدَّارُ إلا أنّها كمفازةٍ   أناخَ بها ركْبٌ وَركْبٌ تَحَمَّلُوا[١٢٤]

ويقول العماد الأصفهاني:

---

[١٢٠] تاج الملوك الأيوبي: ديوانه، ص١٧٠. وانظر ديوان ابن أبي حصينة: ج٢، ص٣٣٧.

[١٢١] الطباخي الحبي: أعلام النبلاء، ج٢، ص١٣١. وانظر ديوان العماد الأصفهاني: ص٨٨، غيض الماء: نقص أو غار او نضب.

[١٢٢] ابن الخياط: ديوانه، ص٨٠. وانظر ديوان طلائع بن رزيك/ ٩٢، دَبَّجَ، نقش، زيَّنَ، حَسَّنَ.

[١٢٣] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٤١١، المعاهد: المكان الذي لايزال القوم يرجعون إليه، عهاد: أول المطر.

[١٢٤] ابن الخياط: ديوانه، ص٢٩. الفازه: مظلة بعمودين.

نؤمِــلُ فـــي دار الفنـــاء بقاءَنـــا ونرجـو مـن الدُّنيـا صداقـةَ مـاقتِ
ومـا النـاس إلا كـالغصون يـدُ الـرّدى تُقَـرِّبُ منهـا كـلَّ عـودٍ لنـاحتِ(١٢٥)

رابعاً: الطبيعة والهجاء:

المتتبع لموضوع الهجاء، يجد أنَّ الشعراء قد استمدوا من الطبيعة ما يريدون أن يهجو به، فاتخذوا في الغالب من صفات الحيوانات، صفات أصبغوها على مهجويهم، لإبراز سلبياتهم في صور مضحكة ساخرة سهلة اللفظ والتراكيب، ليسهلَ على الناس حفظها، وتبقى تتنقلُ على ألسِنَتِهم في حِلِّهم وترحالهم.

والهجاء في أبسط تعريف لـه هو الشَّتمُ بالشِّعر(١٢٦) والتعرض للمهجو بالوصف التَّهكمي الساخر، الذي يثير في نفس السامع الضَّحِكَ والسُّرور.

والهجاء في هذا العصر، إما أن تكون مقطوعاته منفصلةً، أو من خلال قصائد المديح الذي يمدح الشاعر بها السلطان أو الامراء أو القادة، وفي المقابل يهجو أعداءه، مازجاً كلَّ ذلك بصفات من صفات الطبيعة، ومن هذا النَّوع صور قادة الرُّوم، وهم أذلة جبناء، في قصيدة ابن قسيم الحموي التي يمدح بها صلاح الدين بن محمد بن أيوب العمادي، صاحب حماة، الذي هزم ملك الرُّوم، ففي ذلك يصور ابن قُسيم ملك الرُّوم بالكلب في الذِّلةِ والخنوع والجبن، يقول:

ومـا جـاء كلـبُ الـرّوم إلا ليحتـوي حماة، وما يسطو على الأسد الكلْبُ(١٢٧)

وتكاد تكون هذه الصفة موروثةَ عبر الأجيال لملوك الرّوم، وتكرَّرَتْ في شعر هذا العصر، ومن ذلك قول ابن منير مادحاً نور الدين وهاجياً قائد الرّوم واصفاً إياهُ بالكلب، يقول:

وكـفَّ كلـبُ الـرّوم مـن بعـد أن أنشَـبَهُ نابـاً وأظفـارا(١٢٨)

ووصف ابن حيوس لمهجوه بالكلْب، مصوراً خوفه وجبنه، يقول:

---

(١٢٥) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٩٣.

(١٢٦) ابن منظور: لسان العرب، مادة هجا.

(١٢٧) ابن قسيم الحموي: ديوانه، ص٢٦.

(١٢٨) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص٢٥٧.

حويـــتَ صفـــات الكلْـــب إلا حفاظِـــهُ ففي الأمن هرّاراً وفي الخـوف هرّابا[١٢٩]

والشعراء إذا أرداو ازرداء أحدٍ، وإبراز صفة الدُّنوّ والهوان فيه يمزجون صفاته بصفات الكَلْب، كقول ابن قلاقس هاجياً قوماً صحبهم، يقول:

صحبــةِ قــومٍ لــو يُقــاسُ أجلُهُــمْ إلى كَلْبٍ كان الكلبُ أعلى وأرأسا[١٣٠]

أما إذا أرادَ الشاعر وصف أحَدٍ بالبخل، يصورُ كلابَهُ مربوطةً خوفاً من أنْ تدلَّ الضّيفان على بيتِهِ، ومن ذلك الصُّورة التي رسمها ابن عنين لمهجوه، يقول:

الحابســـين أوان الخَصْـــبِ كلْبَهـــم والموقدي النّارِ بين السَّجف والنَّضَدِ[١٣١]

أما صورة الحمير، فقد اتّسمَتْ في الشّعر بالغباء، والجهل، فإذا أراد الشاعر أن يهجو بهذه الصفة، أتى بصورة الحمار للتدليل على ذلك، ومنه قول ابن قلاقس:

مـا الطّويـلُ الـذراع مثـل القصـير لا ولا الأذكيـاءُ مِثْـلَ الحمـــير[١٣٢]

ومن الصفات التي استمدها الشعراء من الطبيعة غير الصامتة، صفة الجَهْلُ من التيس، يقول الشريف العقيلي:

أيُّهـــا التَّيْـــسُ الـــذي مـــا مِثْلُـــهُ فـــي العالمينـــا
قـــد تفـــرَّدْتَ بجهـــلٍ فُقْـــتَ فيـــه الجاهلينـــا[١٣٣]

أما إذا أرادَ الشاعر هجاء الهيئة والشّكل، اتخذَ من صورة القرد صورة لذلك، ومن ذلك الصُّورة التي رَسَمها الحكيم في هجاء مغنٍ، يقول:

---

[١٢٩] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص١٢١، هرار: صات الكلْبُ دون نباح.

[١٣٠] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٥٥، ج٢، ص٥٦٩. وانظر ديوان ظافر الحداد، ص٥٧.

[١٣١] ابن عنين: ديوانه، ص١٠٨، السَّجف: الستارات بينهما فرجه، النّضد: المرصّف المحكم.

[١٣٢] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٤٣٧.

[١٣٣] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٨٨.

لنـا مُسْـمِعٌ مـا فـي الزّمـان لـه نِـدُ   ولكنّـهُ فـي قبـح صورتـه قـردُ(١٣٤)

ويصور ابن قلاقس مهجوه بصورة أكثر نفوراً، مستمداً صفاتها من الكلْب، والبغل، والتيس، والقرد، لتبدو أكثر قسوة على نفسه، يقول:

نَفْـسُ مُسْـتَنْبَحٍ ونسـبةُ بَغْـلٍ   ومحيَّـا قـردٍ ولحيـة تيـسِ(١٣٥)

وإذا أرادوا التّندُّر بالشكل وبالهيئة، جاءوا بصورة الثّور، يقول البهاء:

ثـور غـدا أعجوبـةً   بلحيـةٍ مـدوره
لـو كـان ذاك الثـور عجـلاً عَبَدتْـهُ السَّـمَرَه(١٣٦)

أما التَّلوُّن في الأخلاق والمعاملة، فاستعاروا لها صورة الحرباء التي تتخذ من كلِّ مكان تَحِلُّ فيه، لوناً لها، ومن ذلك قول ابن قلاقس يَصِفُ حالَ أصدقائه التي لم تثبتْ على حال يقول:

أيُّ فَضْـلٍ للأصدقـاء إذا كُنْـتَ تراهـم بحالـة الأعـداء
قـد تَلوَّنْـتَ أيُّهـا الشـمس التـي قُلْـتُ ألبسْـتُ جِلْـدَة الحربـاء(١٣٧)

أما الطَّيشُ والسّفه، فاتخذوا من صفة البقَر، والظّلّيم صورة لذلك، ومن ذلك هجاء ابن منير لأهل دمشق، يقول:

وسـكنْتُ جُلَّـقَ واقتديـتُ بهـم وإن كـانوا بقـر
بقـر تـرى بحليمهـم طيـشُ الظّلّيـم إذا نفـر(١٣٨)

وصورة القُضَاة المرتشين الذين يأكلون أموال الناس بغير حق، فذئاب شرهة تجتمع جوعاً، حول الفريسة، ومن ذلك قول محمد بن عبدالله هاجياً لهم:

---

(١٣٤) الحكيم: ديوانه، ص٧٩. وانظر العماد الأصفهاني، خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ص١٣٢.

(١٣٥) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٤٥٦.

(١٣٦) البهاء زهير: ديوانه، ص١٢٩.

(١٣٧) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٢٠.

(١٣٨) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص١٦٧. الظّلّيم: الذّكرُ من النّعام.

تولــى الحكـم بيــن النــاس قــومٌ بهــم نــزلَ البــلاءُ مــن السَّــماء
كــأنَّهم الذئــابُ إذا تعــاوتْ ســوغِبِها علــى آثــار الشــاءِ[١٣٩]

وصوَّرَ ابن قلاقس الخَدَّ الذي عليه خالٌ بالجُعَل، وهذا هجاءٌ مريرٌ، لأن الجُعل لايعيش إلا في رَوث الحيوان، يقول:

وقــال خــدي روضــةٌ ترتــعُ فيهــا المقَــلُ
فَقُلْــتُ مــا أقبــحَ مــا جئــتَ بــه يــارجلُ
لــو كــان ورداً لــم يكــن يَسْــكنُ فيــه جعــلُ[١٤٠]

ومن الصُّور التي استمدها الشعراء من الطبيعة الصامتة، صورة كسوف البدْر، ليصور به وجه مهجوه، يقول الكلبي:

لك وجْهٌ كأنَّهُ البَدْرُ لكن إذا كُسِفْ[١٤١]

وصورة الرَّجل الثَّقيل اللَّئيم الطباع والصفات، استمدوا لها صورة الجبل لبيانها، ومن ذلك وصف ابن الخياط:

جبــلَ اللُّــؤمِ الثقيــلَ الــذي ليس لـهُ فـي الصَّالحـاتِ انبعـاثُ[١٤٢]

خامساً: الطبيعة والخمرة:

ظهرتْ صورة الخمرة في قصائد الشعراء من خلال انتقاء الصُّور المضيئة المتلألئة، فاختاروا لها صورة الشَّمسِ، والنهارِ، والصُّبحِ، والنجومِ، والشُّهُبِ ولمعانِ السرابِ، والشَّفق.
ومن ذلك صورة الخمرة عند مزجها بالماء في لوحة الشاغوري، حيث بدت كالشمس يقول:

---

[١٣٩] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٣، ص١٢، سَغَبَ: جاع.

[١٤٠] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٦٧، الجُعَل: ضربٌ من الخنافس.

[١٤١] عرقلةالكلبي: ديوانه، ص٦٣.

[١٤٢] ابن الخياط: ديوانه، ص١٥٣.

شـــمس المـــدامِ إذا مـــا المـــاءُ خالطهـــا   بـــالمزجِ زانـــت الكـــأس بالشُّـــهُبِ[١٤٣]

وفي أخرى يُفَضِّلُ فتيان في صورة الخمرة، فيصوِّرها بشمس الضُّحى للتدليل على النّورانيـة التي أراد لها أن تكون في لون الخمرة، يقول:

تكادُ تَطْلُعُ شمس الضّحى إذا اللّيلُ عَسْعَسَ[١٤٤]

ويصورها بإشراقة الشّمس، يقول:

راحٌ متـــى مـــا أشـــرقتْ فـــي كأســـها   فـــاضَتْ أشـــعَّتُها علـــى الجلســـاء[١٤٥]

ويصورها ابن قلاقس بالشمس تبزُغُ من وراءِ السُّحُبِ، يقول:

هـــاتيك شـــمْسُ الـــرَّاحِ يَسْـــطعُ ضوؤهـــا   مـــن خلـــف سُـــحْبِ أبـــاريق وقنـــاني[١٤٦]

وكما صوروها بالشمس في أحوالها المتعدِّدة، صورها بالشّهاب، ومن ذلك صورة ابن قلاقس التي استمدها من القرآن الكريم، إذ صور الخمرة شهاباً يتبَعُ شيطاناً، يقول:

إذا انـــبرَتْ مـــن فَـــمِ الإبريـــق تَحْسَـــبُها   شهابُ ليـلٍ رمـى فـي الكـأس شيطاناً[١٤٧]

أما يحيى بن سلامة، فيصورها بسنا الشفق، والكواكب، والنجوم، في لوحة امتزجت بها هذه الظواهر الطبيعية لبيان صورة الخمرة المفضلة لديه، يقول:

فقـــد كـــانَ يخفـــي كأســـها بضيائهـــا   كإخفائهـــا بـــالجهل منقبـــة الحُلُـــمِ
كـــأنَّ الشـــعاعَ الأرجوانـــيَّ فوقَـــهُ   سنا شـفقٍ ينجـابُ فـي اللّيـل عـن نجـمِ

---

[١٤٣] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٩.

[١٤٤] المصدر السابق: ديوانه، ص٢٢٨. عَسْعَسَ: مضى، اظلم.

[١٤٥] المصدر السابق: ديوانه، ص٤.

[١٤٦] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٣٨.

[١٤٧] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج١، ص١١٣.

إذا أقبلَتْ ولّى بها الهَمُّ مدبراً كما أدبر العفريتُ من كوكب الرَّجمِ[١٤٨]

ويشبهها ابن الساعاتي، بالصُّبح، وبالشّمس، وبالشهاب، يقول:

فحيِّ بها شمساً تَجِلُّ زجاجة هي الصُّبح يعلوها فواقِعُ كالشُّهب[١٤٩]

ويصوِّرها الشريفُ العقيلي، بلمعان السراب في الصَّحراء، يقول:

وقهوة تلمعُ كالسَّرابِ أحلى من الوَصْلِ بلا عتاب[١٥٠]

ويتخذها ابن قلاقس هادياً لطريق السَّعادة واللذة، كما النجوم يتخذها السَّاري هادياً له في عتمة الليل، يقول:

هدتنا للسُّرور نجومُ راحٍ بها قُذِفت شياطين الهموم[١٥١]

ويشبهها كذلك ابن قلاقس بالمجرة، والكؤوس نجومها، يقول:

وأحْسَبُ أنَّ أنجُمها كؤوس تكون لها مجرتُها شرابا[١٥٢]

أما لونها، وصفاؤها، فصوره الشعراء، بعين الدِّيك، والسَّراب صفاءً، والورد، والجلنار، والشقائق، والبهار، والأقحوان لوناً، ومن ذلك الصورة التي رَسَمَها الشريف العقيلي للون خَمْرَتِهِ قبل المزج بالماء وبعده، فلونُها قبل المزج شقائق نعمان وبعد المزج بهارٌ، يقول:

فكأنّها قبل المزاج شقائق وكأنّها بعد المزاج بهار[١٥٣]

---

(١٤٨) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٢، ص٥١١، الأرجوان: شجر له ورد، صبغ أحمر، ثياب حمراء.

(١٤٩) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٤٧.

(١٥٠) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص٤٨.

(١٥١) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٥١٤، وانظر ديوان عرقلة الكلبي: ص٤٦.

(١٥٢) المصدر السابق: ج١، ص٢٧٦.

(١٥٣) الشريف العقيلي: ديوانه: ج١، ص١٥٤. الشقائق والبهار: أزهار وَرَدَ التعريف بها في مكان سابق.

وفي لوحة خمرية أخرى، يصورُ الشريف العقيلي الخمرة عروساً زفتْ إلى الجالسين على الأنغام الموسيقية، فبدَتْ حمراء كزهر الرُّمان، وطرزها المزاج بالحباب كالإقحوان، يقول:

عــروس مدامـــةٍ زُفَّـــتْ إلينـــا   علـــى نَغَـــمِ المثـــالث والمثـــاني
كســـاها الـــدَّلُ حُلَّـــةَ جُلّنـــارِ   فَطرَّزهـــا المـــزاج بـــإقحوان[١٥٤]

ويشبهها كذلك بحمرة الورد، يقول:

وقهـــوةٍ فـــي حمـــرةِ الـــورْدِ   عـــذراء عنقوديَّـــة الخـــدّ[١٥٥]

أما صفاؤها، فشبهوهُ بعين الديك أو دَمِ غزال المسكِ، يقول فتيان:

فبـــادر يـــا نديمـــي شُـــرْبَ راحٍ   كعيـــن الديـــك والمســـك الذبيـــح[١٥٦]

ويصور ابن قلاقس صفاءها بصفاء السَّراب، يقول:

فـــي كَفِّهـــا مثـــل الشّـــهابْ   صافيـــةٌ رَقَّـــتْ كمثـــل السَّـــراب[١٥٧]

أما وقت الشّراب المفضل لديهم، فهو وقت الصَّباح، فترَدَّدَتْ علـى ألسِنَتِهم كلمات، باكَرها، الصَّباح، واتخذوا من الدِّيك والحمام الموقظ لهم من نومِهم، ومن ذلك قول ابن قسيم الحموي دعياً صديقه إلى تناول الخمرة:

بـــاكرا شـــمس القنـــاني   تدركـــا كُـــلَّ الأمـــاني
وخـــذوا فـــي لـــذة العيـــ   ـــش علـــى رغـــم الزَّمـــان
مـــن عقـــار تبعَـــثُ النجـــدَة   فـــي قلـــبِ الجبـــان[١٥٨]

ويدعو عرقلة الكلبي صاحبه إلى الشّراب فقد آذن الفجر بالطلوع، والحمام آخذٌ بالصِّياح، يقول:

---

[١٥٤] المصدر السابق: ديوانه، ج٢، ص٢٨٢. الجلنار: زهر الرُّمان.

[١٥٥] المصدر السابق: ج١، ص٤٨.

[١٥٦] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٩. المسك: طيبٌ وهو من دم دابة كالظبي يدعى غزال المسك.

[١٥٧] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٣٧٣، ج١، ص٣٥٤.

[١٥٨] ابن قسيم الحموي: ديوانه، ص١١٧.

يا صـاحِ قـد صـاحَ الحمـامُ وغـرَّدا دع فـي المـدامِ وشـربها مـن فنـد(١٥٩)

ويدعوهم إلى القيام من رقدتهم، فقد غنى الهزار، وحانتْ ساعة الشراب، يقول:

نديمـي قُـمْ فقَـدْ صَفَـتْ العقـارُ وقـد غنـى على الأيـك الهـزارُ(١٦٠)

وفي لوحة جميلة يصور العقيلي ساعة شرابه، وقد اختلَطَ فيها الضياء بـالظلام، وتَشَقَّقَتْ عن الدُجى أكمامه، والبَدْرُ يرنو إلى الغياب شيئاً فشيئاً، يقول:

قـدْ غـابَ وَجْـهُ البـدر فـي طـوقِ السَّـماء الأزرق
وبـدا الصَّبـاحُ كأنَّـهُ نُصْـحُ الصَّديـق المشـفقِ
فاشـربْ عليـه وَسَـقِّني عنبيـةً كـالزّنبقِ
فـاللّيلُ مـن لمعانـه كـالأبنوس الأبلـقِ(١٦١)

ويرى فتيان الشاغوري في صوت الدِّيك، دعوةً صباحية لتناول الشراب، يقول:

دعـا داعـيَ الصّبـاح إلـى الصّبـوح فلبـوا دعـوةَ الدِّيـكِ الصَّـدُوحِ
أيـا ديـكَ الصَّبـاح لسـوفَ تجنـي أيـاديكَ الصَّبـاحُ جنـي قريحـي
بحَـيَّ علـى الصَّبـوحِ هَتَفْـتَ صبحـاً لتوقِظَنـا فيـالك مـن نصيـحِ(١٦٢)

وكما أنَّ الشعراء قد تغنـوا بوقت الصَّباح، وتفضيلهم الشَّراب فيه، فضَّل شعراء آخرون الشراب في جوف اللَّيل، يقول ابن قلاقس:

وليلـة غـابت بهـا النُّحـوس ودارتْ بهـا الأكـواب والكـؤوس(١٦٣)

أما مكان الشَّراب ومجلسِهِ، فتحفة فنية يعجزُ الرّسام على الإتيان بمثلها، نقلها الشعراء بكلِّ أبعادها الجمالية من حركة، ولون، وصوت، فالمكان بستان أو روضة أو شط نهر، يتناغمُ فيه صوت

---

(١٥٩) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٢١.

(١٦٠) المصدر السابق: ديوانه، ص٣٦، وانظر ديوان ابن منير: ص١٥٠، والبهاء زهير: ص٥٥.

(١٦١) الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢١٦، الزنبق: نبات له زهر جميل طيب الرائحة.

(١٦٢) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٨٨.

(١٦٣) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٣٨٠.

المطرب مع أصوات البلابل والشحارير، والأزهار تتناغم كلّما قبّلَ خدَّها النَّسيم، والماءُ يجري بصوت عذب يبعث السّعادة والسُّرور في القلوب، ومن هذه اللوحات الجميلة، لوحة أبدع البهاء صنعها، وأبرز للمكان موقعاً حسناً، مازج فيها بين الأصوات الجميلة للنواعير والشحارير، ولون الخمرة وسنا الصَّباح، وشاطئ النِّيل، والموج الذي يضرب شطَّهُ، كلُّ هذا مغلّفاً باللّفظ الجميل السّهل، والمعنى الواضح، والموسيقى الشعرية الشّذيّة، يقول:

علـــى حســـن النواعـــير	وأصـــوات الشـــحارير
وقـــد طـــاب لنـــا وقـــتٌ	صفـــا مـــن غـــير تكديـــر
فَقُـــمْ يـــا إلـــفُ مـــولايَ	أدرهـــا غـــير مـــأمور
وخُذهـــا كالدّنـــانير	علـــى رغـــم الدّنـــانير
أدرهـــا مـــن ســـنا الصُبـــح	ترنـــو نـــوراً علـــى نـــور
عقـــارٌ أصبحَـــتْ مثـــلَ	هبـــاءٍ غـــير منثـــور
نزلَنـــا شـــاطئ النّيـــل	علـــى بُســـط الأزاهـــير
وقـــد أضحـــى لنـــا المـــو	ج وجـــهٌ ذو أســـارير
وفـــي الشـــطِّ حبـــات مـــ	ثـــلُ أنصـــاف القواريـــر[١٦٤]

ويخرجُ الشعراء في فصل الرَّبيع للشراب في الأماكن التي تحفها الأشجار والأزهار، والأجواء المعتدلة، ليقضوا بعضاً من أوقات اللهو والمتعة، ومن ذلك وصف فتيان الشاغوري للوحة شراب تحفها الأشجار من كلّ جانب، تتراقص الغصون مع أنغام الطيور، ويظلُّ ينتقلُ من منظر إلى آخر إلى أن ينتهي إلى وصف من يعذله عن الشّراب، يقول:

يـــا مَـــنْ يلـــومُ علـــى المـــدام شـــارباً	يجنـــي ثمـــارَ مُنَـــاهُ مـــن مشـــروبه
دَعْ عَذلَـــهُ إن كنْـــتَ ناصحَـــهُ فمـــن	تهذيبـــه عصيـــانُ مـــا تهـــدي إليـــه[١٦٥]

وفي مقطوعة أخرى يقول:

بـــادِرْ إلينـــا فـــإنَّ الـــرَّاحَ مُمْكنَـــةٌ	والكـــأسُ دائـــرةٌ والشَّـــملُ مُجْتَمِـــعُ
ويومُنـــا طيِّـــبٌ صـــافي الأديـــم ومـــا	فيـــه هـــواءٌ ولافـــي رأســـه قَـــزَعُ

---

[١٦٤] البهاء زهير: ديوانه، ص١١٠.

[١٦٥] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١١.

والزَّهــرُ يَلْعَــبُ مُعتَــلُّ النَّســيم بـــه   والبـمُّ منخفــضٌ والزِّيــرُ مُرْتَفِــعُ
والطَّيرُ ترقُصُ في الأغصان من طـربٍ   تكــادُ مِنْــهُ علــى هاماتِنــا تَقَــعُ(١٦٦)

ومن الشعراء الذين وصفوا مكان الشَّراب بهذه الصورة ابن عنين(١٦٧)، وابن الساعاتي(١٦٨)، وظافر الحداد(١٦٩)، وابن قلاقس(١٧٠)، وعرقلة الكلبي(١٧١).

أما السَّاقي، فقد بدا بهيَّ الطلعةِ، جميل الهيئة، فصوَّروا وَجْهَهُ بالقمر والبدر نوراً، والورد خدوداً، والبان قداً وخصراً، ولاغرابة في هذه الأوصاف لأنَّ السَّاقي يُنتَقى بمواصافات خاصة، أقلها الذي ذُكِرَ، بالإضافة إلى خفة الرُّوح والفطنة، حتى يَدُبُّ السُّرور والبهجة في نفوس الشاربين، إضافة إلى دبيب الشراب الذي يسري في أوصالهم، فمثلاً عند وصف ابن قلاقس له يرى فيه فلكاً يمشي إليه، فالسَّاقي بدراً، والكؤوس وخمرتها أنجماً، يقول:

بـدا لـي وكـأس الخمـرُ فـي يـده بَـدَتْ   فـأبصرتُ بـدراً يحملُ الأنجـم الزُّهْـرا(١٧٢)

ويصفه كذلك بالقَمر الذي يطوفُ بالشَّمسِ، يقول:

يَطُــوفُ بشَمْسِــها قَمَــرٌ تَثَنَّــتْ   بــه أعطــافُ خــوطِ نقــاً قويــم(١٧٣)

أما الخدود، فَبَدَت في عين الملك الناصر بالورود، والثَّغرِ بالدُّرِّ، ونظراته تشبه نظرات الظَّبيِ ترنو إلى أسد، يقول:

مــن كــفِّ ســاقٍ أهيَــفٍ   شــبيهِ بــدرٌ طَلَعــا
فــي خَــدِّه وثَغْــرِهِ   وَرْدَةٌ وَدُرٌّ صُنِعــا

---

(١٦٦) المصدر السابق: ص٢٦٨، القَزَع: قطع من السَّحاب، البَمُّ: أغلظ أصوات العود. الزير: الدَّنُّ.

(١٦٧) ابن عنين: ديوانه، ص٤١، ص١٠.

(١٦٨) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص١٠٣، ص٦١، ص١٠٠.

(١٦٩) ظافر الحداد: ديوانه، ص٦١.

(١٧٠) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٣٥٤، ج٢، ص٥٣٨.

(١٧١) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٩٦.

(١٧٢) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٣٠٤.

(١٧٣) المصدر السابق: ج٢، ص٥١٤، الخوط: الغصن الناعم.

يَسْطو ويرنو تارةً فاللّيثُ الظّبيُ معاً[١٧٤]

ويصف ابن الساعاتي، نعومته وفتونه التي ظهر من خلال حركاته التي يفتعلها بمشيته، ووجنته التي بدت ورداً من حسنها، أما القدّ المتماوج فغصنُ بان مهتزٍ، والردف المرتج كالرّمل، والخال قطع ليل، يقول:

واغيدَ فاتِن الحركاتِ يسطو بأدعَجَ فاتر اللحظات ساجي
يتيهُ بوجنةٍ كالورود حسناً يحيط بها عذارٌ كالسّياج
فَغُصنُ البان منه في اهتزاز وَدِعصِ الرَّملِ منه في ارتجاج
ونقطةُ خالِه والصُّدغُ نونٌ تروقُكَ بانفرادِ وازدواج
كأن اللّيلَ قبَّلَ خدَّ صبُحٍ فأثّرَ حُسْنُ ذاك الامتزاج[١٧٥]

وَيَصِفُ عرقلة الكلبي كذلك ليونَتَهُ ورشاقَتَهُ بالغصون، يقول:

من كفِّ أبلجَ كالصَّباح مهفهفٍ فَضَحَ الغصون رشاقةً وتأودا[١٧٦]

أما حصرَهُ، فبدا مشدود المنزر دلالة على نحافَتِهِ ورقّتِهِ، يقول الحكيم:

قد عَقَدَ المئزرُ من حصرِهِ على قضيب الباَنةِ الأملس[١٧٧]

وخلاصة، فإنّ الخمرة قد امتزجت بالطبيعة كلياً، حتى غَدَتْ لوحةً من لوحاتها لايصفها الشعراء إلا أحاطوها بهالة من الجمال والرّوعة، حتى يضفي على نفسه جالاً ممّا يحيط به، لعلها في قرارتها تحتاجُ إليه، وتسعى للحصول على ما فقد منها.

---

[١٧٤] ابن تعزي بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوصف بن تغري بردي الأتابكي ت٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج٧، ص٤٠٥.

[١٧٥] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٢١، دَعَجَ: العين صارت شديدة السّواد مع سعتها.

[١٧٦] عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٢١، أبلج: طلق الوجه.

[١٧٧] الحكيم: ديوانه، ص١٠٣.

سادساً: الطبيعة والمعركة:

لقد تَمَيّزَ هذا العصر دون غيره من العصور السابقة باشتداد الهجمة الصليبية على البلاد الإسلامية، فسقَطَتْ المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، وعمَّ البلاء، وانتَشَرَ القتل، حتى أنَّ المدن يذبح فيها العشرة والعشرين ألفاً من الرجال والولدان والشيوخ، كما تذبح النعاج، وتوّجَ هذا كله باحتلال بيت المقدس، وقيام المملكة الصليبية فيه.

وبقيت الأمة على هذا الحال زمناً طويلاً إلى أن قيضَ الله لها من يَدُبُّ روح الجهاد فيها من آل زنكي، ومن بعدهم قادتهم من آل أيوب الذين ساروا على الطَّريق نفسه الذي سار عليه آل زنكي[١٧٨].

ومع كثرةالمعارك التي خاضها المسلمون، كثر الشعراء أيضاً في التَّسابق في وصفها، ووصف جيشها، وتهنئة القائد بالنَّصر، وحثُّهُ على مواصلة الجهاد لاسترداد كامل التراب الإسلامي، بقصائد تبعثُ في النفوس الأمل، ويثير فيها الحماس، ومن خلال صورة المعركة المتعددة الجوانب، ظهرت صورة الطبيعة جلية للعيان، من خلال اللوحات التشبيهية الكثيرة التي استعان بها الشعراء لإبراز صورهم، فظهرت صورة القائد الشجاع الهمام أسداً غضنفراً لايخافُ ولايهاب، وعقاباً ينقَضُّ على الأعداء، أما صورة الجيش فظهرت سيلاً عرماً، وبحراً هادراً، وأسوداً مزمجرة، وعقباناً مُنْقَضّةً.

أما ساحة المعركة، فتحولت في صورهم إلى ساحة فلكية ليلية، تتطاير فيها الشُّهبُ، وترجَمُ فيها الكواكِبُ.

أما النَّقعُ المتطايرُ منها، فكسى الخيلَ وحجَّلها بألوان يتمازج فيها لون الغبار مع لون الدِّماء. ولوحات أخرى استمدَّها الشعراء من التراث الشعري العربي، وهي صور الطيور والوحوش التي تتبع الجيوش في سيرها إلى الأعداء. ومازج الشعراء بين صور أسلحتهم وعناصر الطبيعة، فالسُّيوف كواكب رَجْم في سرعتها، والقَنَا غصون في لينها وطولها، أو صلال في نهشها وطولها ولينها، والدُّروع غدران ماء حركها نسيمُ الصَّبا، وصليل السُّيوف طنين الذُّباب.

وسار الشعراء على هذا الطريق في بيان صورهم وتشبيهاتهم، متكئين على البيئة والطبيعة المحيطة بهم، متخذين منها جسراً لبيان مفردات القوة والضَّعف، والنَّصر والهزيمة، وكثرة الجيش وقلته.

---

(١٧٨) انظر أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ٢٠٨.

أما وَصفُ الجيش الإسلامي، فغالبية صوره استعار لها الشعراء صورة الاسد، دلالة على قوته وبأسه في مقارعة الأعداء، يقول أسامة بن منقذ:

رميتَ العِدا بالأسد في أجم القِنا   على الجُردِ تقتادُ الرَّدى وهو راغِمُ[١٧٩]

ويصورُ ظافر الحداد حركة الجيش من حول القائد بحركة الأسد، يقول:

غداة تراه والأسُدُ الضَّواري   لها من حوله وثبٌ ورفضُ[١٨٠]

أما قلوبهم، فهي قلوب أسد في صدور رجال، يقول ابن حيوس:

وإذا حاربوا رأيتَ قلوبَ الأ   سْدِ قد أدعَتْ صدورَ الرِّجال[١٨١]

واتخذوا كذلك من الطيور الجارحة رمزاً للقوة وسرعة الجيش الإسلامي في انقضاضه على الأعداء، ومنذ ذلك قولُ سعد بن عبدالله مصوراً جنود المسلمين بالصقور وخيولهم بالعقبان، يقول:

وَتحسَبُهُم فوق الجياد أجادلاً   تَطيرُ بها في مأزق الحربِ عقبانُ[١٨٢]

ويصور القيسراني جنود نورالدين زنكي وخيله بالصقور في السُّرعة والانقضاض، يقول:

وجندٌ كالصُّقور على صقور   إذا انقضوا على الأبطال صادوا[١٨٣]

أما الجيش الإسلامي إذا ما اصطفَّ على جانبي القائد في ساحة المعركة وهم يحملون رماحهم بأيديهم، فبازٌ يمُدُّ جناحيه، يقول ابن قلاقس:

تَصْطَفُّ في الجنبين أرماحهُمُ   تَمَطِّي البازِ بريش الجناح[١٨٤]

---

[١٧٩] أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٢٢٤.

[١٨٠] ظافر الحداد: ديوانه، ص١٨٠، وانظر ابن أبي حصينة، ج٢، ص٣٣، وابن قلاقس: ج٢، ص٥٦٠، وقلائد الجمان، ج٣، ص٢١، الأجم: الشّجر الكثيف.

[١٨١] ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ٤٠٦.

[١٨٢] ابن الشعار الموصلي: قلائد الجمان، ج٣، ص٢١.

[١٨٣] الطباخي الحلبي: أعلام النبلاء، ج٢، ص١٢.

[١٨٤] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٧٠.

ويمازج ابن قلاقس بين صور ثلاث، صورة الجيش، وصورة الخيل، وصورة الأعلام، متّخذاً من العقاب صورة لها، فالخيل في سرعتها، والجيش بفتكته وانقضاضه، والرّايات بصور العقبان المرسومة عليها، يقول:

والخيلُ عقبانٌ ترى فوقَها   عقبان أعلامٍ وعقباتـا(١٨٥)

ويصور كذلك القاضي الفاضل سرعة جند المسلمين وهي تَطَلّبُ العِدا بسرعة الصّقور، وكأنّ لوحة الجند تكونت من خوافٍ وقوادم لصقور تطير تطلبُ فريستها، يقول:

وطِرْتُمْ إليها، والصّفاح كأنّها   خوافٍ وقامات الرِّياح قوادِم
وتزجي الكماةُ الكُمْتُ طالبة العِدا   فيالصقورِ فوقَهُنَّ ضراغم(١٨٦)

واستعار الشعراء لبيان قوة الجيش الإسلامي وعدده الكبير، صورة البحر والسَّيل، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ مصوراً الجيش الإسلامي بالسَّيل تارةً وبموج البحر تارة أخرى، يقول:

بِمثْلِ آتِيِّ السَّيل ضاقَ به الفضا   وضاق على الأعداء منه المخادِمُ
سرايا كموجِ البحر في ليلِ عِثْيَرٍ   به من عواليهم نجوم نواجِمُ(١٨٧)

ويصوِّره ابن أبي حصينة بالسَّيلِ العَرِمِ الذي داهَمَ الأعداء، وشبه الإمدادات المتواصلة له بالمدِّ، يقول:

لم يعلموا حين باتَ السَّيلُ يَدْهَمُهُمْ   أنَّ المدودَ لنا من خَلْفِهم مَدَدُ(١٨٨)

ويصور تموجه وهوسائر إلى ساحة المعركة بالبرِّ الذي تحول إلى بحر، يقول:

وعربٌ ماجَ فيها البَرُّ بحراً   أليسَ البَحْرُ من صفةِ العِراب(١٨٩)

أما تلاطمُهُ في ساحة المعركة، فصورة من أمواج البحر المتلاطمة، يقول أسامة بن منقذ:

---

(١٨٥) المصدر السابق: ج٢، ص٥٤١، ص٥٤٨.

(١٨٦) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٢٤٦.

(١٨٧) اسامة بن منقذ: ديوانه، ص٢٢٤. المخارم: الموت، الهلكة، العثير: غبار المعركة.

(١٨٨) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٦٠.

(١٨٩) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٩٥.

يُشَبِّهُهُمُ مَنْ لاحَ جمعَهُمُ لَهُ   بلجَّةِ بحرٍ موجُها متلاطِمُ(١٩٠)

وصوروا جيوش الصليبيين بالبحر في قوتها وعددها، وهذه الصُورة أتى بها الشعراء لبيان قوة الجيش الإسلامي، ولبيان أن النَّصرَ على الأعداء لم يكن سهْلاً، يقول فتيان الشاغوري:

ولمّا أتوا دمياط كالبَحْرِ طامياً   وليس له من كثرة القوم ساحِلُ
يزيدُ عن الإحصاء والعدِّ جَمْعُهم   ألوفُ ألوفٍ خيلهم والرَّواحلُ(١٩١)

ويقول ابن الخياط:

إلى كم وَقَدْ زَخَرَ المشركون   بِسَيْلٍ يُهالُ له السَّيلُ مَدَّا(١٩٢)

أما دماء الأعداء في ساحة المعركة، فصورها الشعراء بالبحر وبالسَّيل، ومن ذلك قولُ ابن الخياط في معرض حديثه عن نَصْرِ الجيش الإسلامي على جيش الأعداء مصوراً دماءهم بالبحر، يقول:

كيومِكَ إذا دَمُ الأعلاج بَحْرٌ   يُريكَ البَحْرَ في حُلَلٍ ورَادِ(١٩٣)

ويصف ابن سنان الغارة على الأعداء، بأنّها أفنت ديارهم وتركت دماءهم تسيل كالبحر، حتى خاضَتْ في لُجَجِهِ خيولهم، يقول:

تركْتَ دياراً لاتبينُ لعارف   وخُضْنَ بحاراً لاتَحِلُّ لشاربِ(١٩٤)

وفي صورة لابن حيوس، يصور دماءَ الأعداء بالسُّيول من كثرة ما تعرضوا له من قتل، حتى الفارُّ لم يستطع النجاة والسلامة، يقول:

فأجْرَتْ سيولاً من دماء حماتهم   أماتتْ بها الفِرَّار من وقعها غرقاً

---

(١٩٠) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٢٢٢.

(١٩١) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣١٩.

(١٩٢) ابن الخياط: ديوانه، ص١٨٤.

(١٩٣) ابن الخياط: ديوانه، ص٢٧، العلج: الرجل الضّخم القوي من كفّر العَجَم.

(١٩٤) ابن سنان: ديوانه، ص٥٦٦، وانظر ديوان ابن رزيك: ص٥٨.

ولـم نــرَ سـيلاً قَبْلَـهُ فــاض مِــنْ دمٍ ولاقُضُبــاً هنديــةً قُتِلَــتْ خنقــاً(١٩٥)

ومن اللوحات التراثية التي استمدَّها الشعراء من الصُّور في العصور السابقة، صـورة الطَّير والوحش التي تتبعُ الجيش، لتأكلَ لحومَ قتلى الأعداء بعد المعركـة، وجاء بها الشـعراء للتدليل على الانتصارات المتوالية للجيش الإسلامي، ووثوق الطير والوحشُ بنصـره، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ، مصوراً الطيور جيوشاً تسير مع الجيش الذي تكَفَّلَ بإطعامها، يقول:

تســير جيــوش الطَّـير فـوق جيوشــها لهــا كــلَّ يــوم مــن عداهــا ولائــم(١٩٦)

ويرى القاضي الفاضل، أن الطَّير تتبعُ الجيش عن ثقةٍ منها أنَّـهُ المنتَصِر، فهي تذهَبُ معه جائعة وتعود وقد شَبِعَت من لحوم الأعداء، يقول:

هــذا وكــم فــي الوغــى مــن غرفــةٍ بكَــرْنَ مــن ثقــةٍ بهــا العقبــان

تغــدو خماصــاً مثــل مــا قــد مثَّلــوا فــي حَرْبِـهِ وتــروحُ وهــي بطــانُ(١٩٧)

وكما الطَّيرُ تسيرُ عن ثقة مع الجيش الإسلامي، فالوحوش تسير متيقنـة من النَّصـرِ، تبحَـثُ عن طعامها معه، يقول ابن أبي حصينة:

فمــا إنجــاب ذاك النَّقْــعُ حتــى طرَحْتَهِــمُ فرائِــسَ تقتــاتُ الوحــوش بهــا بَغْــدُ(١٩٨)

ويقول ابن رزيك:

كمــا أنَّ وَحْــشَ القَفْــرِ مــازال منهــم مــدى الدَّهــرِ أعــراسٌ لهــم ولائــم(١٩٩)

واتخذوا من فرار النعامة وجبنها، وجبن الذِّئاب أمام الأسود، صورة لفرارالأعداء وهزيمتهم، يقول فتيان الشاغوري:

---

(١٩٥) ابن حيوس: ديوانه،ج٢، ص٤٠٦.

(١٩٦) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٢٢٤.

(١٩٧) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٣١٥. وانظر ديوان ابن سنان: ص١٩١. وابن رزيك: ص١٣٦ خماص: جائعة، بطان: الذي امتلأ بطنه بالطعام.

(١٩٨) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٣. النقع: غبار المعركة.

(١٩٩) ابن رزيك: ديوانه، ص١٣٦.

يَفِــــرُّ أعـــاديكَ يــومَ الوغـــى إذا مـــا رأوكَ فــرارَ النَّعامـــة[٢٠٠]

ويقول كذلك:

فعــادوا علــى الأعقــاب مِنْهــا هزيمـــةً كــــأنَّهم ذُلاً نعـــامٌ جوافِـــلُ[٢٠١]

ويصورهم ابن قلاقس بالذئاب التي تَفِرُّ من أمامَ الأسود، يقول:

وأقـــدمَ نحوهـــم أســـداً مشـــيخاً فولـــوا بيـــن أيديـــه ذئابـــاً[٢٠٢]

ومن الصُور التي صورها الشعراء لاستكمال لوحة المعركة، صورة الغبار المتطاير من حركة الجيش في ساحة المعركة، وأكثر الشعراء من استمداد الصُور التراثية له، فبدا ليلٌ يلفُّ ساحة المعركة، ومن ذلك الصُورة التي وصفها ابن سنان لغبار المعركة، مشبهه باللّيل والسُّيوف التي تلمع بداخله فَجْرُ، يقول:

تكــاد مـــن النَّقـــعِ المُثـــار كماتُهـــا تُنـــاكرُ أحيانـــاً وإن قَـــرُبَ النَّحْـــرُ
عجـاجٌ يظـلُّ الملتقـي منــه فــي دجـىً وإن لمَعــت أســيافُهُ طَلَــعَ الفجــرُ[٢٠٣]

ويصوره كذلك ابن حيوس باللّيل الذي يَضِلُّ فيه الساري، ولكنَّ لمعان الرِّماح اضاء ظلمته كالنجوم، يقول:

سَـرَتْ بـكَ فــي ليــلٍ مــن النَّقــعِ أليَــلِ تُعَمَّـى علــى مَــنْ ســارَ فيــهِ المذاهِــبُ
فــــأطلعَت فيـــه الأســـنة أنجُمـــاً لهــا مــن نواصــي الدَّارعيـن ذوائـبُ[٢٠٤]

ويشبه الحكيم غبار المعركة بدخان النار، والرماحُ فيه شرارها، يقول:

---

[٢٠٠] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٤٤١. وانظر ابن سنان: ص١٦٨.

[٢٠١] المصدر السابق: ديوانه، ص٣١٩.

[٢٠٢] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٤١. المشيخ: الطويل الغيور الحازم الحَذِر.

[٢٠٣] ابن سنان: ديوانه، ص١٢٨.

[٢٠٤] ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص١١١. النواصي: مقدمة الرأس أو مقدمة الشعر.

وللعجــاجِ علـــى صُـــمِّ القنـــا ظُلَـــلٌ هــي الدخــانُ وأطـراف القنــا شَــرَرُ(٢٠٥)

ويشبه ابن القيسراني لمعان السُّيوف في غبار المعركة، بالنار التي تلمع داخِلَ الدّخان، يقول:

النَّقــعُ فـــوقَ صقـــالِ البيـــضِ مُنعقِــدٌ كمــا اســتَقَلَّ دخــانٌ تحتــه لهــبُ(٢٠٦)

وشبهوا الرّماح وهي تلْمَعُ داخل الغبار، بالشُّهبِ التي تتطاير في ظلمة الليل، يقول ابن قلاقس:

والنَّقْـــعُ قـــد مَـــدَّ رُواقَ الدُّجـــى وأطْلَـــعَ الخرصـــانَ شـــهبانا(٢٠٧)

وشبهوا سيوفهم وسط الغبار تلْمَعُ، بالشمس التي تطلع في غسق من اللّيل، يقول الحكيم:

إذا انتضوهـــا وذيـــلُ النَّقـــعِ فوقَهـــم فالشـــمس طالعـــةٌ واللّيـــل معتكِـــرُ(٢٠٨)

وصوروها وهي تهوي على رؤوس الأعداء، بالكواكب التي تُرْجَمُ بها الشياطين، يقول القاضي الفاضل:

ومنكُــمْ بُــدُورٌ فـــي يَدَيْهـــا كواكِـــبٌ من البيضِ في سُحُبِ العجاج رواجِمُ(٢٠٩)

أما القائد وهو يسير في عجاج القَسْطل، والأسنَّةُ متشابِكَةٌ، فيبدو كالهلال بين النجوم، يقول ابن أبي حصينة:

كـــأنَّكَ فيـــه والقنـــا ترحَـــمُ القنـــا هِـلالُ ســماءٍ طـالعٌ بيـن أنجُـمِ(٢١٠)

وصورة الرّوم وقد علاهم غبار المعركة، وغيَّرَ ألوانهم، فغدوا بعد البياض أحابيشاً، يقول القاضي الفاضل:

---

(٢٠٥) الحكيم: ديوانه، ص٨٩، العجاج: غبار المعركة، القَنَا: الرّماح.

(٢٠٦) الطباخي الحلبي: أعلام النبلاء، ص١٦.

(٢٠٧) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٤١، رِوَاق الليل: مقدّمة وجانبه. الخرصان: الرّمح القصير السّنان.

(٢٠٨) الحكيم: ديوانه، ص٨٩، اعتكَرَ اللّيل: اشتدّ سواده.

(٢٠٩) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٣٠٥.

(٢١٠) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٠٦، القَسْطَلَ: الغبار الساطع في الحرب. الأسنة: الرّماح.

يُبَدِّلُ الألوان قسطالُهُ — فتبصِرَ الرّوم بهِ حُبْشا[٢١١]

أما صورة الشمس التي ترسل بشعاعها وسط المعركة، فتبدو لعيني ابن قلاقس غادة جميلة داخل خدرها، يقول:

حتى كأنَّ الشَّمسَ فيه — غادةٌ تَحتلُّ خِدْرا[٢١٢]

ويشبهها ظافر الحداد بالفتاة التي حلَّ النُّعاس بها، يقول:

وأطرفَ طرفُ الشَّمسِ حتى كأنَّها — وقد خَفِيَتْ وسنى لفرط ضبابه[٢١٣]

أما اللوحة الأخرى التي برزت من خلال صورة المعركة، فهي صورة السِّلاح ممزوجاً بألوان شتى من مفردات الطبيعة، فبالإضافة إلى ما ذكرنا من صور خلال صورة النَّقعِ، بدَتْ الأسلحة غصوناً، وطيوراً، وغدراناً، وعيون أفاعي، وجداول، وثعابين، ومَطَر، فالقاضي الفاضل يصورُ الرِّماح بالغصون ورؤوس الأعداء في أطرافها ثمر، يقول:

ألا شدَّ ما أسقَتْ يداك فأنبَتَتْ — غصون قنًا والهامُ فيهنَّ كالثمر[٢١٤]

ويصفها كذلك ابن قلاقس وهي تهتزُّ في يد القائد، باللَّيث الذي يلاعب بيده ثعباناً، يقول:

تخالُه واهتزازالرُّمح في يده — ليثاً تلاعِبُ يمناهُ بثعبانِ[٢١٥]

ويقول ظافر الحداد:

أسودٌ في أكفِّهم صِلالٌ — لها نَهْشٌ تميتُ به وعَضُّ[٢١٦]

---

[٢١١] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٢٤٦.

[٢١٢] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٤٤٤. الخِدْر: ستر يُمَدُّ للجارية في ناصية البيت.

[٢١٣] ظافر الحداد: ديوانه، ص٥٠. الوسَن: شدَّة النعاس.

[٢١٤] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٢٠٥، وانظر ديوان ابن منير: ص٢١٠، والعماد الأصفهاني: ص١٥٣.

[٢١٥] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٦٠، ص٥٤٧.

[٢١٦] ظافر الحداد: ديوانه، ص١٨٠، الصِّل: الحيَّة الخبيثة جداً.

وتشبيه الرِّماح بالثعابين جاء به الشعراء للتدليل على طولها، وليونتها، ولوجه الشبه بينهما، من أنَّ كلاً منهما يؤدي إلى الموت في حالة الإصابة بهما، أما السُّيوف، فشبهها القاضي الفاضل بالطيور التي تتخذُ من الرؤوس لها أعشاشاً، يقول:

كأنّما أسيافه في الوغى طيرٌ يرى الهمامَ له عُشّاً(٢١٧)

ويشبِّهها ابن قلاقس: وهي تهوي على الرؤوس بالجداول التي تَتْبَعُ في سيرها الغدران، يقول:

والبيضِ نحو الزَّعفِ ممتدَّةٌ جداول تَتْبِعُ غُدْرانا(٢١٨)

أما صوتَ صليل السُّيوف، فطنين ذباب الصَّيف، يقول فتيان:

وهل طنينُ ذُبابِ السَّيفِ في رهجٍ يُرى طنينُ ذبابُ الصَّيفِ يحكيه(٢١٩)

والدُّروع يتخذ لها فتيان الشاغوري صورة الغدير التي حركته ريح الصَّبا، فيظهر على شكل دوائر متموِّجة، يُشبهها إلى حدٍّ بعيد زَرَدِ الدُّروع، يقول:

والدّرعُ مثلُ غدير حركتْهُ يدُ الصَّبا ولَمَّا يُصبها منه من بلَل(٢٢٠)

ويشبهها كذلك بعيون الأفاعي في الاستدارة، يقول:

ولا أُفرِغَتْ درعٌ عليه كأنّ بها عيون الأفاعي والدُّبى يَتَوسّمُ(٢٢١)

أما النِّبال، فهيَ مَطَرٌ هَطَّالٌ، للتدليل على غزار الرميِّ وكثرة انهماره على الأعداء، يقول ابن القيسرانيّ:

(٢١٧) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص٢٤٦.

(٢١٨) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٤١. الزّعف: قتله حالاً وفي مكانه.

(٢١٩) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٥٩٣. ذبابُ السّيف: طرفه الذي يُضرَبُ به. الرّهج: الصوت.

(٢٢٠) المصدر السابق: ديوانه، ص٣٢٣، الدّرع: قميص من زرد الحديد يلبس وقاية من سلاح العدو.

(٢٢١) المصدر السابق: ديوانه، ص٤٠٦. الدُّبى: الهوام الصغيرة.

والنَّبْـــلُ كـــالوَبْلِ هطـــالٌ ليـــس لـــه　　　سوى القِسِيِّ وأيدٍ فوقها سُـحُبُ[٢٢٢]

أما الرايات والأعلام، فيشبهها ابن أبي حصينة بالطيور، يقول:

تلـــك رايـــاتُ السُّـــعود كأنّهـــا　　　مـن الطـير إلا أنّهـا غـيرُ حـوَّمِ[٢٢٣]

ويشبهها ابن منير وهي تنتشر على روابي حلَب، بالرَّبيع، انتظمَتْ أزهاره، يقول:

نشَـرَتْ علـى حلـبٍ عقـودُ بنودهـم　　　حُلَـلَ الرَّبيـعِ تناسـقَتْ زهراتـه[٢٢٤]

والمَطرُ في ساحة المعركة في نظر الشعراء، يُدَلِّلُ على هلاك وفناء الأعداء، فالمطرُ مقروناً عندهم بالموت، ومصاحباً للعذاب، يقول ابن أبي حصينة في هذا المعنى:

وأمطرتَهُـمْ مـن جنْـدَلِ الحَـزْنِ ديمـةً　　　إذا كـثُرَتْ أمطارُهـا كَـثُرَ الجـدْبُ

يلـوذون منهـا بالهضـابِ ومـا دَرَوا　　　أنَّ المنايـا ليـس يمنَعُهـا الهَضْـبُ[٢٢٥]

ويفرق فتيان الشاغوري بين نوعين من المطر، مَطَرُ العذاب الذي ينزِلُ على الأعداء، والغيث والجود الذي ينزل على المسلمين، يقول:

سَحَابٌ علـى الأعـداء تُمْطِـرُ نقمـةً　　　وفيـه لمـن والاهُ جـودٌ ونـائِلُ[٢٢٦]

أما المعارك الحربية، التي دارتْ ساحاتها فوق لجة البحر، فقد انتشرت بشكل كبير، وأكثر الشعراء من وصفها، وظهرت صورتها جلية واضحة المعالم، على ضربين، ضربٌ ارتدَّ الشاعر في صورته إلى صورة المعركة البريّة، وضربٌ ظهر فيه التجديد، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ:

غزوتَهُـم فـي البحـر حتـى كأنّمـا　　　الأسـاطيلُ فيـه موجـهِ المتلاطـم

---

[٢٢٢] الطباخي الحلبي: أعلام النبلاء، ج٢، ص١٦، النبل: السهام.

[٢٢٣] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٠٦.

[٢٢٤] ابن منير: ديوانه، ص٢١٠.

[٢٢٥] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٣٠٦. الجنْدَل: الصَّخر العظيم. الحزن: ما ارتفع من الأرض وغلظ. ديمه: السحاب.

[٢٢٦] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣١٩.

بفرسان بحرٍ فوق دُهْمٍ كأنّما ... على الماء طيرٌ مالهُنَّ قوادم
يُصرّفها فرسانها بأعنّةٍ ... جرَتْ حيث لم توصل بهنَّ الشكائمُ
إذا دفعوها قُلْتَ فرسان غارةٍ ... سروا بجياد ما لَهُنَّ قوادمُ
يَسُوقُ أساطيل الفرنج إليهم ... حِمامٌ، وطيرٌ للفرنجِ أشائِمُ
دماؤهم في البحر حُمْرٌ سوانحٌ ... وهامُهم في البرّ سُحْمٌ جواثِمُ
فلم يخفَ في فجٍّ من الأرض هاربٌ ... ولم ينجُ في لُجَجِ الماء عائمُ
وعادَ الأسارى مردفين وسُفْنُهم ... تقادُ كما قادَ المهاري الخزائمُ[٢٢٧]

[٢٢٧] أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٢٢٦. وانظر ديوان ظافر الحداد، ص٥٠، ص١٩٢، والقاضي الفاضل، ج١، ص١٨٤. والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص١٨. العنان: سير اللّجام، والسُّخام: السواد. المهارى: الإبل المهرية، نوع من الإبل منسوب إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن، وقالوا أنّها كانت لايُعْدَلُ بها شيءٌ في سرعة جريانها.

الفصل الخامس

الدِّراسة الفنية لشعر الطبيعة

الفصل الخامس

الدراسة الفنية لشعر الطبيعة

أولاً: اللغة والأسلوب:

نظراً لاختلاف البيئات التي عاش فيها العربي، من صحراء، وسهول وشواطئ، اختلفت المفردات التي يستخدمها في حياته اليومية، فابن الصحراء يركِّزُ على مفردات الصَّحراء لأنه ينهل من أجوائها، وابن السُّهول الزراعية، نجد له مفردات يُرَكِّزُ عليها، ويستخدمها في طرائق كلامه تكاد تكون بعيدة كلَّ البعد عن مفردات الصَّحراء[1].

وللشعراء في استخدامهم للغة وألفاظها وأساليبها طرائق عدة، فلايلتزمون منهجاً واحداً، بل ينوعون في ذلك حَسَبَ الموقف الشعري الذي هم فيه، كما يقول الجرجاني "ولا آمرك بإجراء أنواع الشِّعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى أن تُقسِّم الألفاظ على رُتَبِ المعاني، فلايكون غزلك كافتخارك، ولامديحك كوعيدك، ولاهجاؤك كاستبطائك، ولاهزلك بمنزلة جدك... بل ترتبَ كلاً مرتبته وتوفيه حقَّهُ، فتَلَطَّف إذا تغزلْتَ، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تَصرُّفُ مواقفه"[2] ومنذ القرن الرابع، وجد الشعراء أنفسهم يميلون إلى اللغة السَّهلة والأسلوب الرَّقيق، تَمَشِّياً مع العَصْر، فصاغوا "شعرهم في قوالب لغوية بسيطة، وأساليب تعبيرية قريبة من عقول الجمهور، ومستواهم الإدراكي"[3].

ولذلك كان على الشاعر المجيد، أن يخاطب الناس على قدر فهمهم، ويلتزم في شعره وسائل الإفهام الجيدة، فلايعقل أن تُقدِّم لابن المدينة الذي لم يعتَدْ الصَّحراء، قصيدة تنبش مفردات الصحراء من حوشي وغريب، وهذا ما نبَّهَ إليه أبو هلال العسكري بقوله: "إذا كان موضوع الكلام على

---

[1] انظر: رشدي علي حسن: شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار عمار، عمان، ١٩٨٨، ص١٩٥.

[2] الجرجاني "القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ت٣٦٦هـ): الوساطة بين المتنبي وخوصمه، تحقيق محمد أبو الفضل، علي محمد البيجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص٢٤.

[3] نبيل خليل أبو حلتم: اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥، ص٣٥٩.

الإفهام... فالواجب أن نُقَسِّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطَبُ السُّوقيُّ بكلام السُّوقة، والبَدَوي بكلام البدوْ، ولايتجاوز به عما يعرفه إلى ما لايعرفه فتذهب فائدة الكلام، وتُعْدَمُ منفعة الخطاب"[٤].

والمتابع لهذا العَصْر، يلحظُ بكلِّ وضوح ويُسْر سهولة الألفاظ، ورقة الكلمات، فقد امتازت ألفاظهم وتراكيبهم بالسُّهولة والتَّهذيب، فلا توجد أية غرابة تستدعي القارئ العودة إلى معاجم اللغة.

أما الألفاظ التي نُحِسُّ فيها شيئاً من الغرابة، فلاتَعْدُ أن تكون في عصرهم سهلة متداولة، ولكن للانقطاع البيئي الذي نعيش فيه نَشْعُرُ بهذه الغرابة، فالشعراء يبتعدون كلَّ البُعْدِ عن الغريب الحوشي، وينزلون بلغتهم إلى الإنسان العادي.

ومع هذه السهولة نجد الشعراء قسموا ألفاظهم على ضربين حسب مقتضى الحال، فالضربُ الأول الذي نَظَّمَ الشعراء عليه شعرهم المدحيّ، والفخر، ووصف الصَّحراء، والرحلة، والظَّعن، والأطلال، والسَّراب، واللّيل، جاءت لغتهم قوية تستوحي من الصحراء ألفاظها وبيئتها، تَصِفُ قسوتها، وحرارتها، وليلها، وحيوانها، وخراب ديارها، ولكن جاءت في لباس حضري، متخلِّياً عن الغريب والصَّعب قريباً إلى روح العصر وفهمه.

فالمقدمات الطلليّة مثلاً، أغلبُ الظَّنِّ أنّها لم تكن تَصْدُر من عاطفة صادقة، وتجربة حقيقية، وإنّما جاءت في مجملها من قبل الاقتداء بالشّعر العربي القديم، لذا جاءت ألفاظهم قريبة من الألفاظ التي استخدموها، فالألفاظ التي استخدمها الشعراء عند وصفهم للأطلال، تَنِمُّ في مجملها الإيحاء للقارئ بجوِّ الاندراس والخراب، دمنٌ، طامسة، دراسةٌ، ممحوة، رسوم، النّوى" وهذه الألفاظ وإن بَدَتْ لنا في شيء من الغرابة، إلا أنّها جاءت في هذا العصْر، رقيقة، مفهومة، للقارئ والسّامع، على حدٍ سواء، ومن ذلك وصف ابن قلاقس:

لمن رسومُ الدّيار باللّبَبْ ... قد دَرَسَتْ من تعاقب الحِقَبْ
لم تبقِ من رسمها الرِّياحُ سوى ... نُؤْيٍ فمستوقدٍ بمحتَطِبْ
بدت لعينيكَ وهي مزمنةٌ ... أثارُها كالسطور في الكتب
وأقبلَ الدَّوحُ في جوانبها ... يَضحكُ من فيض مَدْمَع السُّحبْ
فالأرض تبدو لعين ناظرها ... مختالةٌ في ثيابها القُشُبْ
ياحادي العيس قف بها سحراً ... فحيِّ رسم الكثيِّب من كَثَبْ

---

[٤] أبو هلال العسكري (الحسن بن عبدالله ت ٣٩٥هـ): الصناعتين، تحقيق، مفيد قمحية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١، ص٣٩ نؤى: مجرى الماء حول الخيمة.

فـــالجزع فـــالمنحنى فبرقـــة تيـــ ـمـــاءَ فـــوادي الآراك فـــاللبب[٥]

فالذي يقرأ هذا الشعر الطَّللي لايرى أيَّ صعوبة في ألفاظه ومعانيه، فقد جاءت واضحة رقيقة، تبتعدُ عن الوعورة والغرابة وكلُّ ما يقلق فكر القارئ، وقُدِّمت بأقرب الطرق وأيسرها، مع احتواء ألفاظها ومعانيها صفات الإندراس، والاندثار، والخراب.

ونرى الشاعر قد ركَّز على ألفاظِ الأماكن القديمة، مع أنَّ الواقعَ الذي يعيش فيه بعيد عن هذه الأجواء، ولكنَّه التقليد الذي يراعيه الشعراء في قصيدة المديح عبر كل العصور.

وإذا ما أراد الشاعر أن يمخَرَ عباب الصَّحراء ليصفها، بَحَثَ عن الألفاظ التي تؤدي تلك الأجواء، فجاء بالألفاظ والصفات التي تدل على الوحدة والوحشة والخلاء. ليقنعوا المتلقلي بما عانوه في هذه المجاهل، من مثل ألفاظ "طامسة، مجهولة، مهمه، قفر، ديمومة، وفلاة، وغبراء، وتنوفة، بالإضافة إلى ألفاظ التي تدلُّ على الحرارة والخوف والترقب" وجاءت الألفاظ التي استخدمها الشعراء بعيدة عن أجواء وبيئة هذا العصر، واقترب إلى حدٍّ بعيد عن بيئة الصحراء ومفرداتها، حتى يضفي نوعاً من الصِّدق الفني على قصيدته ومن ذلك وصف ابن أبي حصينة، يقول:

مجهولة البيد لم يُمَدَّ بها طُنُبٌ من الغريب ولَمْ يضربْ بها وَتَدُ[٦]

ويقول:

ذات جِنٍّ لها إذا اعتكر اللَّيـ ـل أليلُ مُرَجَّعٌ وغناءُ[٧]

ويقول:

وداوية يا سَلْمَ قَفْر كأنَّها برأدِ الضُّحى بَحْرٌ من الآل طافح
بمهلكة لاالسَّيد فيها مصوِّتٌ ولا الطَّيرُ منها في ذرى الأيك صادح[٨]

ويقول فتيان:

---

[٥] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٨١. وانظر ديوان القاضي الفاضل، ج١، ص٤٢، وابن الخياط: ص١٥٤ وابن أبي حصينة، ج٢، ص١٢٣، وابن قلاقس، ج١، ص١٦٤، النؤى: مجرى الماء حول الخيمة.

[٦] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ١٠٥، الطنب: حبل الخيمة.

[٧] المصدر السابق: ج٢، ص١٢٧، اعتكر الليل: أظلمَ.

[٨] المصدر السابق: ج٢، ١٥٢، رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء، الآل: السَّراب.

بهـــاجرة مثـــل نـــار الجحيـــم إذا مـــا انتصـــاف النَّهـــار اصطلاهـــا[٩]

ويقول ابن أبي حصينة:

وجبنـــا إليـــه كـــلَّ تيمـــاء لاتـــرى بهـا غـير سـيدان الظهـيرة عُسَّـلا[١٠]

ويقول ابن حيوس:

وخطيطـــة ضـــنَّ الغمـــامُ بريِّهـــا خَلَّفتَهـــا خَلفِـــي وســـرتُ مُيمِّمـــا[١١]

ويقول:

وتنوفـــةٍ عَقِمَـــتْ فمـــا تَلِـــدُ الكـــرى لكنّهـــا للنائبـــات وَلـــودُ[١٢]

ولصورة السَّراب في أذهانهم أثر كبير في اختيار ألفاظهم، فظهرت صورته من خلال ألفاظ "اللَّمعان، والاضطراب، والخفوق"[١٣] وهذه الألفاظ تحمل معنى وصف السَّراب.

ولم يزد الشعراء في هذا العصر في وصفهم للرحلة عما جاء به الشعراء في العصور السابقة، واقتربوا إلى حدٍّ كبير من تَمَثُّلِ هذه الأجواء، فجاءت ألفاظهم في غالبها قريبة من ألفاظهم فيها شيء من القوة والغلظة، والغموض والغرابة، فمن ألفاظ الرِّحلة "السُّرى، والصَّبر علىالمخاطر، أما المطيُّ فاختاروا لها الفاظ "الصبر والقوة، والسُّرعة، والضّمور، صلبة، شملة، كبيرة الحجم، مرقالة، نجيبة، صهباء، يعملة، ذعلبٌ، دعلبةٌ، هوجاء" وهذه كلها ألفاظ تدلُّ على صفات جيدة أراد الشاعر لناقته أن تتصف بها، لتستطيع أن تتحمل أعباء السفر مع صاحبها الذي عَزَم عليه، ومن ذلك قول ابن قلاقس:

لأصْرِمَـــنَّ الهَـــمَّ عنـــي إنْ أتـــى بذعلـــبٍ معتـــادة جـــدَّ السُّـــرى
دِعْبِلَـــــةٌ هوجـــــاء ذات مَيْسَـــــمٍ تعـــوَّدَتْ بـــه إذا وسَـــمَ الفـــلا
يلـــوحُ فـــي الصفصـــف والقـــاع إذا بـــدا الصَّبـــاحُ ثَمَّـــتَ انجـــاب الدُّجـــى

---

[٩] فتيان الشاغوري، ديوانه، ص٥٦٥، وانظر ديوان ابن حيوس: ج٢، ص٥٤١، الهاجرة: النهار.

[١٠] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٥٣. التيماء: الفلاة. السّيدان: الذّئاب.

[١١] ابن حيوس: ديوانه،ج٢، ص٥٣٩. ضنّ: بَخِلَ.

[١٢] المصدر السابق: ج ، ص١٥٨.

[١٣] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٢٧. وابن أبي حصينة. ج٢، ص١٠٥، ص١٣٣، ص٢٧.

مثـل النّسـوع فـي النُّسُـوعِ، تـارةً　　وتـارةً مثـل السُّرى وسـط السبرى
مـرّارة الأيـدي ولكـن وخدُهـا　　يَنْعُـدُ بـالأرجُلِ صلبَـةُ القَـرَا
تلـوحُ كالأشـباح فـي البيـداء مـن　　تعـاقُبِ الأخمـاس مـع الطـوى
عَـوْدٌ دفـاقٌ عَنْـدلٌ تلعـاء لا　　طليحـةٌ تشـكو حفـاً ولا وجـى
تلـوحُ كالسُّـفين فـي الآل إذا　　نَظَرْتَهـا يومـاً إذا الآلُ طفـا[١٤]

وعندما يصفون الظعن ترتسم في أذهانهم صورة الحبيبة التي أخذت الطُّرقات تبعدها شيئاً فشيئاً، لذا ترسموا خطى من سبقهم في اختيار الألفاظ التي تبعث في النفس الشعور "باللوعة، والشكوى، والفراق، والبين" ولكن جاءت في حُلَلٍ جديدة يطغى عليها رقة وذوق هذا العصر، فلم نَرَ الألفاظ التي تحتاج إلى كبير عناء في فهمها، بل جاءت ناطقة بروح هذا العصر ووضوحه، ومن ذلك قول ابن قلاقس:

رعـى اللـه رَكْـبَ المسـتقلين سَـحْرَةً　　بعيسِـهمُ قصـداً إلـى أبـرق الحمـى
فمـا بـات للأحبـاب ضـامنُ لوعـةٍ　　لفقدِهِـمُ إلا امـرؤٌ بـاتَ مُغرمـا
فـي الكلحـة الحمـراء ظبـيُ صريعـةٍ　　سـقاني غـداة البيـن بـالبين علْقَمـا[١٥]

وعندما يتناولون الألفاظ الدالة على ألوان الخيل فمن الطبيعي أن يختاروا لها الألفاظ الدالة على الألوان المحببة إلى النفس من مثل "المحجَّل، والاشهَب والأدهم، والاشقر"[١٦] وهي ألفاظ مستمدة من قاموس عصرهم الحضاري، وعندما يتحدثون عن سرعتها يختارون لها الألفاظ التي تدلُّ على السُّرعة أو تتصف بها، ليبينوا من خلال ذلك الصفات الجيدة لخيولهم، ومن هذه الألفاظ "الريح، لمح البَصَر، وإقبال المحبِّ على محبه، والشّهاب، والبرق، والعقَاب والأسد، والمارد" ومن ذلك قول ابن سناء الملك:

وأشـقر مـازلْتُ مـن جريـهِ　　أطـوى بـه البيـد كَطَـيِّ الكتـاب

---

[١٤] ابن قلاقس: ديوانه، ج ، ص ، وانظر ديوان ابن أبي حصينة: ج٢، ص٧٩، ص٢٢٥، ص١٨٠، والحكيم، ص١٢٠، وفتيان، ص٥٦٥، الذعبلة: الناقة القوية. الميْسَم: ذات وسم أو علامة. الصفصف: المستوى من الأرض. النسوع: جبل عريض تُشدُّ به الراحلة، النُسوع: الطريق ذات الشرَك. البُرى: السهم، البرى: التراب. تلعاء: طويلة الرقبة، الطلحة: العيا والتعب.

[١٥] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص٢٩٧، السَّحر: قبيل الصبح، الكلحة الحمراء: الهودج.

[١٦] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٢، ص٥١٠.

كأنّمـــا أرجُلُـــهُ فـــي الفـــلا أنـــامِلٌ تُسْـــرِعُ لقـــطَ الحســـاب
يجـــري فـــلا أعلَـــمُ عجبـــاً بـــه أمـــا ردّ أبصـــره أم شـــهابُ
كـــم غصـــةً للـــبرق مـــن أجلـــه فليْـتَ شـعري كيـف حـال السـحاب[١٧]

أما صوتها، فيمازجون بين الألفاظ الموسيقية وأصوات الطبيعة المختلفة، ليظهروه ناصعاً بيّناً واضحاً ومن هذه الألفاظ "الغناء، والترجيع، والطّربُ، والعودُ، والصّهيلُ، والجرس"[١٨] أما الحمامُ، فاختاروا لها الألفاظ التي تدل على إثارة العواصف الحزينة في القلوب، لأن أغلب الموضوعات التي تناولت في وصفها الحمام جاءَتْ من خلال وصف الشاعر غربته وأحواله بعد أن فارقته حبيبته، فجاءت ألفاظه دالة على حالته، من مثل ألفاظ "الشوق والحنين، والنواح، والفجيعة، والبين، والأسى، والذكرى، والنحيب، والفراق، والشكوى، والفقد، والنّوى" ومن ذلك قول ابن منقذ:

ياروعتـــا لطـــائر نـــاح علـــى غصـــن، فـــأغرى بالأســـى مـــن فقـــدا
أظنّـــه فـــارقَ إلأفـــا، كمـــا فـــارقتُ أو كمـــا وجـــدتُ وجـــدا
أرمـــى جراحـــات بقلبـــي للنّـــوى ومـــا علمـــتُ نـــاح حزنـــاً أم شـــدا
ولكـــن يُهيّـــجُ للحزيـــنُ بثُّـــهُ إذا رأى علـــى الحزيـــن مُســـعدا[١٩]

واختاروا لصوته الألفاظ التي تَدلُ على جمال الصّوت مـن مثـل أصـوات المرتلين والمغنين وألحان الموسيقي من مثل الفاظ "الترنُم، والترتيل، والغناء، ومزاميز داوود، الشّدْو، والنحيب، والمثاني، والمثالث"[٢٠]. وألفاظ الليل، فمن الطبيعي أن يختار الشعراء الألفاظ التي تحمل المعاني الدالة على شدة سواده وظلمته، مستعينين بالألوان تارة، وبالثياب تارة، وبالعيون تارة أخرى، ومن

---

[١٧] ابن سناء الملك: ديوانه، ج١، ص٩٧، طوى: قطع.

[١٨] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٢، ص٥١٠، وانظر وصف الخيل في الفصل الأول من هذا البحث.

[١٩] أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٦٧، ص٥٩، ص٧٦، ص٧٨. وانظر ديوان الشاغوري: ص٧٦، ص٢٩١، ص٣٧٧، وعرقلة الكلبي، ص٥، ص٦، وابن سنان: ص١٤٨.

[٢٠] انظر: أسامة بن منقذ، ص٩٩، وظافر الحداد، ص٣٤٧، وابن الساعاتي، ج١، ص١٩٦.

ألفاظهم "مظلم، دجوجي، أطمار الثكالى، الطرة السّواء، ثوب الحداد، أحداق الجآذر، الشَّعر الأسود، الزّنجي، والغراب"[٢١].

واختاروا لطوله الألفاظ التي تدل على ذلك ليستطيعوا من خلال ذلك وصف الحالة النفسية المختلفة لهم من مثل ألفاظ "سرمدا، الأنجم، واقفة، نوم الصّباح، موت السَّحر، ركود النجوم، وشيب الشَّعر"[٢٢].

والضرب الثاني، تناول فيه الشعراء وصف الرّياض، والأزهار، والقصور، والبرك والخمرة، والغزل، والمجالس، فقد ظهرَتْ فيه الألفاظ الحضارية التي تميز به العصر بوضوح، فهذبت لغتهم ورَقَّتْ، ومالت إلى الغنائية أكثر، حتى ليظن المرء أن الشاعر قد جاء بالألفاظ العامية في شعره، ومالت الألفاظ إلى بيان الجمال التي تتمتع به هذه الأماكن، ومن ذلك قول العماد الأصفهاني واصفاً حديث فتاته:

يقولُ لي بانكسار	**ورقة واعتلال**
معاتباً بحديث	**أصفى من السلسال**[٢٣]

ويقول الحكيم:

علل فؤادك باللذات والطَّرب	**وباكر الرَّاح بالطاسات والنُّخبِ**
أما ترى البركة الغناء قد لبست	**فرشاً من النّور حاكته يد السُّحبِ**
واصبحت من جديد النبت في حلل	**قد أبرز القطر فيهن كل محتجب**
من سوسنٍ شرق بالطَّلِّ محجره	**وأقحوان شهي الظلم والشَّنبِ**

---

[٢١] انظر: خريدة القصر، شعراء مصر، ج١، ص١١٥. وديوان ظافر الحداد، ص١٦٠، وابن الساعاتي، ج١، ص٦٥، ص٢٦٢، ص٢٦٧، وفوات الوفيات، ج٣، ص٣٢، وشرف الدين الأنصاري، ص١٤١. وخريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ص٤٩٩.

[٢٢] انظر: خريدة القصر، شعراء الشام، ج١، ص١١٥، وظافر الحداد: ص١٦٠، وابن الدهان، ص١٣٢. وابن الساعاتي: ج١، ص٤٨، ص٥٢، ص٢٦٢.

[٢٣] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٣٤٤. وانظر ديوان ابن سناء الملك، ج٢، ص٥٦٩. وفتيان، ص٧٥، ص٩٠، ص١٨٨.

وانظـر إلـى الـورد يحكـى خـدَّ محتشـمٍ　　　من نرجس ظلَّ يحكي لخـط مرتقـبِ[٢٤]

ونتيجة للمؤثرات الأجنبية المختلفة، استخدم الشعراء في شعر الطبيعة كثيراً من الألفاظ الدَّخيلة على العربية، وخاصة ألفاظ الأزهار، والأديرة، والألبسة، والخمور، ومن الألفاظ التي وجدت بكثرة في شعر الشعراء الطبيعة في عصرنا، واستخدمت في العصور السَّابقة:

الجوسق : القصر أو الحصن وهو تعريب كوشك الفارسية.

المسوح : ثوب من الشعر غليظ يلبسه الرُّهبان على البدن تقشفاً وقهراً للبدن.

الشعانين : مشتقة من العبرية "هوشعنا" ومعناها "انقذنا" والشعانين عيد من أعياد النصارى يقع في الأحد الذي يسبق عيد الفصْح من كلِّ سنة.

البيعة : متعبد النصارى، واللفظة سريانية بمعنى البيضة والقُبَّة.

الطومار : الصحيفة أو الورقة وهو لفظ دخيل.

الجامات : الكأس.

النوافج : وعاء المسك

الطوبى : لفظة سريانية بمعنى الغبطة والسَّعادة

الديباج : ضرب من الثياب، فارسي معرب، ويقول صاحب اللِّسان: وأصلها دبَّاج، وإنما أبدلو الباء ياء اشتياقاً لتضعيف الباء.

التاختج : ضرب من النَّسيج، لفظة فارسية.

السكرجة : الإناء الصغير، لفظة فارسية.

الأذريون : زهرة أصفر في وسطه خمل أسود، فارسية بمعنى شبه النار.

القومس : الأمير والرَّجل الشريف والسَّيد، لفظة فارسية.

النواقيس : مضراب النَّصارى الذي يضربونه لأوقات الصلاة.

الأسقف : رئيس النَّصارى في الدين، لفظة سريانية.

برنس : قلنسوة طويلة يلبسها النُّساك، لفظة غير عربية.

الشمّاس : من رؤوس النصارى، الذي يحلق وسط رأسه ويلزم البيعة.

الطارمة : بيت من الخَشب كالقُبَّة، وهو لفظ دخيل أعجمي معرب.

---

[٢٤] الحكيم: ديوانه، ص٥٢٩، ص١٠٩. وانظر ديوان ظافر الحداد، ص٤٨، ص٥. وابن الساعاتي، ج١، ص٦١، والبهاء زهير، ص٥٥، وفتيان الشاغوري، ص٢٦٨، وانظر الفصل الثاني والثالث من هذا البحث.

الصولجان : العود المعوج، فارسي معرب.

شاذروان : اسم منطقة، لفظة فارسية.

الطيلسان : ضرب من الأكسية، و أصله فارسي "تالشان" معرب.

الزرجون : لون الذهب وقد شبهوا بها الخمرة وهي من مقطعين زرا: الذهب، وجون: اللون.

الإبريق : إناء، جمعه أباريق، فارسي معرب.

الإستبرق : الدّيباج الغليظ، فارسي معرب.

آذريون : نوع من الزهر، فارسي معرب.

ومن الأمثلة على ذلك مما ورد في أشعار هذا العصر، قول ظافر الحداد مستخدماً كلمة الطيلسان في وصفه:

عمامة شُربٍ في حواشٍ بخضرة أُضيف إليها طيلسان مقوّرُ[٢٥]

وقول الحكيم مستخدماً كليمة الدّيباج:

نحنُ في روضة مفوّفة دَبَّجَ بالنّورِ عَطفُها ووشى[٢٦]

والبهاء زهير مستخدماً كلمة القوارير:

وفي الشّطِّ حبابٌ مِثلُ أنصاف القوارير[٢٧]

واستخدام ابن أبي حصينة كلمة الزرجون:

وكأنّما زرجونةٌ جاءت بها سُقِيَتْ فذاب التبر عند غرسها[٢٨]

وعرقلة الكلبي مستخدماً كلمة الشعانين، يقول:

---

[٢٥] ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٣.

[٢٦] الحكيم: ديوانه، ص١٠٩.

[٢٧] البهاء زهير: ديوانه، ص١١٠. وانظر ديوان فتيان: ص٧٨.

[٢٨] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج١، ص٣٥٦.

وفـــي الشـــعانين مـــن أولاد جفنـــة لـــي ظبـــيٌ يناشـــدني أشـــعار حســـان[٢٩]

واستخدام ظافر الحداد لكلمة الجوسق، يقول:

للـــه يومـــي بـــالثغر فـــي الجوســـق والأرض تُجلى فـي روضهـا المونـق[٣٠]

واستخدام ظافر الحداد لمفردة استبرق، يقول:

والنّيـــل يحشـــو حشـــا الخليـــج وقـــد كســـاه زهـــرُ الرَّبيـــع باســـتبرق[٣١]

واستخدام مفردة الدمقس، يقول ظافر:

ودرَّجَـــتْ مـــاءَه الصّبـــا فحكـــى ثـــوبَ حريـــرٍ مُدَمْقَـــسٍ أزرقِ[٣٢]

واستخدام فتيان لمفردة شاذروان، يقول:

فكـــم حســـام علـــى منـــابر شـــاذروانِها للميـــاه مشـــهور[٣٣]

واستخدامه لمفردة البيعة، يقول:

شـــجَرِ الجـــامع أشـــجارُهُ ونحـــنُ فيـــه كَدُمـــى البيعـــة[٣٤]

واستخدام الشريف العقيلي لكلمةطارمة، يقول:

وعندنـــا طارمـــةٌ رَسْـــمُها فـــي كـــلّ يـــوم مثـــل ذا يَنْصِـــبُ[٣٥]

واستخدامه لكلمة الصولجان، يقول:

---

[٢٩] عرقلة الكبي: ديوانه، ص٩٦، وانظر ديوان ابن منير الطرابلسي: ص١٧٢.

[٣٠] ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٣٠. وانظرديوان التلعفري، ص٤٤.

[٣١] المصدرالسابق: ص٢٣٠.

[٣٢] المصدر السابق: ص٢٣٠.

[٣٣] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٧٨.

[٣٤] المصدر السابق: ص٢٦٨.

[٣٥] الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص٥٨.

غريبُ افتتان الدّلّ في الحُسْنِ لم يزل تعقربُ أصداغٌ له وتُصَوْلَجُ(٣٦)

أما الأساليب، فقد استخدم الشعراء عدة أساليب لتوصيل أفكارهم إلى مخاطبيهم وشد الانتباه إليها، وأهم هذه الأساليب الأسلوب القصصي، والذي عبر عنه قحطان التميمي بأسلوب الحكاية القصصية باعتبار "الحكاية أقرب إلى روح الشعب، الذي يميل دوماً إلى الحَديث السَّردي والأسلوب القصصي"(٣٧) وهذا الأسلوب الأقربُ في كلّ العصور إلى نفسية المخاطب، وأكثر ما تجلى هذا الأسلوب في وصف الشُعراء الرِّحلة إلى ممدوحيهم، فيصفُ الشاعر بأسلوب سردي، ما تعرض له من محن ومخاطر في رحلته(٣٨) واستخدم هذا الأسلوب كذلك في وصف ظعن المحبوبة، مبدين من خلاله الحرقة والألم، وصورة المحبوبة، ومنظر القباب، وزمن السَّفر، ووجهته، وجهادهم في رؤية المحبوبة(٣٩). وظهر هذا الأسلوب عند الحديث عن الصَّياد وفرائسه، والمعركة التي تدور بينه وبين طرائده، فيبدأ بوصف الطبيعة المحيطة به، وحالة التَّرقب والخوف منه ومن فرائسه، ثم تبدأ المواجهة إلى أن تنتهي إلى النتيجة التي يصبو إليها الشاعر، بأسلوب قصصي رصين، بعيد عن الحوشي والغريب من الألفاظ، الذي كان يكثر في مثل هذا النوع من الشعر(٤٠)، وتجلى هذا الأسلوب في قصائد الطرديات، إذ نجد الشاعر يقصُّ علينا رحلة صيده، بأسلوب شيق بعيد عن التكلف مهذب. بعيد عن الغريب، الذي ساد القصائد في العصور السابقة، وكأن روح العصر قد مزجت أساليبهم بالرّقه والسهولة(٤١)، واستخدمه الشعراء في وصف رحلتهم البحرية وما تعرضوا له من خوف واضطراب نفسي، نقلوا من خلاله أدق التفاصيل(٤٢). واتخذ الشعراء من هذا الأسلوب، طريقة مثلى لعرض واقعهم الاجتماعي، ومن ذلك قصيدة ابن معمعة الحمصي الذي وصف فيها ديكة، وحالبه

---

(٣٦) المصدر السابق: ج٢، ص٣٠. انظر: فهارس كتاب الديارات للشابستي فهرس الألفاظ النصرانية المعربة، تحقيق كوركيس عواد.

(٣٧) قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الغزل في القرن الثالث الهجري، دار المسرة، بيروت، ص٣٤٧.

(٣٨) انظر: ديوان ابن قلاقس: ج١، ص٣١٢، ص١٨٣. ج٢، ص٤٠٣. وابن عنين، ص٣٥. وابن الخياط، ص٧٤.

(٣٩) انظر: قلائد الجمان، ج٣، ص٧٨، وابن قلاقس، ج١، ص٣١٩، والملك الأمجد، ص١١٥.

(٤٠) انظر ديوان ابن قلاقس ج١، ص٨٢، وابن أبي حصينة، ج٢، ص٥٣.

(٤١) انظر: ديوان الحكيم، ص١٠٣، وقلائد الجمان، ج٣، ص٢١، وابن الساعاتي، ج١، ص١٣٥، وابن عنين، ص٢٠، والعماد الأصفهاني، ص١٩٢.

(٤٢) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٥٣-١٥٤.

وحال بناته، يعرضها بهذا القالب حتى يثير في نفس الوالي الرَّحمة والشَّفَقة على حالة عياله[٤٣] ووصف الشعراء بهذا الأسلوب الحكواتي حالهم وما تعرضوا له من لسعات البق، والبراغيث والبعوض[٤٤] واستخدموا هذا الأسلوب عندما يريد الشاعر التَّهكم والسُّخرية ومن ذلك وصف ابن عنين لخروف أهديَ له من أحد أصدقائه[٤٥] ووصف البهاء زهير بغلة صديقه[٤٦].

وإبراز معاركهم مع الذئاب[٤٧]، والمعارك الحربية[٤٨] ووقوفهم بالأديرة[٤٩] ومن الأساليب التي استخدمها الشعراء، أسلوب التكرار، وهو يُشَكِّلُ قيمة موسيقية مهمة، ووسيلة من وسائل التنوع النغمي في الشعر، فإلحاح الشاعر "على جهة هامة في العبارة، يعني بها الشاعر، أكثر من عنايته بسواها.... فالتكرار يُسلِّط الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة"[٥٠] فأسلوب التكرار يوضح قيمة يُريد الشاعر من خلالها أن يؤكد على جانب مهم في القصيدة أو المقطوعة، ومن هذا قصيدة لابن منير الطرابلسي يصف فيها الرَّبيع، فكرر كلمة "كأنّ" التشبيهية، لينبِّه المخاطب إلىجمال الرّبيع، وأزهاره المختلفة الألوان، يقول:

كأنّ ما اصفرَّ والمحمر يرقبه ... في محفل النَّور محزون ومسرور
كأنّ أكمامَهُ من تحت زاهره ... في الدَّوح ضدّان: مهتوك ومستور
كأنّ نواره والرِّيحُ تقذفه ... في الماء جيشان: مخذول ومنصور
كأنّ أظلاله والشَّمسُ ينسجها ... عنه رداءآن: مطويٌّ ومنشور
كأنّ يانعه من بعد مورقه ... فيه حديثان: معلولٌ ومأثور
كأنّما الثلج والنارنج مرتدياً ... به مجامر نارٍ فوقها نورُ[٥١]

---

[٤٣] انظر: نثار الأزهار في اللّيل والنّهار: لابن منظو، ص٩٨.

[٤٤] انظر ديوان الحكيم، ص١٢٩، وظافر الحداد، ص٢٣٧، والعماد الأصفهاني، ص٢٤٨.

[٤٥] انظر ديوان ابن عنين، ص١٣٤، وابن عنين، ص١٣٤. وعرقلة الكلبي، ص٦٣.

[٤٦] انظر :النويري: نهاية الأرب، ج١، ص١٢.

[٤٧] انظر: ديوان ابن أبي حصينة، ج٢، ٢٦٧.

[٤٨] انظر: ديوان ابن الساعاتي، ج١، ص١٣٥، وابن عنين، ص٢٠، والعماد الأصفهاني، ص١٩٢.

[٤٩] انظر: ديوان الحكيم، ص١٠٣. وقلائد الجمان، ج٣، ص٢١.

[٥٠] نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، ط٢، مكتبة النهضة، بغداد، مطبعة التضامن، بغداد، ١٩٦٥، ص٢٤٢.

[٥١] ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ص١٤٩، وانظر ديوان ظافر الحداد، ص١٦٥. والعماد الأصفهاني، ص١٧٩.

ومن الأساليب التي سادت عند شعراء الطبيعة في هذا العصر، أسلوب المبالغة في إظهار الصُّورة، وجاءت هذه المبالغات في الغالب في قوالب من التكلف الذي تَمُجُّهُ النفْسُ، وينفر منه الذوق، وساد هذا الأسلوب في قصائد المديح[٥٢] ووصف المعارك[٥٣].

ومن الأساليب التي استخدمها الشعراء في هذا العصر كذلك أسلوب التعليل والجدل والإقناع، ويسوق فيه الشاعر أدلته وبراهينه، ليدلل على الفكرة التي يريد إبرازها، والدّفاع عنها، ومن هذه القصائد، قصيدة ابن سناء الملك في ذم الشمّس:

لاكانت الشَّمسُ فكم أصدأتْ صفحة خدّ الحسام الصَّقيل
ولم وكم صَدَّتْ بوادي الكرى طيف خُيالٍ جاءني في خليل
واعدمتني من نجوم الدُّجى ومنه روضاً بين ظلٍّ ظليل
تَكْذِبُ في العهد وبرهانُهُ إن سِرْبَ القفر منها سليل
وتحسبُ النَّهْرَ حساماً فتر تاعُ وتحكي فيه قلب الذليل
إن صدى الطَّرفِ ما صَقْلُهُ إلا التحلي بمحيا جميل
وهي إذا أبصرها مُبْصِرٌ حديد طرف راح عنها كليل
يا غُلَّةَ الهموم، ياجلدة الـ حموم يازفرة صبٍّ نحيل
يافرحة المشرق وقت الضُّحى وسلحة المغرب وقْتَ الأصيل
أنت عجوز فَلِمَ تبرجْتِ لي وقد بدا منك لعاب يسيل
وأنت بالشيطان قرنانَةٌ فكيف تهديننا سواءَ السَّبيل[٥٤]

أما البهاء زهير، فيسوق تعليلاته وبراهينه، ليدلل على سوء فرسه وقبحها[٥٥] ويستخدم فتيان هذا الأسلوب، ليدلل على حُسْنِ دمشقَ، وسبب تفضيله اياها علىغيرها من المدن[٥٦]، ويسوق ابن عنين على سبب رثائه لحماره، والصفات التي دعته إلى البكاء والتّحسر عليه[٥٧]، ويدعو فتيان

---

[٥٢] انظر: قلائد الجمان، ج٣، ص٢٢، ص٣٧.

[٥٣] انظر: ديوان ابن قلاقس، ج١، ص١٥١، والبهاء زهير، ص١٠١.

[٥٤] ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص٥٧٧، ترتاع: تخاف، اللعاب: ماسال من الفم.

[٥٥] انظر: ديوان، البهاء زهير: ص٣٠٠.

[٥٦] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٥٨٩.

[٥٧] ابن عنين: ديوانه، ص١٤٠، وانظر نهاية الأرب، ج١، ص٩٢.

أصدقاءه إلى مجلس شراب، ويعلل لهم أهمية هذا المجلس، وصفاته، وما يحوي من مباهج[٥٨]، ويعلل ظافر الحداد سبب استيائه من الحمّام الذي دخله، فهو مليء بالبعوض، والماء فيه بارد، ويسبب الأمراض والنزلات الصّدرية، أضف إلى ذلك الأوساخ التي تعمُّ المكان[٥٩].

ومن الأساليب التي استخدمها الشعراء، المحسنات البديعية، حتى غدا سمة من سَمات العصر، وأصبح أسلوبهم ينهج هذا النَّهج، حتى غدا كلامهم يبحث عن التزويق اللفظي أكثر من المعنى، ومن هذا الطباق والجناس، فألح الشاعر على استعمال هذا الأسلوب، حتى غدت القصائد لاتخلو من أحدهما.

ومن الطباق قول ابن أبي حصينة مطابقاً بين بكاء المطر من جهة، وتبسم الأقحوان، يقول:

وأصبح كلّما بكت الغوادي ... تبَسَّمَ في رباه الأقحوان[٦٠]

ومنه قول عرقلة الكلبي مطابقاً بين كلمة "يحيى" و"هلاك" في وصفه للخمرة الممزوجة بالماء، يقول:

بالماء يحيى كلُّ شيء هالكٍ ... إلا الكؤوس هلاكُهنَّ الماءُ[٦١]

ويطابق البهاء زهير بين كلمتي "مدبرة" و "اقبلت" في وصفه وتندره على بغلة صديقه، يقول:

وتخال مدبرةً إذا ... ما أقبلتْ مستعجله[٦٢]

وقول فتيان الشاغوري مطاقاً بين كلمتي "قديماً" و "حديثاً":

لاتبطرم ويكَ إني عالم ... بك ياقردُ قديماً وحديثاً[٦٣]

والصوري يطابق بين كلمتي "طلوعاً" و "نزولاً" في وصفه للشمس:

---

[٥٨] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢٦٨.

[٥٩] ظافر الحداد: ديوانه، ص٢، وانظر ابن عنين: ص١٣٤.

[٦٠] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١١٦.

[٦١] عرقلة الكلبي: ديوانه، ص٢.

[٦٢] البهاء زهير: ديوانه، ص٢٢٧.

[٦٣] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٧١.

فلـــن تســـتطيع إليهـــا طلوعـــا ولـــن تســـتطيع إليـــك نـــزولا[٦٤]

أما الجناس، فأكثر الشعراء من استخدامه كالطباق، ويمكننا أن نقول أنّه لاتكاد تخلو قصيدة منه في هذا العصر، واستخدامه بهذا الشكل المفرط، ليزيدوا من موسيقاهم الداخلية، ومن ذلك قول ابن قلاقس مجانساً بين كلمتي "بلابل" و " بلابل" يقول:

ولقـد سـهرتُ اللّيـلَ فيـكَ مناجيـاً لبلابـل صَدَحَـتْ صـدوح بلابـل[٦٥]

ويجانس كذلك بين كلمتي "عقاب" التي هي النتوء الناشز في الجبل و "العقاب" الطائر المعروف، يقول:

وعــلا عقابــاً لــو عــلا بحراكــه فيهـا عقـابٌ بـاتَ رَهْـنَ سـكون[٦٦]

ويجانس كذلك بين كلمتي "النثرة" التي هي اسم لمجموعة من النّجوم و "نثرة" التي هي اسم للنتوءات في الدرع، وبين "رَزْمَ" وهي الرُّمح وبين "المرزم" من منازل القمر، يقول:

وَضَــعَ النَّــثْرَةَ عنْـــهُ نَـــثْرَةً واكتفـى رَزْمَ لسـبـنانِ المــرزم[٦٧]

ويجانس ابن الدّهان بين كلمتي "الأجدل" وهي الصقر و "سَيُجَدَّلُ" أي سيقتل، يقول:

والنَّسْــر يتْبَــعُ جيشَــهُ والأجــدلُ علمــاً بــأنَّ عــدوَّهُ ســيُجدَّلُ[٦٨]

وابن أبي حصينة يجانس بين جنْدَلَ" الصَّخر و "جندلا" فتاته يقول:

وخيـــلٍ يحفــرْنَ الصّفــا بحوافــرٍ يُلقيْـنَ منهـا جنـدل القـاع جنــدلا[٦٩]

---

[٦٤] الصوري (عبدالمحسن بن محمد بن أحمد بن غلبون ت٤١٩): ديوان الصوري، تحقيق، مكي السّيد، وشاكر هادي، ط١،دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠، ج١، ص٣٦٩.

[٦٥] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٤٧.

[٦٦] المصدر السابق: ج١، ص٢٣٨.

[٦٧] المصدر السابق: ج١، ص١٤٩.

[٦٨] ابن الدهان: ص١٨٥.

[٦٩] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٥٣.

ويقول ابن قلاقس مجانساً بين "يفاع" السَّحاب و "اليفاع" المحل العالي:

بنـــى شـــرف الفخــــار علـــى يفـــاعٍ   فكنـــتَ النـــار فـــي شـــرُف اليفـــاع[٧٠]

أما الأسلوب القرآني، والحديث النبوي الشريف الذي تعطرت بنفحاته القصائد الشعرية، فسوف نعرِضُ له في موضوع التراث في الصفحات القادمة.

ثانياً: الصورة والخيال:

الخيال والصُّورة صنوان، تشكلان معاً إبداع الشاعر أو الأديب، فهما كالجَسَد والرُّوح، فلاجسد بدون روح، ولاوجود للروح في واقعنا بدون الجسد، فلا يستطيع المتذوق للأدب أن يتصور صورة دون أن يضفي عليها الخيال شيئاً من بهرجته، فكثيراً ما يقف ذوقنا الفني في حدود إبداع الخيال لنحكم على النتاج الأدبي، إن كان غثاً أم سميناً.

فالشاعر المبدع، هو الذي يطلق لخياله العنان كي يضفي علينا من صوره ما يثير فينا اللذة الكامنة في اللاشعور، فنقف في حدودها، فتنقلنا مُخيلتنا عبر خياله إلى متاهات متشابكة في مسرح الطبيعة الكبيرة.

ففي باطن كلّ منا أمور شتى مختزنة في الذاكرة، أمدَّتنا بها العين والأذن خلال تطوافهما، فتبقى كامنة فينا إلى أن تثار، فتخرج على شكل انفعالات يكون دور الخيال فيها كبيراً، عن طريق تفصيلها وتنظيمها إلى صور، تنقل المتلقي إلى الأحساس والتأثر بها.

وقد تطرق الأستاذ أنور أبو سويلم إلى جمع عدة تعاريف للخيال، خرج بهذا التعريف للخيال، فهو "يعني الملكة أو القدرة النفسية والذهنية والتعبيرية، على تصوير العواطف، وعلى اختراع نسيج الصّورة من عناصر كثيرة مختزنة في الذاكرة واللاشعور متابعة في أصلها، يغيِّر الشاعر من هيئتها، وأشكالها، وعناصرها، ويهذبها لتكوِّن منها مجموعاً فنياً متآلفاً مُنسجماً فيه حياة جديدة نابضة"[٧١]

---

[٧٠] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ١٨١.

[٧١] أنور أبو سويلم: الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، ص ٤١٧.

ووظيفة الخيال هي الغوص في متاهات اللاشعور، ليطفو على سطحها مجموعة من الصّور التي يجسمها ويعيد تركيبها ثم يخرجها للواقع بحلل جديدة تنبض بالرّقة والعذوبة، مفعمة بالعواطف والأحاسيس.

وقد قسّم الأستاذ أحمد الشايب الخيال إلى عدة أقسام، الخيال والإبتكاري، والخيال التأليفي، والخيال التفسيري[٧٢]. وقد وصف النوع الثالث بأنّه "خيرُ وسيلة لوصف الطبيعة وصفاً أدبياً رائعاً لأنّه .. قائم على إدراك جمال الأشياء وأسرارها ثم اختيار العناصر التي تمثل هذا الجمال تمثيلاً قوياً"[٧٣]

أما الصُّور الشعرية التي تمثل أحد نتاجات الخيال فهي "تشكيل لغوي يكوّنها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها"[٧٤].

أما التفسير النفسي فيرى أنّها "تركيبة عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع"[٧٥] وتكمن أهمية الصورة بالنسبة للمؤلف أو القارئ أو المستمع في طريقة الإثارة وشد الإنتباه، فهي "تفرض علينا نوعاً من الإنتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع المعنى ونتأثر به"[٧٦] محركاً فينا الشعور باللذة والمتعة.

وقد تسابق الشعراء في كل العصور لإبراز تفوقهم وإظهار مواهبهم، وكان للصورة الشعرية الأثر الأكبر في الحكم على القصائد الجيدة، حتى عدتّ الصُّورة "ميدان العمل الذي تظهر فيه مقدرة الشاعر، ويبرز تمكنه من الصّنعة"[٧٧] والوسيلة الأقصر لـ "نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه ومستمعيه"[٧٨]

والصورة في جميع أحوالها سواء ما كانت الجيدة منها، الّتي تعطي للشعر روحاً، وتبعثُ فيه الجمال، ام الرّديئة التي لا تثير مكامن النفس، تعتمد على الخيال، فهو "القائم عليها، وهي جزء من

---

[٧٢] انظر: أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣، ٢١٣ - ٢١٨.

[٧٣] المصدر السابق: ٢١٩.

[٧٤] علي البطل: الصّورة الفنية في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنّشر والتوزيع، ١٩٨١، ص ٣٠.

[٧٥] عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار العورة، وزارة الثقافة، بيروت، ص ٦٦.

[٧٦] جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٩٨.

[٧٧] عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الثقافة، بيروت، ص ٢١٦.

[٧٨] أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص ٢٤٢.

مبنى القصيدة، وهي وسيلة الشاعر لتجسيد إحساسه، وتعبيرهِ عن حالة نفسيه معينة يعاني منها إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة [٧٩] ويرتبط الخيال والصورة الناتجة عنه بالعاطفة، فكلما كانت العاطفة صادقة تنبع من شعور صادق "أنشأت خيالاً رائعاً، وإذا كانت سقيمة أو مصطنعة كان الخيال هزيلاً سخيفاً"[٨٠].

وإدراك المناظر الطبيعة عند الشعراء وغيرهم حتماً تختلف من واحد إلى آخر، وجودة الصورة كذلك، فكثيراً ما وقف الشعراء في لحظة زمانية واحدة، في مكان واحد لوصف منظر معين، فتوحدوا في المنظر، وتفرقوا عند ميلاد صورهم.

واعتمد الشعراء على عدة أمور لإبراز الصُورة الشعرية، أهمها التشبيه والإستعارة "وأبلغ التشبيه وأجوده ما أوضحَ الغامض وقرب البعيد"[٨١] أما الإستعارة، فقد استخدمتْ لإثراء الصورة، وسدِّ العجز في النقل المجرد للأشياء فهي "كمثل التلسكوب الذي نستطيع بواسطته ان نرى نجوماً لا يمكن نراها بالعين المجردة"[٨٢].

واعتمد شعراء هذا العصر على منظارين في تكوين صورهم، المنظار الأول: اعتمد على الصورة القديمة التي وردت في شعر العصور السابقة، فاتخذها الشعراء نبراساً هادياً، عند وصفهم للأجواءِ التي لم يعيشوا فيها، بل فرضتها عليهم قصيدة المديح التقليدية، فظهرت صورة الأطلال متشابهة إلى درجة كبيرة لصورة الأطلال في العصور التي سبقتهم، مع التخفيف من الصورة الموحشة التي تتجمع في ثناياها الألفاظ الحوشية الغريبة، مطابقة لميول العصر وذوقه الذي نادى بالتخفف منها، فبدت صورة الأطلال خراباً مهجورة، ينعق فيها البوم، ويحجل فيها الغراب، كالأسمال القديمة البرود المنهجة، وسطور الكتاب، وآثار الخضاب، والثوب الموشي[٨٣].

أما صورة الظعينة في هذا العصر، فالمتتبع لها يرى التقليد واضحاً، فالصورة لم تعدْ كونها صورة جاهلية أو أُموية، متحررة كثيراً أو قليلاً من بعض قيودها، فالبوم والغرب ينعقان إيذاناً ببدء

---

[٧٩] عبد الجيليل عبد المهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ١٩٨٩، ص ٣١١.

[٨٠] أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص ٢٢٣.

[٨١] ساسين سيمون عساف: الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص ٦٨.

[٨٢] مصطفى ناصيف: نظرية المعنى في النقد الأدبي، دار الأندلس، ١٩٨١، ط١، ص ٢٠٥.

[٨٣] انظر: الفصل الثاني من هذا البحث، الأطلال، والمنازل، والدور.

الرحلة، والهودج الموشى على الراحلة، تجلس فيه فتاة الخدر كالظبي، ترقب بعينيها من جاء لتوديعها، وتظهر صورة الناقة والهودج عليها كالنخل المشمخر أو كالسفين(٨٤).

ورحلة الشاعر على راحلته متوجهاً صوب ممدوحه، لم تكن بأفضل حال من صورة الأطلال والظعينة، فمن خلالها ظهرت صورة الصحراء وحيوانها ونباتها، وبدت صورة الناقة قوية نشيطة أتعبها طول السرى، فظهرت كالقسى حيناً والهلال حيناً أخر، تتناغم من هذه الصُّور، صور حسّية ونفسية للشاعر والناقة، يتشابك من خلالها الصوت والحركة واللون ممزوجة بألم الصبر والمشقة على شدة الحرّ وبعد الشقة.

وصورة الصحراء، جاءت متلونة بالخوف، والانفراد، والاضطراب، والقحل، والهيبة، وعدم الأمان، ومن خلال هذه الرموز تبدأ الصور بالتداعي في مخيلة الشاعر، فالحر شديد كنار جهنم، يغلي منه رأس الضب، وسرابها كالأمواج، ولا يسمع فيها صوت سوى عزف الجنّ، وعواء الذئاب، وترى أثواب الأفاعي في كل مكان(٨٥).

أما المنظار الآخر للصورة في شعر الطبيعة، فجاء أكثر واقعية مما سبقه، فقد استمدّ الشعراء صورهم من بيئتهم، وصوروا واقعهم خير تصوير، فبدت صورهم جميلة محببة إلى النفس، بعيدة عن التكلف، تنبع من تجربة ورؤية صادقة، فالشاعر في صورةَ أضاف إليها عاطفة وأحاسيس يحس بها لا مجرد ناقل فقط، فقد أحسن الشاعر بمتعة المكان، وتلألأ المنظر في مُخيِّلَتِهِ، فجاءت قصائدهم غاية في الروعة والجمال.

وقد اعتمد الشعراء في كل ذلك على الملاحظة الدقيقة للطبيعة التي يعيشون في كنفها، فأمدتهم بمجال واسع من الخيال الخصب.

ولإبراز الشعراء لصورهم أكثروا من التشابيه المختلفة، فاختاروا لوصفهم شيئاً قريباً منه أو بعيداً عنه، ليزيدوا من جمال الصورة، وتبدو أقرب إلى الذوق والفهم، ومن ذلك وصف عرقة الكلبي لماء بردى:

والماءُ في بردي كأنّ حبابَهُ ... بردٌ جنتهُ الريح غير مُجمَّدِ

بينما تراه كالسجنجلِ ساكناً ... حتى تراه أجعد كالمبرد(٨٦)

---

(٨٤) انظر: ديوان ابن قلاقس، ج١، ص ٢٩٦، ص ٢٢٢، والملك الأمجد، ج١، ص ١١٥. وظافر الحداد، ص ٧٧.

(٨٥) انظر: ديوان ابن عنين، ج٥. وابن قلاقس، ج١، ص ٢٩٧. وابن حيوس،ج٢، ص ٣٨٠. وخريدة القصر، شعراء الشام، ج١، ١١٥. وانظر الفصل الثاني في هذا البحث: الصحراء والسراب.

(٨٦) عرقلة الكلبي: ديوانه: ص ٢٥.

وصورة اضطراب النيل التي أثارته الرياح، فكالسيف في يد خائف مرتجف، يقول الحكيم:

والنِّيـــل تحـــتَ الرِّيـــاح مضطـــرب كصـــارمٍ فـــي يميـــن مرتعـــش[٨٧]

وصورة السُّفن وهي تتماوج على صفحة الماء، فيصورها ابن الساعاتي بالعقارب فوق الأفاعي، يقول:

متباريـــــــات ســـــــــفنه خفضـــــاً براكبهـــــا ورفعـــــا
مثـــــل العقـــــارب أقْبلــــتْ فـــــوق الأراقـــم تســـــعى[٨٨]

وتبدو صورة الشمس وقد بزغت من خلف الغمام، فتاة محجبة تنظُرُ بطرف عينها من وراء سترها، يقول ابن هبة الله:

وتخـــالُ فيـــه ظهـــرهُ ســـحراً وتخـــالُ فيـــه شمســـهُ بـــدرا
فكأنمـــا خـــودٌ مُحجَّبَـــةٌ تَخَـــذَتْ لهـــا مـــن غيمهـــا ســـترا[٨٩]

وصورة الطل، تبدو لعماد الدين دموع مُحب او بريق من نار، يقول:

كـــأن ســـقيطَ الطَّـــلُ عَـــبْرَةُ مُغْـــرَمٍ وبارِقَـــةٌ مـــن نـــار لوعتـــهُ سُـــقط[٩٠]

وصورة الغدير، وصوت الطيور في رياضه، تبدو لفتيان الشاغوري خمرة مشعشعة، والزهر في حركاته، يماثل حركات المخمور، وتغريد الطيور كألحان المزامير، يقول:

كـــأنَّ غدرانـــه راح مشعشـــة فروضُـــهُ منتـــشٍ والزهـــرُ مخمـــور
وللطيـــور علـــى دوحاتـــه طـــربٌ كأنَّمـــا تُليـــتْ فيهـــا مزامـــيرُ[٩١]

---

[٨٧] الحكيم: ديوانه، ص ١٠٩.

[٨٨] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص ١٥٥.

[٨٩] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ص ١٥٤.

[٩٠] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص ٢٨٠.

[٩١] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ١٨٨.

وصورة أخرى للغدران والمطر يتساقط على صفحتها، فيصورها ابن الساعاتي بالدروع المصفوفة والسهام تسقط فيها، يقول:

وكأن الغدران صف دروع وقطار السحاب فيها سهام(٩٢)

أما الليل وقد لاحَ بدره، فيصوره ابن مماتي بالجبين الذي ظهر وسط شعر فاحم السواد، يقول:

كأنَّ ظلام الليل إذ لاح بدره دجوجيُّ شعرٍ لاح منه جبين(٩٣)

وصور سواده ابن هبة الله العلوي بسواد ثياب الحداد، يقول:

وليل كأطمار الثكالى ذرعتُهُ بصحبٍ يُضَاهون النُّجومَ الدَّراريا(٩٤)

وصورة الخمرة، فهي شمس تطلع في ليل المجلس، يقول فتيان الشاغوري:

تكاد تطلعُ شمسُ الضحى إذا الليلُ عسعس (٩٥)

أما صفاؤها ونقاء لونها، فعين الديك، ودم الغزال، يقول فتيان الشاغوري:

فبادرْ يا نديمي شُرْبَ راحٍ كعينِ الديكِ والمسكِ الذبيحِ(٩٦)

أما صورة لونها الأحمر في كاساتها، فكالياقوته الحمراء، يقول:

قم فاجلِ بنت الكرمةِ الخضراءِ في الكأس كالياقوتة الحمراءِ(٩٧)

(٩٢) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص ٦١.

(٩٣) العماد الاصفهاني: خريدية القصر، شعراء مصر، ج١، ص ١١٥.

(٩٤) المصدر السابق: ج١، ص ١١٥.

(٩٥) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ٢٢٨.

(٩٦) المصدر السابق: ص ٨٨.

(٩٧) المصدر السابق: ديوانه، ص ٤.

وقد أبدع شعراء هذا العصر صوراً جديدة مبتكرة، ومن هذه الصور، صورة الثريا التي أبدع وصفها الشريف العقيلي، يقول:

إشـــرب علـــى حســـن الثريـــا قهـــوةً　　أحلـى وأطيـبُ مـــن تلطــف معـــرض
فكأنّهـــا لمـــا تبـــدتْ فـــي الدُّجـــى　　شـــمامة مـــن ياســـمين أبيـــض[٩٨]

ومن الصور الجميلة التي أبدعتها مخيلة ظافر الحداد، صورة النجوم، فقد هيأتْ نفسه الشفافة لكلٍّ من النجوم صورة خاصة بها، يقول:

كـــأنّ نجـــوم الليـــل لمـــا تبلّجَـــتْ　　تَوَقُّـــدُ جمـــر فـــي ســـواد رمـــاد
حكـــى فـــوق ممتـــدِّ المجـــرة شـــكلها　　قواقـــع تطفـــو فـــوق لجَّـــة واد
وقـــد ســـبحت فيـــه الثريـــا كأنّهـــا　　بَنِيقَـــةُ وشـــي فـــي قميـــص حـــداد
ولاحـــتْ بنـــو نعـــشٍ كتنقيـــطِ كـــاتبٍ　　بيســـراه للتعليـــم هيئـــة وصـــاد
إلـــى أن بـــدا وجـــهُ الصَّبـــاح كأنّـــه　　وراءَ عـــروس فيـــه صِبْـــغُ جســـاد[٩٩]

ويصور الشريف العقيلي السمك وهو يَضْطَّـرِبُ فـي المـاء، بقلبِ عاشـق خـائف مضطـرب، يقول:

أمـــا تـــرى الأبرميـــس مضطربـــاً　　كأنّـــهُ قلـــبُ عاشـــق رجـــفِ[١٠٠]

ومن الصور الغريبة، وصـف ابن سناء الملك لجاريـة سـوداء صـافية السـواد، بـاللون الـذي يرتسم على فترة آخر الليل وأول الصباح، يقول:

ولا كالنّهـــار ولا كـــالليل تبصرهـــا　　كـــاللون مـــا بيـــن الصُّبـــح والغلـــس[١٠١]

ومن هذه الصور ايضاً، صورة الفجر وهو يبزغ من جوف الليل، بهروب الزنج امام الـروم، يقول فتيان مصوراً ذلك:

والدُّجى هاربٌ كما تهربُ الزّنج من الرومِ إذ تخاف الفجرا[١٠٢]

---

[٩٨] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص ١٩٢.

[٩٩] ظافر الحداد: ديوانه، ص ٩١.

[١٠٠] الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٠٤.

[١٠١] ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص ٥٦٨.

ويصور القاضي الفاضل مصر عروساً والأهرام لها نهودٌ، يقول:

وانجلتْ مصرُ إذ تجلَّت عروساً ... وكأنّ الأهرام فيها نهود[١٠٣]

ويصفها ظافر الحداد وأبو الهول بينهما، بصورة هودجين لمحبوبين فرق بينهما رقيب، والماء عند حافتهما دموع، والريحُ نحيب، يقول:

تأملْ هيئة الهرمين وانظُرْ ... وبينهما أبو الهول العجيب!
كعُماريتين على رحيل ... بمحبوبين بينهما رقيب
وفيض البحر عندهما دموع ... وصوت الرِّيح بينهما نحيبُ[١٠٤]

ويصور أبو عبد الله محمد، منارة الأسكندرية والسُفُنُ تحوم حولها ما بين راسية ومغادرة، ببرج الحمام بين آتٍ وطائر، يقول:

كأنّهُ وعليه الفلك حائمة ... برجُ الحمامِ فمن آت ومنطلق[١٠٥]

ومن الصور التي أبدعتها مخيلة ابن مماتي، صورة الحسان وهنَّ يعمنَ في الخليج، فقد بدت لناظريه بصورة مجموعة نجوم المجرة التي تسبح فيها، يقول:

خليج كالحسام له صقالٌ ... ولكن فيه للرائي مَسَرَّة
رأيتُ به الملاح تَجيد عوماً ... كأنَّهُنَّ نجوم في المجرة[١٠٦]

ومن الصور التي أبدع تصويرها الشريف العقيلي، صورة البدرُ في كبد السماء، فشبهه بوردة بيضاء تضحك في رياض من البنفسجِ، يقول:

والبدرُ في كبد السماء كوردةٍ ... بيضاءَ تَضْحَكُ في رياضِ من بنفسجِ[١٠٧]

---

[١٠٢] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ١٩٦.

[١٠٣] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص ١٩٦.

[١٠٤] ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٣٨، العُمَارة: الهودج.

[١٠٥] ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٣١٨.

[١٠٦] العماد الاصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج١، ص ١٠١.

وظهرت صورة الثلج عند ابن مماتي بالأقاحي، والأرض السمراء بالليل، والثلج بالصباح، يقول:

لمـا رأت عينـي الثلـج سـاقطاً كالأقـاحي
وصـار ليـلُ الـثرى منـه أبيضـاً كالصبّـاح
حسـبتُ ذلـك مـن ذوب دُرٍّ عقـد الوشـاح
او مـن حبـاب الحُميّـا أو مـن ثغـور المـلاح[108]

ويصوره بالياسمين والفراش، يقول:

نـثر الثلـجُ علينـا ياسـمينا وفراشـا[109]

ومن الصور الغريبة، صورة المراكب تجري في الخليج، فقد شبهها ثقة الملك الحسن بن علي بن جرادة، بآلة النسج تجري في الخيوط، يقول:

والشـواني فيـه تجـري كالصيـاصي فـي الخليـج[110]

ومن الصور المبتكرة التي صور بها ابن أبي حصينة الشيب، صورة الفأر الأسود الذي تمرغ في الطحين، يقول:

وكأنّـه والشـيبُ يخضـبُ وجهـهُ فـأر تمـرغ فـي دقيـق القفـةِ[111]

وصورة البَقّ وآثاره على الجلد بصورة حبِّ السّماق والحمص، يقول:

ومـن أعجـبِ الأشـياء فـي البـقِ أنّهـا على الجسـم سُـمّاقٌ وتُنْبِـت حِمَّصَـا[112]

---

[107] ابن منظور: نثار الأزهار، ص ٦٠.

[108] ياقوت الحموي: معجم الادباء، ج٦، ص ١٢٠.

[109] المصدر السابق: ج٦. ص ١٢١.

[110] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج٣، ٢١٧.

[111] ابن ابي حصينة: ديوانه، ج١، ص ١٧١.

[112] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام، ج١، ١٠٢.

ومن الصُّور كذلك صورة الأبنية على ضفتي النيل، فقد شبه ابن أبي حصينة بياضها بجلود الأرانب، يقول:

ومـن دونهـا فسـطاط مصـرَ وزاخـرٌ   كـأنَّ بشـطيهِ مسـوك الخرانـق(١١٣)

وصورة النقع، صوره العماد الأصفهاني بصورة الشاب الناحل، يقول:

والنقـعُ ينصـل بـالنصول خضابـةً   فكأنَّـهُ لـون الشَّـبابِ النـاصل(١١٤)

وصورة الأشلاء المبعثرة في ساحة المعركة، يُصوّرها العماد بالزروع المخضرة، يقول:

وقـد غـادرتَ أشـلاء الفرنـجِ   كمحصـور الـزروع علـى الجريـن(١١٥)

وصورة هلال العيد الذي ينبي بانتهاء شهر رمضان، فقد صورة الطغرائي بالمنجل الذي يحصد شهر الصوم، يقول:

هـذا هـلالُ العيـد قـد جاءنـا   بمنجـل يحصـد شـهر الصِّيـام(١١٦)

وصورة السماء وقد تلبَّدَتْ بالغيوم، صورها القاضي الفاضل بالمرآة التي تنفس فيها كئيبٌ، يقول:

كـأنَّ السـماء وقـد غيمـتْ   مِـرآة تنفـس فيهـا كئيـبُ(١١٧)

وصورة البطيخة والسكين، وأقسامها، فشبهها ابن قلاقس بالبدر، والبرق والهلال، يقول:

أتانـا الفقيـه ببطيخـةٍ   وسـكينة قـد أُجِيْـدَتْ صقـالاً
فقطـعَ الـبرق بـدر الدُّجـى   ونـاول كـلَّ هـلال هـلالاً(١١٨)

---

(١١٣) ابن أبي حصينةُ: ديوانه، ج٢، ص ٢٣٨.

(١١٤) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص ٢٣٨.

(١١٥) المصدر السابق: ص ٤٢٩.

(١١٦) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ١٨٧.

(١١٧) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص ١٢.

(١١٨) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص ٣٩٥.

وصورة الموز على الأطباق، فشبهه البهاء بالمكاحل من ذهب، يقول:

وافـــتْ بـــه أطباقـــهُ مُنضـــداً كأنّـــهُ مكـــاحِل مـــن ذهـــب[١١٩]

كلّ ما عرضنا له في السابق كأن تشبيه صورة حسية بصورة حسية، ولكن من الشعراء من شبه صورة حسية بصورة معنوية، ولكنه في شعر الطبيعة في هذا العصر قليل، ومنه الصُورة التالية للفجر، حيث صورة الشريف العقيلي بالعذر، يقول:

الفجـــر بيـــن اللّيـــل والصُّبـــحِ كـــالعذر بيـــن العتـــب والصّفـــح[١٢٠]

ومنها صورة سرعة الجواد، فقد صورها ابن المضيف بسرعة الوهم، يقول:

كـــمْ جـــوادٍ يســـبقُ الوهـــم فمـــا يقتفيـــه الوهـــم إلا تبعـــا[١٢١]

ومن الأمور التي استخدمها الشعراء في إظهار صورهم ظاهرة التشخيص، حيث صبغ الشعراء ظواهر الطبيعة المختلفة بهذه الظاهرة، ليعطوا صورهم نوعاً من الحركة، والصوت، واللون، والآدمية، ومن ذلك تصوير ابن الخياط للغدير بالإنسان القلق، ليظهر لنا صورة اضطرابه وتموجه، يقول.

أو مـــا تـــرى قَلَـــقَ الغديـــر كأنّمـــا يبـــدو لعينيـــك مِنْـــهُ حُلّـــي منـــاطق[١٢٢]

ويصور عماد الدين الأصفهاني الأقحوان له ثغور تبسمُ، وعيون تحدقُ يقول:

لهـــا مـــن ثغـــور الأقحـــوان تَبسُّـــمٌ وتنظُرُ عن أحـداق نرجسـها النُجْـلُ[١٢٣]

والورقاء صورها بالمرأة المفجوعة، تنوح من الشجون والحزن، يقول:

---

[١١٩] البهاء زهير: ديوانه، ص ٢٤.

[١٢٠] الشريف العقيلي: ديوانه،/ ج١، ص ٩٦.

[١٢١] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج١، ص ٢٩٢.

[١٢٢] ابن الخياط، ديوانه، ص ١٢٥.

[١٢٣] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص ٣٥٩.

تنوحُ بها الورقاءُ شجواً كأنَّما   مُفَجَّعةٌ بين الحمائم بالشكلِ(١٢٤)

وفصل الربيع، يُشَبِّهُ فتيان الشاغوري بالإنسان المبتسم الذي جاء في إثر فصل الشتاء المقطب الوجه، وقد شخصه بهذه الصوره حتى يبين الفارق الكبير بين الفصلين، يقول:

فصل تبسمَ مسفراً عن حُسنهِ   في إثر فصلٍ لجَّ في تقطيبه(١٢٥)

وصورة الزهر، إنسان نائم لا يستيقظ إلا بهبوب النسيم عليه، يقول:

هبَّ النسيمُ به فنبَّه نائم الزَّهر الأنيق فَهَبَّ عند هبوبه(١٢٦)

ويصور الشريف العقيلي طلوع الصباح بإنسان يضحك، يقول:

قد ضحكَتْ غرة الصباحِ   واندفعَ الدِّيك في الصياحِ(١٢٧)

وصور الهزار وهو على الرياض مغرِّداً، بخطيب يخطب على المنبر، يقول ابن عنين:

خَطَبَ الهزارُ على منابرها   فاعجبْ لأعجمَ مُفصحٍ غزلِ(١٢٨)

وصورة الشقيق عندما تفتَّحُ أكمامه، فإنسان يُشققُ ملابسه من الحزن، يقول ابن عنين:

تشقُّ الشقيقُ بها ملابسهُ   حزناً على ديباجة الأُصُلِ(١٢٩)

وصفرة المشمش يصورها العماد الدين بصفرة العاشق اصفرَّ شوقاً لقدوم أحبائه، يقول:

تصفرُ شوقاً لانتظار قدومنا   ومن يتعشقْ ذا الفضائل يشتقِ(١٣٠)

---

(١٢٤) المصدر السابق: ص ٣٥٩.

(١٢٥) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١١.

(١٢٦) المصدر السابق: ديوانه، ص ١١.

(١٢٧) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ٩٩.

(١٢٨) ابن عنين: ديوانه، ص ٤١.

(١٢٩) المصدر السابق: ص ٤١.

(١٣٠) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص ٣١٦.

والرعدُ فهو خطيب أعجمي، لا يفهم كلامه، يقول ابن أبي حصينة:

يقـــومُ لــــه وجنــــحُ اللّيــــلِ داجٍ خطيـــبٌ مــــا لمنطقــــه بيــــان[١٣١]

فمن هذه الشواهد الكثيرة نجد أن شعراء هذا العصر، لم يكونوا أقلَّ من شعراء العصور السابقة في الإتيان بصورة جديدة مبتكرةً، حتى أننا نستطيع أن نقول أنهم حلقوا في عالم الصورة، حتى ليظن القارئ لديوان فتيان، والعقيلي وظافر الحداد، وابن قلاقس، والعماد الأصفهاني، ان قصائدهم الطبيعية تحولت إلى لوحات من الصدور المختلفة، التي هذبها ذوقهم، واضافوا إليها من بيئتهم ما تتلوّن به فتبدو القصيدة الصامتة، ناطقة متحركة.

ثالثاً: الموسيقى الشعرية:

من الظواهر المهمة التي تمتاز بها اللغة العربية، وتعد من خصائصها، تناغم حروفها وجملها، فحروفها تقترن في أحيان كثيرة بجرسها الموسيقي للتدليل على معناها فحرف القاف مثلاً يدلُ بجرسه الشديد على الحركة، ونغمته الموسيقية توحي في نفس القارئ والمتكلم بذلك، فكلمات مثل قام، قعد قَلَبَ، قسم،قدَّ، تدل على حركة وتقترب في المعنى، وحرف السّين يدلُّ على السُّكون والسكينة مثل، وسوس، وحسحس، وحسنَّ، وانسلَّ، وتنفس، ومسَّ، وعسعس، وكثير من حروف العربية تمتاز بهذه الخاصية.[١٣٢]

ولو وضعنا بعض هذه الكلمات في جمل لنرى أثر جرسها الموسيقي في نفوسنا واثر جرسها الموسيقي على معناها، فمثلاً كلمة عسعس وتنفس في الآية الكريمة "{والّليل إذا عسعس، والصُبح إذا تنفسَ}[١٣٣] فهذه الآية تدلُّ في شقها الأول على الهدوء والسكينة، أما في الثاني فتصور لنا تسللُ الصباح من داخل الليل بخشوع وبرقة التنفس وهدوئه.

---

[١٣١] ابن أبي حصينة: ديوانه: ج١، ص ١١٦؟.

[١٣٢] انظر: حسام النعيمي: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، داة الطليعة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٨٩.

[١٣٣] سورة التكوير: آية، ١٧-١٧.

هذا بالنسبة للكلام النثري، نرى أنهُ يحتوى بين حروفه نغمات خاصة، تزيد من إيقاعه، فإذا انتقلنا إلى الكلام الشعري، نجد ان الأوزان والقوافي والموسيقي الداخلية للكلمات والحروف من أبرز العناصر التي "تميز الشعر من النثر"(١٣٤)

فالموسيقى التي تنبعث من القصيدة تؤثر على عواطف الإنسان وأحاسيسه، وتجمع بين الموقف اللفظي للقصيدة والموقف النفسي الداخلي التي تبعثه في نفس المتلقي.

فالنغمات التي تنبعث عن طريق الصوت تبعث بنغمات تثير كوامن النفس، وتكشف عن مضمونها "فالألم الذي يعبر عنه بالصوت، يؤثر فينا على وجه العموم، تأثيراً روحياً أبلغ من تأثير الألم الذي يعبر عنه بقسمات الوجه وحتى الحركات".(١٣٥)

وقد اعتمد الشعراء على مرتكزات عدة لإبراز موسيقاهم وانغامهم في قصائدهم، ومن أبرزها الأوزان والقوافي، والتكرار، وتناغم الحروف مع بعضها، والمقابلة بين الجمل، واستخدام الكلمات ذات الجذر الواحد.

أما الأوزان الذي اعتمد عليها الشعراء في شعر الطبيعة، فلا يسعفنا هذا الشعر على دراستها، فشعر الطبيعة يتوزع على موضوعات الشعر المختلفة، فيأخذ القالب الذي جاءت عليه القصيدة.

فلو أخذنا مثالاً على ذلك ظافر الحداد، وهو أحد الشعراء الذين أكثروا من وصف الطبيعة، وَوُجِدَتْ عنده الكثير من المقطوعات المنفصلة يصف فيها الطبيعة، واستعرضنا الاوزان التي نظم عليها شعر الطبيعة لوجدنا أنّ الأوزان التقليدية الطويلة هي الأكثر حظاً فالطويل "٣١" قصيدة، والكامل "٣٤" قصيدة، والبسيط "٢٢" قصيدة، والوافر "١٠" قصائد، والسريع "٥" قصائد، والمنسرح"٩" قصائد، والرمل "٦" قصائد، والرَّجز "٨" قصائد، ومن الخفيف قصيدتان، والمجتث قصيدتان، والمتقارب ثلاث قصائد. ولم ينظمْ على الهزج، والمضارع، والمتدارك، والمقتضب، والمديد، ونظم قصيدة واحدة على مجزوء الكامل، والبسيط، والوافر.

ومن خلال هذه الإحصاء لأوزان شعر الطبيعة عند ظافر الحداد واحداً من الذين أعطوا حيزاً لشعر الطبيعة في قصائدهم، نجد أن شعر الطبيعة لم يكن له بحراً خاصاً ينظمُ عليه، ولكن توزع على البحور الشعرية، وجاء موزعاً على البحور الشعرية التقليدية أكثر من البحور الخفيفة.

---

(١٣٤) ابراهيم انيس: موسيقى الشعر العربي، ط٤، دار القلم، بيروت، ص ٢٧.

(١٣٥) علي الجندي: الشعراء وانشاد الشعر، دار المعارف، مصر، ١٩٦١، ص ٩٢.

واستخدم الشعراء مجزوءات البحور حتى يزيدوا من موسيقاهم الشعرية، ومن ذلك وصف ابن قلاقس لرحلته على وزن مجزوء الرّمل، يقول:

ولقد سرْتُ بأرض ... مَهْمَهٍ ذات هضابِ
وقلاع وتلال ... وفجاج وروابي
ورِئال وظباء ... وليوثٍ وذئابِ
سرتها فوق جوادٍ ... أشم مثل الغرابِ
منطويَ الأحشاء طياً ... مِثْلُهُ طيَّ الكتابِ
فهو كالأجدل في الحكم ... إذاً في الإنتصابِ
وتراه حين يهوي ... مثل نسر أو عقابِ
أو كلمح البرق سيراً ... أو يرى مثل الشهابِ
سارَ والليل على الأر ... ضِ صباغاً كالخضابِ
او مداراً حالك اللَّوْ ... ن على الصمِّ الصِّلاب(١٣٦)

وعلى وزن مجزوء الكامل قصيدة ابن قلاقس في فضل الصَّيف على بقية الفصول، يقول:

يا من يرى فضل الشتا ... ء على المصيف كما تَحكَّمْ
ما ذاك عندي حنةٌ ... فيكون ذا عندي جَهَنَّمْ
اسمع هما فلكان كلٌّ ... في ولايته مُعَظَّمْ
ولكلِّ ملك منهما مُتسلِّم ... يأتي مُقَدَّمْ
يأتي الرَّبيع عن المصيـ ... ـف وفضلُهُ ما أنت تعلَمْ
وترى الخريف عن الشتا ... ء خُلْفُ سيده يُترَجِمْ
فَضْلُ المصيف كما رأيـ ... ـتَ أقلُّ تكلفاً وأرحمْ(١٣٧)

واستخدم الشعراء في هذا العصر بالإضافة إلى مجزوءات البحور، البحور الأقل دوراناً في شعر الشعراء، ودرجَ استعمالها في العصور المتأخرة على العصر الأموي، والعباسي الأول،

---

(١٣٦) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ٣٥٥.

(١٣٧) المصدر السابق: ديوانه، ج٢، ص ٥١٧.

واستخدمها الشعراء لملاءمتها موضوعات جديدة تطرقَ إلى وصفها الشعراء، ولسهولة دورانها على ألسنة الناس، ومن ذلك وصف ظافر الحداد لحمامٍ على بحر المنسرح، يقول:

حمّامُنـــا هــــذا حِمــــامُ وإنّمـــا صُحـــفَ الكـــلامُ
أقـــلُّ أوصافهـــا ثـــلاثٌ الـــبردُ والنتـــنُ والظـــلامُ
يَلْسَـــعُ بـــردُ البـــلاط فيهـــا فالنـــاس فـــي وســـطها قيـــامُ
وبيـــن جدرانهـــا شـــقوق يكمـــنُ فـــي جوفهـــا الهـــوامُ
والـــبراغيثُ فـــي نواحـــي بيوتهـــا عســـكرٌ لهـــامُ
مـــا قصدهـــا فـــي دمٍ ولحـــمٍ بـــالعضِّ بـــل قصدهـــا العظـــامُ
كأنّمـــا ســـقفها مـــدادٌ يقطـــرُ مـــن دونـــه السُّـــخامُ
والمـــاءُ فيهـــا أقـــلُّ شـــيءٍ يـــدرك بـــالجهد أو يُـــرامُ
وليـــس ذا كلُّـــهُ عجيبـــاً فيهـــا بـــل الأعجـــبُ الرُّخـــامُ
يخـــرجُ عنهـــا اللبيـــبُ يجـــري عريـــانَ يحتثُّـــهُ الهُـــزامُ
وهـــو لعمـــري مِمّـــا يـــراه مـــن شـــدة الهـــول لا يـــلامُ(١٣٨)

ولابن قلاقس، مقطوعة على البحر المجتث، فضل فيها فصل الصَّيف على الشتاء، وهو من البحور المهملة، يقول:

لـــي فـــي المِصيـــف طريـــقٌ مأمونَـــــةُ الطَّرفَيْـــــنِ
إذا ارتمـــى بشـــرار السَّـــ ـــموم فـــي الخـــافقينِ
أطفأتُـــــهُ بعتـــــادٍ مـــن الأمـــير حســـين
وإنْ ترايـــدَ شـــيئاً فمـــاءُ راس العيـــن(١٣٩)

وبقيتْ الطرديات تنظمُ على بحر الرَّجز لما فيه من إيحاء توحيه نغمته الموسيقية للركضِ والطراد، ومن ذلك قول ابن قلاقس في إحدى طردياته:

قـد أغتـدي والصبـحُ خفـاقُ العـذبْ وَعسـكرُ الليـل مُجـدٌ فـي الهـربْ
وللـدراري دُرَّةٌ بـلا ثُقـبْ براحتـه الأنـوار راحـتْ تُنتَهَـبْ

---

(١٣٨) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٢٦٩.

(١٣٩) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ٢٣١.

كأنّهـا فـي لجـة البحـر حبـبْ والـورق فـي أوراقهـا ذاتُ صخـبْ
حيـن رأتْ جيـش الدُّجى قـد انقلبْ إذ ضـرب السَّـرحان منـهُ بذنـبْ
والصُبـحُ قـد صـالُ عليـه وغلـبْ ففـرَّ عنـه وهـو لا يثنـي الطلـبْ
كمـا تفـرُّ الزنـجُ مـن جـور العـربْ بمخطفِ الكشحينِ مـن غير سـغبْ[١٤٠]

وكما للأوزان دور في إثارة النغمة الموسيقية في كلمات القصيدة، فإن القافية يأتي بها الشاعر لإتمام نغمته الموسيقية، ليبدأ بعدها من جديد، لذا كانت القافية "شريكه الوزن في الإختصاص بالشعر"[١٤١]. ومال الشعراء إلى انتقاء قوافيهم ذات النغمة الموسيقية القريبة من الأسماع، الخفيفة عليها، والابتعاد عن القوافي الثقيلة على السمع.

فأكثر القوافي دوراناً في الشعر "الباء، والدال، والرّاء، واللاّم، والميم، والنون .... يليها الهمزة، والتاء، والجيم، والحاء، والسين، والخاء، والذال، والشين والظّاء، والعين"[١٤٢] أما القوافي الحوش فـ "الثاء، والخاء، والذال، والشين، والظاء، والعين"[١٤٣] ؟وكلّها ركبها الشعراء فلم يجيئوا إلا بالغثِ"[١٤٤]، اما قافية الميم واللاّم فهي "احلى القوافي لسهولة مخارجها، وكثرة أصولها في الكلام من غير اسراف"[١٤٥].

ولو استقصينا قوافي شعر الطبيعة عند ابن قلاقس وطبيعيٌ أنْ يقعَ اختيارنا عليه، لأنه المتربع على عرش وصف الطبيعة وتصويرها براً وبحراً في هذا العصر دون منازع، فقد ولَجَ في قصائده غالبية مظاهر الطبيعة بالوصف لوجدنا قوافيه تتمثل على النحو التالي:
الراء: ٢٧، الميم، ١٧، اللام: ١٥، الباء: ١٣، الدال: ٩، النون، ٨، السِّين: ٧، والثاء والجيم والغين والشين الكاف، قصيدة واحدة، والخاء والطاء، والصاد، والواو لا شيء.

---

[١٤٠] المصدر السابق: ج١، ٢٧٨.

[١٤١] ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت ٤٥٦هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢، ج١، ص ١٥١.

[١٤٢] صفاء خلوصي: فن التقطيع الشعري والقافية، ط٤ دار الكتب، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢١٥.

[١٤٣] عبد الله الطيب المجذوب: المرشد في فهم أشعار العرب، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ج١، ص ٦٣.

[١٤٤] المصدر السابق: ج١، ص ٦٣.

[١٤٥] عبد الله الطيب: المرشد في فهم أشعار العرب، ج١، ص ٤٦٠.

ومن هنا نرى الشعراء مالوا إلى القافية الرّنانة، ذات الإيقاع الحاد، والأحرف السَّهلة المخارج، وابتعدوا عن الأحرف الحلقية عسيرة المخارج.

فالقافية لها دور كبير في التنوع الموسيقي الذي نجده في قصائدنا، فهي فاصلة النهاية التي ينتظرُ السامع بعدها أنّ يبدأ النغم الموسيقي للقصيدة من جديد.

ولو أخذنا مثالاً على القوافي الحوشيه التي ساقها ابن قلاقس في ديوانه وهي قافية، "الثاء" في قوله:

يـا راحلاً بلغ أخلائي باللّوى — وإن رجعوا أني على العهدِ لايثُ
هناك ولا نعمان قُضْبٌ موائسٌ — وثَمَّ –ولا يبرين– كثبٌ عثاعِثُ
لمن كِلَلٌ مُدَّتْ حوامٍ حوامِلٌ — فمادتْ بهـا الدّأماء أو فالدمائثُ[١٤٦]

فالشاعر اختار قافيته بدراية وعلم مُسبق، قبل أن ينظم قصيدته، ليدلل على براعته في نظم مثل هذا النوع من القوافي، ويأتي من خلالها بالمفردات الحوشية على نمط الرّحلات في عصور سابقة.

وجاءت القوافي في هذا العصر، تدلُّ على رقة طبع الشعراء، وتهذيب نفوسهم والميلُ إلى القوافي السهلة التي تزيد من نغمتها الموسيقية، وتكونُ في النهاية رابطة نغمة تشترك مع الوزن والمفردات، ومن ذلك القافية اللاّمية لابن قلاقس وصف بها ربع محبوبته، أتسمتْ بموسيقى عالية، بالإضافة إلى حرفي المد الذي وقعت القافية بينهما، أطلق للقافية العنان دون قيد، يقول:

سألنا الربع لوفهمَ السؤالا — متى عهد الغزالة والغزالا
وما تعني الظِّباء له ولكن — عنينا شمس رامةَ والهلالا
هلالٌ من هلالٍ غيَّبَتْهُ — جِمَالٌ أوقِرَتْ منه جمالا
كساه اللّيل فرعاً والثريا — سحاباً والرُّدينيُّ اعتدالا[١٤٧]

فبالإضافة إلى قافيتها التي زادت واعطتْ دفعات قوية لموسيقى القصيدة، نرى التكرار الكثير للكلمات له دور كبير ايضاً في وضوح الموسيقى وعدم تنافرها.

---

[١٤٦] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ١٨.

[١٤٧] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ١٧٤، الرُّديني: الرمح نسبة إلى ردينة وهي إمرأة.

والمتتبع لدواوين هذا العصر يجد عشرات بل مئات القصائد التي مال شعراؤها إلى هذا النوع من القوافي، زيادة في موسيقاهم الشعرية، وليضفوا عليها نوعاً من الخفة والرّشاقة والموسيقية، ومن ذلك وصف الملك الأمجد لظعن محبوبته، يقول:

مـــا مُزْنَـــةٌ أرخـــتْ غزيـــر وبلهـــا	فـــــروتْ الوهـــــادَ والأكامـــــا
جـــرتْ علـــى وجـــه الـــثرى ذيولهـــا	كأنّهـــــا تُشــــافهُ الرَّغامـــــا
عـــادتْ بـــه الأوشـــالُ فـــي لصوبهـــا	مترعـــةً مـــن دمعهـــا جمامـــا
مثـــلَ دموعـــي يـــومَ قيـــل: ثـــوّروا	عيسَـــهمُ، وقوضـــوا الخيامـــا[١٤٨]

ومن بين الأمور التي زادتْ من الموسيقى الشعرية في شعر الطبيعة، انتقاء الألفاظ السهلة السلسلة ذات الإيقاع العالي والابتعاد عن الألفاظ الحوشيّة الغريبة المعقدة، صعبة النطق، والتي تزيد النّفس عنها بعداً ونفوراً، وظهرت هذه الظاهرة أكثر ما ظهرتْ في شعر مجالس الخمر، ووصف الرّياض، والأزهار، والبرك، ومجالس السّمرِ، ومن ذلك ما وصف به البهاء زهير مجلس شراب، يقول:

علـــــى حـــسنِ النّواعـــــير	وأصـــــــوات الشـــــــحارير
وقـــد طـــابَ لنـــا وقـــتٌ	صفـــا مـــن غـــير تكديـــر
فقُـــمْ يـــا ألـــفِ مـــولايَ	أدرهـــا غـــير مـــأمور
أدرهـــا مـــن ســـنا الصُّبـــح	تـــزدْ نـــوراً علـــى نـــور
عقـــاراً أصبحـــتْ مثـــل	هبـــاءِ غـــير منثـــور
بـــدتْ أحســـنَ مـــن نـــارِ	رأتهـــا عيـــن مقـــرور
نزلنـــا شـــاطيء النيـــل	علـــى بســـط الأزاهـــير
وقـــد أضحـــى لنـــا بـــالمو	ج وجـــهٌ ذو أســـارير
وفـــي الشـــطِّ حبـــاب مِـــ	ثـــلُ أنصـــاف القواريـــر[١٤٩]

---

[١٤٨] الملك الأمجد: ديوانه، ص ٦٢٨، الأوشال: الكثير من الماء أو الدمع.

[١٤٩] البهاء زهير: ديوانه، ص ٢١٠.

فالشاعر وفق إلى حدٍّ بعيد في اختيار ألفاظه، فلم نرَ كلمة نابية، ولا كلمة حوشيه غريبة، بل كلماته تقطر عذوبة، بالإضافة إلى بحر الهزج الذي يصلح في الأساس إلى الغناء، وختمها بقافية الرّاء ذات الجرس العالي، وحروف المد "و ،ي" التي أتى بهما قبل حرف القافية، أضف إلى حرف الرّاء الذي كررَه الشاعر في قصيدته إثنين وعشرين مرة، وما يمتاز به هذا الحرف من تردد يلائم من يريد الهزج.

ومن الأمور التي استخدمها الشعراء ليزيدوا من موسيقاهم الشعرية، ظاهرة التصريع التي يكون فيها "مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها"(١٥٠) فتناغم موسيقى حروف العروض مع حروف القافية يبعث موسيقى إضافية للبيت الشعري ومن ذلك قول الحكيم في وصف البراغيث:

وليلــــــة دائمــــــةً الغســـــوق	**بعيـــدة الممســـى مـــن الشـــروق**
كليلــــــة المتيـــــمً الممشـــــوق	**أطـــال فـــي ظلمائهـــا تـــأريقي**
أخبــث خلـــق لـــلأذي مخلـــوق	**يـــرى دمـــي أشـــهي مـــن الرحيـــق**
يَغُـــبُّ فيـــه غـــير مســـتفيق	**لا يـــترك الصبـــوح للغبـــوق**
لـــو بـــثٌ فـــوق قمـــة العيـــوق	**مـــا عاقـــة ذلـــك عـــن طـــروق(١٥١)**

وكأنَّ الشاعر صرع في عروضه وقافيتهِ ليزيد من الحركة في أبياته، لتناسب حركة البراغيث التي تحيط به، ويضفي من خلال ذلك نوعاً من الحركة النغمية لتناسب أبياته.

ومنه أيضاً مقطوعة ابن قلاقس الهجائية، فقد استخدم فيها ظاهرة التصريع ليزيد في موسيقها، ومن حفظها، وسرعة انتشارها بين الناس، يقول:

يـــا ســـائلي عـــن خـــبر الرّغيـــف	**وعـــن أبـــي القاســـم فـــي التوليـــفِ**
ولا يقيـــمُ قمحُـــهُ فـــي الرّيـــف	**ويهـــربُ الرّبيـــع للخريـــفِ**
كـــم للفقيـــه فيـــه مـــن وقـــوف	**مشـــتهرٍ فـــي أول الصفـــوفِ**
يُنَفِّـــشُ فيـــه ألـــف عِـــدْلٍ صـــوف	**حتـــى يُعـــري جلـــدة الخـــروفِ**

---

(١٥٠) ابن جعفر (قدامة بن جعفر ت٣٢٧هـ): نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة، دار الكتب العلمية، بيروت،٨٦.

(١٥١) الحكيم: ديوانه، ص ١٢٩.

يقـــولُ هـــل أنكرتـــم معروفـــي   واللـــه لا أســـكُتُ عـــن رغيفـــي(١٥٢)

واستخدم الشعراء كذلك لزيادة النغمة الموسيقية في قصائدهم، الكلمات التي تشترك في جذر واحد مثل "شقيق، وشققت" في بيت ظافر الحداد يصف أزهار الشقيق، يقول:

وشـــــقيق شـــــققتْ أطمــــاره   كدمــــوع العــــارض المنتحــــب(١٥٣)

ومثل كلمتي "بهار، وباهر" في وصفه لزهر البهار، يقول:

وبهـــــار بـــــاهرُ هيئتــــــه   مثـل جـرْمِ الشـمس عنـد المغـرب(١٥٤)

ومثل كلمتي "منثور، ومنتثر" في وصف عرقلة لزهرة المنثور، يقول:

يظــلُّ منثورهـــا والـــروضُ منتـــثراً   كأنّمـــا صُبــغ مـــن درٍ ومرجـــان(١٥٥)

ومثل كلمتي "طوينا، طيًّا" في قول القاضي الفاضل:

قـــــد طوينـــــا إذْ أديـــــرَتْ   بُـــــرْدَةَ الظّلمـــــاءِ طيًّـــــاً(١٥٦)

ومثل كلمات "بناء، تبنها، بنيت" في وصف مجلس السُّلطان، يقول ابن أبي حصينة في ذلك:

أتعبْــتَ نفســكَ فـــي بنـــاء مجلـــسٍ   لـم تَبْنِهــا حتــى بنيْــتَ السُّــؤددا(١٥٧)

وبين كلمتي "قنَّعَتْ، قِناعاً" من القصيدة نفسها، يقول:

رَفَعَـــتْ مشـــاعِلُها الدُّخـــانَ فقنَّعَـــتْ   وجــه السَّــماء بــه قناعــاً أســودا(١٥٨)

---

(١٥٢) ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ١٩٧.

(١٥٣) ظافر الحداد: ديوانه، ص ٤١.

(١٥٤) المصدر السابق: ص ٤١.

(١٥٥) عرقلة الكلبي: ديوانه، ص ٩٦.

(١٥٦) القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص ٣٣٢.

(١٥٧) ابن ابي حصينة: ديوانه، ج٢، ص ٦٧.

ومثل كلمتي "غزاز، العزّ" في وصف قلعة عزاز، يقول ابن أبي حصينة:

مَلَكْتَ عـزازاً فـابتدى العِـزُّ وانجلَـتْ بهـا غمـة الإسـلام وانكشـف الكـربُ[١٥٩]

وكذلك كلمتي "ناعورة، ونعرّت" في وصف ناعورة كما يقول الشريف العقيلي"

وكـلّ نـاعورةٍ فـي الـروْض قـد نَعَـرَتْ كغـادة هزّهـا مـن سـكرها طـرب[١٦٠]

وزيادة في موسيقى الشعر، عنيَ الشعراء في شعرهم بظاهرة التكرار، فهي تُبرز قيمة موسيقة، وطريقة لزيادة النغمة الموسيقية في القصيدة، ويُسَاهم في إبراز "جهة هامة في العبارة، يعني بها الشاعرُ أكثر من عنايته بسواها .... فالتكرار يُسلِّط الضوءَ على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسيه قيمة"[١٦١]، وتبدوا لنا هذه الادلة من خلال النغمة الموسيقية التي "تأخذ السّامعين بموسيقاها"[١٦٢].

ومن ذلك ما هيّأهُ ابن قلاقس لمستمعيه من نغم موسيقي متواتر بتكرار كلمات "الأفق، هبَّ، النّسيم، الكأس، الرّمق، وأخذ" في قصيدة واحدة حيثُ كررَ في كل بيت كلمة من الكلمات حتى يزيد من الشحنة الموسيقية في قصيدته يقول:

قـد عطـلَ الأفـقُ مـن أسـماط أنْجمُـهِ فـاعقدْ بخمـرك فيناحلْيـةَ الأُفُـقِ
هـبَّ النّسـيمُ وهـبَّ الرّيْـمُ فاشـتركا فـي نكهـةٍ مـن نَسِـيْم الـرَّوض العَبِـقِ
وبـتُّ بالكـأس أغنـى النـاسِ كلِّهِـمُ فـالخمرُ مـن عسـجدٍ والكـأسُ مـن روقِ
يسـعى بهـا رشـأ عينـاهُ مُـذْ رمقـتْ لم يَبقَ فَيْض ولا فيها سوى الرَّمقِ[١٦٣]

ومن ذلك كلمتي "بكى، وحنين" في وصف فتيان الشاغوري لصوت النواعير، يقول:

---

(١٥٨) المصدر السابق: ج٢، ص ٦٧.

(١٥٩) المصدر السابق: ج٢، ص ٢١٢.

(١٦٠) الشريف العقيلي: ديوانه، ج١، ص ٥٠.

(١٦١) نازك الملائكة: قضايا الشّعر المعاصر، ص ٢٤٢.

(١٦٢) ماهر مهدي هلال: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠، ص ٢٤٠.

(١٦٣) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ٢٠٠

تبكـــي عليهـــا اشـــتياقاً إذ يعانقُهـــا   كمـا بكـى فـي زمــان الهجـر مهجــور
لهـا حنيـنٌ حنيـن النيـبِ تُفْصَــلُ عـن   فصلانها فهي في صُعْرٌ نحوها صُوَرُ(١٦٤)

ومنه تكرار كلمة "النَّبعُ" في قول ابن قلاقس:

خُلِقْـــتُ كـــالنّبع إلا أنَّ لـــي ثمـــراً   والنبْعُ عريانُ ماله في فروعه ثَمرُ(١٦٥)

وتكرار كلمة "ليل" في وصف ابن الساعاتي لطول ليلته، يقول:

مَضَـــتْ قصـــارُ لياليـنـــا وأعقبهـــا   ليلٌ طويــلٌ وفــي ليـل الأسـى طـولُ(١٦٦)

ومن التكرار الذي نَظَمَ فيه الشعراء لبيان براعتهم وقدرتهم على النَّظـم وتكرار كلمـة بعينها في قافية القصيدة، تأخذ في كلِّ بيت معنى مختلفاً، ومن ذلك مقطوعة لأسعد بن مماتي، يصف فيها الثّلج في حلبَ، يقول:

قـــد رأينـــا الصُّبـــحَ يـــزدا   ن ويـــــــزدادُ انفراشـــــــا
وحســـــبنا نـــــورَهُ يـــــط   ـــرُدُ مـــن خَلْـــفِ الفراشـــا
ونــــشر الثّلـــجَ علينـــــا   ياســـــميناً وفراشـــــا
وراي أن يرســــــلُ الأســــــ   ـهُـــمَ بـــالبَرْدِ فَرَاشـــا
فغـــدا الكـــافُورُ فـــي عنــــ   ـــبرةِ الأرض فِرَاشـــا(١٦٧)

وكما كان تكرار الكلمات له أثر كبير في زيادة النغمـة الموسيقية، فإن تكـرار الحـروف فـي البيت الشعري يزيد من موسيقاه الداخلية، لذا نجد الشعراء قد كرّروا حرفاً بعينه فـي بيت شـعري أو في قصيدة أو مقطوعة كاملة، ليظهروا نغمتـه، ويجعلوهـا تسيطر علـى بقيـة النغمات، ويزيـدوا من إيقاعه، ليبقوه ظاهراً في الأسماع، ومن ذلك تكرار ابن عنين لحرف الحـاء، ليوافق حـرف ممدوحـه أبي الفتح، يقول:

---

(١٦٤) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص ١٩٠.

(١٦٥) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص ١٣٦.

(١٦٦) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص ٤٨.

(١٦٧) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ص ١٢١، انفراشا: الانتشار، الفراشا: الحشرة التي تطير على السّراج فراشاً: ما تبقى من الحبب. فراشا: سدد السهم. فِراشا: الفرش المفروس.

سُـــحُبٌ يُوَشّــحُها لَمـــوُحٌ مُلْقِــحٌ وَيَحـــفُ حافاتُهـــا حفيـــف ريـــاح
حَمَّالــــةٌ حناتَـــــةٌ فحَنِيــــنُها والرّيـــحُ تحْفِزهـــا حنيـــن رزاح
تحيـــي المصـــوّحَ والمحيـــلَ فسِـــحُها كَحَيا أبـي الفتـح السَّموحِ الساحي[١٦٨]

فالشاعر استغل حرف الحاء، ليبرز نغمة الحفيف التي يمتاز بها، ليضفي على قصيدته بعامة الموسيقى الداخلية التي أرادها.

أما مجبر الصّقِيلي، فيحشد أكبر قدر ممكن من "القافات" المجلجلة في السمْع، وليضفي نغَماً عالياً عند لفظ كلّ حرف من حروفها، فانحباس الهواء عند النطق بالقاف ثم انطلاقه، يحدثُ نوعاً من الإنطلاقة الجديدة التي يريدها الشاعر.

يقول:

أرأيـــتَ برقــــاً بالأريـــارق قــد بـــدا فـــي أفقـــه مُتبســـماً متوقـــدا[١٦٩]

ويكرر ابن قلاقس حرف السّين، ليحدثَ نوعاً من الوسوسة بين حروفه يقول:

لاتســـقنيها مـــن محـــاجر نرجـــس حَسْبي التـــي بأنـــامل السوســـان[١٧٠]

ويكرر حرف الكاف، وكلمة فلك وفلك ليزيد من موسيقاه، يقول:

إليـــك مـــن مَلَـــك ســـام مـــن مَلِـــكٍ كـانت لنـــا الفلْـكُ مرقـاةً إلـى الفلَـك[١٧١]

وجاء تكريره لهذا الحرف حتى يجانس بين موسيقى حروف الحشو وموسيقى حرف القافية، وقد كرّرَ ابن قلاقس حرف الكاف في مقطوعته المكونة من ستة أبيات عشرين مرة، وكلُّ ذلك ليعطي نوعاً من التوازن الصوتي بين قافيته وحروف حشوه.

وقد أسهم في زيادة هذه الظاهرة في هذا العصر، ميل الشعراء إلى الاعتمادِ على الزخرفة اللفظية، فبعثَتْ في قصائدهم موسيقى عالية، حتى لوبدى التكلّفِ في ظاهرها، ومن أبرز الشعراء الذين اعتمدوا على ذلك، ابن قلاقس، وظافر الحداد، وفتيان الشاغوري، وابن عنين، وابن منير،

---

[١٦٨] ابن عنين: ديوانه، ص ٩٨، المصوح: البناتُ ولي لون زهره.

[١٦٩] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ٨٦.

[١٧٠] ابن قلاقس: ديوانه، ج٢، ص٥٣٨.

[١٧١] المصدر السابق: ج١، ص١٥٩.

والشَّريف العقيلي، والبهاء زهير. ومن الأمور التي أعطَتْ شعر الشعراء دفقات موسيقية عالية، ظاهرة المقابلة بين الجمل، التي أعْطَتْ توازناً موسيقياً لبيت الشِّعر والقصيدة، ومن ذلك قول الحكيم:

والنِّيلُ من ذهبٍ يطفو على ورق   والرَّاحُ من ورق يطفو على ذهب(١٧٢)

ومن القصائد التي يشعر القارئ بخفة موسيقاها، وعذوبة نغمتها، وسهولة ألفاظها قصيدة ثقة الملك بن جرادة، يصف كَسْرَ النيل، مستخدماً أسلوب المقابلة ليزيد من موسيقاه، ويجعل أطراف القصيدة تصدرُ بنغم واحد متوافق مع الحركة والنشاط داخل القصيدة، يقول:

نحن في جوِّ سماءٍ   ما لديها من فروج

كبدور في بروج   أو سطور في دروج

أو زهور في فروج   أو ملوك في سروج(١٧٣)

ومما زاد في نغمة موسيقاه كذلك، التصريع الذي استخدمه الشاعر في أبياته، ومنه أيضاً، وصف أسامة بن منقذ لفتاة، واصفاً عيونها، ولِيتيها، وثغرها يقول:

فأعارَ الغزال عيناً، وغصنَ الـ   ـبان ليناً، والإقحوانة ثغراً(١٧٤)

ومنه أيضاً وصف ابن الساعاتي للرَّبيع، يقول:

يا حبذا زمن الرَّبيع ودوحُهُ   قيدُ النَّواظر بل عقالُ الانفسِ

وافاكَ يَبْسِمُ والغمامُ مُعْبِسٌ   فاعجب لطلعة باسم ومبعِّس

أنفاسه من عنبر وسماؤه   من لؤلؤ وبساطة من سندس(١٧٥)

وغالباً ما يأتي الشعراء بمقابلاتهم الشِّعرية، زيادة في النغم الذي يسير على وتيرة واحدة.

وكما نرى فإنَّ موسيقى شعر الطبيعة في هذا العصر قد اعتمد عليها الشعراء، سواءً في إظهار براعتهم في النُّظم، أو زيادة في النَّغمة الموسيقية، وممَّا زاد في موسيقى الشعر الإكثار من الزَّخرفة اللفظية التي انتشرت وبشكل واسع في هذا العصر.

---

(١٧٢) الحكيم: ديوانه، ص٦٠.

(١٧٣) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج٣، ٢١٧.

(١٧٤) أسامة بن منقذ: ديوانه، ص٢٢.

(١٧٥) ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٢٢٦.

رابعاً: التراث في شعر الطبيعة:

نقصد بالتراث، ما استلهمه الشعراء عند نظم قصائدهم في القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر العربي ووظفوه في شعرهم، واتخذوا منه إشارات وظفوها لبيان موقف شعري معين.

وهذه الظاهرة انتشرت بشكل كبير في أدب هذا العصر، حتى لنجد أن غالبية الشعراء، قد اقتبس شيئاً من ماضيه ليزيد به بهاء حاضره، ولاعيب في ذلك، ولايؤخذ عليهم مأخذاً يوسمون به بالرداءة، وعدم الجودة، بل غالبية الشعراء في كلّ الأُمم تميل دائماً إلى الأخذ بشيء من تاريخها وقيمها، ونشعر عندهم برغبة جامحة للاستسقاء من ماضيهم المجيد.

ولعلّ الشعراء في ميلهم إلى الاتكاء على التراث، مالوا إلى إحياء أمجادهم العريقة في وجه المدّ الصليبي الذي يحاول القضاء على هذا التراث بشقيه الدّيني والثقافي، فلذا نجد أن حركة الإحياء في هذا العصر نشطَت، فأحيوا كثير من الكتب العربية، شرحاً، واختصاراً، وتأليفاً، فاقت في مجملها كلّ العصور التي سبقتها.

وللحروب الصّليبية الدينية التي تشنها أوروبا على العالم الإسلامي والاستيلاء على مقدساته، الأثر الأكبر في ميل الشعراء إلى الاتكاء على التراث الدّيني وإبرازه بشكل واضح، حتى لنشعُر أنّ القصيدة موشاة بأريج الآيات القرآنية العطرة. وعلى هذا الأساس قُسّمَ الموضوع إلى محورين، محور التراث الديني، ومحور التراث الشعري.

أولاً: التراث الدّيني:

١. القرآن الكريم:

مال الشعراء إلى الإكثار من الاقتباس من القرآن الكريما سواء توظيف القصص القرآني، أو الاقتباس من الآيات القرآنية مباشرة، وذلك لميل نفوسهم بشكل شعوري أو لاشعوري بالرّد على الحرب الدّينية التي يشنها الصليبيون على العالم الإسلامي.

أ. القصص القرآني:

لقد بهرت القصص القرآنية شعراء هذا العصر، حتى لنجد أن غالبية القصص القرآنية قد وظفها الشعراء في شعرهم، ونظروا إليها نظرة المتفحص، العالم بأمورها، المتفكّر بكيفية توظيفها،

وقد حاولنا استقصاء القصص القرآني في شعر الطبيعة فوجدناها كثيرة، أحاط الشعراء بمجملها، ومن ذلك توظيف ابن معمعة الحمصي لقصة فداء سيدنا إسماعيل عليه السلام، وظفها في استعطاف ممدوحه، متخذاً من ديكه حدثاً لقصته، لشرح الحالة الاجتماعية التي وصل إليها، يقول:

أوعزيــز ســـواك مـــن يفتديـــه ... فـــافده ســـيدي بذبـــح عظيـــم
تبـــقَ فـــي ذاك ســـنة لـــك تبقـــى ... ذكرهـــا ذكـــر كبـــش إبراهيـــم[١٧٦]

وقد أخذ الشاعر قصته من قوله تعالى {فلما سلّمَه وتلّهُ للجبين وناديناه أن يا إبراهيم* قد صَدّقْتَ الرّؤيا وإنا كذلك نجزي المحسنين* إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم}[١٧٧].

والقصة من بدايتها إلى نهايتها، تشرح بكلّ وضوح الضائقة المالية التي يعاني منها الشاعر، والبلاء الذي يعيش فيه على أبواب العيد، فأتى بقصة ابتلاء إبراهيم عليه السلام لتكون صورة لحالته، ولتدعَمَ موقفه أمام ممدوحه.

أما ابن قلاقس في قصيدته التي يصف فيها مجلساً محاطاً بالجنان، ودولاب الماء يقذف مياهَهُ الصّافية النقية على صرح أبيض، فوظف الشاعر لذلك قصة سيدنا سليمان عليه السّلام وبلقيس، وحكاية عرشها، والصّرح المُمَرّد الذي كشفت عن ساقيها تحسبه لجة ماء من شدة صفائه ونقائه، لينقل الشاعر المتلقي من خلال الصّورة الشبهية بين مجلسه بكل ما فيه من حُسْن، وصرح سيدنا إبراهيم عليه السلام، يقول:

كأنّمـــا المـــوج علـــى متنِـــهِ ... صـــرحُ ســـليمان الـــذي مـــرّدا[١٧٨]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {قيل لها ادخلي الصّرحَ فلمّا رأتْهُ حسبَتْهُ لجةً وكشفت عن ساقيها، قالَ إنّهُ صرحٌ مُمَرّدٌ من قوارير قالت ربي إني ظَلَمْتُ نفسي، وأسْلَمْتُ مع سليمان لله ربِّ العالمين}[١٧٩].

ويوظف البهاء زهير قصة عجل السّامري الذي عبدتْهُا بني إسرائيل، لبيان صورة مهجوه، ويربط بين هذه الفعلة المشينة وهذا الموقف الهجائي، يقول:

---

(١٧٦) ابن منظور: نثار الأزهار، ص٩٨.

(١٧٧) سورة الصافات: آية، ١٠٣-١٠٤.

(١٧٨) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ٢٠٥.

(١٧٩) سورة النّمل: آية، ٤.

ثـــــــوراً غـــــــدا أعجوبـــــــة مـــــــدورة بلحيـــــــة مـــــــدورة
لـــو كـــان ذاك الثـــور عجـــــلاً عبدتـــه السَّـــمرة(١٨٠)

وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى {فأخرج لهم عجلاً جسداً له خُوارٌ، فقال هذا إلاهكم وإلاه موسى فنسي}(١٨١).

ويتخذ ابن حيوس في بيانه لصفات خيل ممدوحه، قصة سيدنا سليمان مع خيله الصافنات، التي أنستْهُ صلاته لحسنها وجمالها، ليلفِتَ نظر القارئ إلى ربط صورتها بصورة خيل سليمان عليه السَّلام، يقول:

وَبَعْـــدُ ســـليمان إلـــى أن ركبْتَهـــا وأذلَلْتَهـــا مـــا كـــانت الرِّيْـــحُ تُرْكَـــبُ(١٨٢)

وهذا أخذ من قوله تعالى في تصوير سليمان وخيله {إذ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصَّافنات الجياد * فقال إني أحبَبْتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربي حتى توارت بالحجاب* رُدُّوها عليَّ فطفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ والأعناق}(١٨٣)

ووصف ابن أبي حصينة لِكَرَم ممدوحه الذي لاينقطع، وينفجر كعيون الماء متخذاً من قصة موسى وضربه الحجر الذي انفجَرتْ منه عيون الماء، صورة للتدليل على عظيم كرَمِ ممدوحه، يقول:

تَمَـــسُّ الصَّخْـــرَ أيْدِيـــهِ فيجـــري المـــاءُ فـــي الصَّخْـــرِ(١٨٤)

وهذا أُخذ من قوله تعالى {وإذ استقى موسى لقومه، فقلنا اضرب بعصاك الحَجرَ، فانفجرت منه اثنتا عشرَةَ عيناً قد عَلِمَ كلُّ أُناسٍ مشربهم}(١٨٥).

---

(١٨٠) البهاز زهير: ديوانه، ص١٢٩.
(١٨١) سورة طه: آية، ص٨٨.
(١٨٢) ابن حيوس: ديوانه، ج١، ص٣٨.
(١٨٣) سورة "ص": آية، ٣١-٣٣.
(١٨٤) ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ٩٠.
(١٨٥) سورة البقرة: آية ، ص٦٠.

وكأن الشاعر في بيته قد ربط بين انفجار الماء من الصَّخر وانتشار الخير بين الناس، وعطاء الممدوح الذي هَلّ من بين يديه ليَعُمَّ الخير به علىالناس. أما صورة الصَّباح وشفق الشَّمس الأحمر وقد طرَّز المشرق، فوظف له ما اقترن به من هذا اللون القاني في مخيلة المتلقي من صورة قميص سيدنا يوسف والدَّم الذي صبغه إخوته به، ليبين شدة إحمرار الشَّفق، يقول:

أما رأيت قميص الصُّبحِ يا شفقاً إلا أتيتَ عليه بالدَّمِ الكذبِ[١٨٦]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {وجاءوا على قميصه بدمٍ كذِبٍ}[١٨٧]. وحالُ النَّاقة وهزالها بعد سبع ليالٍ من المسير مُيَمِّمة نحو الممدوح، وظف ابن حيوس سنوات القحط السَّبع التي مَرَّتْ زمن سيدنا يوسف عليه السَّلام، وينقل القارئ إلى صورة الناقة وكأنَّها عاشت في تلك السنين: يقول:

فاعلاتٍ بهنَّ سبعَ ليالٍ فعل سبعٍ من السِّنين عجاف[١٨٨]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: {قال الملك إني أرى سبع بقراتٍ سمان يأكُلُنَّ سبعٌ عجاف وسبع سنبلات خُضرٍ وأخرُ يابسات}[١٨٩]

وفي وصف أسامة بن منقذ لحصن الطوبان، يرى في ريحه ريحُ عاد المهلِكة، وكأن القارئ يعرض تلك الصُّورة المهلكة، ليتعرف من خلالها على سوء ريح الحصن، يقول:

متى أرى الطُّوبان وقد مُهِّدَت حيطانُهُ السُّودُ المحاريثُ
ما فيه إلا ريح عاد، وأجلاف طعام وبراغيث[١٩٠]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى في وصف قوم عاد {وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية}[١٩١].

---

[١٨٦] القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ص١٣٩.

[١٨٧] سورة يوسف: آية، ١٨.

[١٨٨] ابن حيوس: ديوانه، ج٢، ٩٠.

[١٨٩] سورة يوسف: آية، ٤٣.

[١٩٠] ابن منقذ: ديوانه، ص١٥٧.

ولون الزُهور الأصفر الفاقع، يوظف له فتيان الشاغوري، قصة بني إسرائيل عندما أمرهم الله سبحانه وتعالى بذبح بقرة صفراء فاقع لونها تَسُرُّ الناظرين، وكأنّه يعكس حُسنَها على لون أزهار حديقته، يقول:

مـن أبيـضَ يَقَـقٍ وأصفـرَ فـاقِعٍ لونـاً تَسُـرُّ النـاظرين وأزرقـا[١٩٢]

وهذا المعنى واللفظ أُخِذَ من قوله تعالى {قالوا ادعُ لنا ربّكَ يبين لنا ما لونُها قالتَ إنّها بقرةٌ صفراء فاقِعٌ لونُها تَسُرُّ الناظرين}[١٩٣].

ويوظف ابن الذروي قصة نجاة سيدنا موسى عليه السّلام من الغرق وهو يقطع عرض البحر، وقصة سيدنا إبراهيم عليه السّلام ونجاته من النّار في وصفه لحمام، ومائة الكثير السّاخن، يقول:

فكـأنّ الغريـق فيـه كليـم وكـأنّ الحريـق فيـه خليـلُ[١٩٤]

واستقى الشاعر الشطر الأول من قوله تعالى {وأنجينا موسى ومن معه أجمعين* ثم أغرقنا الآخِرين}[١٩٥] والشّطر الثاني استقى معناه من قوله تعالى {قالوا حَرّقُوُه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قُلْنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم}[١٩٦] أما ابن أبي حصينة في وصفه لمعركةَ مع ذئب، في معرض وصفه لهيبة وشجاعة ممدوحه حتى لو نظر إلى جبل لانْهَدَّ من فوره، وهذا المعنى أخذه من قصة سيدنا موسى عليه السّلام، عندما طَلَبَ من الله عزّ وَجَلّ أن يرِيَهُ نفسه، يقول ابن ابي حصينة:

سَـمَا بـي طـرف امـرئ لوسـما بـه إلـى جبـل لانهـدَّ مـن خوفـه هـدَّا[١٩٧]

---

[١٩١] سورة الحاقة: آية، ص٧.

[١٩٢] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢٩١.

[١٩٣] سورة البقرة: آية، ٦٩.

[١٩٤] ابن ظافر الأزردي: بدائع البدائه، ص٢٥٩.

[١٩٥] سورة الشعراء: آية، ٦٥-٦٦.

[١٩٦] سورة الأنبياء: آية، ٦٨-٦٩.

[١٩٧] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص٢٦٧.

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {قال ربي أرني أنظر إليك قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرَّ مكانَهُ فسوف تراني، فَلَمَّا تَجَلّى ربُّهُ للجبل جعله دَكًّا وَخَرَّ موسى صعقاً}[١٩٨].

وفي رثاء راجح الحلي، يوظف قصة سيدنا نوح عليه السّلام والطّوفان الذي عمَّ الأرض، ومن بعد ذلك احتوته الأرض، وهو في ذلك يُلْفِتُ نَظَرَ القارئ إلى صورة بلع الأرض للماء، كما احتَوتْ جَسَدَ الملك، يقول:

وغيض ذاك البَحْر من بعدما صمَّتْ وطمَّتْ لغياب البلاد غواربه[١٩٩]

وأخذ معناه من قوله تعالى {وقيل يا أرضُ ابلعي ماءَك، ويا سماء أقلعي، وَغُيْضَ الماءُ وَقُضِيَ الامر واستوت على الجودي}[٢٠٠].

وفي وصف أبي الرِّضا سالم بن علي بن أبي أسامة لغرق مركبه، وتشتت أخشابه في الماء، فأتى الشاعر بقصة أهل سبأ، وتفرقهم في البلاد، وتمزقهم كلَّ ممزق، بعد السَّيل، لبيان صورة قاربه، يقول:

قرافتي قد غرقَتْ وفُرِّقَتْ أيدي سبا[٢٠١]

وهذا المعنى أخذه الشاعر من قوله تعالى {فقالوا ربَّنا باعد بين أسفارنا، وظلموا أنفُسَهم فجعلناهم أحاديث، ومزقناهم كُلَّ مُمَزَّق}[٢٠٢]. ويدعوا البهاء زهير على خيله، لأنَّها أوصلته إلى ممدوح بخيل، فيأتي بقصة سيدنا إبراهيم مع ولده اسماعيل عليه السلام وأمه هاجر، ووضعها بود غير ذي زرع، يقول:

سأدعوا على الجرد لأنَّها سَرَت فأتت بي وادياً غير زرع[٢٠٣]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم {ربَّنا إني أسكَنْتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم}[٢٠٤]

---

[١٩٨] سورة الأعراف: آية، ٢١٤.

[١٩٩] الطباخي الحلبي: ج٢، ص١٧٩.

[٢٠٠] سورة هود: آية: ٤٤.

[٢٠١] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مِصْرَ، ج٢، ص٦٥.

[٢٠٢] سورة سبأ: آية، ص١٩.

[٢٠٣] البهاء زهير: ديوانه، ١٥٣.

في هجائه يوظف قصة الغراب الذي بعثه الله إلى قاتل أخيه، ليُرِيَهُ كيف يدفنه، ولكنه يعكس القصّة، فيجعل من مهجوه غراباً، ولكن لايَستُرُ سوءةً، يقول:

غـرابٌ ولكـن ليـس يَسْـتُرُ سـوءَةً   وكَلْـبٌ ولكـن ليـس فيـه حفـاظُ(٢٠٥)

وهو يشير في هذا المعنى إلى قوله تعالى {فَبَعَثَ الله غراباً يَبْحَثُ في الأرضِ لِيُرِيَهُ كيف يواري سوءة أخيه}(٢٠٦).

ويلفت ابن قلاقس نظر القارئ إلى مدى العطاء والنَّوال الذي يَهَبَهُ ممدوحه، عن طريق نقل المتلقي إلى أجواء الآية التي وصفَتْ مال قارون الذي تنوء العُصْبَةَ ذو القوة بحمل مفاتيحِها، يقول:

وتركتُها والنّوْءُ يـنزلُ راحتـي   عـن مـال قـارونٍ علـى قـارون(٢٠٧)

وهذا مأخوذ من وصف الله عز وجل لمال قارون في قوله تعالى {وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتِحهُ لتنوأ بالعصبة أولي القوَّةِ}(٢٠٨).

وفي وصف فتيان الشاغوري لأحد المصليات، وأحكام بنائه، وحُسْنِ سبكه، يعرض أمام المتلقي شريط العمل المحكم الذي قام به ذو القرنين في بناء سدّ يأجوج ومأجوج، ليبين قوة وصلابة بناء هذا المصلى، يقول:

هـو حصـنٌ للمسـلمين حصيـنٌ   وهـو غـابٌ وأنـت لَيـثُ الغـاب
لـو رأى ذو القرنيـن ذاك   رأى شيئاً عُجَاباً يثني عن الإعجاب(٢٠٩)

---

(٢٠٤) سورة إبراهيم: آية، ٣٧.
(٢٠٥) البهاء زهير: ديوانه، ١٥١.
(٢٠٦) سورة المائدة: آية، ٣١.
(٢٠٧) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ١٣٧.
(٢٠٨) سورة، القصص، آية،٧٦.
(٢٠٩) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٤٦.

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدُون في الأرضِ فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننَا وبينهم سداً * قال ما مكَّنِي ربي خيرٌ فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً * أُتوني زُبَرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصَّدفين قال انفخوا حتى إذا جعلَهُ ناراً قال أتوني أفرغ عليه قَطْراً * فما اسطاعوا أن يظهروهُ وما استطاعوا له نقبا}(٢١٠).

ويصور المتأمل العطاء من غير بني أيوب، كالذي ترك جنانه وما تحوي من الأشجار المختلفة، إلى شجيرات الشوك، وهو في ذلك ينقلنا إلى مساكن أهل سبأ وما فيها من جنان ومياه ورفاهةٍ في العيش، وكيف حولها الله كما ورد في قصتهم إلى شجيرات الإثل والخمط والسِّدر، وهو يلفتُ النَّظرَ إلى الحالة التي آلَ إليها أهل اليمن بعد كفرهم، يقول:

وراحِ سوى أبناء أيوب في الورى كعشواء في جنح الظلام لها خبط
كتارك كلتا جنتيه ولم يكن له بَعْدُ إلا الإثلُ والأكُلُ والخمط(٢١١)

وهذا المعنى استقاه الشاعر من قوله تعالى {ولقد كان لسبا في مَسْكَنهم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كلُوا من رزق ربكم واشكروا له بَلْدةٌ طيِّبةٌ وربٌّ غفور، فاعرضوا فأرسلنا عليم سَيْلَ العَرِمِ وبدلناهُم بجنَّتيهِم جنَّتينِ ذَوَاتيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأثلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليل}(٢١٢).

أما ألحاظ محبوبته، فهي في نظراتها تحمل السِّحر والفِتنَة، كتلك التي يعلمها هاروت وماروت والشياطين، يقول فتيان الشاغوري:

ولحاظُهُ فهينَّ هاروتُ وماروتُ ساحرًا وهي لاتتحرَّجُ(٢١٣)

واستقى الشاعر صورته من قوله تعالى {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كَفَرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السِّحْرَ وما أُنزِلَ على الملكين ببابلَ هاروتَ

---

(٢١٠) سورة الكهف: آية،٩٧.

(٢١١) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢٥٧.

(٢١٢) سورة سبأ: آية، ١٥-١٦.

(٢١٣) فتيان الشاغوري، ديوانه، ص٧٦.

وماروتَ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفُرْ فيتعلمون مِنْهُما ما يفرقون به بين المرء وزوجه}[٢١٤].

ب.الاقتباس من الآيات القرآنية:

اقتبس الشعراء من الآيات القرآنية، ووظفوها في شعرهم لفظاً ومعنىً، ليعطي الشاعر صورة يريد أن يوصلها إلى المتلقي، داعماً موقفه بآيات من القرآن الكريم، سواء نقلها بحرفيتها وسياقها، أو وضعها ضمن سياق يُغيِّرُ من معناها الذي قيلت فيه في سياق القرآن الكريم إلى معنى مغاير. ومن ذلك قول ابن الساعاتي في وصف طول ليله، مقتبساً من القرآن الكريم آية السِّلْمِ التي تناسِبُ معنى أبياته الذي أخرجه بثوبِ الحرب، يقول:

خليلَيَّ هلْ نامَ الصَّباحُ عنِ الدُّجى ... فإنّي أرى الظلماءَ لاتتزحْزَحُ
أظُنُّ صباحي طالَ في الحربِ عمرُهُ ... فأمسى إلى سَلْمٍ مع الجنحِ يَجْنَحُ[٢١٥]

وهو يوظف الآية بقريب من معناها الذي وَرَدَت فيه السِّياق القرآني فقد جاءَتْ الآية الكريمة مقتفيةً لآيات الجهاد، والشاعر ينقلنا عبر أبياته إلى أجواء معركته مع الصَّباح الذي طال عليه، فاقتفى هذه الأجواء بآية السِّلْمِ، حتى يَضَعَ لمعاناته حداً، كما وضَعَ الله للقتال حداً بقوله تعالى {وإن جنحوا للسِّلْمِ فاجنح لها وتوكَّلْ على الله إنَّهُ هو السَّميع البصير}[٢١٦].

وفي وصف ابن مماتي منظر الإبريق والخمرة هي تُصَبُّ في الكؤوس، بمنظر الشِّهاب وهو في إثر شيطان، مُتَّخِذاً من الإبريق شهاباً ومن الخمرة شيطاناً استقر في الكأس، يقول:

إذا انبرت من فَمِ الإبريقِ تَحْسَبُها ... شهاب ليلٍ رمى في الكأس شيطانا[٢١٧]

والصُّورة نفسها ينقلها يحيى بن سلامة في تصويره للخمرة والسَّاقي مُقْبِلٌ بها، وكأنَّ الهَمَّ سيدبر بها، كما تُدْبِرُ العفاريت إذا ما رجمتْ بالشُّهُبِ، يقول:

إذا أقبلتْ ولى بها الهمُّ مُدْبِراً ... كما أدبرَ العفريتُ من كوكبِ الرَّجمِ[٢١٨]

---

[٢١٤] سورة البقرة: آية،١٠٢.

[٢١٥] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ص٤٨.

[٢١٦] سورة الأنفال: آية، ٦١.

[٢١٧] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج١، ١١٣.

وهذان البيتان مأخوذان من قوله تعالى {إلا من خَطِفَ الخطفَةَ فأتبَعَهُ شهابٌ ثاقِبٌ}[٢١٩] ويتخذُ أبو عبدالله من النَّصِّ القرآني وصفاً للسُفن، عند وصفه لمنارة الاسكندرية والسُّفن تهتدي بنورها، يقول:

للمنشآت الجواري عند رؤيته كموقع النَّجوم من أجفان أرق[٢٢٠]

وهذا أخذه الشاعر من قوله تعالى {وله الجَوَار المنشآت في البحر كالأعلام}[٢٢١]. ويتخذ ظافر الحداد من وصف ثياب أهل الجنة صورة للرَّبيع الذي نبت على شطي النيل، يقول:

والنيل يحشو حشا الخليج وقد كساهُ زهر الرَّبيع باستبرق[٢٢٢]

وهو مأخوذ من قوله تعالى {عليهم ثيابُ من سندسٍ واستبرق}[٢٢٣] أما ابن السّاعاتي في وصفه للبرزخ الفاصل بين الماء العذبِ والماء المالح، يتكئُ على وصف القرآن ومسمياته لذلك، يقول:

ولم أر يوماً كان أبهجَ منظراً من البرزخ المشهود لو كُنْتَ تعلَمِ[٢٢٤]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {مرجَ البحرين يلتقيان * بينهما برزخٌ لايبغيان}[٢٢٥] وينتقي عماد الدين الأصفهاني لوصف هول المعركة التي خاضها الجيش الإسلامي، والوبال الذي حاق بالجيش الصليبي، صورة هول يوم القيامة ومنظر الجبال في ذلك اليوم، يقول:

بوقعةٍ رَجَّتْ بها الأرضُ جيشهم دماراً كما بُسَّتْ جبالهم بَسَّاً[٢٢٦]

---

[٢١٨] المصدر السابق: شعراء الشام، ج٢، ص٥١١.

[٢١٩] سورة الصافات: آية، ١٠.

[٢٢٠] ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص٣١٨.

[٢٢١] سورة الرحمن: آية، ٢٤.

[٢٢٢] ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٣٠.

[٢٢٣] سورة الإنسان: آية، ٢١.

[٢٢٤] ابن الساعاتي: ديوانه، ج١، ١٦٩.

[٢٢٥] سورة الرحمن: آية، ١٩-٢٠.

والمعنى واللّفظ أخذه العماد الأصفهاني، من قوله تعالى في وصف هول يوم القيامة {إذا رُجَّتْ الأرضُ رجاً، وَبُسَّتْ الجبالُ بَسّاً}(٢٢٧).

وفي وصف البهاء زهير لنور القمر، يتخذ من وصف القرآن له صورة استقى منها وصفه، يقول:

يا أيُّها القمر الذي قد عمَّ بالنّور المبين(٢٢٨)

وهذا مأخوذ من قوله تعالى واصفاً نور الشّمس والقمر {وجعل القَمَرَ فيهن نوراً وجعل الشّمس سراجاً}(٢٢٩)

أما صورة الخمرة المشعشة التي يطلع بها السّاقي في غَسَق اللّيل، فيختار فتيان لها ألفاظاً ينقلها من معناها القرآني إلى معنى آخر، يقول:

تكاد تطلع شمس الضُّحى إذا اللّيل عسعس(٢٣٠)

وهو مأخوذ من قوله تعالى: {واللّيل إذا عسْعَسَ}(٢٣١) {والشّمس وضحاها}(٢٣٢) وصورة المرأة في نظر أسامة بن منقذ، كأعمال الكافرين التي تشبه السَّراب، يقول:\

ما هي إلى السَّرابُ يتبَعَهُ الظمآنُ حتى يموت بالعطشِ(٢٣٣)

والشاعر في وصفه هذا نقل الصّورة القرآنية إلى غير موضعها، ووظفها لإخراج صورته إلى حيز الوجود، وقد أجاد الشّاعر في الاستقاء من الصُّور القرآنية وتوظيفها، والشاعر استقى

---

(٢٢٦) العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٢٣٤.

(٢٢٧) سورة الواقعة: آية، ٤-٥.

(٢٢٨) البهاء زهير: ديوانه، ٣٨.

(٢٢٩) سورة النساء: آية، ١٧٤.

(٢٣٠) فتيان الشاغوري: ديوانه، ٤٧٨.

(٢٣١) سورة التكوير: آية، ١٧.

(٢٣٢) سورة الشمس: آية، ١.

(٢٣٣) أسامة بن منقذ: ديوانه، ٢٣.

المعنى واللّفظ من قوله تعالى {والَّذين كفروا أعمالهم كَسَراب بقيعة يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدهُ شيئاً ووجدَ الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب}(٢٣٤).

أما وصف الواسطي لبغلة مهذب الدين، الذي مادت به قوائمها، فيتخذ من وصف القرآن للأرض وصفاً لذلك، يقول:

لكنّما الأرضُ مادَتْ تحتها طرباً ... إذا شرفت بك يا من طابَ محتدُهُ(٢٣٥)

وهو مأخوذ من قوله تعالى: {وجعلنا في الأرض رواسيَ أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً}(٢٣٦). والقاضي الفاضل في وصفه لقساوة قلوب النِّساء، يوظف صورة قلوب اليهود لها، كما وصفها الله عز وجل، يقول القاضي:

وهي القلوب إن استكشَفتَ باطنها ... فكالحجارة أو أقصى وكالقُلُب(٢٣٧)

وهذا القول مأخوذ من قوله تعالى في وصف قلوب الكافرين {ثم قَسَتْ قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قَسْوَةَ}(٢٣٨)

وعرقلة الكلبي في وصفه للخمرة، يبتر الآية الكريمة من سياقها، وينقلها إلى معنى مغاير عن المعنى التي وضعت له، وهو في ذلك يأخذ منها الطُّولُ والانتظار والشّوق، يقول:

وَقَطَّع ليالينا بالكأس حتى مطلع الفَجْرِ(٢٣٩)

وهذا جاء به الشاعر من قوله تعالى في وصف انتظار المؤمنين ليلة القَدْر في قوله تعالى {سَلامٌ هي حتى مطلع الفجر}(٢٤٠).

---

(٢٣٤) سورة النو، آية، ٣٩.

(٢٣٥) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه، ص٢٦٣.

(٢٣٦) سورة الأنبياء: آية، ٣١.

(٢٣٧) القاضي الفاضل: ديوانه، ج٢، ص٣٤٩.

(٢٣٨) سورة البقرة: آية، ٧٤.

(٢٣٩) عرقلة الكلبي: ديوانه، ٤٦.

(٢٤٠) سورة القدر: آية،٥.

وفي وصف ابن منير للمرأة، ينقل صورة المتَصدّق في سبيل الله الذي ينتَظِرُ ثوابه من اللـه، بصورة مبتورة لهواه الذي أضلّـهُ، ويوظـف سياق الآيـة بمعنـى يختلـف كلّ الاختـلاف عـن المعنـى القرآني الذي وُضِعَتْ له، يقول:

فضلالـي بعـد الهُـدى فـي هـواه   هـو عنـدي خـيرٌ وأعظـمُ أجـراً(٢٤١)

والشطر الثاني من قوله أخذه من قوله تعالى في سورة المزمل {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عندالله هو خيرٌ وأعظمُ أجراً}(٢٤٢).

وإذا ماطرقَ سَمْع القاضي الفاضل ذِكْرُ من أحَبّ، تـنزل دموعـه فـي إثـر ذلـك كأنّهـا شُـهُبٌ، وهذا اللفظ أخذه من القرآن الكريم عند ذكره استراق الشياطين للسّمع، يقول:

إذا اسـترقَتْ سـمعاً مُنـايَ بذكـرهِ   ففي إثرهـا من شُـهُبِ أدمُعِهـا رَجْـمُ(٢٤٣)

أمّا النّص القرآني الذي استقى منه الشاعرُ لفظه فهو قوله تعالى {وحفظناها من كلِّ شيطان رجيم * إلا من استرق السّمع فأتبعَهُ شهابٌ مبين}(٢٤٤).

ويتكئ التلعفري في أكثر من موضع على القرآن الكريم عند وصفه لحدائق دمشق وجمالهـا، فينقلنا عبر الآيات إلى أجواء الجَنّة وما فيها من جمال ومباهج وراحة للنفس والجَسَد، وهـو فـي ذلـك ينقلنا إلى أجواء الجمال التي تتمتع بها دمشق، يقول:

تلـك الجنـانُ التـي حيـث التَفَـتُّ تـرى   قصـراً مشـيداً بـه حـور وولـدان
تَدعـوك إلـى اللـذات أربعـة   بَيْـعُ الحيـاة بهـا مـا فيـه خسـران
ظِـلٌ ظَليـلٌ ومـاءٌ بـاردٌ غـدقٌ   وجوسـق مشـرف عـال وبسـتان(٢٤٥)

وهذه الأبيات اقتبس الشاعر عدة آيات قرآنية، ليخرجَ صورتـه التـي أراد أن يصورهـا لقـراء بصورة مطَرّزة بجمال الآيات القرآنية، والآيات، قوله تعالى {فكأين من قريـة أهلكناهـا وهـي ظالمـةٌ

---

(٢٤١) ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ٢٨.

(٢٤٢) سورة المزمل:آية، ٢٠.

(٢٤٣) القاضي الفاضل: ديوانه، ج١، ١٠٠.

(٢٤٤) سورة الحجر: آية، ١٨.

(٢٤٥) التلعفري: ديوانه، ص٤٤.

فهيَ خاويةٌ على عروشها وبئر معطلةٌ وقصر مَشيدٌ}[٢٤٦]، وقوله تعالى {يطوف عليهم ولدان مخلدون}[٢٤٧] وقوله تعالى {وحو عين}[٢٤٨]، وقوله تعالى {والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواجٌ مُطَهرةٌ وندخلُهُم ظلاً ظليلا}[٢٤٩] ويتخذ ابن منير من وصف القرآن لنساء الجنة، وصفاً يصف فيه دمشقَ عندما يَنشُرُ الرَّبيع عليها برده، وتظهر للرائي بأحسن حلل، يقول:

أبدتْ دمشقُ ربيعاً جَلَّ صائغُهُ ... يأتيك في كلِّ حين غير مكنون[٢٥٠]

وهو ينقلنا في ذلك إلى معايشة أجواء الجمال والحُسْن التي تتمتَّعُ بها دمشق، ونساء الجنَّةِ، وهو مُقْتَبِسُ المعنى من قوله تعالى {وعندهم قاصرات الطَّرفِ عين * كأنَّهنَّ بيضٌ مكنون}[٢٥١].

أما سرعة معالجة فرسان الكافرين وقتلهم، فوظف عرقلة الكلبي صورة خلق الإنسان، يقول:

عاجلتَهُم فتركْتَ الخيلَ خاليةً ... منهم وقد خُلِقَ الإنسان من عَجَل[٢٥٢]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {خُلِقَ الإنسان من عَجَلٍ سأُريكم آياتي فلا تستعجلون}[٢٥٣] ويتخذ ابن أبي حصينة من وصف الجَنَّة وصفاً لسُرادق ممدوحه والأشجار المحيطة به من كلِّ جانب، يقول:

هي جنَّةٌ نُصِيبُ هناك وذُلِّلَتْ ... حولَ الإمامِ قُطُوفها تذليلا[٢٥٤]

---

[٢٤٦] سورة الحج: آية، ٤٥.

[٢٤٧] سورة الواقعة: آية، ١٧.

[٢٤٨] سورة الواقعة: آية،٢٢.

[٢٤٩] سورة النساء، آية، ٥٧.

[٢٥٠] ابن منير الطرابلسي: ديوانه، ١٧٥.

[٢٥١] سورة الصافات: آية، ٤٩.

[٢٥٢] عرقلة الكلبي: ديوانه، ٧٩.

[٢٥٣] سورة الأنبياء: آية، ٣٧.

[٢٥٤] ابن أبي حصينة: ديوانه، ج٢، ص١٠٣.

وهو يعرض للقاري صورة الجنة التي وَعَدَ الله بها المتقين، ويتقل المتلقي عبر الآية ليتَصورَّ مدى جمال وَحُسْنِ هذه السُّرادق، وهو يأخذ معناه ولفظه من قوله تعالى {ودانية عليهم ظلالها، وذُلِّلت قطوفُهَا تذليلا}[٢٥٥].

أما رثاء فتيان، فيتخذ من هول يوم القيامة وتكورِ الشَّمس، أجواءً يحفنا بها حتى يُشعرنا بمدى المصاب الذي لحق الأمة بموت الأمير، يقول:

وغارَت نجوم المكرمات وكوِّرَتْ هنالك شمسُ المجد كاسفةً حزنا[٢٥٦]

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {إذا الشَّمسُ كُوِّرَت}[٢٥٧].

ويتكئ ابن مكنسة في وصف بيتِهِ ووهنه علىوصف القرآن الكريم لبيت العنكبوت، يقول:

أين للعنكبوت بيتٌ ضعيفٌ مثلُهُ وهو مثلُ عقلي الضَّعيفُ[٢٥٨]

ويتكئ في ذلك على قوله تعالى {وإنَّ أوهَنَ البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون}[٢٥٩].

وفي وصف فتيان لدمشق، يتَّخذ من وصف القرآن الكريم لعليين وصفاً لربوتها، يقول:

كأنَّ في راس عليين رَبْوتها يجري بها كوثَرٌ سبحان مجريه[٢٦٠]

وهو في ذلك ينقلنا إلى تَصَوُّر الجنة والعيش في أجوائها، كما في قوله تعالى {كلاَّ إنَّ كتاب الأبرار لفي عليين}[٢٦١] وقوله تعالى {إنا أعطيناك الكوثر}[٢٦٢]. وفي وصف ابن قلاقس لعدم استقرارهم في جوف السَّفينة، يقتبس من نصائح لقمان لابنه وصفاً يصوِّرُ به صورتهم، يقول:

---

[٢٥٥] سورة الإنسان: آية، ص١٤.

[٢٥٦] فتيان الشاغوري: ديوانه، ٥٤٣.

[٢٥٧] سورة التكوير: آية، ١.

[٢٥٨] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ص٢١١.

[٢٥٩] سورة العنكبوت: آية، ص٤١.

[٢٦٠] فتيان الشاغوري: ديوانه، ٥٨٩.

[٢٦١] سورة المطففين: آية، ١٨.

[٢٦٢] سورة الكوثر: آية، ١.

فَكَمْ يُصَعِّرُ خدٌّ غير مُنْعَفِرٍ ... وكم يَخِرُّ جبينٌ غيرُ سجاد(٢٦٣)

واقتبس لهذا المعنى قوله تعالى {ولا تُصَعِرْ خدَّكَ للناس}(٢٦٤) وعندما يصف ابن قلاقس سرعة جواده، يوظف سورةالنّجم ليعطي صورة واضحة لسرعة جواده، يقول:

أو فعلى نهدٍ سريعٍ أشقرٍ ... ينْقَضُ إذا النَّجْمُ هوى(٢٦٥)

وهذا مأخوذ من قوله تعالى {والنَّجم إذا هوى}(٢٦٦)

وهكذا نرى الشعراء في اعتمادهم على النصّ القرآني، نجدهم يعتمدون على توظيفه، ليوافق المعنى الذي أردوا تصويره، فإماأن ينقلنا الشاعر عبر أجواء قصيدته إلى جو النّصّ القرآني، وإما يُبتُرُ النّصَّ من معناه ويوظفه في معنى مغاير لمعناه في القرآن الكريم.

٢. الحديث النبوي:

وهذا المصدر الدّيني الثاني الذي اعتمد عليه الشعراء في وصفهم، ولكنّهُ أقلُّ حظاً من المصدر الأول، ومن ذلك قول فتيان الشاغوري في وصفه لأحد القصور، ويشقه من وسطه نهرٌ، يقول:

يشُقُّهُ نهرٌ ناهيك من نهرٍ ... كأنَّهُ الكوثر المعطاةُ خير نبي(٢٦٧)

وهذا القول أخذه الشاعر من وصف النبي ﷺ لنهر الكوثر الذي مَنَحهُ الله له، وهو في ذلك يوظف صورة الجنّة بكل ما فيها من حُسْنٍ وجمال، ليبين صورة قصْر ممدوحه وما فيه من نعيم وجمال، والقول السّابق مأخوذ من قول النبي ﷺ بعد أن نَزَلَتْ عليه سورة الكوثر، "هل ترون ما الكوثر؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: "هو نهرٌ أعطانيه ربي عزَّ وجل في الجنّة عليه خير كثير تردُ عليه أمتي، فيقال: إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك"(٢٦٨).

---

(٢٦٣) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ١٥٤.

(٢٦٤) سورة لقمان: آية، ١٨.

(٢٦٥) ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ٢٩١.

(٢٦٦) سورة النجم: آية، ١.

(٢٦٧) فتيان الشاغوري: ديوانه، ص١٤.

(٢٦٨) ابن كثير (إسماعيل بن كثير القرشي ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، عمان، ج٤، ص٣٦٢.

ويتخذ الحكيم من وصف السّيدة عائشة رضي الله عنها للرسول في ضمور خصره في العشر الأواخر من رمضان، وصفاً مغايراً يوظفه في معنى آخر بعيداً كلَّ البعد عن المعنى الذي وصفت به، يقول:

قد عُقِدَ المِئزرُ من خصره على قضيب البانةِ الأملس[٢٦٩]

أما وصفها لحالة الرسول في العشر الاواخر من رمضان فتقول: "كانَ الرّسولُ ﷺ إذا دَخَلَت العشر شدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقَظَ أهله"[٢٧٠].

وفي وصف لخيمة بدر الجمالي، وما يحيط بها من رياض، يوظف أبو علي الأنصاري، صورة الجنَّة التي وصفها الرسول ﷺ، لبيان صورته، يقول:

وكأنّها جنَّةٌ فالقاطنون بها لايستطيل على أعمارِهم هَرَمُ[٢٧١]

وهذا القول بمعناه ولفظه مأخوذ من قول الرّسول ﷺ في وصفه لداخلي الجنَّة، يقول "مَنْ يدْخُل الجنَّة ينْعَمُ لايبأسُ ولاتبلى ثيابه، ولايفنى شبابه"[٢٧٢].

ويتخذ العماد الأصفهاني عند وصفه لغرفته، من وصف الرّسول للجنَّة والنار صورة يبين من خلالها ما يريد أن ينقله من صفاتها، يقول:

هي جنةٌ لأولي المكارم هُيِّئَتْ وكما تراها بالمكارم حُفَّتِ[٢٧٣]

وهذا مأخوذ من قول الرّسول ﷺ "حفَّت الجنَّة بالمكارم وحُفَّتْ النار بالشهوات"[٢٧٤].

وفي إحدى مراثي ابن الخياط، يوظف حديث الرسول ﷺ عن الدُّنيا وإنّها دارٌ فانية لايُخَلَّدُ فيها أحدٌ، يقول:

---

[٢٦٩] الحكيم: ديوانه، ص١٠٣.

[٢٧٠] ابن حجر العسقلاني: (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبدالعزيز بن باز، دار الفكر، عمان، ج٤، ٢٦٩.

[٢٧١] العماد الأصفهاني، خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ٦٨.

[٢٧٢] الإمام مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج ت٢٦١هـ) صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر، عمان، ١٩٨١، المجلد التاسع، ج١٧، ص١٧٥.

[٢٧٣] العماد الأصفهاني: ديوانه، ص٩٤.

[٢٧٤] الإمام مسلم: صحيح مسلم، المجلد التاسع، ج١٧، ص١٦٥.

ومـا هـذه الدُّنيـا بـدار إقامـة … فيحـزَنُ فيهـا القـاطِنُ المـترحِّلُ
هـي الـدَّارُ إلا أنَّهـا كمفـازةٍ … أنـاخَ بهـا ركْـبٌ وركـبٌ تحملـوا(٢٧٥)

وهذا المعنى الذي وظفه ابن الخياط لإظهار صورته، استقاه من قول الرَّسول ﷺ "ما أنا والدُّنيا إنَّما أنا والدّنيا كراكب استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها"(٢٧٦).

وقول ظافر الحداد في وصف الدُّنيا فاستقى معناه من قول الرَّسول ﷺ حين شبهها بمقاتلة الكلاب على الجيفة، يقول:

هـي الدُّنيـا فلايُحزِنْـكَ منهـا … ولامـن أهلهـا سَـفَةٌ وعـاب
أتطلـبُ جيفـةً وتنـال منهـا … وتنكـر أن تهارشـك الكـلاب(٢٧٧)

وهذا المعنى استقاه ظافر الحداد من قوله ﷺ "الدُّنيا جيفة وطلابها كلاب"(٢٧٨).

وقول ظافر الحداد في هلال العيد:

أمـا رأيـت هـلال العيـد حيـن بَـدَا … للعيـن منـه بقايـا جـرم دائـرة(٢٧٩)

وهو مأخوذ من قوله ﷺ "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غمَّ عليكم فأكملوا عِدَّة شعبان ثلاثين"(٢٨٠).

ونرى من خلال توظيف الشعراء للتراث الدِّيني، أنهم فهموه ثم أخرجوه بحلل جديدة وبمعان جديدة، تعطي الصُّورة التي يريد الشاعر تصويرها إيماءات كثيرة، وتنقل المتلقي عبر نسماتها إلى أجواء أُخرى يربط من خلالها صور متعددة لصورته في مخيلته.

---

(٢٧٥) ابن الخياط: ديوانه، ص٢٩.

(٢٧٦) ابن ماجه (الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٥هـ): سنن ابن ماجه، تحقيق، محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة العلمية، بيروت، المجلد الثاني، كتاب الزهد، الباب الثالث، ص١٣٧٦.

(٢٧٧) ظافر الحداد: ديوانه، ص٣٣٢.

(٢٧٨) العجلوني (الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجرّاحي ت١١٦٢هـ): كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث، على ألسنة الناس، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ص٤٠٩.

(٢٧٩) ظافر الحداد: ديوانه، ص٧.

(٢٨٠) الشيخ النبهان: مختصر كتاب رياض الصالحين للشيخ النووي، دار الجيل، بيروت، دار التربية، بغداد، ص١٤٤.

ثانياً: التراث الشّعري:

وظف الشعراء التراث الشعري في شعرهم، فجاءت صورهم ومعانيهم قريبة من معاني وصور من سبقهم من شعراء، ولوتتبعنا مقدمات القصائد لوجدنا الشعراء في هذا العصر لم يبتَدعوا شيئاً، بل جاءت مقدماتهم تابعة في شكلها ومضمونها لما سبقتهم، فوقفوا على الأطلال كغيرهم وظهرت صورة الظعينة والهودج والناقة والصّحراء قريبة من صور من سبقهم، ولكنهم تخففوا من الكثير من القيود التي أثقلت كاهل الشّعراء في العصور السابقة، فتخففوا من اللغة الغريبة الحوشية، وأضفوا عليها لغة عصرهم السَّهلة السلسة التي لاتحتاج إلى كبير عناء في فهمها.

وكذلك اتخذوا من الخمرة والغزل مقدمات لهم، ونسجوا على منوال من سبقهم، ولكن جاءت صورهم ولغتهم بحلل عصرهم، وعلى العموم فالعصر عصْرُ اتباع لمن سبقهم من العصور، فقد اتخذ الشعراء شعر من سبقهم نبراساً وهادياً لهم، فمنهم من اقتبس المعنى وأفاد منه، ومنهم من اقتبس اللفظ ونقله إلى معنى آخر غير الذي وضع له في الاصل:

أ. تضمين الشّعر:

والشاعر في تضمينه لشعر مَنْ سبقه من الشعراء، يحاول أن يضيف إلى معناه معنىً جديداً غير الذي وضع له في الأصل، فأسامة بن منقذ في حزنه وتحسره على أهله، يضمِّنُ شطر بيت أبي صخر الهذلي الذي يتحسر فيه على من فقد، فيشاركنا بتضمينه لهذا الشطر إحساساً مضافاً إليه الأحاسيس التي أحسَّ بها أبو صخر الهذلي، يقول أسامة بن منقذ:

فيا روعتي لاتسكني بَعْدهم ويا سلوة الأيام موعدك الحَشْرُ(٢٨١)

والشطر الثاني أخذه من قصيدة أبي صخر الهذلي:

وياحبها زدني جوىً كلّ ليلة وياسلوة الأيام موعدك الحشر(٢٨٢)

---

(٢٨١) أسامة بن منقذ، ديوانه، ص٧٤.

(٢٨٢) ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ت٢٧٦هـ) الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ج٢، ص٥٦٠.

أما ابن سنان الخفاجي، فيوظف قول الحطيئة وهو يستعطف عمر بن الخطاب، ويسترحمه في إطلاق سراحه من سجنه في معنى آخر وهو طلب العطاء والمساعدة، على طريقة الحطيئة في استدرار عطف الخليفة، يقول ابن سنان:

أتاك رائد قوم ليس عندهمُ   على الحقيقة ماءٌ ولاشجر[٢٨٣]

والشطر الثاني أخذه من قول الحطيئة:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ   زغبُ الحواصل لاماءٌ ولاشجر[٢٨٤]

وفي حنين ابن الخياط لوطنه دمشق وغوطتها، يستعرض الرَّصيد الهائل من الحنين إلى الدِّيار عند مالك بن الرَّيب في لحظاته الأخيرة، ليعبر عن الحنين الجارف الذي يُحِسُّ به الشاعر تجاه دمشق، وكأنَّه ينقلنا عبر أجوائه إلى قصيدة مالك بن الرَّيب، وما فيها من دفقات هائلة من العواطف والأحاسيس، يقولُ ابن الخياط:

ألا ليت شعري هلْ أبيتنَّ ليلةً   يُروِّحني بالغوطتين نَسِيمُ[٢٨٥]

والشَّطر الأول مأخوذ من مالك بن الرَّيب:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة   بجنب الغَضَى أزجي القلاص النَّواجيا[٢٨٦]

وابن سناء الملك في وصفه لغادة الظَّعن، وعدم الوصول إليها بسهولة نتيجة للحراسة المشدَّدة عليها، يوظف لذلك بيت المتنبي، لبيان صورته التي يريد نقلها للمتلقي، يقول ابن سناء:

بشوك القنا يحمون شهْدَ رضابها   ولابد دون الشَّهد من إبر النحل[٢٨٧]

---

[٢٨٣] ابن سنان الخفاجي: ديوانه، ص٨١.

[٢٨٤] أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد القرشي ٣٥٦هـ): الأغاني، دار الفكر للجمعي، بيروت، ١٩٧٠، ج٢، ص٥٥.

[٢٨٥] ابن الخياط: ديوانه، ١٥٣.

[٢٨٦] أبو زيد القرشي (أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ت ١٧٠هـ): جمهرة أشعار العرب، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٨، ص٨٢.

[٢٨٧] ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص٤٠٨.

والشّطر الثاني أخذه الشاعر من قول المتنبي:

تُرِيـــدُ لقيـــان المعـــالي رخيصـــة ولابـد دون الشَّـهد مـن إبـر النَّحـلِ[٢٨٨]

وفي وصف فتيان الشاغوري لمحبوبته، يختار الصورة التي رسمها امرؤ القيس لحبيبته، آخذاً اللفظ والمعنى، يقول:

تصُـدُّ وتبـدي عـن أسـيلٍ وتتقـي بنـاظرتَيْ وسنان من وحـش وجـرة[٢٨٩]

أما قولُ امرئ القيس الذي ضمنه فتيان:

تصُـدُّ وتبـدي عـن أسـيل وتتقـي بنـاظرةٍ مـن وحـش وجـرة مُطْفِـل[٢٩٠]

وعندما يقف شهاب الدين المقدم على الأطلال، ينقلنا إلى الأطلال التي وقف عليها امرؤ القيس، في محاولة منه إلى معايشة الصورة التي يريد أن يصورها، ويضفي عليها بالإضافة إلى عواطفه عواطف امرئ القيس، يقول:

محـلّ إذا لاح لـي لـم أفـق بصحبـي علـى حومـلٍ فـالدُّخول[٢٩١]

هذه الأماكن أخذها الشاعر من مطلع معلقة امرئ القيس الشهيرة:

قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومـنزل بسقط اللـوى بيـن الدخـول فحومـلِ[٢٩٢]

وفي رثاء ابن عنين لحماره، ووصفه لمشيته، يوظف صورة الأعشى الذي يصور فيها مشية محبوبته،ولكنّه ينقلها بصورة مغايرة لصورة الأعشى، يقول:

لاعـاجزاً عنـد حمـلِ المثقـلات ولا يشمي الهوينى كما يشمي الوجيُ الوجلُ[٢٩٣]

---

[٢٨٨] عبدالله البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠، ج٤، ص٤.

[٢٨٩] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٦١.

[٢٩٠] حسن السّندسي: شرح ديوان امرئ القيس ط٧، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٨٢، ص١٤٩.

[٢٩١] علي بن ظافر: بدائع البدائه، ص٢٢٧، حومل والدخول: أماكن وقف عليها امرئ القيس.

[٢٩٢] حسن السّندسي: شرح ديوان امرئ القيس، ص١٤٩.

[٢٩٣] ابن عنين: ديوانه، ص١٤٠. الوجي: الذي حَفِيَ أورقّتْ قَدَمُهُ.

والشطر الثاني مأخوذ من قول الأعشى في وصف محبوبته:

غـــراءُ فرعـــاءُ مصقـــولٌ عوارضهـــا　　　تمشي الهوينى كما يمشي الوجيُ الوجلُ[٢٩٤]

ويوظف ابن سناء الملك قول زهير أبي سلمى في معلقته، لبيان فتح قلعة وعلوها وسموها، يقول:

رقـــى ســـلماً للعـــزّ أوصلـــه لهـــا　　　فقـــد نـــال أســـبابَ السَّـــماء بســـلّمِ[٢٩٥]

وهو في ذلك يوظف صورة الموت عند زهير الذي يصل إلى كلّ شيء، ليرسُمَ صورة القائد، والشطر الثاني قول زهير بن أبي سلمى واصفاً الموت:

ومـــن هـــاب أســـباب المنيَّـــة يلقهـــا　　　ولـــو رامَ أســـبابَ الســـماء بســـلّمِ[٢٩٦]

ويوظف ابن عنين وصف أبي ذئيب الهذلي في رثاء أبنائه، ليصف برودة الشتاء، وهو ينقل قول أبي ذئيب إلى معنى آخر غير الذي وضع له، يقول:

وإذا الشـــتاء أتـــى ومـــالي فـــروةٌ　　　ألفيـــتُ كـــلَّ تميمـــة لاتنفـــع[٢٩٧]

فالشاعر امتصَّ معنى أبي ذئيب إلى معنى آخر، فكما الموت الذي لم ينفع فيه حرص أبي ذئيب على أبنائه، كذلك شتاء ابن عنين لن ينفع فيه شيء، والشطر الثاني أخذه من قول أبي ذئيب التالي:

وإذا المنيـــة أنشـــبتْ أظفارهـــا　　　ألفيـــتَ كـــلَّ تميمـــة لاتنفَـــعُ[٢٩٨]

---

[٢٩٤] الأعشى الكبير (ميمون بن قيس بن جند بن بكر بن وائل ت ٦٢٨م): ديوان الأعشى، تحقيق محمد حسين، مكتبة الأداب، القاهرة، ص٦.

[٢٩٥] ابن سناء الملك: ديوانه، ج٢، ص٧٠٤.

[٢٩٦] الأعلم الشنتمري (يوسف بن سليمان عيسى ت ٤٧٦هـ): شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق، فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ط٣، ص٥٠.

[٢٩٧] ابن عنين: ديوانه، ص١٠٦، التميمة: خرزة أو ماشبه كانت الأعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين.

[٢٩٨] ديوان الهذليين: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، القسم الأول، ص٣.

وفي تشوقه إلى الإسكندرية، يوظف ابن قلاقس تشوق أبي قطيفة ـ الذي نفاه ابن الزبير إلى الشام ـ إلى المدينة المنورة، يقول ابن قلاقس:

القصرُ والنَّخل فالجماءُ بينهما فالإثلُ فالقصبات والخضرُ والوادي[٢٩٩]

وبيتُ قطيفة الذي وظفه ابن قلاقس هو:

القصرُ والنَّحلُ فالجماءُ بينهما اشهى إلى القلبِ من أبواب جيرون[٣٠٠]

أما منارة الإسكندرية وشعتلها المنيرة في أعلى رأسها، يوظف لها ابن قلاقس قول الخنساء في رثاء أخيها صخر، وما فيه من صفات، يقول:

ما زال يذكي نار الذكاء إلى أنْ أصبحَتْ علماً في رأسه نارُ[٣٠١]

والشطر الثاني وظفه الشاعر من قول الخنساء:

أشمّ أبلجٌ تأتمُّ الهداةُ به كأنَّهُ علم في رأسه نارُ[٣٠٢]

ب. اقتباس المعنى:

اقتبس الشعراء المعنى الشعري ووظفوه في شعر هذه الفترة، وقد ظهر التوظيف بشكل جلي في مجالات الشعر عامة، ومن ضمنها شعر الطبيعة، وقد جاء هذا التوظيف ليرفد معاني الشاعر وصوره، ويعطي إيحاءاً جديداً ينقل المتلقي إلىأجواء قصيدة الشاعر الأول، ومن ذلك توظيف فتيان الشاغوري لمعنى بيت الأعشى الكبير في هجائه، يقول:

والكلبُ إن ينبحَ البدرَ المنير فَلَنْ يُضيره ويعاني الذلَّ والتَّعبا[٣٠٣]

---

[٢٩٩] ابن قلاقس: ديوانه، ج١، ص١٥٤.

[٣٠٠] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١، ص٥.

[٣٠١] ابن قلاقس: ديوانه، ج٣، ص٦١٠، العلم: الجبل.

[٣٠٢] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص٢٦٣.

[٣٠٣] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٣٠.

وهذا المعنى أخذه من قول الأعشى:

كنـــاطح صخـــرةً يومـــاً ليفلقهـــا فَلَـمْ يَضرهـا وأوهـى قرنَـهُ الوَعـلُ(٣٠٤)

ووظف ظافر الحداد معنى أحد أبيات قصيدة ابن زيدون النونية الشهيرة، ليصف من خلال ذلك بعد محبوبته، وينقلنا الشاعر عبر ذلك إلى الشعور بالحرمان والبعد الذي أصاب كلا الشاعرين، يقول ظافر:

فكـــان بيـــن تلاقينـــا وفرقَتِنـــا كمـا تَبَسَّـمَ بـــرق غـــازَلَ الأفقـــا(٣٠٥)

والمعنى الذي استقى منه ظافر الحداد معناه، قول ابن زيدون:

وقـــد كُنّـــا ومـــا يخشـــى تَفَرُّقنـــا فـــالآن نحـــنُ ومـــا يرجـــى تلاقينـــا(٣٠٦)

أما الشريف العقيلي في معرض هجائه، يوظف بيت معلقة عمرو بن كلثوم، وينقله من معنى الفخر والاعتزاز بالنفس إلى موضوع مغاير تماماً لموضوع الفخر، فامتصَّهُ الشاعر ونقله إلى موضوع الهجاء، يقول:

قدتفـــــــردتَ بجهـــــــل فُقْـــتَ فيـــه الجاهلينـــا(٣٠٧)

وهذا المعنى أخذه من قول عمرو بن كلثوم:

ألا لايجهلـــــنَّ أحـــــد علينـــا فنجْهـلُ فـوق جهـل الجاهلينـــا(٣٠٨)

أما ليلة ابن عنين الذي تداعت عليه فيها الهموم، وهو سائرٌ في رحلته إلى ممدوحه، فيستقي معناه من وصف امرئ القيس لإحدى لياليه التي داهمته همومه فيها، يقول ابن عنين:

وليلـة مثـلُ مـوج البحـر بـتُّ بهـا أكـابِدُ المزعجيـن الخـوفَ والخطـر(٣٠٩)

---

(٣٠٤) الأعشى الكبير: ديوانه، ص٦.

(٣٠٥) ظافر الحداد: ديوانه، ص٢٤٠.

(٣٠٦) ابن سعيد (علي بن موسى بن محمد): المغرب في حلى المغرب، تحقيق، شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ج١، ٦٧، ابن زيدون: من شعراء الأندلس.

(٣٠٧) الشريف العقيلي: ديوانه، ج٢، ص٢٨٨.

(٣٠٨) أبو زيد القرشي: جمهر أشعار العرب، ص٨٢.

وبيت امرئ القيس الذي أخذ ابن عنين منه معناه فيقول:

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُولَهُ   عليّ بأنواع الهموم ليبتلي[٣١٠]

وشرف الدين الأنصاري في وصفه لطول ليلته، يتكئ على معنى امرئ القيس في معلقته، وهو يصف المعنى نفسه، وكأنّ الشاعر في ذلك يشركنا بالإضافة إلى طول ليله، والهموم المتكالبة عليه، بطول ليل امرئ القيس، وما تضاربت فيه من عواطف وأحاسيس، يقول:

ويحك ياليلُ ألاتصبحُ!   بحرك قد أغرقَ من يَسْبَحُ[٣١١]

والمعنى مقتبس من قول امرئ القيس:

ألا أيُها اللَّيل الطويلُ ألا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ[٣١٢]

وفي رثائه، تاج الملوك الأيوبي، يستقي قول المتنبي في واحدة من مراثيه، إذ وظّف الأيوبي المعنى في نفس الموضوع الذي تناوله المتنبي، يقول:

وبدرَ تمامٍ في الشام دفنتُهُ   وما خِلْتُ أني في الثرى أدفن البدرا[٣١٣]

وقول المتنبي الذي وظفه الأيوبي هو:

ماكنت أحسبُ قبْلَ دفنكَ في الثُّرى   أنَّ الكواكبَ في التراب تغورُ[٣١٤]

ويوظف ابن منقذ في هجائه، صورة الكلْب في مدحية علي بن الجهم، يقول:

وياليته لوكانَ فيه الوفاء   لمالكه بعض الذي هو في الكلب[٣١٥]

---

[٣٠٩] ابن عنين: ديوانه، ص٦.

[٣١٠] حسن السّندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، ص١٤٩.

[٣١١] شرف الدين الأنصاري: ديوانه، ص١٤١.

[٣١٢] حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس: ص١٤٩.

[٣١٣] تاج الملوك الأيوبي: ديوانه، ص١٥٧.

[٣١٤] عبدالله البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج٢، ص٢٣٢.

والمعنى هذا أخذه من قول علي بن الجهم:

أنـــتَ كـــالكلب فـــي الوفـــاء وكـــالتيس فـــي قـــراع الخطـــوب[٣١٦]

ويستقي النظام المصري المعنى من صورة بشار في وصفه لغبار المعركة، والسُيوف تلوح بداخله، فيوظف صورة بشار لبيان صورته، يقول:

كـأنَّ مثـارَ النَّقـع سُـحُبٌ وبيضُهـم بـروق تـلألأ فيـه والـدَّم وابـل[٣١٧]

والمعنى مستقى من قول بشار:

كـأنّ مثـارَ النّقـع فـوق رؤوسـنا وأسـيافنا ليـلٌ تهـاوى كواكبـه[٣١٨]

ويوظف فتيان قصة امرئ القيس مع أمّ جندب ووصفه لصورتها، لبيان ريح دمشق المعطّر من الأزاهير والرّياض، وهو في ذلك يدعونا إلى الحكم عليها كما حكمتْ سكينة لامرئ القيس في وصفه لأم جندب، يقول:

دمشـقُ بـه مـن زارهـا كلَّمـا أتـى يوافـي بهـا طيبـاً وإن لـم يُطيَّـب
فلـو زارهـا قبْـلُ امـرؤُ القيـس لـم يقـل خليلـيَّ مُـرًا بـي علـى أمِّ جنْـدُب[٣١٩]

والمعنى الذي أراده الشاعر أن يُحيلنا إليه مأخوذ من قول امرئ القيس:

ألـم تريـاني كلَّمـا جئـتُ طارقـاً وَجَـدْتُ بهـا طيبـاً وإنْ لـم تطيَّـب[٣٢٠]

---

[٣١٥] ابن منقذ: ديوانه، ١١٣.

[٣١٦] على بن الجهم (أبو الحسن علي بن الجهم ت ٢٤٩هـ): ديوان علي بن الجهم، تحقيق، خليل مردم بك، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ص١١٧.

[٣١٧] العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج٢، ١٤٠.

[٣١٨] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٤٠.

[٣١٩] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص٢٣.

[٣٢٠] حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، ص٤٧.

وهكذا نرى أن الشعراء في توظيفهم لشعر من سبقهم، قد أحالونا إلى قصص وصور ومعاني من عصور سابقة، لنغذي نفسونا وعقولنا بعواطفهم وأحاسيسهم، وتنقلنا عبر أجواء الماضي لنقرنَ به حاضراً، ظل يلتفِتُ إلى تراثه العظيم.

الخاتمة

الخاتمة

مصر والشام من البلاد التي حباها الله بجمال طبيعتها، وتنوع ظواهرها، واعتدال مناخها، فلا يجد الشعراء أنفسهم إلا وقد انطلقت ألسنتهم بوصف ما حولهم، وما يحسون به من متعة في نفسهم، وما هذا البحث إلا تتبع لما وصفوا، وما أبدعوا، نَقَلَ نبض قلوبهم، وسعادة نفوسهم، وأغاني مجالسهم، وإنشاد عواطفهم. والبحث في مجملة تسجيل لشعر الطبيعة، بعدما انصب الدرس والبحث على المعارك والجهاد وما نتج عنها في هذا العصر فبين البحث صور الطبيعة باشكالها المختلفة الحية منها وغير الحية والصناعية، وامتزاج الطبيعة بموضوعات الشعر، ومن خلاله نستطيع ان نلخص أهم النتائج التي تم التوصل إليها بالآتي:

١- ظهرت صورة الصقور والنسور والعقبان من خلال التشابيه الكثيرة التي انتشرت في قصائد المديح ووصف سرعة بعض الحيوانات كالخيل والإبل، ولم يتعرض الشعراء لوصفها مباشرة.

٢- كثر الوصف الاعتباري للقصور والسبب في ذلك يعود إلى كثرت الدول التي ظهرت واختفت في فترة وجيزة، كالفاطمية، والزنكية، والأيوبية.

٣- ظهرت صورة المدن في القسم الشمالي من بلاد الشام ومصر، ولم تظهر صورة المدن في القسم الجنوبي لبلاد الشام، لأن القسم الجنوبي كان يرزح تحت الاحتلال الصليبي، والشعراء صوروا في قصائدهم صور المدن التي يعيشون فيها.

٤- اعتنى الشعراء عناية فائقة في قصائدهم بإبراز صورة الحياة البحرية، بسفنها، ومراكبها، واضطراب بحارها، وأنهارها، والعادات الاجتماعية التي تمتزج في بعض الأحيان بها.

٥- أبرز شعراء مصر صورة النيل في أشعارهم بصورة أوضح من وصف شعراء الشام لأنهارهم، لإعتماد أهل مصر على النيل في حياتهم أكثر من أهل الشام.

٦- ظهرت صورة القلاع والحصون في شعر هذه الفترة بصورة جلية، بسبب قرب الشعراء من الأحداث التي دارت في هذه القلاع.

٧- أعطى شعراء مصر للبحر حيزاً أكبر في أشعارهم من شعراء الجانب الشامي ومردُّ ذلك إلى وقوع السّاحل الشامي تحت الاحتلال الصليبي.

٨- جاءت صور الشعراء تراثية ترتد إلى الماضي عندما يصفون الإبل والخيال والظعن والرحلة والصحراء، ولكن باسلوب ولغة عصرية تلفها الروح الشامية المصرية.

٩- ظهر الكثير من صور الطبيعة من خلال وصف المجالس والمنتزهات والحدائق والبساتين والأديرة والقصور والمدن، فكانت هذه المظاهر معجماً طبيعياً وصناعياً يستمد منه الشعراء صورهم.

١٠- اعتنى الشعر الذي قيل ارتجالاً في هذا العصر غالباً بوصف الطبيعة الحية وغير الحية والصناعية.

١١- أبرزَتْ الحياة الاجتماعية، وما يحياه الناس من فقر وعوز بعض أنواع شعر الطبيعة بأقسامها المختلفة.

١٢- اقتفى الشعراء في بيان صورة الأديرة الجزئيات التي تناولها الشعراء في العصور السابقة.

١٣- ظهرت صورة الأزهار والرياحين واضحة المعالم، وقلما شاعر لم يتطرق إلى وصف نوع من أنواعها.

١٤- تناول الشعراء صورة النجوم والكواكب بالكثير من التوضيح والتصوير، ونقلوا ما يدور في خلد الناس من أفكار بها تخصُّ التنجيم.

١٥- استغل الشعراء شعر الطبيعة للتعبير عن أفكارهم ورؤاهم التي لم يستطيعوا أن يعبروا عنها مباشرة.

١٦- أكثر شعراء مصر من التطرق إلى وصف الحمامات والحشرات وقل عند شعراء الشام.

١٧- مالت لغة شعراء الطبيعة إلى الابتعاد عن الحواشي والغريب، وظهرت سلسلة واضحة قريبة من الفهم.

١٨- اعتمد الشعراء على الأسلوب القرآني والحديث النبوي وأشعار الشعراء في العصور السابقة في بيان صورهم.

١٩- أغرق شعراء هذا العصر قصائدهم بالمحسنات البديعية وأكثروا منها، حتى ليجد المرء نفسه أمام لوحات يتبارى الشعراء في أظهار أنواع البديع المختلفة.

٢٠- ظهرت صورهم على ضربين: ضرب جدد فيه الشعراء وضرب ارتد فيه الشعراء إلى الصور التراثية.

معجم الشعراء مرتب حسب الأحرف الهجائية لشهرة الشعراء

١) الأجل تاج الملوك:

أبو سعيد بوري بن نجم الدين أيوب، ولد سنة "٥٥٦" أخو السلطان صلاح الدينن أصغر أولاد أبيه، أصابه سهم يوم نزول السلطان صلاح الدين على حلب سنة "٥٧٩" فمات، فدفنه السلطان صلاح الدين في مدافن مقام ابراهيم عليه السلام بظاهر حلب.

١- الخريدة: بداية قسم شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ١٣٤.

٢- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ١: ٩٤.

٣- مرآة الزمان، القسم الأول: سبط بن الجوزي: ٨: ٣٧٨.

٤- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٦: ٢٦.

٥- الأعلام: الزركلي: ٢: ٧٧.

٢) ثقة الملك ابن أبي جرادة:

أبو علي الحسن بن علي بن عبد الله بن محمد بن أبي جراده، من أهل حلب، كان أميناً على خزانة الملك العادل نور الدين زنكي، رحل إلى مصر واتصل بالعادل أمير الجيوش، ثم بطلانع بن رزيك، وخدم في ديوان الجيشن وبقي في مصر إلى إن توفي فيها سنة "٥٥١"، وترجم له التغري بردي في النجوم الزاهرة في وفيات "٥٥٥".

١- الخريدة: شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ٢: ١٩٧.

٢- النجوم الزاهرة: ابن التغري بردي: ٥:٣٤٢.

٣- معجم البلدان: ياقوت الحموي: ١٦:١٢.

٣) الحصكفي:

أبو الفضل يحي بن سلامة بن الحسين معين الدين الخطيب الحصكفي، من الكتاب الشعراء، ولد بطنزة من ديار بكر، في سنة "٤٦٠" وصفه العماد الأصفهاني "علامة الزمان في علمه، ومعري العصر في نثره ونظمه، وبل فضل المعري بفضله وفهمه، وبذ الحريري برقة طبعه، وقوة سجعه، وجودة شعره" توفي في سنة "٥٥١" وذكره صاحب النجوم الزاهرة في وفيات "٥٥٣".

١- الخريدة، شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ٢: ٤٧١.

٢- وفيات الاعيان: ابن خلكان، ٦: ٢٠٥

٣- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٥: ٣١٤.

٤- معجم الأدباء: ياقوت الحموي: ٢٠: ٢٣٧.

٥- الأعلام: الزركلي: ٨: ١٤٨.

٤) ابن أبي حصينة:

الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار بن أبي حصينة الأمير ابو الفتح، ولد ونشأ بمعرة النعمان، وانقطع إلى دولة بني مرداس في حلب، مدح عطية المدراسي، فملكه ضيعة، واوفده إلى الخليفة المستنصر بمصر، ومدحه، فمنحه لقب الإمارة، وكتب له سجل بذلك، وأصبح يحضر في زمرة الأمراء، ويخاطب بالإمارة، توفي في سروج في حدود "٥٠٠".

١- فوات الوفيات: الكتبي: ١: ١٤٢.

٢- معجم الأدباء: ياقوت الحموي: ١٠: ٩٠.

٣- تهذيب دمشق: ابن عساكر: ٤: ١٩٠.

٥) الحكيم:

أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت أبو الصلت الأندلسي، كان أديباً فاضلاً حكيماً منجماً، كان فيلسوفاً ماهراً في الطب إماماً فيه، ورد الأسكندرية سكنها مدة، مولده في دانية، ورحل عنها وعمره عشرون سنة إلى مصر زمن الآمر الفاطمي، بقي بها يعلم ويتعلم بها عشرين عاماً، اتصل بالأفضل ابن أمير الجيوش بدر، ولكن الأفضل تغير عليه لوشاية من كاتب الأفضل، وسجنه في سجن المعونة مدة ثلاثة سنين، بعدها رحل إلى يحي بن تميم المعز بن باديس، امير المهدية، حيث توفي بها سنة (٥٢٨)، ومن تصانيفه "الأدوية المفردة" و "تقويم الذهن في المنطق" و "الرسالة

المصرية" و "رسالة عمل الإسطرلاب" و "الديباجة في مفاخر صنهاجة" و "الحديقة في مختار أشعار المحدثين".

١- الوافي بالوفيات: الصفدي: ٩: ٤٠٢.

٢- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ١: ٢٢٠.

٣- الخريد القسم الرابع المغرب: العماد الاصفهاني: ١: ٢٢٣.

٤- مقدمة ديوانه.

٥- الاعلام: الزركلي: ٢: ٢٣.

٦) ابن حيوس:

محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الأمير مصطفى الدولة أبو الفتيان الغنوي الدمشقي، ول بدمشق سنة "٣٩٤"، أحد الشعراء الفحول، روى عنه أبو بكر الخطيب، كان أبوه من أمراء العرب، اتصل بملوك وامراء زمنه ومدحهم، وكان منقطعاً إلى بني مرداس امراء حلب، توفي بحلب سنة "٤٧٣".

١- الوافي بالوفيات: الصفدي: ٣: ١١٨.

٢- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٢:١٢.

٣- مقدمة ديوانه: خليل مردم بك.

٤- الأعلام: الزركلي: ٦: ١٤٧.

٧) الخطير بن مماتي:

القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة ابن أبي مليح مماتي المصري، أحد الكتاب في الديوان الفاضلي، وكان ناظر الدواوين بالديار المصرية وله مصنفات عديدة منها نظم "سيرة السلطان صلاح الدين" ونظم كتاب "كليلة ودمنه" توفي سنة "٦٠٦".

١- وفيات الأعيان: ابن خلكان، ١: ٢١٠.

٢- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٥: ٢٠.

٣- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ١٠٠.

٤- الأعلام: الزركلي: ٧: ٣١٤.

٨- ابن الخياط الدمشقي:

أبو عبد الله أحمد بن محمد المعروف بابن الخياط الدمشقي، ولد سنة "٤٥٠"، قال فيه العماد الأصفهاني: كان جيِّدَ الشعر رقيقه، وله فضلهُ على شعر غيره، فلأجل ذلك قدمتُ ذكرهُ وفضلتُ شعره، وقال فيه ابن عساكر: كان شاعراً فكثراً مجيداً محسناً توفي سنة "٥١٧".

١- الخريدة، بداية شعراء الشام، العماد الأصفهاني: ١٤٢.

٢- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ١: ١٤٥.

٣- تهذيب دمشق: ابن عساكر: ٢: ٧٠.

٤- شذرات الذهب: العماد الاصفهاني: ٤: ٥٤.

٥- مقدمة ديوانه: خليل مردم بك.

٩) ابن الخيمي:

محمد بن علي بن علي بن علي، أبو طالب، مهذب الدين الحلي المعروف بابن الخيمي، ولد في سنة ٥٤٩ بالحلة المزيدية في مصر، وكان عالماً بالآداب واللغة ورواية الشعر، رحل إلى بغداد وسوريا ثم عاد إلى القاهرة، وتوفي فيها سنة (٦٤٢)، له عدة مصنفات وهي "أمثال القرآن" و "المؤانسة في المقياسة" و " المخلص الديواني في الآداب والحساب" و "المطاول" في الرد على المعرفي، و "ترهة الملك في وصف الكلب والكلبيين" و "الرد على الوزير المغربي".

١- فوات الوفيات: الكتبي: ٣: ٤٤١.

٢- بعية الوعاة: السيوطي: ٧٨.

٣- الأعلام: الزركلي: ٦: ٢٨٢.

١٠) ابن الدهان الموصلي الحمصي:

أسعد أبو الفرج عبد الله بن علي بن عيسى بن علي المعروف بابن الدهان ويعرف بالحمصي وينعت بالمهذب، من أهل الموصل، ثم رحل لما ضاقت به السبل إلى مصر ومدح الصالح بن رزيك ثم اتصل بنور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومدحهما، ثم تولى التدريس بحمص ونسب إليها، قال فيه ابن عساكر: أديب فاضل، وشاعر محسنن قدم دمشق للدراسة، قال الحافظ سمع مني صحيح مسلم الوسيط في التفسير للواحدي، له ديوان شعر مطبوع تحقيق عبد الله الجبوري، توفي سنة "٥٨١" وقيل "٥٨٢".

١- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٣: ٥٧.
٢- الخريدة شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ٢: ٢٧٩.
٣- تهذيب تاريخ دمشق: ابن عساكر: ٧: ٢٩٥.
٤- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٤: ٢٧٠.\
٥- الأعلام: الزركلي: ٤: ٧٢.

١١) ابن الذروي:

علي بن يحيى القاضي الوجيه المعروف بابن الذروي، شاعر مجيد، من شعراء مصر له مساجلات شعرية مع ابن قلاقس اوردها ابن ظافر الأزدي في كتابه بدائع البدائه توفي سنة "٥٧٧".
١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ١٨٧.
٢- فوات الوفيات: الكتبي: ٣: ١١٣.

١٢) راجح الحلي:

راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الأسدي أبو الوفاء الشاعر الحلي دخل الشام وجال في بلادها، ومدح ملوكها ونادمهم، وكان فاضلاً جيد النظم عذب الألفاظ حسن المعاني، ومولده في سنة "٥٧٠" ووفاته في دمشق سنة "٦٢٧".
١- الأعلام: الزركلي: ٣: ١٠.

١٣) أبو الرضا سالم:

أبو الرضا سالم بن علي بن أبي أسامة، من شعراء مصر زمن الخليفة الفاطمي الحافظ الذي تولى الخلافة سنة "٥٢٥"، وكان بنو أسامة من أصحاب دواوينه، وينتمي في نسبه إلى أسامة بن زيد، مات قبل ان يدوين شعره، وجاء في الخريدة انه واسطة عقدهم، وتاج مجدهم.
١- الخردية، شعراء مصر: العماد الاصفهاني: ٢: ٦٥.
٢- صبح الأعشى: القلقشندي: ١: ٩٦.

١٤) رضي الدولة أبو سليمان:

داوود بن مقدام بن ظفر المحلي، من بلدة المحلة بالديار المصرية بأسفل مصرن أورد العماد الأصفهاني قول القاضي الفاضل فيه أنّه شاعر مِلءُ فكيه، توفي في عصر العماد الأصفهاني، وكان من معاصري القاضي الجليس بن الحباب.

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ٢: ٤٥.

١٥) ابن سنان الخفاجي:

عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان أبو محمد الشاعر الأديب، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وأبي نصر المازني، وكان شيعياً على رأي الشيعة الإمامية، ولي قلعة عزاز وعصي بها، من مصنفاته "سر الفصاحة" و "ديوان شعر"، توفي مسموماً بقلعته سنة "٤٦٦" وحمل إلى حلب ودفن فيها.

١- فوات الوفيات: الكتبي: ٢: ٢٢٠.

٢- النجوم الزاهرة: ابن التغري بردي: ٥: ٩٧.

٣- دمية القصر: الباخرزي: ١: ١٤٢.

٤- الأعلام: الزركلي: ٤: ١٢٢.

١٦) ابن سناء الملك:

هبة الله بن جعفر بن سناء الملك ابي عبد الله محمد- بن هبة الله السعدي ابو القاسم القاضي السعيد، ولد في مصر سنة "٥٢٥"، من أبرع شعراء مصر في العصر الأيوبي، كتب في ديوان الإنشاء بمصر، وولاه الكامل ديوان الجيش، له عدة مؤلفات هي "دار الطراز" وهو كتاب في الموشحات، و "فصوص الفصول" جمع فيه طائفة من إنشاء كتاب عصره ولا سيما القاضي الفاضل، و "روح الحيوان" اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ، وله ديوان شعر في جزئين مطبوع، "غزوات الرسول" و "نظم الدار في نقد الشعر" انتقد به شعره، توفي سنة " ".

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ٦٤.

٢- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٣: ١٢١.

٣- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٥: ٣٥.

٤- حسن المحاضرة: السيوطي: ١: ٢٣٥.

٥- الأعلام: الزركلي: ٨: ٧١.

١٧) شرف الدين التيفاشي:

أحمد بن يوسف بن أحمد شرف الدين التيفاشي، ولد عام :٥٨٠" في مفصة من قرى أفريقية، ثم رحل إلى مصر لطلب العلم، وعاد إلى بلدة وولي قضائها، ثم عاد إلى القاهرة واستوطنها، له عدة تصانيف منها "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" و "والأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء" و "خواص الأحجار ومنافعها" و "فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب" اختصرها ابن منظور وسمى الجزء الأول منها "نثار الأزهار في الليل والنهار" و "نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب" و "متعة الأسماع في علم السماع"، توفي بالقاهرة سنة (٦٥١).

١- الوافي بالوفيات: الصفدي: ٨: ٢٨٨.

٢- مقدمة كتاب نثار الأزهار لابن منظور.

٣- الأعلام: الزركلي: ١: ٢٧٣.

١٨) الشريف أبو جعفر:

محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني، من طرابلس الشام وله أشعار في مدح بني عمار أصحاب طرابلس، رحل إلى مصر في عهد الأفضل أمير الجيوس بدر الجمالي ومدحه وحظي منه بالعطاء الجزيل، له ديوان شعر، أهداه القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني، توفي في مصر بعد سنة "٥١٥".

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ١٢١.

١٩) شهاب الدين التلعفري:

محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة، الأديب البارع شهاب الدين الشيباني التلعفري الشاعر المشهور، ولد بالموصل سنة "٥٩٣" واشتغل بالأدب، ومدح الملوك والأعيان، وكان خليعاً معاشراً امتحن بالقمار، وكلّما أعطاه الملك الأشرف شيئاً قامر به، فطرده إلى حلب، فامتدح العزيز، فاحسن إليه وقرر له رسوماً، توفي بحماه سنة ط٦٦٧".

١- فوات الوفيات: الكتبي: ج٤: ٦٢.

٢- وفيات الأعيان: ابن خلكان، ٧: ٤٠.

٣- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٥: ٣٤٩.

٤- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٧: ٢٢٠.

٥- الأعلام: الزركلي: ٧: ١٥١.

٢٠) طلائع بن رزيك:

أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح، وزير مصر، كان والياً بمنبة بني خصيب من أعمال صعيد مصر، ثم دخل القاهرة وتولى الوزارة أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة، وكانت ولايته سنة "٥٤٩" تولى الوزارة للعاضد بعد موت الفائز، وتوفي متأثراً بجراحه من رجال خرجوا عليه بتدبير العاضد سنة ٥٥٦".

١- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٢: ٥٢٦.

٢- مرآة الزمان: سبط بن الجوزي: القسم الأول: ٨: ٢٣٧.

٣- النجوم الزاهرة: ابن التغري بردي: ٥: ٣٢٨.

٤- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ١٧٣.

٥- الأعلام: الزركلي: ٣: ٢٢٨.

٢١) ظافر الحداد:

ظافر بن القاسم بن منصور الإسكندري المعروف بظافر الحداد، من شعراء مصر، من أهل الإسكندرية، له مساجلات شعرية مع شعراء عصره، ويعد من أبرز شعراء الطبيعة في هذا العصر، طاف بمدن مصر للتكسب بشعره له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة "٥٢٩".

١- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٢: ٥٤٠.

٢- الخريدة لاشعراء مصر: العماد الاصفهاني: ١:٢.

٣- معجم الأدباء: ياقوت الحموي: ١٢: ٢٧.

٤- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٤: ٩١.

٥- الأعلام: الزركلي: ٣: ٢٣٦.

٢٢) ابن ظافر الأزدي:

علي بن ظافر بن حسين الوزير جمال الدين أبو الحسن الأزدي المصري، ولد سنة ط٥٦٧" تفقه على والده العلامة أبي منصور، درس بمدرسة المالكية بمصر بعد أبيه، ترسل إلى الديوان العزيز، وولي الوزارة للملك الأشرف وولي وكالة بيت المال مدة، له عدة تصانيف هي "الدول المنقطعة" و "بدائع البدائه" و "أخبار الشجعان" و "أخبار الملوك السلجوقية" و "أساس الياسة" و "ونفائس الذخيرة" و "كتاب التشبيهات" و "كتاب من أصيب"، توفي في القاهرة سنة "٦١٣".

١- فوات الوفيات: الكتبي: ٣: ١٨.

٢- الأعلام: الزركلي: ٤: ٢٩٦.

٢٣) أبو العباس أحمد بن المفرج:

من الشعراء المصريين زمن الخليفة الفاطمي الحافظ الذي آلت إليه الخلافة سنة "٥٢٥"، وكان قد أمر الشعراء بالاختصار في قصائدهم، فمدحه أبو العباس ببيتين من الشعر سمح الحافظ بعدها بعودة الشعراء في قصائدهم بما كانوا عليه، والبيتين هما:

أمرتَنا أنْ نصوغَ المدحَ مختصراً ... لم لا أمرتَ ندى كفيكَ يَختَصِرُ

واللـه لا بُدَّ تجري سوابقنا ... حتى يبين لها في مدحكَ الأثرُ

وكان ذا شعر فائق مليح وترسل جيد.

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ٢: ٦٤.

٢٤) أبو علي الأنصاري:

أبو علي حسن بن زيد بن إسماعيل الأنصاري، من شعراء مصر وكتابها، كان من المقدمين في ديوان المكاتبات بمصر.

١- الخريدة، قسم شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ٢: ٦٧.

٢٥) عمارة اليمني:

عمارة بن علي بن زيدان الفقيه ابو محمد الحكمي المذحجي اليمني نجم الدين الشافعي، ولد سنة "٥١٥"، تفقه في مدرسة زبيد مدة أربع سنوات ثم رحل إلىالحج، فسيره صاحب مكة قاسم بن هاشم رسولاً إلى الخليفة الفاطمي الفائز، ثم رجع إلى مكة فزبيد ثم رحل إلى مصر واستوطنها، وكان شافعياً شديد التعصب للسنة، مدح الخلفاء الفاطميين، وصلاح الدين الأيوبي، ثم حاول الإنقلاب على دولة الأيوبيين مع بعض الأعيان، فانكشف أمرهم فأمر صلاح الدين بشنقهم، فصلب سنة "٥٥٩".

١- الوافي بالوفيات: الصفدي: ٢٢: ٣٨٤.

٢- الخريدة شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ٣: ١٠١.

٣- مرآة الزمان، القسم الأول: ابن الجوزي: ٨: ٤٣١.

٤- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٤: ٢٣٤.

٥- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٣: ٤٣١.

٦ النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٦: ٧٠.

٢٦) ابن عنين:

أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري، الكوفي الأصل، الدمشقي المولد، ولد بها سنة "٤٥٩" شاعر مشهور كان خاتمة الشعراء لم ياتي بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه، كان عزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب، كان هجاءً، يلهو بأعراض الناس، نفاه لذلك صلاح الدين من دمشق، طاف على إثرها بالبلاد من الشام إلى العراق إلى الجزيرة واذربيجان وخرسان وغزنة وخوارزم، وما وراء النهر ثم عاد إلى الحجاز والديار المصرية، وعاد بعد موت صلاح الدين إلى دمشق وكتب إلى الملك العادل قصيدة يستعطفه فيها ويذكر ما لاقاه من ألم الغربة، تولى الوزارة في دمشق في ولاية الملك المعظم والملك الناصر بن المعظم، توفي بدمشق سنة "٦٠٣"

١- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٥: ١٤.

٢- النجوم الزاهر: ابن تغري بردي: ٦: ٢٩٣.

٣- مرآة الزمان "القسم الثاني": ابن الجوزي: ٨: ٦٩٦.

٤- مقدمة ديوان ابن عنين.

٢٧) ابن غلبون الصوري:

أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب غلبون الصوري شاعر من بلاد الشام من أهل صور، ولد في صور سنة "٣٣٩" قال فيه العماد الحنبلي "أحد المتقنين الفضلاء المجيدين الأدباء، شعره بديع الألفاظ، حسن المعاني رائق الكلام، مليح النظام من محاسن أهل الشام" توفي في صور سنة "٤١٩" عن عمر ٨٠ عاماً.

١- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ١: ٣٠٨.

٢- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٤: ٢٧١.

٣- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٣: ٢١١.

٤- الأعلام: الزركلي: ٤: ١٥٢.

٢٨) فتيان الشاغوري:

فتيان بن علي بن فتيان الأسدي الحريمي المعروف بالشاغوري، المعلم المشهور، كان فاضلاً شاعراً، خدم الملوك ومدحهم، وعلم أولادهم وتوفي ببلدته الشاغور سنة "٦٢٧" ودفن بمقابر الباب الصغير، ويعد من شعراء دمشق المشهورين، له عدة مقطوعات في شعر الطبيعة وصف بها طبيعة دمشق. وذكره ابن خلكان من الذين توفوا في سنة "٦١٥".

١- النجوم الزاهرة: ٦: ٢٤٤.

٢- وفيات الأعيان: ١: ٤٠٧.

٣- الأعلام: الزركلي: ٥: ١٣٧.

٢٩) قاسم الواسطي:

القاسم بن القاسم بن عمر بن منصور أبو محمد الواسطي، ولد بواسط سنة "٥٥٠" أديباً نحوياً، لغوياً، فاضلاً، مصنفاً، صنف عدة كتب هي "شرح اللمع لابن جني"، "شرح التصريف المملوكي"، "فعلتَ وأفعلت بمعنى" على حروف المعجم، "شرح المقامات"، "رسالة فيما أخذ على الرشيد النابلسي في قصيدة نظمها في الإمام الناصر، وله شعر، توفي في حلب سنة "٦٢٦".

١- وفيات الوفيات: الكتبي: ٣: ١٩٢.

٢- معجم البلدان: ياقوت الحموي: ١٦: ٢٩٦.

٣- بغية الوعاة: السيوطي: ٣٨٠.
٤- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٤: ٣٠١.
٥- الأعلام: الزركلي: ٥: ١٨٠.

٣٠) القاضي أبو المجد:

محمد بن عبد الله بن محمد أبي المجد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان ولد بمعرة النعمان، هو حفيد أخ أبي العلاء المعري، ولي قضاء المعرة إلى ان دخلها الفرنج، فانتقل إلى شيرز وتوفي فيها سنة ط٥٢٣"، له ديوان شعر ورسائل.

١- الخريدة، شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ج٢: ٧.
٢- الوافي بالوفيات: الصفدي: ٣: ٣٣٤.
٣- الأعلام: الزركلي: ٦: ٢٢٨.

٣١) القاضي الجليس:

عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي السعدي الصقلي المعروف بالقاضي الجليس أبو المعالي، سمي بالجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الخليفة الفائز القرآن الكريم، والآداب، ويجالس الخلفاء من بني عبيد، تولى ديوان الإنشاء للخليفة الفاطمي الفائز مع الموفق بن الخلال، قال فيه العماد: كان أوحد عصره في مصره، نظماً ونثراً وترسلاً وشعراً، توفي في القاهرة سنة" ٥٦١".

١- فوات الوفيات: الكتبي: ٢: ٣٣٢.
٢- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ١٨٩.
٣- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٥: ٣٥٢.
٤- حسن المحاضرة: السيوطي: ١: ٣٢٤.
٥- الأعلام: الزركلي: ٤: ١٦.

٣٢) ابن قاضي دارا:

عبد الله بن المختار بن محمد بن شريف أبو الفتح المعروف بابن قاضي دارا، من شعراء مصر، مشرف بدواوين قوص وأسوان من قبل الملك الكامل ناصر الدين أبي المعالي محمد بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، عالم في الكتابة والترسل والشعر، توفي سنة (٦٤٤).

١- قلائد الجمان: ابن الشعار الموصلي: ٣: ١٨٢.

٣٣) قمر الدولة ابن دواس:

جعفر بن علي بن دواس أبو طاهر الكتامي، المعروف بقمر الدولة، ولد ونشأ بطرابلس الشام، رحل إلى مصر وأصبح من اهلها، ورحل إلى بغداد وأقام بها مدة عند قسيم الدولة البرسيقي، وكان نديماً له، قال فيه الكتبي كان شاعراً رشيف الألفاظ عذب الإيراد، لطيف المعاني، وله في الغناء وضرب العود طريقة حسنة، توفي بعد الخمسمائه، ويذكره ابن شاكر الكتبي في عيون التواريخ أنه توفي سنة "٥٢٠".

١- عيون التواريخ: الكبتي: ١٢: ١٧٩.

٢- الخريدة، شعر مصر: العماد الأصفهاني: ٢: ٢١٨.

٣- فوات الوفيات: الكبتي: ١: ٢٨٧.

٣٤) ابن القيسراني:

أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر بن داخر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي الخالدي الحلبي، الملقب شرف المعالي عدة الدين المعروف بابن القيسراني، ولد بعكاسنة."٤٧٨" قرأ الأدب على توفيق بن محمد وأبي عبد الله ابن الخياط الشاعر، سمع بحلب من الخطيب ابي طاهر هاشم بن أحمد الحلبي، توفي في دمشق سنة (٥٤٨).

١- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٤: ٤٥٨.

٢- مرآة الزمان، القسم الأول: ٨: ٢١٣.

٣- الشذرات: العماد الحنبلي: ٤: ١٥٠.

٤- معجم الأدباء: ياقوت الحموي: ١٩: ٩٤.

٥- الأعلام: الزركلي: ٧: ١٢٥.

٣٥) مجبر الصقلي

مجبر بن محمد بن عبد العزيز بن بن عبد الرحمن بن الحباب الأموي، ولد بصقلية عام "٤٦٤"، رحل إلى مصر سنة "٤٨١"، توفي قبل "٥٤٠"، ويعد من المصريين بحكم النشأة والشهرة في مصر.

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ج٢: ٨٢.

٣٦) أبو محمد الحريري:

سعيد بن عبد الله أبو محمد الحريري، من شعراء الشام من أهل حلب، روى عنه القاضيات: بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن سعيد، وأبو القاسم عمر بن أحمد بن أبي جرادة بحلب، مدح الملك الظاهر ووزيره نظام الدين أبي المؤيد، وقادتهمن وكتابهم، وأمرائهم، توفي في حلب سنة "٦٠٩" ودفن بمقام ابراهيم عليه السلام.

١- قلائد الجمان: ابن الشعار الموصلي: ٣: ١٦.

٣٧) أبو محمد المقدسي:

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة بن مقدام بن نصر ابن عبد الله، أبو محمد المقدسي، ولد سنة "٥٤٣" في جماعيل من قرى نابلس بفلسطين وتعلم في دمشق، ورحل إلى بغداد سنة "٥٦١" فاقام فيها أربع سنوات سمع فيها الحديث من أبي الفتح بن البطي، ويحي بن ثابت، وتفقه على مذهب الإمام أحمد رضى الله عنه، ثم رجع إلى دمشق وحدث بها وكتب تصانيف عدة هي "الانتصار في أسماء الأنصار"، "التبيين في أسماء المهاجرين" "الكافي في الفقه"، "المغني في الفقه"، "المقنع"، العمد"، 'التوابين" "مختصر غريب أبي القاسم بن سلام"، توفي في دمشق سنة "٦٠٧".

١- قلائد الجمان: ابن الشعار الموصلي: ٣: ٦٣.

٢- البداية والنهاية: ابن كثير: ١٢: ١٩٩.

٣- النجوم الزاهرة: ابن التغري بردي: ٦: ١٧٨.

٤- شذرات الذهب: الحنبلي: ٥: ٨٨.

٥- فوات الوفيات: الكتبي: ٢: ١٥٨.

٦- الأعلام: الزركلي: ٤: ٦٧.

٣٨) محمد بن هاني:

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن مفضل الأزدي الأندلسي، من نسل ابن هاني شاعر المغرب، وهو معروف بالنظم المهذب، هجا الموفق بن الخلال والخليفة الفاطمي الحافظ، فالضعف له ابن الخلال، وفي إحدى مدحياته للخليفة الحافظ ذكر ابن الخلال الخليفة بما قال فيه ابن هاني. فقطع الخليفة صلاته به ولم يحصل له انتعاش إلا بعد موت الخليفة، توفي في أواخر أيام طلائع بن رزيك قبل سنة "٥٦٠".

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ٢٤٨.

٢- الأعلام: الزركلي: ٥: ٢٩٥.

٣- بدائع البدائه: ابن ظافر الأذري: ٢٢٤.

٣٩) ابن المضيف:

حيدرة بن عبد الظاهر بن الحسن بن علي الربعي الضيّف، من دعاة الفاطميين، ومن الغلاة لهم في الولاء، له مدائح كثيرة في الآمر منصور بن أحمد، وكاد العماد ان يطرحه من خريدته لأنه اساء شرعاً، بل أظهر في شعره كفراً على قول العماد، ولكنه كان حسن الشعر في طريقته وله معارضات مع ابن هاني المغربي.

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ١: ٢٨٥.

٢- الأعلام: الزركلي: ٢: ٢٩١.

٤٠) أبو المعافي بن المهذب:

سالم بن عبد الجبار بن محمد بن المهذب أبو المعافى، شاعر من أهل المعرة بالشام، عاصر مسلم بن قريش أمير حلب، وهجاه، وكانت وفاة مسلم بن قريش سنة "٤٧٧".

١- الخريدة، شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ٢: ١٢٨.

٤١) ابن مكنسة:

إسماعيل بن محمد ابو الظاهر المعروف بابن مكنسة، مصري من أهل الأسكندرية، شاعر مكثر، توفي سنة "٥١٠".

١- فوات الوفيات: الكبتي: ١: ١٩٤.

٢- خريدة القصر: شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ٢: ٢٠٣.

٣- الوافي بالوفيات: الصفدي: ٩: ٢١٣.

٤- الأعلام: الزركلي: ١: ٣٢٣.

٤٢) الملك الأمجد:

بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه، بن أيوب، السلطان الملك الأمجد الدين ابو المظفر، صاحب بعلبك، ولي بعلبك بعد أبيه، أخذها منه الأشراف موسى، وسلمها إلى أخيه الصالح إسماعيل سنة "٦٢٧"، فرحل إلى دمشق وأقام بها، قتله مملوك له سنة "٦٢٨" وذفن بتربة والده على الشرف الشمالي.

١- وفيات الوفيات: الكبتي: ١: ٢٢٦.

٢- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ٢: ٤٥٣.

٣- مرآة الزمان: ابن الجوزي: القسم الثاني: ٨: ٦٦٦.

٤- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٥: ١٢٦.

٥- النجوم الزاهرة: ابن التغري بردي: ٦: ٢٤٥.

٦- البداية والنهاية: ابن كثير: ١٣: ١٣١.

٧- الأعلام: الزركلي: ٢: ٧٦.

٤٣) ابن المنجم:

نشو الدولة علي بن مفرج المنجم، من شعراء مصر، ولد عام "٥٤٩"، وصفه العماد الأصفهاني بقوله: بمصر شاب مبرز في الشعر مجيد، ولكن كان فيه لهو ومجون حتى ضج الناس فيه، فنفي إلى عيذاب باليمن ومن ثم رحل إلى الشام في خدمة المعظم توران شاه ابن أيوب ملك اليمن، وله مساجلات كثيرة مع ابن الذروي وابن قلاقس بداهة، نقل جزء منها ابن ظافر الأزدي في كتابه بدائع البدائه، توفي سنة "٦٢٠".

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ج١: ١٦٨.

٢- حسن المحاضرة: السيوطي: ١: ٣٢٦.

٤٤) ابن منير الطرابلسي:

أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذب الملك عين الزمان، شاعر مشهور، نشأ سنة "٤٧٣". نشأ في طرابلس الشام وإليها ينسب، تأثر بوالده الذي كان ينشد الأشعار ويغني في

أسواق طرابلس، حفظ القرآن وتعلم اللغة والآداب، وقال الشعر، قدم دمشق وسكنها، وكان رافضياً كثير الهجاء خبيث اللسان ولما كثر منه سجنه بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق مدة وعزم على قطع لسانه، وشفع فيه يوسف بن فيروز حاجبه، فنفاه، فلما توفي، وتسلم زمام الأمر ابنه إسماعيل عاد إلى دمشق وبقي بها مدة إلى ان تغير عليه الوالي وأراد صلبه، فهرب إلى حماة وشيزر وحلب، ثم قدم إلى دمشق مع نور الدين زنكي، ثم رجع إلى حلب مع العسكر، وكان بينه وبين الشاعر ابن صغير القيسراني مكاتبات ومهاجاة، توفي في حلب سنة "٥٤٨" ودفن بجبل جوشن.

١- الوافي بالوفيات: الصفدي: ٨: ١٩٣.

٢- تهذيب تاريخ دمشق: ابن عساكر: ٢: ٩٧.

٣- خريدة القصر، شعراء الشام: العماد الأصفهاني: ١:٧٦.

٤- وفيات الأعيان: ابن خلكان: ١: ١٣٩.

٥- النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي: ٥: ١٩٩.

٦- مرآة الزمان (القسم الأول): ابن الجوزي: ٨: ٢١٧.

٧- الأعلام: الزركلي: ١: ٢٦٠.

٤٥) ابن النبيه:

ابن النبيه علي بن محمد بن الحسن بن يوسف بن يحيى، كمال الدين ابن النبيه المصري، مدح بني أيوب، واتصل بالملك الأشرف، موسى، وكتب له الإنشاء وارتحل إلى الشام، وسكن نصيبين وبها توفي سنة "٦١٩"، له ديوان شعر صغير تحقيق الدكتور عمر أسعد.

١- فوات الوفيات: الكبتي: ج٣: ٦٦.

٢- شذرات الذهب: العماد الحنبلي: ٥: ٨٥.

٣- حسن المحاضرة: السيوطي: ١: ٥٦٦.

٤٦) هبة الله بن وزير:

من شعراء مصر، معاصر لابن الذروي وابن قلاقس، لهم مساجلات شعرية، توفي بعد سنة "٥٧٣" وقبل سنة "٥٧٦"، قال فيه العماد الأصفهاني إنه من أهل الإجادة.

١- الخريدة، شعراء مصر: العماد الأصفهاني: ٢: ١٤٣.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع مرتبة حسب الأحرف الهجائية لاسم الشهرة

١.إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر العربي، ط٤، دار القلم، بيروت.

٢.أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط٢، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩.

٣.أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣.

٤.أحمد محمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، ١٩٦١.

٥.الإصطخري: (إبراهيم بن محمد ت ٣٥٠هـ): المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠.

٦.الأعشى: (ميمون بن قيس ت٦٢٩م): ديوان الأعشى، تحقيق محمد محمد حسين مكتبة الآداب، القاهرة.

٧.الأعلم الشنتمري: (يوسف بن سليمان ت ٤٧٦هـ): شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

٨.أنور أبو سويلم: الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، ط١، دار العلوم، الرّياض، ١٩٨٣.

٩.ابن بطوطة: (محمد بن عبد الله ت ٧٧٩هـ): رحلة ابن بطوطة، تحقيق على المستنصر، ط٤، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٥.

١٠.البهاء زهير: (زهير بن علي ت ٦٥٦هـ): ديوانه البهاء زهير، تحقيق، محمد طاهر الجيلاوي، محمد أبو الفضل، ط٢، دار المعارف، ١٩٨٢.

١١.تاج الملوك الأيوبي:(بوري بن سعيد ت٥٥٦هـ): ديوان تاج الملوك الأيوبي، تحقيق محمد عبد الحميد، ط١، مطبعة هجر، مصر، ١٩٨٨.

١٢.ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف بن تغري بردي ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

١٣.التلعفري: (محمد بن يوسف ت٦٧٥هـ): ديوان التلعفري، تحقيق محمد سليم الأُنسي، ط١، المطبعة الأدبية، بيروت.

١٤.جابر عصفور: الصُورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤.

١٥.الجاحظ:(عمر بحر ت٢٢٥هـ): مجموعة رسائل الجاحظ، رسالة العشق، تحقيق محمد ساسي مطبعة التقدم، مصر، ١٣٢٥.

١٦.الجرجاني:(علي بن عبد العزيز ت٣٦٦هـ): الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل، وعلي محمد البيجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٧.حازم عبد الله خضر: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧.

١٨.حسام النعيمي: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠.

١٩.حسن السُندسي: شرح ديوان امريء القيس، ط٧، المكتبة الثقافية، ١٩٨٢م.

٢٠.ابن أبي حصينة: (الحسن بن عبد الله ت٤٥٧هـ): ديوان ابن أبي حصينة، تحقيق محمد أسعد طلس، ط١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٦م.

٢١.الحكيم:(أمية بن عبد العزيز ت٢٥٩هـ): ديوان الحكيم، ط١، دار بوسلامة، تونس، ١٩٧٩م.

٢٢.الحميري: (محمد بن عبد المنعم ت٧٢٧هـ): كتاب الروض المعطار في خير الأمصار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.

٢٣.ابن حيوس: (محمد بن سلطان ت٤٧٣هـ): ديوان ابن حيوس، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م.

٢٤.ابن خلكان: (احمد بن محمد ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.

٢٥.ابن الخياط:(ابوعبد الله احمد بن محمد ت٥٧٥هـ): ديوان ابن الخياط، تحقيق، خليل مردم بك، ط١، المطبعة الهاشمية، بيروت، ١٩٥٨م.

٢٦.الدميري:(محمد بن موسى ت٨٠٨هـ): حياة الحيوان الكبرى، المطبعة العامرية، مصر، ١٣٠٦هـ.

٢٧.ابن الدهان:(عبد الله بن علي ت ٥٨١هـ):ديوان ابن الدهان، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

٢٨.رشدي الحسن: شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار عمار، عمان، ١٩٨٨م.

٢٩.ابن رشيق القيرواني: (الحسن بن رشيق ت٤٥٦هـ):العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م.
٣٠.الزركلي (خير الدين الزركلي): الأعلام، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م.
٣١.ابو زيد القرشي:(محمد بن أبي الخطاب ت ١٧٠هـ): جمهرة أشعار العرب، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٨م.
٣٢.ساسين سيمون عساف: الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيعن بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
٣٣.ابن الساعاتي:(علي بن رستم ت ٦٠٤هـ): ديوان ابن الساعاتين تحقيق محمد عبد الحق، ط١، مطبعة الجيل، بيروت، ١٩٧٥م.
٣٤.سبط ابن الجوزي:(يوسف بن قزاوغلي ت ٦٥٤هـ): مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند، ١٩٥٢م.
٣٥.ابن سعيد (علي بن موسى ت هـ):المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة.
٣٦.ابن سيناء الملك (هبة الله بن جعفر بن محمد ت ٦٠٨هـ): ديوان ابن سناء الملك، تحقيق محمد عبد الحق، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥.
٣٧.ابن سنان الخفاجي:(عبد الله بن محمد ٤٦٦هـ): ديوان ابن سنان الخفاجي، تحقيق عبد الرزاق حسين، ط١، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.
٣٨.السيوطي:(جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ): أ) حسن المحاضرة، تحقيق مصطفى فهمي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٠٣م. ب) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩م.
٣٩.ابن شاكر الكتبي :(محمد بن أحمد ت٧٦٤هـ): أ) فوات الوفيات، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م. ب) عيوان التواريخ، تحقيق فيصل السامر، ونبيله عبد المنعم، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠م.
٤٠.ابن شامة المقدسي (عبد الرحمن بن إسماعيل ت ٦٦٥هـ): الرّوضتين في أخبار الدولتين النّورية والصلاحية، تحقيق، محمد حلمي، ومحمد أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.
٤١.ابن شداد:(القاضي بهاء الدين ابن شداد ت ٦٣٢هـ): النوادر السّلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٢.ابن شداد:(محمد بن علي ت٦٨٤هـ): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق، يحي عبارة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م.
٤٣.شرف الدين الأنصاري:(عبد العزيز بن محمد ت٦٦٢هـ):ديوان شرف الدين الأنصاري، تحقيق عمر موسى، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٧م.
٤٤.الشريف العقيلي:(علي بن الحسين بن حيدرة ت٤٥٠هـ): ديوان الشريف العقيلي، تحقيق زكي محاسني، ط١، دار إحياء الكتب العربية.
٤٥.ابن الشعار الموصلي (كمال الدين المبارك بن الشعار ت٦٥٤هـ): قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق، نوري حموري القيسي، محمد نايف الدليمي، ط١، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٩٢م.
٤٦.صفاء خلوصي: فن التقطيع الشعري والقافية، ط٤، دار الكتب، بيروت، ١٩٧٤م.
٤٧.الصفدي (صلاح الدين خليل ان أيبك ت ٧٧٤هـ): الوافي بالوفيات، ط٢، دار فرانز شتاينز، فيسبان، ١٩٦٢م.
٤٨.الصوري (عبد المحسن بن محمد بن أحمد ت ٤١٩هـ): ديوان الصُّوري، تحقيق، مكي السيد، وشاكر هادي، ط١، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.
٤٩.الطباخي الحلبي (محمد راغب الطباخي الحلبي): أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط٢، دار القلم العربي، القاهرة، ١٩٨٨م.
٥٠.طلائع بن رزيك (أبو الغارات الملك الصالح طلائع بن رزيك ت ٥٥٦هـ): ديوان طلائع بن رزيك، تحقيق محمد هادي، ط١، مطبعة النِّعمان، النجف، ١٩٦٤م.
٥١.ابن ظافر الأزدي (علي بن ظافر ت ٦١٣هـ): بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
٥٢.ظافر الحداد (ظافر بن القاسم ت ٥٢٨هـ): ديوان ظافر الحداد: تحقيق حسين نصار، ط١، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٩م.
٥٣.عبد الجليل عبد المهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ١٩٨٩م.
٥٤.عبد العزيز الأهواني: ابن سيناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
٥٥.عبد العظيم علي القناوي: الوصف في الشعر العربي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٤٩م.
٥٦.عبد الله الطيب: المرشد في فهم أشعار العرب، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٥٧.العجلوني (إسماعيل بن محمد ت ١١٦٢هـ): كشف الخفاء ومزيل الألباس عمّا اشتهر من أحاديث على السنة الناس، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.

٥٨.ابن العديم (كمال الدين عمر بن أبي جرادة ت٦٦٠هـ): بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، ط١، مطبعة مديرية البعث، دمشق، ١٩٩٨م.

٥٩.عرقلة الكلبي (أبو الندى حسان بن نمير ت ٥٦٧هـ): ديوان عرقلة الكلبي، تحقيق أحمد الجندي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢.

٦٠.عز الدين إسماعيل: أ) الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الثقافة، بيروت.
ب) التفسير النفسي للأدب، دار العودة، ودار الثقافة، بيروت.

٦١.ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن ت ٥٧١هـ) تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق عبد القادر بدران، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

٦٢.علي البطل: الصورة الفنية في الشعراء العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م.

٦٣.علي الجندي، الشعراء وإنشاد الشعر، دار المعارف، مصر،١٩٦١م.

٦٤.علي بن الجهم (ابو الحسن علي بن الجهم ت ٢٤٩هـ): ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

٦٥.العماد الأصفهاني (محمد بن صفي الدين ت ٥٩٧هـ):
أ) ديوان العماد الأصفهاني، تحقيق ناظم رشيد، مطابع جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٣م.
ب) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين شوقي ضيف، إحسان عباس، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م.
جـ) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق، شكري فيصل، ط١، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩م.
د) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب، تحقيق عمر الدسوقي، وعلي عبد المنعم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

٦٦. العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب، ط٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.

٦٧. العمري (ابن فضل الله العمري ت ٧٤٩هـ): مسالك الأبصار، تحقيق أحمد زكي باشا، ط١، مطبعة الكتب المصرية، ط١، ١٩٢٤م.

٦٨. ابن عنين(ابو المحاسن محمد بن نصر الله ت ٦٣٠هـ): ديوان ابـن عنيـن، تحقيق خليل مردم بك، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٤٦.

٦٩. فتيان الشاغوري (فتيان بن علي ت ٦١٥هـ): ديـوان فتيـان الشـاغوري، تحقيـق، أحمد الجندي ط١، المبطعة الهاشمية، دمشق، ١٩٧٦م.

٧٠. ابو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ): الأغـاني، دار الفكر للجميـع، بيروت، ١٩٧٠م.

٧١. القاضي الفاضل (عبد الرحمن بن علـي البيساني ت٥٩٦هـ): ديـوان القـاضي الفـاضل، تحقيق أحمد بدوي، ط١، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦١م.

٧٢. ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ): الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، دار المعـارف، مصر، ١٩٨٢م.

٧٣. قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الغزل في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة، بيروت.

٧٤. قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ): نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعـم خفاجـة، دار الكتب العلميـة، بيروت.

٧٥. ابن قسيم الحموي (شرف الدين مسلم بن الخضر ت ٥٤٢هـ): ديوان ابن قسيم الحموي، تحقيق، سعود محمود عبد الجبار، ط١، دار البشير، عمان، ١٩٩٥م.

٧٦. ابن قلاقس (نصر الدين بن عبد الله بن مخلوق ت ٥٦٧هـ): ديـوان ابـن قلاقس، تحقيـق سـهام الفريح، ط١، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٨م.

٧٧. القلقشندي (أحمـد بـن علـي ت ٨٢١هـ): صبـح الأعشـي فـي صناعـة الإنشـا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

٧٨. ابن كثير (ابو الفداء إسـماعيل بـن عمـر ت ٧٧٤هـ): البدايـة والنهايـة، ط٤، مكتبـة المعـارف، بيروت، ١٩٨١م.

٧٩. ابن الكلبي (هشام بن محمد ت ٢٠٤م): أنساب الخيل في الجاهلية والإسـلام وأخبارهـا، تحقيـق أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٦م.

٨٠. ماهر مهدي هلال: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الرحيـة، بغداد، ١٩٨٠م.

٨١. المتنبي (أحمد بن الحسين، ت ٣٥٤هـ): ديـوان المتنبـي بشـرح البرقوقي، دار الكتـاب العربـي بيروت، ١٩٨٠م.

٨٢. محمد فوزي الهيب: الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب، ط١، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٧م.

٨٣. المرزوقي (احمد بن محمد ت ٤٢١هـ): الأزمنة والأمكنة، ط١، مطبعة دائرة المعارف، الهند، ١٣٣٢.

٨٤. مصطفى ناصف: نظرية المعنى في النقد الأدبي، ط٢، دار الأندلس، ١٩٨١م.

٨٥. المقريزي (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت.

٨٦. الملك الأمجد (بهرام شاه بن فرخ شاه بن أيوب ت ٦٢٧هـ): ديوان الملك الأمجد، تحقيق ناظم رشيد ط١، مطبعة وزارة الأورقاف، العراق، ١٩٨٣م.

٨٧. ابن منقذ (أسامة بن منقذ ت ٥٨٤هـ):

أ) ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد بدوي، ط١، دار عالم الكتب.

ب) المنازل والدّيار، ط١، المكتبة الإسلامية للطباعة النشر، ١٩٦٥م.

٨٨. نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، ط٢، مكتبة النهضة، مطبعة التضامن، بغداد، ١٩٦٥م.

٨٩. نبيل إبراهيم أبو حلمَ: اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥م.

٩٠. النعيمي (عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ): الدراس في تاريخ المدارس تحقيق، جعفر الحسني، ط١، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥١م.

٩١. النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت٧٣٣هـ): نهاية الأدب في فنون العرب، مطابع كوستاتسوماس، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

٩٢. أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله ت ٣٩٥هـ): الصناعتين، تحقيق، مفيد نحلة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

٩٣. يحيى عبد الأمير شامي: النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م.

٩٤. ياقوت الحموي: (ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ):

أ) معجم الأدباء، تحقيق، أحمد فريد رفاعي، ط١، دار المأمون، مصر.

ب) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م.